

ج. م. هسي

# العالم البيزنطي



ترجمة وتعليق وتقديم

دكتور رافت عبد الحميد



دار المعارف





ج. م. هسي

# العالم البيزنطي

ترجمة وتقديم وتعليق

دكتور رافت عبد الحميد

كلية الآداب - جامعة عين شمس

الطبعة الثالثة

١٩٨٤



دار المعارف

---

الفاشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج ٠ م ٠ ع



الى روح توفيق  
ذكرى ووفاء ...







## تقدير وعرفان

« خالص تقديري وعرفاني أقدمه الى  
استاذي الفاضل الأستاذ الدكتور جوزيف نسيم  
يوسف استاذ تاريخ العصور الوسطى بآداب  
الاسكندرية لتشجيعه اياي على ترجمة هذا  
الكتاب عندما عرضت الفكرة على سيادته ،  
والأستاذ الدكتور فاروق شلبي استاذ ورئيس  
قسم الاقتصاد بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ،  
واستاذي الكريم الدكتور اسحق عبيد  
استاذ العصور الوسطى بآداب عين شمس ،  
والزميلين الصديقين الدكتور محمد حمدي  
ابراهيم استاذ مساعد الدراسات اليونانية  
واللاتينية بآداب القاهرة ، والدكتور احمد  
عبد الرازق استاذ مساعد التاريخ والحضارة  
الاسلامية بآداب عين شمس ، لما بذلوه من جهد  
فاق جهدي ، ودقة بالغة صقلت فكري ، حتى  
يخرج الكتاب في الصورة التي املته عليها  
ورجوتها له ، »

رائت عبد الحميد







## بسم الله الرحمن الرحيم تقديم الطبعة الثالثة

خلال الأعوام الثلاثة الماضية - شغلت عن بيزنطة .. بأوروبا .. وأغرقت نفسى فى صراعاتها العنيفة بين قوتيهما المستبقتين إلى السيادة .. البابوية والإمبراطورية .. وقواها العديدة المتطلعة إلى المكانة المرموقة فى ظل نظام إقطاعى متميز ، عرفت به العصور الوسطى الأوروبية .. الملوك .. الأمراء .. رجال الاكليروس .. المدن التجارية . وقلبت فكرى بين الوثائق العديدة ، التى خلفها صانعو الأحداث خلال الفترة الممتدة من القرن التاسع إلى الثالث عشر . وتمخض ذلك عن بحوث ثلاثة حملت عناوين « المشكلة الإيطالية فى السياسة الألمانية » و « الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب » و « السمو البابوى بين النظرية والتطبيق » .

حتى إذا أفقت من هذا الاستغراق .. علمت بكل السعادة ، بنفاد الطبعة الثانية من كتاب « العالم البيزنطى » . وكان هذا دافعاً لى ، جذبني من جديد إلى مراجعة ترجمتى وتقديمى للكتاب ، وإلى أن أعيش مرة أخرى داخل بيزنطة التى أحببتها ، وعلقت بها نفسى ، كى أقدم لقرائى الأعزاء هذا الكتاب فى طبعته الثالثة .

وإنى إذ أشكر للمهتمين بالدراسات البيزنطية ، شغفهم بـ « العالم البيزنطى » على هذا النحو .. أعدهم وعداً حسناً ، أن يكون هذا باعثاً لى على بذل مزيد من الجهد فى ميدان الدراسات البيزنطية ، التى تفتقر إليها المكتبة العربية .

والله أسأل التوفيق والسداد .

رأفت عبد الحميد

القاهرة

أغسطس ١٩٨٤





## تقديم الطبعة الثانية

عندما اتممت منذ خمس سنوات ترجمة هذا الكتاب الى العربية ، وقدمت له وعلقت عليه ، لم يكن يدور بخلدى ساعته انه سيلقى هذا الاستحسان من جانب المشتغلين بالدراسات البيزنطية ، ويعود هذا الشعور الى الصعوبة التى قد تكتنف طريق قارئه فى اصله الانجليزى ، اذ ان مؤلفه تكتب للمتخصصين جدا فى هذا الميدان ، لذا جاء الكتاب شديد الاجاز ، خاليا من التفاصيل الدقيقة ، خاصة فى نصفه الاول الذى يتناول الجانب السياسى على امتداد التاريخ البيزنطى الذى يمتد الى الف ومائة عام وينيف . وهذا النصف يقع فى ثمانين صفحة من القطع المتوسط ، بينما الصفحات الثمانون الاخرى ، التى تشكل النصف الثانى ، تعالج الجوانب الحضارية .

واذا كان الكتاب قد خلا من التفاصيل ، فقد امتلا بالخطوط العريضة والآراء العميقة المتأنية ، وتميز بالنظرة الفاحصة الدقيقة .

والكتاب بما يضمه بين دفتيه من معالجة النواحي السياسية والمظاهر الحضارية للعالم البيزنطى ، رغم العدد القليل لصفحاته ، كان بلا شك دافع اقدام على ترجمته ، وفى الوقت نفسه مبعث الاستحسان لدى دارسى التاريخ البيزنطى ، اذ تكاد المؤلفات التى صدرت فى هذا المجال ، يلقي مؤلفوها بثقلهم فى الجانب السياسى وحده ، ولم يخرج عن هذه القاعدة الا نفر قليل فى مقدمتهم عالم البيزنطيات الأشهر « نورمان بينز »

Norman Baynes فى مؤلفه The Byzantine Empire

والمؤرخ الشهير « ستفن رانسيمان » Steven Runciman فى كتابه

Byzantine civilization



وازاء هذا الايجاز الشديد وجدت لزاما على تفصيل ما غمض ، لذا امتلأت صفحات الترجمة بالحواشى التوضيحية المفصلة ، ففدا الكتاب فى صورته العربية ضعف نسخته الاصلية فى الانجليزية . واعتمدت فى ذلك على الكثير من المصادر والعديد من المراجع التى امدتنى بالمادة العلمية اللازمة لهذه التفاصيل ، والتى اثبتتها فى آخر الكتاب .

وقد الحق المؤلف كتابها بمجموعة من المصادر والمراجع خاصة بكل فصل من فصول الكتاب ، عمدت فى الترجمة العربية الى الحاق كل فصل على حدة بما يخصه من هذه القائمة . واعدت ترتيبها ابجديا حتى يسهل على الباحث مراجعتها متى عن له ذلك .

ولما كانت بداية التاريخ البيزنطى تمثل لدى الدارسين مشكلة من أعقد المشكلات ، وتثير بينهم جدلا ما يزال قائما ، فقد عرضت على الصفحات الأربعين الاولى من تقديمى للطبعة الاولى ، لكل الآراء التى ابداهها المؤرخون ، من أصحاب المدرسة التقليدية ، والمجددون ، وتناولتها بالتحليل والنقد والمناقشة ، وبينت فى نهاية الأمر وجهة النظر التى يمكن ان نركن اليها .

وان اقدم !آن الطبعة الثانية « للعالم البيزنطى » أرجو ان تكون هذه الترجمة اسهاما فى اثراء المكتبة العربية التى مازالت تحتاج الى الكثير من جهود الباحثين فى هذا الميدان .

**وافت عبد الحميد**

القاهرة - مدينة نصر

مارس ١٩٨٢

## تقديم

يختلف الدارسون اختلافا كثيرا حول نقطة البدء فى التاريخ البيزنطى ، ويذهبون فى ذلك مذاهب شتى ، متخذين من سنوات بعينها ، وقعت فيها أحداثات معينة ، منطلقا الى هذا التاريخ ، وكل يقدم أدلته والبراهين ليثبت بها صدق رأيه وصواب دعواه .

ستفن رنسيمان Steven Runciman يعتبر سنة ٢٢٠ « خير تاريخ نتخذ منه بداية للتاريخ البيزنطى (١) » ، حيث احتفل الامبراطور قسطنطين Constantinus فى الحادى عشر من مايو من العام ، بتدشين العاصمة الجديدة للامبراطورية ، وأطلق عليها « روما الجديدة » وأبت هى الا أن تخلد ذكرى مؤسسها فحملت طوال تاريخها فى العصور الوسطى اسم القسطنطينية . ومع هذا فقد ظل اسم المدينة الاغريقية القديمة « بيزنطة » Byzantium عالقا بالأذهان ، بل لقد فرض نفسه على عصر بأكمله .

وحتى أواخر القرن التاسع عشر كان المؤرخون يعطون أهمية خاصة لعام ٤٧٦ لما حسبه سقوطا للامبراطورية الرومانية (٢) ، وذلك عندما قام القائد الاسكىرى الجرمانى اودواكر Flavius Odoacer بتنحية رومولوس اوغسطولوس Romulus Augustulus . آخر الأباطرة فى الغرب ، والاستيلاء على السلطة فى ايطاليا . ويرتبون على ذلك انتهاء الامبراطورية الرومانية هناك ، وبقاء الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وهم يبدون هذه الآراء على

---

(١) انظر الحضارة البيزنطية ص ٦ .

(٢) انظر Oman, The Dark Ages, pp. 2 - 3 ويتخذ منها أومان بداية لدراسة العصور الوسطى حيث يقول : « اذا كان من الضرورى اختيار خط فاصل بين التاريخ القديم والعصور الوسطى فمن المستحيل أن نجد خيرا من عام ٤٧٦ » .



اساس الاعتقاد الذى ساد بينهم من وجود امبراطوريتين رومانيتين فى سنة ٣٩٥ ، عقب وفاة الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I ، وتقسيم الامبراطورية بين ولديه ، اركاديوس Arcadius فى الشرق وهونوريوس Honorius فى الغرب .

غير ان هذه المفاهيم التى حملها الدارسون فى القرن الماضى ، لم تعد تجد من يتصدى لتأييدها الآن ، فالتقسيم الذى حدث عام ٣٩٥ ، كان تقسيما لادارة الحكم فى الامبراطورية الرومانية ولم يكن انقساما لها ، فقد كان كل من الحاكمين يعترف بنفس القوانين ومبادئ الحكومة والتقاليد الرومانية (٣) .

ولم يكن ما وقع سنة ٤٧٦ ظاهرة فريدة فى الامبراطورية ولا نكبة حلت بها ، ذلك ان الامر لم يزد عن خضوع اقليم اخر لسيادة حاكم جرمانى . لعلها فى الواقع كانت صدمة كبيرة ان تقوم هذه المملكة الجرمانية الجديدة فى ايطاليا ، المركز الرئيسى والاصلى للامبراطورية ، ولكن حتى هذه الناحية كانت لها سوابق معينة . فقد كانت السيادة فى ايطاليا للجرمان ، منذ زمن يعود الى ايام ستليكو Stilicho بل اننا نجد سنوات بعينها ، قبل عام ٤٧٦ ، خلا فيها العرش فى الغرب من وجود امبراطور ، وكانت روما وايطاليا قد اخذتا تفقدان اهميتهما تدريجيا منذ ثلاثة قرون خلت ، خاصة عندما اقام قسطنطين عاصمته الجديدة على سلطان البسفور . لقد كان عصب الامبراطورية فى القرن الخامس فى الشرق ، ولم ينقص ذلك الاجراء الذى اقدم عليه اودواكر شيئا من سلطان امبراطور القسطنطينية . ولم يشعر احد ان الامبراطورية قد انتهت بها الحياة عند سنة ٤٧٦ ، وان ايطاليا كانت خارج نطاق الامبراطورية بعد هذا التاريخ (٤) . ولعله مما يدعم ذلك ان امبراطور القسطنطينية استقبل فى عام ٤٧٧ وفدا يمثل اودواكر والسناطو الرومانى ، يخبره ان الغرب لم يعد بحاجة الى وجود امبراطور ، وان

(٣) بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس ومحمود زايد ، ص ٥٠ .

(٤) Strayer & Munro, The Middle Ages, 395-1500. pp. 39-40.

الامبراطور الروماني في الشرق كاف لبسط حمايته على الشرق والغرب معا ، كما كان واقعا في عهدي قسطنطين وثيودوسيوس . ويضع عند قدمه تاج رومولوس وعباءته الامبراطورية . ويطلب اليه ان ينعم على اودواكر باللقب الروماني « بطريق » ، ويعتبره نائبا عنه في حكم ايطاليا (٥) . ومع ان الامبراطور زينون Zeno لم يوافق على منح اودواكر ، لقب التشريف الروماني هذا ، فقد راح القائد الجرمانى يحكم ايطاليا كملك ، دون ان يحصل على اعتراف من الامبراطور ، وان لم يكن امام زينون الا ان يفحص عينه عن ذلك (٦) .

يضاف الى هذا انه حوالى ذلك الوقت ، كانت الاجزاء التى تكون الشطر الغربى من الامبراطورية ، قد اصبحت تحت السيادة الفعلية للجرمان . فجاييريك Gaiseric ملك الوندال ، كان قد بسط سيادته على كل الولايات الافريقية وسردينيا وكورسيكا وجزر البليار ، عقب وفاة فالنتينيان الثالث Valentinianus III ثم صقلية سنة ٤٦٨ ، بينما عد البرجنديون سلطانهم حتى الراين الاعلى في الشمال والساءون والرون في الغرب . وشملت مملكة الفيزيقوط معظم اسبانيا وجنوب غربي غالة ، ما بين اللوار والرون والساءون شمالا وجبل طارق جنوبا . وما تبقى من اسبانيا ، فيما يعرف بمنطقة غاليسيا ، قامت فيه مملكة السويفى Sueves رغم الهزيمة الساحقة التى منوا بها سنة ٤٥٥/٤٥٦ على يد ثيودوريك الثانى ملك القوط الغربيين Visigoths . اما امراء الفرنجة فقد كانوا يحكمون المناطق الواقعة على

Oman, op. cit., pp. 1 - 2.

(٥)

Stephenson, Mediaeval history, p. 56

وانظر ايضا

Jonse, The decline of the Ancient World, p. 92.

(٦)

The Later Roman Empire, I. p. 245

وانظر لنفس المؤلف ايضا

وقد جرت عادة ملوك الجرمان آنذاك على ان يقرنوا لقب ملك الذى يحملونه بالقبيلة التى ينتمون اليها ، فقد كان يوريك Euric يعرف بملك القوط الغربيين Visigoths لا ملك اسبانيا ، وكذلك كان جاييريك Gaiseric هو ملك

الوندال وليس ملك افريقيا . ومن ثم لم يدع اودواكر نفسه ملك ايطاليا ، خاصة وان التعريف الاقليمى لمثل هذا النوع من الملكية لم يكن معروفا .

انظر Oman, op. cit., p. 4 وقارن Davis, Medieval Europe, p. 26



الميز والموزيل والراين الأدنى (٧) . وعلى حين كانت الامبراطورية قد تخلت طواعية عن بريطانيا ، عندما أقدمت على سحب حامياتها من هناك في عام ٤٤٢ لمواجهة الأخطار التي تتعرض لها الامبراطورية في غالة (٨) . وهكذا ندرك ان ضياع السيادة الرومانية من ايطاليا كذلك لم يكن امرا مستحدثا . ومن ثم يصبح القول بسقوط الامبراطورية الرومانية سنة ٤٧٦ بعيدا عن الحقيقة . فلقد كانت هناك دائما امبراطورية رومانية واحدة ، سواء كان على عرشها امبراطور واحد او اثنان او حتى ستة (٩) . وظلت نظرية الدولة الواحدة قائمة دون تغيير ، وعادت الوحدة القديمة الى ما كانت عليه ، وانتقلت حقوق الحاكم الغربى من تلقاء نفسها الى صاحب العرش في القسطنطينية ، وجمع السلطان كله مرة أخرى في يد واحدة ، ورغم ان السلطة الفعلية كانت في يد الجرمان ، الا ان كل روماني ، وبصفة خاصة البابا في القسطنطينية ، كانوا يعتبرون الامبراطورية الواحدة مازالت قائمة . (١٠) وهذه الحقيقة نلمسها بوضوح في تلك الجهود الكبيرة التي بذلها الامبراطور جوستنيان Justinianus ( ٥٢٧ - ٥٦٥ ) ، على امتداد ما يقرب من ربع قرن ، لاستعادة الاراضى التي استولى عليها الجرمان في الغرب الامبراطورى . فقد كان جوستنيان بالقلب رومانيا وبالقالب . بياهى باللاتينية لسانا ، وبتاريخ الرومان ، ويبحث الى الحياة من جديد

(٧) Davis, op. cit., p. 26; Jones, The Later Roman Empire, I, p. 245 - 247, Oman, op. cit., p. 5.

(٨) Thompson & Johnson, An introduction to Medieval Europe, 300 - 1500, p. 96, 107.

(٩) بعد ان اعتزل دقلديانوس وزميله ماكسيميان الحكم سنة ٣٠٥ ، تعرضت الامبراطورية الرومانية لحروب اهلية استمرت حتى عام ٣٢٣ ، نتيجة لانهيار نظام الحكم الرياعى الذى وضعه دقلديانوس ، بسبب طموح خلفائه . حتى انما جاء عام ٣٠٨ كان على عرش الامبراطورية ستة اباطرة هم : جاليريوس وليكينوس وقيسطنطين وماكسيمين دازا وماكسنتيوس وماكسيميان انظر للمترجم : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى ، الفصل الثانى .

(١٠) بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص . ٥ وانظر ايضا Stephenson, op. cit., p. 56

Scott, Medieval Europe, p. 5

Thompson & Johnson, op. cit., p. 117

مناصب الأقدمين ، البرايتور والكويستور وغيرهما . حتى حق للمؤرخ نورمان بينز أن يقول عنه « انه كان آخر الأباطرة الرومان ولم يصبح بعند بيزنطيا (١١) » . وليس أدل على ذلك من أن مجموعة القوانين والتشريعات الجوستنيانية ، سواء المقننة Codex Justinianus أو الجامع (١٢) Digesta أو مبادئ القانون (١٣) Institutiones ، صدرت كلها باللغة اللاتينية ، وإن كانت المتجددات Novellae قد جاءت باليونانية .

والمؤرخ جيبون Gibbon رأى يبدو الآن طريفاً ، فهو يعتبر الامبراطورية الرومانية ممتدة حتى سنة ١٤٥٣ ، عندما استولى الأتراك العثمانيون على القسطنطينية ، على عهد محمد الفاتح . ولكن الطريف في هذا الرأي أن جيبون يعتبر تاريخ الامبراطورية الطويل على هذا النحو ، ليس إلا حركة تدهور وانحطاط مستمر بدأت منذ القرن الثاني الميلادي حتى

---

(١١) الامبراطورية البيزنطية ، ص . ٥ أيضا Painter, A history of the Middle Ages, pp. 34 - 35. وهو نفس القول الذي ذكرته المؤلفة عند حديثها عن جوستنيان ومحاولة استعادة الأراضي الرومانية أنظر بعده .  
(١٢) درجت كل الكتب العربية التي تتناول التاريخ البيزنطي على ترجمة Digesta بـ « المختصر » ، وهذه الترجمة تعبر عن المعنى اللغوي لهذا اللفظ . غير أنني فضلت استخدام كلمة « الجامع » ترجمة لهذه الكلمة ، تعبيراً عن المدلول الواقعي للعمل الذي أقدم عليه جوستنيان فمن غير المعقول أن نطلق على مجموعة قانونية تتكون من خمسين كتاباً اسم « المختصر » ، ذلك أن الدايجستا هي محصلة العمل الذي استمر ثلاث سنوات ( ٥٢٠ - ٥٢٣ ) تحت رئاسة تريونيان وكانت مهمة اللجنة التي أخرجتها تنحصر في فحص ما خلفه الفقهاء الكلاسيكيون جميعاً ، واستخلاص مقتطفات منها ، مستبعدة كل ما أصبح غير ذي موضوع . ومن ثم كان على اللجنة أن تقرراً حوالي ثلاثة ملايين سطر تضم الأحكام القضائية والآراء الفقهية والتطورات التشريعية التي تعود إلى الرومان الأقدمين . ومن ثم أثرت استخدام كلمة « الجامع » بدلا من « المختصر » .

(١٣) فضلت أيضا استخدام « مبادئ القانون » بدلا من « النظم » وهي الترجمة الحرفية التي تستخدمها أيضا الكتب العربية ، وكان ميلى « لمبادئ القانون » انطلاقاً من أن هذا العمل هو عبارة عن كتاب في أربعة أجزاء يحتوي على أهم مبادئ القانون المدني التي جاءت في المقننة والدايجستا ، وقد حرص جوستنيان على إصداره تيسيراً لطلاب القانون في دراستهم .



القرن الخامس عشر ، حيث عملت الثورات والانتفاضات المتلاحقة التي حدثت على امتداد ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، على تقويض دعائم السمو الانساني والقضاء عليها تماما فى نهاية الامر . ويقسم جيون هذه القرون الى ثلاث فترات .

الفترة الاولى يمكن تبين ملامحها فى عهد تراجان والأنطونيين ، حيث راحت الامبراطورية الرومانية ، وهى فى أوج قوتها ، تهوى الى غيابات الاحتلال ، ثم الدمار بفعل القبائل الجرمانية والاسكيزية المتبربرة ، حتى اذا كانت بداية القرن السادس الميلادى ، خضعت روما لسلطان فاتح قوطى .

اما الفترة الثانية فى انحلال روما وسقوطها ، فيفترض جيون بدايتها فى عهد جوستينيان ، الذى كانت جهوده فى ميدان القانون وانتصاراته العسكرية ، سببا فى أن تعيد للامبراطورية الشرقية بريقا خاطفا لمجد غابر ، وقد شهدت هذه الفترة الغزو اللومباردى لىطاليا ، وفتح المسلمين للولايات الآسيوية والأفريقية ، وثورة الشعب الرومانى على حكامه الضعاف فى القسطنطينية ، وتنصيب شارلمان امبراطورا ، وهو الذى اقام فى سنة ٨٠٠ الامبراطورية الثانية فى الغرب او الامبراطورية الجرمانية .

وتطول الفترة الثالثة حتى تبلغ ستة قرون ونصف ، وهى أطول الفترات الثلاث على الإطلاق ، وهى تمتد من احياء الامبراطورية الغربية حتى الفتح التركى للقسطنطينية ، وانقراض سلالة الأمراء المنحلين الذين ما فتئوا يظلمون على أنفسهم القاب « القيصر » و « الأوغسطس » حتى بعد أن انحسر سلطانهم الى حدود مدينة واحدة ، جر فيها النسيان ذيله منذ زمن بعيد على الرومان الأقدمين وطرائق حياتهم . وعلى الكاتب الذى يتصدى لأحداث هذه الفترة ، أن يخوض فى التاريخ العام للحروب الصليبية ، على نحو يتناسب مع ما أسهمت به فى تحطيم الامبراطورية اليونانية ، وكذلك الحال الذى تردت فيه مدينة روما ابان فوضى العصور الوسطى وظلامها (١٤) .

---

(١٤) انظر المقدمة التى كتبها جيون لمؤلفه « اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية » فى الطبعة التى اشرف على اخراجها العلامة بيورى . وراجع ايضا تقديم الترجمة العربية للمختصر بقلم أحمد نجيب هاشم .

واذا كان كتاب جييون عن اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية ، قد حظى - كما تقول ج . م . مسى ، مؤلفه هذا الكتاب الذى تقدم له ، بالاعجاب ، الا ان قصة الامبراطورية البيزنطية ليست « نمطية » او « مملة » كما اعتقد جييون (١٥) . ولا غرو فقد نشر جييون مؤلفه هذا فى اخريات القرن الثامن عشر ( ١٧٧٦ - ١٧٨٨ ) ورغم انه قد بنى آراءه على ما توافر لديه من المصادر الأصلية ، الا ان المصادر والوثائق التى تتناول تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، تم الكشف عنها فى القرن القالى لصدور مؤلف جييون . وقد أدرك هو نفسه هذا القصور ، ونلمس ذلك فيما كتبه من تعليقات فى صفحات الطبعة الثانية .

على ان الشئ الذى لا يمكن اغفاله ، ان جييون يقدم لنا بهذا الكتاب درسا فى وحدة التاريخ ، وهذا امر يسهل ادراكه للوهلة الاولى من العنوان الذى اختاره جييون لمؤلفه ، حيث تتضح الحقيقة الأساسية بان الامبراطورية التى اقامها أوغسطس سقطت فى اوائل النصف الثانى من القرن الخامس عشر ، وان كل التغييرات التى حوت أوروبا ماركوس أوريليوس ( ١٦١ - ١٨٠ ) الى أوروبا ارازمس (١٦) Erasmus لم تمنح اسم الامبراطورية وذكرها . ومهما تكن النعوت التى خلعها جييون على الامبراطورية ، تحمل الازدراء والسخرية ، مثل « الامبراطورية السفلى » او « الامبراطورية

#### (١٥) انظر مقدمة المؤلف .

(١٦) يعتبر اعظم علماء الانسانيات فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل السادس عشر . ولد حوالى عام ١٤٦٩ فى روتردام ، وكره على الانخراط فى سلك الرهبنة بعد وفاة أبيه ، ثم تركها مرغما الى الوظائف الكهنوتية ، عندما رسم قسيسا عام ١٤٩٢ ، وكان نهما للقراءة ، نهل من اليونانية واللاتينية . وقد أخذ يتنقل بين فرنسا وانجلترا وإيطاليا ، ويعيش فى كثير من الأحيان حياة لاهية ، وفضل أن يعيش حرا طليقا ورفض أن يقبل قيود الوظائف العامة او الكهنوتية ، معتمدا على ما يرتزق به من قلمه . وإن كان قد عانى من جراء ذلك الفاقة لولا مساعدة تلاميذه وأصدقائه . ويعتبر كتابه « امتداح الطيش » Enconium moriae أشهر مؤلفاته . وقد نشر فى باريس سنة ١٥١١ ، وطبع فى حياته أربعين طبعة ، وترجم الى اثنتى عشرة لغة . وحمل فيه على التعقل الذى يحجب الشجاعة ، والجدل العقيم ، والنسك ، وأعضاء محكمة التفتيش والكرادلة والبابوات . وفى عام

اليونانية ، ، فان عنوان كتابه قد صحح أى انطباع خاطيء قد توحى به مثل هذه التسميات ، ذلك أن وحدة مؤلفه تعتمد على استمرارية الامبراطورية الرومانية (١٧) .

ويذهب العلامة بيورى أيضا الى القول باستمرار الامبراطورية الرومانية من القرن الأول حتى القرن الخامس عشر ، ويستشهد على ذلك بتتابع الأباطرة دون انقطاع منذ أوغسطس أوكتافيوس حتى قسطنطين الحادى عشر باليولوغوس . ورغم ما يذكره من أن عهد قسطنطين العظيم كان فاتحة عصر جديد فى كثير من النواحي ، بشكل يفوق عصر أوغسطس مؤسس الامبراطورية نفسه ، الا أنه يرفض القول ببداية لامبراطورية بيزنطية ، « فالامبراطورية الرومانية لم تنقته الا فى عام ١٤٥٢ ، واذا كان من الممكن أن نتحدث عن « فن بيزنطى » أو « حضارة بيزنطية » ، فان الحديث

١٥١٤ نشر سلسلة من محاوراته بعنوان « أشكال الحديث المؤلف ، Familiarium colloquium formulae وصفها أحد الكتاب الانجليز فى القرن الثامن عشر بأنها تكاد تهدم تماما كل الآراء والأوهام البابوية بأسلوب تعليمى شائق . على أن أهم أعماله كانت المراجعة النقدية للنص اليونانى للعهد الجديد مرفقا بترجمة لاتينية وتفسير . ونشر فى عام ١٥١٦ ، ولقى هجوما عنيفا من رجال الدين المتزمتين الذين أعلنوا أن النسخة اللاتينية الأصلية من الكتاب المقدس هى نسخة القديس جيروم . وكان أرازمس شديد الميل للمذهب العقلى ، وسعى الى التنسيق بين ما كان يحلم به عن « فلسفة المسيح » وبين رأى كبار الوثنيين ، ووصف أفلاطون وشيشرون وسينكا بعبارات « ملهم من الله » . وقد اعتبره علماء اللاهوت المتزمتون ملهما نارتن لوثر ، رغم أنه حاول أن يتخذ موقعا معتدلا . وعندما اتهمه الرهبان بأنه وضع البيضة التى فقس تحت لوثر ، أجابهم « ان البيضة التى وضعتها خرجت منها دجاجة . أما البيضة التى فقس تحت لوثر فقد خرج منها أحد ديوك المصارعة » . وقد مات أرازمس سنة ١٥٣٦ . انظر ول ديورنت : قصة الحضارة المجلد السادس ج ٢ ص ١٨٠ - ٢١٠ ، ج ٣ ص ١٥٢ - ١٦٩

Thompson & Johnson, op. cit., pp. 1010 - 1017 - 1035

وكذلك

Pirenne, A history of Europe. pp. 502. 42. 78. 611

وأىضا

C. M. H. vol. VIII, pp. 712 - 15, 777. 786

وراجع

(١٧) انظر المقدمة التى كتبها بيورى لتاريخ جيبون فى الطبعة التى

أشرف على اخراجها فى سبعة أجزاء ( لندن ١٩٠٩ ) .



عن الدولة التي اتخذت من مدينة قسطنطين عاصمة لها ، لا نجد خيرا من مصطلح « الامبراطورية الرومانية » للتعبير به عنها .

وكان بيورى قد نشر فى عام ١٨٨٩ مجلدين بعنوان History of the Later Roman Empire from Arcadius to Irene تحدث فيهما عن تاريخ الامبراطورية منذ عام ٣٩٥ ، عندما تم تقسيم إدارة الحكم فى الامبراطورية بين ولدى ثيودوسيوس ، ولم يغفل الأحداث التي وقعت فى الغرب أيضا أبان هذه الفترة ، تأكيداً لفكرته عن وحدة الامبراطورية واستمراريتها ، وقد انتهى فى المجلد الثانى من هذا الكتاب الى عهد الامبراطورة ايرين آخر أباطرة الأسرة الايزورية ، والتي عاصرت حادثة تتويج شارل العظيم Charlemagne (Carouls Magnus) امبراطورا فى الغرب على يد البابا ليو الثالث فى ليلة عيد الميلاد لعام ٨٠٠ . وقد أعاد طبع هذين المجلدين مرة ثانية سنة ١٩٢٢ ، ولكنه وقف بالأحداث فى المجلد الثانى عند سنة ٥٦٥ ، أى نهاية عهد الامبراطور جوستينيان .

وفى سنة ١٩١٢ ، نشر الجزء الثالث من هذا المؤلف وجعل عنوانه : History of the Eastern Roman Empire from the fall of Irene to The Accession of Basil وهو يشمل تاريخ الامبراطورية منذ مطلع القرن التاسع ، الذى افتتحه نقفور الأول Nicephorus I (٨٠٢ - ٨١١) بالثورة على ايرين ، ثم قيام الأسرة العمورية أو الفريجية على يد ميخائيل الثانى ، حتى مقتل ميخائيل الثالث واعتلاء باسسل الأول مؤسس الأسرة المقدونية ، عرش الامبراطورية .

وهذا التقسيم الذى لجأ اليه بيورى عند وضع هذه الاجزاء الثلاثة ، قصد اليه المؤلف عمداً ، فهو يقف بأحداث المجلد الثانى عند سنة ٨٠٠ ، أو بتعبير آخر عند تتويج شارلمان امبراطورا فى الغرب . ومن ثم يمكن التمييز هنا بين امبراطوريتين أحدهما فى الشرق والأخرى فى الغرب . ولهذا نجد الكتابين الاولين بحملان عنوان « الامبراطورية الرومانية المتأخرة » ،

أما الكتاب الثالث فقد جعل عنوانه « الامبراطورية الرومانية الشرقية » (١٨) ومن المعروف أن تتويج شارلمان امبراطورا في الغرب ، جاء وسط ظروف سياسية معقدة ومتشابكة في الغرب والشرق على السواء . فقد كانت العلاقات تزداد سوءا بشكل مستمر بين ملوك اللومبارديين في ايطاليا والبابوية في روما مما دفع البابوات الى الاتجاه ناحية مملكة الفرنجة الكارولنكيين في غالة للاستعانة بها ضد أعدائها اللومبارديين ، في نفس الوقت الذي كانت قوة الدولة الكارولنجية آخذة في الازدياد ، وحدودها في الاتساع ، وجهودها التبشيرية بين الفريزيين والسكسون تمضى قدما . وكان تحول الفرنجة الى المسيحية الكاثوليكية منذ البداية ، دون بقية الشعوب الجرمانية الأخرى ، عاملا هاما في توطيد أواصر المودة بين البابوية وملوك الفرنجة . وساعد على هذا الاتجاه لدى البابوية أيضا ، انصراف أباطرة القسطنطينية الى التصدى للأخطار التي تحيط بهم على الحدود الشرقية من جانب الدولة الاسلامية والبلغار في البلقان . وانغماسهم في ذلك الجدل العقيدى الذى بدأ ولا نهاية له حول طبيعة المسيح ، وازدياد الأمر سوءا باتساع هوة الخلاف المذهبى بين روما والقسطنطينية ، وبخاصة في المشكلة الأخيرة التى شغلت قرابة نصف القرن الثامن في مرحلتها الأولى ، ودارت من حول الأيقونات ، واتخذ ليو الثالث الايزورى وابنه قسطنطين الخامس ، موقفا متشددا من تقديس المسيح والعذراء والشهداء والقديسين ، بينما وقفت البابوية في جانب الأيقونيين ، وأعلنت أن الأيقونة هي انجيل العالمى ، يرى فيها مالا يقدر على فهمه من الكتاب المقدس !! وقام ليو الثالث بفصل مناطق جنوب ايطاليا وصقلية ، ذات الصيغة اليونانية ، عن السيادة البابوية وجعلها خاضعة مباشرة لسلطة اسقف القسطنطينية .

وعلى الرغم من أن الامبراطورة ايرين أقدمت على نبذ السياسة

(٨) انظر Bury, History of the Later Roman Empire, I, pp. VII - IX, 1 - 4.

وايضا Byzantium, edited by Baynes & Moss, p. XV

وكذلك Vasiliev, history of the Byzantine Empire, I, p. 21-23

وراجع مقدمة المؤلف .

اللا ايقونية والعودة الى تقديس الايقونات فى المجمع المسكونى السابع الذى عقد فى مدينة نيقية سنة ٧٨٧ ، الا ان ذلك لم يؤد الى تحسن العلاقات مع البابوية التى اقدمت على تتويج شارلمان فى ٢٥ ديسمبر ٧٩٩ .

وقد اثارت حادثة التتويج هذه ردود فعل عنيفة ، ومناقشات طويلة ماتزال اصداؤها تتردد فى الكتابات التاريخية والسياسية الحديثة . ولكن الشيء الذى ينبغى أن نضعه فى اعتبارنا ، أن الطرفين الرئيسيين فى تلك الحادثة ، وهما البابا ليو الثالث وشارلمان ، لم يدربا بخصمهما ، عندما اقدا على ذلك ، فكرة بعث الامبراطورية الرومانية القديمة ، أو بتعبير أكثر دقة ، الشطر الغربى منها الذى ظل قائما منذ وفاة ثيودوسيوس الأول سنة ٣٩٥ حتى عزل رومولوس أوغسطس على يد أودواكر سنة ٤٧٦ . بل ان هذه الفكرة لم ترد على بال أحد من مستشاريهما . فقد نظروا جميعا ، كما جرت بذلك سنة أسلافهم ، الى الامبراطورية الرومانية باعتبارها امبراطورية واحدة لا تقبل التقسيم ، ولم يكن الهدف الذى سعوا اليه بخلع التاج على ملك الفرنجة ، فصل الغرب عن الشرق ، لكن العودة بروما القديمة – على عكس ما فعل قسطنطين – الى سابق عهدها بكونها عاصمة الامبراطورية التى تحمل اسمها . ولما كان عملهم هذا يفتقر الى الشرعية ، فقد سعوا جهدهم لاضفاء الصفة القانونية عليه ، فاعترفوا واعتقدوا – الى حد ما – أنهم لم يتمردوا أو يعلنوا الثورة على الحاكم الجالس على عرش القسطنطينية ولكنهم استخدموا حقهم الشرعى القديم بملء هذا الكرسي الذى شغل بعزل قسطنطين السادس بيد أمه ايرين ، التى قفزت الى العرش بدلا منه . ومن ثم اعتبر شارلمان خليفة للامبراطور قسطنطين السادس وأبيه ليو الرابع وهرقل وجوستينيان وأركاديوس وكل أباطرة القسطنطينية ، وليس خلفا لرومولوس أوغسطس . وهكذا جاء ترتيب قسطنطين السادس فى الحوليات الامبراطور السابع والستين ابتداء بأوغسطس ، وشارلمان الثامن والستين ، دون انقطاع فى سلسلة الأباطرة (١٩) .

وعلى هذا النحو يمكن القول أن أحداث ليلة عيد الميلاد لسنة ٨٠٠ قد



جرت ضمن إطار الامبراطورية للرومانية القائمة ، التي كانت روما ما تزال جزءا أساسيا منها ، وكان كل ما تم عمله هو انتخاب امبراطور جديد فى ذات الامبراطورية القائمة . وعلى الرغم من أن شارلمان كان امبراطورا رومانيا ، من وجهة نظر الذين اختاروه ، إلا أنه لم يكن هناك حق فى أن يخلفه أحد من أبنائه ، ولم يصبح هو بطبيعة الحال الامبراطور الأوحـد ، فغالبا ما كان هناك امبراطور آخر يفوقه فى المكانة والمرتبة ، هو الامبراطور البيزنطى .

وكان من الطبيعى أن ترفض الحكومة الامبراطورية فى القسطنطينية الاعتراف بالامبراطور الجديد ، الذى بدأ فى نظرها مدعيا ومغتصبا . بل ان شارل نفسه شعر بالمازق الذى تورط فيه ، وظل لمدة ثلاثة أشهر بعد تنويجه يستخدم لقبه الملكى القديم ، حتى اذا مضت خمسة أشهر على حفل التتويج ، اهتدى الى عبارة مبهمـة غير دقيقة أطلقها على نفسه ، « شارل ، أوغسطس الشديد الوقار ، المتوج بفضل الله ، الامبراطور العظيم ، المحب للسلام ، حاكم الامبراطورية الرومانية » .

غير أن الاحداث التى وقعت حوالى ذلك الوقت ، من استيلاء شارلمان على استريا وعدد من مدن الساحل الدناشى والبنديقية ، وما لقيه البيزنطيون من هزيمة ساحقة عام ٨١١ على أيدي البلغار ، كل هذا دفع الامبراطور ميخائيل الأول رانجابهى الى فتح باب المفاوضات مع شارلمان لاسترداد بعض ما فقدته الامبراطورية البيزنطية . ومن ثم فانه فى الرابع من أبريل سنة ٨١٣ وصل الى بلاط شارلمان سفراء ميخائيل ، وخاطبوا شارلمان بوصفه « امبراطورا وملكا » « emperor and basileus » . وعد هذا عندئذ اعترافا من الامبراطور الرومانى الشرعى بامبراطور الغرب .

ويتساءل باراكلاف ، على أى شىء كان شارلمان امبراطورا ؟ ويجيب انه كان امبراطورا على لا شىء . ويضيف ، حقا ان شارلمان كتب خطابا مفعما الى ميخائيل فى سنة ٨١٣ يعرب فيه عن اغتباطه بحلول السلام أخيرا بين الامبراطوريتين « الشرقية » و « الغربية » . ولكنه كان فى ذلك يجاوز نطاق سلطته ، حيث أن فكرة وجود امبراطورية « غربية » لم يكن لها محل فى المفاوضات الرسمية . لقد كان مفروضا أن يكون شارلمان « امبراطورا وملكا » ، وهو لقب شخصى ، ولكنه لم يكن امبراطورا على بلد ما ، وأبعد

ما يكون امبراطورا رومانيا . ومنذ ذلك التاريخ سقط هو نفسه ، بحكم طبيعته ، من لقبه الصيغة العجيبة « حاكم الامبراطورية الرومانية » .

فاذا اضعفنا الى ذلك ، ان احدا من خلفاء شارلمان ، باستثناء لويس الثاني لاشهر قلائل ، او اوتو الأول ، لم يفكر في استخدام لقب « الامبراطور الروماني » ، وان شارلمان قد مات قبل التصديق على معاهدة سنة ٨١٢ التي جرت المفاوضات بشأنها بينه وبين الامبراطور البيزنطي ، وان اباطرة بيزنطة بعد ميخائيل الأول اغفلوا تماما هذه الخطوة التي اقدم عليها هذا الأخير ، وان ما حدث عام ٨٠٠ لم يكن ، حسب تعبير باراكلاف ، الا انقلابا سياسيا فاشلا (٢٠) ادركنا على الفور انه من الصعب الوقوف عند تلك الحادثة لنتخذ منها بداية لتاريخ الامبراطورية البيزنطية .

واذا كان بيورى قد رفض القول ببداية لامبراطورية بيزنطية ، فان توينبى A. Toynbee يقف على النقيض من ذلك تماما . اذا يفترض ان الامبراطورية الرومانية قد ماتت خلال السنوات الأخيرة من القرن السادس ، وان « شبح » تلك الامبراطورية هو الذى كان يشغل مؤخرا العرش الامبراطورى ، وان القرن السابع شهد ميلاد امبراطورية جديدة ابانت مع نفسها بوضوح عندما اعتلى ليو الثالث عرشها ليؤسس الأسرة الايزورية ، ويضيف ان هذه الامبراطورية الجديدة تمثل رد فعل النسيحية الشرقية تجاه التهديد الاسلامي . وسوف تصبح الدرع الواقى الذى ستصقله المقاومة العنيدة ضد هجمات المسلمين ، وهذه الامبراطورية الجديدة ليست استمرارا

---

(٢٠) انظر البحث القيم الذى كتبه ج بارا كلاف G. Barraclough عن The Mediaeval Empire : Idea and Reality وقام بترجمته الى العربية الدكتور جوزيف نسيم يوسف فى كتابه « الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى » ، ص ١٨٣ - ١٨٩ ، وراجع المقدمة التى كتبها الدكتور جوزيف لكتابه هذا ص ٣٨ - ٤٢ وانظر ايضا : ديفز ، شارلمان ، ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ، ص ١٧٢ - ١٨٧ وكذلك Einhard, The life of Charlemagne, trans by Lewis Thorpe, (Two lives of Charlemagne, by Einhard and Notker the Stammerer) pp. 80 - 81

وراجع C.M.H. II, pp. 622 - 624 وايضا Stephenson, op. cit., 158 وكذلك Thompson & Johnson, op. cit., 246

للامبراطورية الرومانية القديمة أو امتدادا لها ، الا في الحفاظ على الحكم  
الامبراطوري المطلق ، والادارة المركزية لمواجهة الظروف المتغيرة (٢١) .

ولكن القول بفناء الامبراطورية في اخريات القرن السادس لا يمكن  
الآخذ به على غلته ، ذلك ان النصف الأول من القرن السادس ، شهد تلك  
الجهود الكبيرة التي بذلها الامبراطور جوستينيان من أجل استعادة الأراضي  
التي اغتصبها الجرمان في الشطر الغربي من الامبراطورية . وقد نجح  
الامبراطور بالفعل في استرداد ايطاليا وصقلية وسردينيا وكورسيكا ودالماتيا  
واقريقيا وجزر البليار وبضع اسبانيا . وهكذا كانت الامبراطورية عند وفاة  
جوستينيان سنة ٥٦٥ ، تكاد تسيطر على الأراضي الرومانية القديمة في  
الغرب ، اذا استثنينا غالة وبريطانيا ومعظم اسبانيا . واذا كانت العناصر  
اللومباردية قد تمكنت من اجتياح شمال ايطاليا بعد ثلاث سنوات فقط من  
وفاة جوستينيان ، الا ان اباطرة القسطنطينية ظلت لهم السيادة ، ولو من  
الناحية النظرية ، على ايطاليا معثلة في ارخونية رافنا Ravenna ، وفي  
التبعية البابوية الاسمية حتى منتصف القرن الثامن عندما ولي البابوات  
وجوهم شطر مملكة الفرنجة في غالة ، كما ان الامبراطورية ظلت لها املاكها  
في منطقة جنوب ايطاليا حتى منتصف القرن الحادي عشر . بل ان الامبراطور  
قنسطانز الثاني Constans II ( ٦٤٢ - ٦٦٨ ) ، قضى السنوات الخمس  
الآخيرة من حكمه متنقلا ما بين صقلية وايطاليا بعد ان راودته فكرة اتخاذ  
سيراكوز عاصمة له (٢٢) .

(٢١) انظر Toynbee, A study of history, vol: IV, p. 320—sqq:

وراجع : كولنجود ، فكرة التاريخ . ص ٢٨٥ - ٢٩٤ .  
(٢٢) تذكر الروايات ان قنسطانز الثاني طوعت له نفسه قتل أخيه  
ثيودوسيوس ، فقتله ، فأصبح من الناميين . من أجل ذلك تملكته الهواجس  
ولعبت به الظنون ، فامست القسطنطينية له جحيما لا يطاق ، يطارده دم أخيه  
ويؤرق جفنيه ، فارتحل غربا وقد عقد العزم على أن يجعل من صقلية مستقرا  
ومقاما ، ولكن التطورات السياسية والعسكرية قد تلقى الضوء بشكل أوضح  
على هذه الناحية : فقد رأى قنسطانز الولايات الشرقية قد افلتت من يد  
الامبراطورية ، وان اعين المسلمين تتجه الآن صوب الغرب ، بعد أن تآككت  
سياستهم على مصر وراحوا يرسلون جيوشهم الى برقة . وتسلب مل الحفاظ



ورغم أن حروب الاسترداد الجوستنيانية الطويلة قد أرهقت الخزانة الامبراطورية من أمرها عسرا ، بهذا النفقات الباهظة التي تطلبتها ، بالإضافة الى الجزية السنوية التي كان على الامبراطورية أن تدفعها للملك الفارسي حتى تضمن هدوء الجبهة الشرقية لتتفرغ للحرب في الميدان الغربي ، الى جانب الروح المعنوية السيئة التي انتشرت بين الجنود بسبب طول مدة الحرب ، وتأخر رواتبهم ، وتكوين الجيش من عناصر رومانية وجرمانية متنافرة بطبيعتها . رغم كل ذلك إلا أن الامبراطورية كانت قادرة في اخريات القرن السادس على أن تواصل القتال ضد العناصر الآفارية والصقلبية في البلقان ، والدولة الفارسية على جبهة الفرات ، والزود عن السيادة الامبراطورية في ايطاليا ضد اللومبارديين .

فقد قام الامبراطور موريس Mauricius ( ٥٨٢ - ٦٠٢ ) باغراء ملك الفرنجة شيلدبرت Childebert بالهجوم على اللومبارديين ، لقاء خمسين ألف صوليدى . وقد قبل الملك الفرنجي ذلك العرض ، وغزا شمالي ايطاليا في عامي ٥٨٤ ، ٥٩٠ وقدم له حكام هذه المنطقة فروض الطاعة والولاء . وفي سنة ٥٩١ اضطر كسرى ابرويز ملك فارس للهروب الى قرقيسية Circesium ووضع نفسه تحت حماية امبراطور القسطنطينية ، وذلك بعد وفاة أبيه هورميزدا وقيام فاران Varanes بالثورة ضده . وقد عرض كسرى على موريس أن يتنازل له عن ميفارقين Martyropolis ودارا Dara وأن يتخلى عن ادعاءاته في ارمينيا وارزانيني (٢٣) Arzanene في مقابل عونه لاسترداد عرشه . وقد وافق موريس على ذلك ونجح في هزيمة فاران

على منطقة شمال افريقيا بعيدا عن أيدي العرب ، ولن يتأتى له ذلك إلا اذا كان على مقربة من هذه المنطقة . ومن ثم لابد أن يكون قد دار بفكره أن يتخذ من سيراكوز عاصمة له . وقد انتاب الضيق اهالي القسطنطينية لما حسبوه تجريداً لمكانة مدينتهم وسموها . ومن ثم لم يلبث قنسطانز أن اغتيل بعد خمس سنوات قضاها في الغرب على يد خادم حمامه اندريا Anderias ، فانفاقت العاصمة من وسواسها .

Vasiliev, op. cit., 1, pp. 220 - 221

(٢٣) على الحدود الجنوبية لارمينيا الفارسية .

انظر

وإعادة السلطة الى كسرى الذى أوفى بما عاهد عليه الامبراطورية . وبهذا السلام الذى تحقق فى الشرق ، تمكن موريس من نقل قواته الى الجبهة الغربية ، فوق الآفار سنة ٦٠٠ معاهدة مع الامبراطورية ، أصبح نهر الدانوب بمقتضاها حدا فاصلا بين الطرفين ، وسمح للجيش الامبراطورى بعبور الأراضى الآفارية لطاردة العناصر الصقلية .

هذه هى الصورة التى كانت عليها الامبراطورية أواخر القرن السادس ، فقد صمدت لمتطلبات الحرب المتزايدة بنجاح باد . حقيقة فقدت أجزاء من ايطاليا وحتى ما بقى منها فى أيدي الامبراطورية أفقرته اغارات اللومبارديين ، ولكن الأحوال فى افريقيا أخذت تميل الى الهدوء ، وأخذت هذه الولاية تسترد بعض الشئ رخاءها القديم ، وامتد الأمان ليشمل أيضا الجزر الواقعة غربى المتوسط وولاية اسبانيا القصية . وعلى الرغم من أن الليريا وتراقيا تبدت للعيان قاءا صفصفا بفعل التدمير الذى لم ينقطع لعدة أجيال متعاقبة ، إلا أن موريس قام هنا بأعمال عسكرية رادعة أحرز فيها كثيرا من التقدم فى سنى عمره الأخيرة ، التى هى بالتالى آخر سنى القرن السادس ، أمن بها جبهة الدانوب وكبح جماح الآفار . وفوق هذا وذاك يكفى أن الجبهة الشرقية قد اضطربت بعناد فى مواجهه قوى الفرس المتجددة . وبقيت الولايات الزاهرة ، آسيا الصغرى وسوريا ومصر التى تضع الامبراطورية عليها جل اعتمادها ، تحت سيادة الامبراطور . هذا على حين شهد العقدان الاول والثانى من القرن السابع ، تصدعا هائلا فى أركان الامبراطورية ، وتقلصا شديدا فى أطرافها .

فقد اجتاح الآفار منطقة البلقان وحطوا رحالهم عند أسوار القسطنطينية ، منتهزين فرصة الفوضى التى أعقبت مقتل الامبراطور موريس وتولى فوقاس Phocas ( ٦٠٢ - ٦١٠ ) خلفا له ثم انتقل العرش الى أسرة جديدة هى الأسرة الهرقلية . واستولى الفرس على الولايات الشرقية ، سوريا وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى ، واشعلوا نيرانهم على شواطئ البسفور المقابل للقسطنطينية . وهكذا لم يبق من « بيزنطة » الامبراطورية الا « بيزنطة » المدينة . مما دفع الملك الفارسى الى أن يكتب الى الامبراطور هرقل رسالة جاء فيها « من كسرى أعظم الآلهة وسيد العالم كله الى هرقل

عنده الفاجر عديم الاحساس . ألم أقض على الاغريق ؟ انك تقول انك تثق في الهك ، فلماذا اذن لم يخلص من يدى قيسارية وبيت المقدس والاسكندرية ؟ وهل انا لن أخرب القسطنطينية أيضا ؟ على انتم سأغفر لك جميع ذنوبك اذا ما دمت الى ومعك زوجتك واطفالك ، وسأمنحك الاراضى على مدى نصف قرن (٢٣٥ - ٢٨٤) لأزمة طاحنة كادت تودى بها . وشملت بأملك الخائب فى ذلك المسيح الذى لم يستطع حتى أن ينقذ نفسه من اليهود الذين قتلوه وصلبوه ، (٢٤) . غير أن الامبراطور هرقل استطاع بعد ما يقرب من عشر سنوات من الحرب ومحاولة السلام مع الفرس والآفار ، أن يحقق نصره النهائى على الفرس فى سنة ٦٢٧ عند أطلال مدينة نينوى القديمة ، بينما كان الآفار قد رفعوا حصارهم عن القسطنطينية فى العام السابق ، امام صمود حامية المدينة وحماسة البطريرك سرجيوس . ولن يمضى على ذلك خمسة عشر عاما حتى يكون المسلمون قد فتحوا هذه الولايات وأخضعوها لسلطانهم .

ولعلنا الآن ندرك أن الامبراطورية الرومانية القديمة لم تقف بها الحياة عند سنى القرن السادس الأخيرة ، لتولد امبراطورية جديدة فى القرن السابع كرد فعل للخطر الاسلامى ، على حد تعبير توينبى . فالفرس كانوا يمثلون الأعداء التقليديين للامبراطورية الرومانية لقرون طويلة ، فلما تخلصت الامبراطورية من هذا العدو ، بيد المسلمين لابيدها ، حلت الدولة الاسلامية الجديدة محل الفرس فى العداء للامبراطورية ، رغم اختلاف الأسباب والظروف .

وانذا كان لابد من الحديث - تجاوزا - عن فترة ماتت فيها الامبراطورية الرومانية ، فانها سوف تكون عند البعض ، كما يفترض نورمان بينز ، النصف الثانى من القرن الثالث (٢٥) فقد تعرضت الامبراطورية الرومانية على مدى نصف قرن ( ٢٣٥ - ٢٨٤ ) لأزمة طاحنة تودى بها . وشملت الأزمة جميع أوجه النشاط السياسى والاقتصادى والادارى . وانعكست هذه

(٢٤) أومان ، الامبراطورية البيزنطية . ص ١٠٣ .

(٢٥) Byzantium, ed. by N.H. Baynes & H. st. L. B. Moss, p. XVII.



الفوضى بصورة مباشرة على العرش الامبراطورى ، فقد تولى الحكم فى هذه الفترة ستة وعشرون امبراطورا ، لم يمت منهم الا امبراطور واحد ميتة طبيعية ، وشهدت غالة وحدها بين سنتى ٢٥٧ ، ٢٧٢ خمسة اباطرة • وكان ذلك نتيجة للحروب الاهلية التى سادت بين قواد الفرق الرومانية فى الولايات المختلفة ، تطلعا الى العرش • وتعقدت الامور بغزوات الجرمان من الشمال والغرب ، والفرس من الشرق ، وازدياد متطلبات الامبراطورية واحتياجاتها لمواجهة تلك الاخطار ، ونقص عدد السكان باستمرار نتيجة تفشى الامراض والوبئة والطواعين ، وانحطاط الزراعة وتدهور الصناعة وكساد التجارة وانخفاض قيمة العملة • ولقد لخص المؤرخ جونز ذلك كله فى عبارة موجزة بليغة ودقيقة بقوله « لقد ضاع كل شىء (٢٦) » • ورغم أن الامور وقد جرت على هذا النحو فى القرن الثالث ، قد ساءت الامبراطورية الرومانية الى حافة الضياع ، ورغم أن الجهود التى قام بها الامبراطور دقلديانوس Diocletianus (٢٨٤ - ٣٠٥) واكملها الامبراطور قسطنطين (٣٠٦ - ٣٣٧) ، قد بعثت الحياة فى الامبراطورية من جديد ومكنت لها فى الارض فترة امتدت أحد عشر قرنا من الزمان ، الا أن القول بقيام امبراطورية جديدة لا صلة لها بسابقتها آنذاك ، يعد امرا بعيدا عن الحقيقة •

والدول والحضارات لا تولد من عدم ، ولا تنشأ فى فراغ • ولا هى منبئة الصلة بما سبقها او ما حولها ، ولا بما هو من بعد فى علم الغيبات • فهى تأخذ مما سبقها وتتفاعل مع ما حولها ، وتؤثر قدر أصالتها فيما بعدها • وليس فى التاريخ حادثات بعينها تقف عندها جامدين نبديء بها عصرا او ننهى بها آخر • فالتاريخ شأن الكائن الحى ، وكما أنه يبدو عسيرا أن نضع ايدينا بدقة على سن معينة فى عمر الانسان نفصل به الطفولة عن الصبا وهذه عن الشباب او الأخيرة عن الشيخوخة وهكذا ، فكذلك عصور التاريخ ، وكما أن الانتقال من مرحلة الى أخرى فى عمر الكائن الحى لا يتم دفعة

Boak, A history of Rome to 565 A.D. p. 403.

(٢٦) انظر

Jones, Constantine and the Conversion of Europe, pp. 2 - 3, 11, Later Roman Empire, I, pp. 22 sqq.

وانظر

Cantor, Medieval history, p. 28

وأىضا

وكذلك راجع للمترجم ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى • ص ٣٥ - ٣٨ •

واحدة ، فجأة وبلا مقدمات ، كذلك فان فترات التحول التى تفصل وتصل بين عصر وآخر قد تمتد الى عدة قرون ، وما حادثات التاريخ فى عصور النقلة هذه الا علامات ومؤشرات على ذلك التحول ، و هى مؤشرات فيه تدفع عجلة التاريخ الى عصر جديد .

والامبراطورية البيزنطية ليست استثناء من ذلك . فالمتتبع لتاريخ الامبراطورية الرومانية خلال القرون الثلاثة الأخيرة من الرابع الى السابع، يستطيع تبين عناصر جديدة ومؤثرات مختلفة وتفاعلات تركت بصماتها بوضوح على أوجه الحياة السياسية والادارية والاقتصادية والاجتماعية والفنية والعقيدية ، واستغرقت عملية التفاعل هذه من عمر الزمن القرون الثلاثة ، حتى اذا كان القرن السابع أمكن التعرف على الملامح الجديدة دون عناء .

ففى خلال أزمة القرن الثالث الطاحنة التى اعتصرت الامبراطورية ، فقد السناتو الرومانى كل ما كان قد تبقى له من سلطة سياسية باهتة ، حقيقة ان مجلس الشيوخ كان قد أصبح منذ بداية العهد الامبراطورى مجرد رمز للعصر الجمهورى الرومانى ، بعد ان استطاع أوغسطس بذكائه ان يقلم أظافره ، وراح الزمن طيلة القرنين القاليين يقضم هذه الأظافر ، حتى اذا أقدم القرن الثالث أمست يد السناتو عاجزة تماما . وانتقل ميزان القوى تدريجيا ، مع الضعف الذى انتاب الأباطرة ، الى الفرق العسكرية الرومانية ، وليس أدل على ذلك من تلك النصيحة التى أسداها الامبراطور سبتمىوس سفروس Septimius Severus ( ١٩٣ - ٢١١ ) لولديه قبل وفاته ، « اجزلا العطاء للجند ولا تلقيا بالا للآخرين » . وكان هو نفسه قد التزم هذا الشعار ابان فترة حكمه ، فأغدق على الجنود الكثير من الامتيازات والمنح ، بل ان السنة الشهيرة للأباطرة الأربعة عام ٦٩ ، علمت الجنود ان الامبراطور يمكن ان يوجد فى أى مكان خارج روما ، دون انتظار لترشيح السناتو ، وعلى الرغم من ان النظام الجمهورى فى روما قد انتهى رسيا بقيام الامبراطورية فى سنة ٢٧ ق . م . الا ان الرومان كانوا يميلون الى التمسك ، ولو من الناحية النظرية ، بالتقاليد الجمهورية . وفى وسط فوضى القرن الثالث ، تقدم الجنود الى السناتو ، بعد مقتل الامبراطور أوريليان Aurelianus

فى سنة ٢٧٥ ، يطلبون اليه ممارسة حقه فى ترشيح الامبراطور الجديد . ويبدو ان السناتو قد سئم هذه اللعبة ، فتباطا فى الامر ثم اقدم على اختيار اكبر اعضاءه سنا وهو تاكيٲوس Tacitus . وحتى عهد كاروس Karus ( ٢٨٢ - ٢٨٤ ) كان الابطاطرة يعترفون بحق السناتو فى الاتعام عليهم بالسلطات اللازمة للحكم مثل الامبريوم وغيرها من القاب الشرف ، بغض النظر عما اذا كان السناتو يفعل ذلك مختارا ام طائعا . اما كاروس فقد اعلن انه حصل على السلطة الامبراطورية بمقتضى اعلان الجيش له امبراطورا ، واخبر السناتو بهذا القرار على سبيل المعرفة . وتضخمت شخصية الابطاطرة حتى اصبحوا يحملون لقب الاله رسميا على المسكوكات وفى النقوش ، وظهر هذا واضحا على عهد الامبراطور اوريليان الذى استعمل الاكليل المقدس رمز السلطة الالهية فى العالم القديم ، واعلن فى جحافله ان الله وحده ، دونهم ، هو الذى يختار الامبراطور ويحدد فترة حكمه وجرى ذكره على هذا النحو (٢٧) Deus Aureliauns, Imperator Deus et Dominus Aurelianus Augustus

ولم يكن دقلديانوس اقل من سلفه ايمانا بالاوتوقراطية ، وساعده على ذلك ان هذه الفوضى التى تهلك الامبراطورية ، تحتاج الى يد قوية وحازمة ، ومن ثم عمد دقلديانوس الى ان يضيف على منصب الامبراطور نوعا من المهابة والقداسة تثير الرهبة فى نفوس رعاياه . فنظر الى اختيار الجنود له على انه تنفيذ لمشيئة الاله جوبيتر . ووجد البذخ الشرقى والطقوس الحافلة طريقها الى بلاطه ، وكان على رعاياه اذا ما سمح لهم بالثول بين يديه ، ان يخروا سجدا قبل ان تجرؤ عيونهم على ان ترمق صاحب الجلالة . لقد كان لكل ما يخص الامبراطور قداسة ، كلماته ، بلاطه ، خزائنه ، اذ كان هو نفسه مقدسا . وهكذا ثبت دقلديانوس يقينا الاوتوقراطية فى شكلها القريب من الطاغوت الشرقى ، وباتت واحدة من العلامات المميزة فى البناء الحكومى

(٢٧) انظر Dudley, The Boak, op.cit., pp. 416 - 417 وايضا

Civilization of Rome, pp. 209 - 210 وكذلك ، ر . ه . بارو ، الرومان

ترجمة عبد الرازق يسرى ، ص ١٧٧ وراجع كذلك Vasiliev, op. cit., 1. pp. 61 - 62



للامبراطورية البيزنطية (٢٨) ولعل أروع منجزات دقلديانوس - على حد تعبير المؤرخ جوتز - أنه استطاع أن يحكم إحدى وعشرين سنة متواصلة ، وأن يعتزل في النهاية طواعية ، إذا ما قوون ذلك بالفوضى التي سادت الامبراطورية في القرن الثالث . (٢٩) .

ولا شك أن دقلديانوس قد أفاد كثيرا من وجوده في الشطر الشرقي من الامبراطورية على مقربة من الحكم الساساني الأوتوقراطي في فارس ، ووسط الولايات الشرقية التي كانت تمثل المالك الهلنستية القديمة في مصر البطلمية وسوريا السلوقية وبرجامة الآتالية . وهي التي جرت ، وخاصة مصر بالذات ، على عادة تاليه ملوكها في عصرها الفرعوني والبطلمي . ولهذا لم يجد عناء في أن يحكم الامبراطورية على هذا النحو . ولا شك أن هذا أيضا كان من بين العوامل العديدة التي دفعت دقلديانوس ، ومن بعده قسطنطين الى الاتجاه ناحية النصف الشرقي من الامبراطورية واقامة العاصمة الامبراطورية فيه . ولا شك أن هذا الحكم الأوتوقراطي كان يتطلب، لتكتمل صتورته ، ادارة مركزية صارمة ومجموعة كبيرة من الموظفين التابعين للامبراطور مباشرة . ومن ثم فقد أقدم دقلديانوس على الغاء التمييز بين الولايات السناتورية والولايات الامبراطورية ، واصبحت الولايات كلها تتبع الامبراطور تبعية مباشرة ، ووضعها تحت ادارة ولاية لم تكن تتجاوز سلطاتهم دائرة النواحي المدنية فقط . وقام بانقاص حجم الولايات وزيادة عددها حتى يحول دون استغلال ولايتها لضخامة الولاية ومواردها في التمرد على الحكومة المركزية . وهذه هي الصورة التي تميزت بها الامبراطورية البيزنطية حتى عام ١٢٠٤ عن البلاد الواقعة خلف حدودها . (٣٠)

(٢٨) Vasiliev, op. cit. I, pp. 61-62 وأنظر كذلك بينز ، الامبراطورية

البيزنطية ، ص ٤ - ٥ .

Jones, The Later Roman Empire, 1, p. 40

(٢٩) أنظر

The decline of the Ancient world, pp. 28 - 32.

وله أيضا - - -

(٣٠) أنظر بينز ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤٧ - ١٥٤ وأيضا

رنسيان ، الحضارة البيزنطية ، ص ٨٨ - ١٢٢ وراجع كذلك البحث الذي

كتبه هارتمان L.M. Hartmann تحت عنوان The Early Mediaeval state:

Byzantium, Italy and the West - وقام بترجمته الى العربية والتقديم له

وكان خلفاء دقلديانوس أكثر منه حرصا على الأرتوقراطية وأشد تمسكا بها . وساعد على ذلك أيضا تحول الدولة في القرن الرابع الى المسيحية ، فأخذت العبادة الامبراطورية في شكلها الوثني ، صورة جديدة ، فبعد أن كان الامبراطور مؤلها ، أصبح الآن خليفة الله في أرضه ، نائبا عن المسيح في حكم رعيته . وقد أطلق قسطنطين على نفسه « رجل الله » و « مبعوث العناية الالهية » ورفع شيخ مؤرخي الكنيسة يوساب القيساري Eusebius of Caesarea الى مصاف الرسل ، اذ جعل منه الحوارى الثالث عشر للمسيح . واذا كان قسطنطين قد حرص على ان يكون في عاصمته الجديدة مجلس للسناقو شبيه بما كان قائما في روما التير . فلم يعد هذا المجلس كونه نوعا من « الديكور » . . اذا صح هذا التعبير - اراد قسطنطين أن يزين به « روما » الجديدة .

وقد ظل الأباطرة المسيحيون يحملون اللقب الوثني « الكاهن الأعظم » Pontifex Maximus باعتبار الامبراطور الرئيس الدينى الأعلى ، حتى تخلى عنه الامبراطور جراتيان Gratianus ( ٢٧٥ - ٢٨٢ ) . ومع ان هذا اللقب كان مسألة شرفية تقليدية زمن الامبراطورية الوثنية ، الا انه تحول الى حقيقة عملية مع تحول الامبراطورية الى المسيحية ، فقد أصبح الامبراطور يمثل فعلا رأس الكنيسة ، بيده مقاليد الأمور في الدين والدولة بعد ان تم التزاوج بين الدولة والكنيسة في مطلع القرن الرابع على يد الامبراطور قسطنطين ، الذى يعد أول من رسم لخلفائه من بعده طريق القيصرية البابوية Caesaropapism التى أخذ الأباطرة يعملون جاهدين على تعميق جذورها ، حتى أصبحت تمثل عند بداية القرن الثامن سمة بازره من أهم سمات الحكم فى الامبراطورية البيزنطية . فالامبراطور قسطنطيوس ، ابن قسطنطين وخليفته ، يقول لأساقفة مجمع ميلانو سنة ٢٥٥ وهو يحاورهم ، وقد راحوا يحاجون ويجادلون حول شرعية محاكمة اثناسيوس التى جرت فى صور قبل

---

والتعليق عليه الدكتور جوزيف نسيم يوسف فى كتابه « الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى » ص ٨٢ - ٨٥ ، ٩١ - ٩٢ - حاشية ١ ص ٩ .

ذلك بعشرين عاما ، « ارادتي هي القانون » (٣١) . وسار جوستنيان خطوات بعيدة على الطريق ، وتكشف متجدياته Novellae التي أصـ درها لتنظيم الأمور الكنسية ، عن مدى رغبته الجامعة وإيمانه العميق بسيادته على الكنيسة ، بل لقد كان يؤمن تماما بأن من حقه أن يختار لرعيته العقيدة التي يجب عليها اتباعها دون مناقشة . فالناس عنده على دين ملوكهم (٣٢) . فلما كان عهد ليو الثالث الايزورى ، بلغت القيصرية البابوية شأوا عظيما ، دل على ذلك سياسته تجاه الايقونيين ، وما أقدم عليه من فصل مناطق جنوب ايطاليا وصقلية عن سلطة البابا واخضاعها لأسقف القسطنطينية ، ثم كشف عن ذلك بجلاء فى الرسالة التي بعث بها الى البابا جريجورى الثانى ، يقول له فيها انه - اى ليو الثالث - « امبراطور وقس » . وقد ظل اباطرة بيزنطة يנהجون نفس النهج حتى آخر العهد بهم . وهكذا يمكن أن نتبين بوضوح أن هذه القرون الثلاثة ، من الرابع الى السابع ، كانت تحمل فى طياتها دلائل التحول الى عصر جديد ذى سمات متميزة .

ولا شك أن تحول الامبراطورية الى المسيحية كان عاملا هاما وفعالا فى احداث هذا التغيير ، وظهر دوره بصورة مباشرة ابان مرحلة الانتقال هذه . منذ أصبح على الامبراطورية فى مطلع القرن الرابع ، أن تختار أحد طريقين فى علاقتها بالمسيحيين . اما أن تسير قدما فى سياستها التعسفية التى انتهجتها على مدى ثلاثة قرون تجاه الجماعة المسيحية ، وأثبتت الأحداث فشلها . واما أن تفتح ذراعيها لتحتوى هذه العقيدة الجديدة وتفيد

---

(٣١) انظر للمترجم ، الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث ( أثناسيوس ) . الفصل السادس وراجع أيضا الملحق الأول من نفس الكتاب ، الذى يتخذ من الحوار الذى دار بين قسطنطيوس والبابا ليبريوس حول محاكمة أثناسيوس وإدانته .

(٣٢) راجع بعض هذه المتجددات الخاصة بالكنيسة فى : P.N. Ure, Justinian and his Age, pp. 150 - 154.

T. Ware, The Orthodox Church. pp. 49 - 50

وقارن

وعن سياسة جوستنيان الدينية انظر :

Vasiliev, op. cit., I. pp. 148 - 154, Bury, op. cit., II pp. 372 - 393

Jones, Later Roman Empire I, pp. 296 - 98

وايضا



من جهود عبادها ، وهذا هو الطريق الذى سلكه الامبراطور قسطنطين منذ التقى فى ميلانو سنة ٣١٢ مع حليفه اللدود ليكيونيوس .

وكان لابد أن تحدث المبادئ الجديدة التى حملتها المسيحية معها الى الامبراطورية ، هزة كبيرة ، فى أركان المجتمع الرومانى ، وليس بخاف على أحد ذلك الأثر الواضح الذى تركته المسيحية على مختلف ميادين الفكر والفن والحياة الاجتماعية داخل الامبراطورية الرومانية ، الى الحد الذى دفع المؤرخ جيبون الى أن يبنى نظريته فى انهيار الامبراطورية وسقوطها ، فى جانب كبير منها ، على هذه المبادئ المسيحية (٢٢) . وهذه الآراء ردها

(٢٢) يقول جيبون انه « لما كانت سعادة الحياة الآخرة هى الهدف العظيم للدين ، فقد لاندesh أو نخجل إذا سمعنا أن المسيحية ، أو على الأقل استياء استغلالها ، كان لها بعض الأثر فى تدهور الامبراطورية الرومانية وسقوطها . فقد نجح رجال الدين فى تلقين الناس أصول الصبر والاستكانة ، وقوبلت الفضائل الايجابية فى المجتمع بالتثبيط ، ودفنت بقايا الروح العسكرية فى الأديرة ، وخصص جزء كبير من الثروة العامة والخاصة لمطالب الصدقة والعبادة المظهرية ، وبعثت رواتب الجنود على الجماهير العديمة النفع من الجنسين ، وهى الجماهير التى لم يكن فى مقدورها الا الدفاع عن مزايا التقشف والعفة . وأشعل الايمان والغيرة وحب الاستطلاع وعواطف الحياة الدنيا من حقد وطمع ، نار النزاع اللاهوتى . وغرقت الكنيسة ، بل والدولة ، فى ذلك الصراع العقيدى الذى لم تخب ناره بين الفرق الدينية . وتحول اهتمام الأباطرة من المعسكرات الى الجامع الكنسية ، وناء العالم الرومانى تحت نير نوع جديد من الطغيان ، وأصبحت الطوائف المضطهدة عدوا خفيا لبلادها . وغرس الاساقفة واجب الخضوع السلبي لحاكم ارثوذكسى ، وقد سلم جيل متخنت ذليل ، فى ورع وتقوى ، بحياة الكسل المتسم بالقدسية التى يحياها الرهبان . ولكن لو أن الخرافة لم تجذب أبناء ذلك العصر الى العزلة بقصد التعبد ، لكانت هذه الرذائل نفسها قد أغرت الرومان القافهين على التخلي عن علم الدولة . مدفوعين فى ذلك بدوافع أكثر دناءة وحقارة . والتعاليم الدينية يمكن أن تطاع فى يسر وسهولة اذا سمحت بالميل الطبيعية للمتعلقين بها ، وأضفت عليها نوعا من القدسية . . . . . وإذا كان تحول قسطنطين الى المسيحية قد عجل باضمحلال الامبراطورية الرومانية ، فإن هذه الديانة الظافرة قد كسرت حدة سقوطها ، وخففت من شراسة طبائع الغزاة . » انظر .

Decline and Fall of the Roman Empire. vol. III. ch. XXXVIII

وقارن الترجمة العربية للمختصر ، الجزء الثانى ص ٢٥٤ - ٢٥٥ .

المؤرخون الوثنيون قديما وفي مقدمتهم زوسيموس (٢٤) Zosimus الذي عاش في القرن الخامس وأوائل السادس . وإذا كانت آراء جييون قد تعرضت الآن لكثير من النقد من جانب المؤرخين المحدثين ، إلا أن هذا لا يمنع من القول بأن المسيحية تركت بصماتها واضحة على المجتمع الروماني .

ويتمثل ذلك الى حد بعيد جدا في مجال الفكر ، فقد كان على المسيحية حتما مقضيا بعد أن خرجت من دائرة اليهودية ومضت الى طريق أمم ، أن تهجر كارهة أسلوب التبشير بمعجزات المسيح جذبا لليهود ، الى الدعوة عن طريق الاقتناع العقلي واعمال الفكر لاجتذاب الوثنيين . ومن ثم كان على المسيحية أن تتفلسف ، أو بتغيير آخر ، ترتدى ثياب الفلسفة ، فظهرت في منتصف القرن الثالث والقرن الرابع مسيحية مفلسفة . ولا يمنع هذا من وجود آراء من هذا القبيل في القرن الثاني الميلادي . وكان الهدف من وراء ذلك هو ارساء العقيدة المسيحية على أسس عقائدية ، كي تواجه التيارات الفلسفية السائدة من رواقية وأفلاطونية محدثة وفيثاغورية جديدة . واستقر ذلك في النهاية في تيارين رئيسيين عبرت عنهما مدرسة اللاهوت الانطاكي لتفسير الكتاب المقدس على أساس عقلي ، مهتدية في ذلك بالمنهاج الأرسطي المنطقي ، والمدرسة اللاهوتية السكندرية التي استخدمت التفسير المجازي ، أو الصوفي ان جاز هذا التعبير الأخير ، ومزجته باللاهوت العلمي الأفلاطوني (٢٥) . ويمثل القرنان الرابع والخامس قمة

---

(٢٤) هو آخر المؤرخين الوثنيين في الامبراطورية . ألف كتابا أسماه « التاريخ الجديد » وقف بالأحداث فيه عند سقوط روما في يد الأريك سنة ٤١٠ . وقد كان وثنيا متحمسا لعبادة الأرياب ، ومن ثم فقد أرجع سقوط روما الى غضب الأرياب نتيجة هجران الرومان لها ، ويوجه اللوم العنيف الى قسطنطين باعتباره السبب في ذلك . ولا غرابة إذن أن يمتدح الامبراطور جوليان . وتذكر الدراسات الحديثة أن زوسيموس لم يكن مجرد مؤرخ فحسب بل أحد علماء النظريات السياسية الذين تولوا الدفاع عن الجمهورية ، حتى لقد كان « الجمهوري » الوحيد في القرن الخامس . انظر Baynes & Moss, Byzantium, p. 222 وأيضا Vasiliev, op cit., I, p. 125

وكذلك Bury, op. cit., I, p 301  
David knowles, The evolution of Medieval thought, (٣٥)

الصراع الكريستولوجي بين الفرق المسيحية المتناحرة وصولا الى قول فصل في طبيعة المسيح . واذا كان هذا الصراع العقيدى قد اثرى الفكر ، الا انه بلا شك اهلك العقيدة ، بتلك الخلافات الجذرية التى تفصل بين كنائس الشرق والغرب ، وادار معه فى هذا التيه رؤوس الأباطرة ودواوين الحكومة والجنود وفرق المضمار والجموع على اختلاف طبقاتها (٢٦) .

وساعد على اشتداد هذا التيار ، ما زخر به الشرق الرومانى من

---

F. Copleston, A history of philosophy, Vol. 2 وايضا pp. 16 - 32  
M. L. W. Laistner, Mediaeval philosophy, part I, p. 29 وكذلك  
Thought and Letters in Western Europe pp. 46, 64 - 65  
Ch. Dawson, Religion and the rise of Western culture, p. 29 وراجع  
G. Left, Medieval thought from S. Augustine to وكذلك  
Ockham, p. 29 وللمزيد من التفاصيل عى مدرسة الاسكندرية اللاهوتية  
انظر للمترجم الجزء الثالث من كتاب الدولة والكنيسة ، الفصل الأول .  
(٢٦) يصف اللاهوتى الكبادوكى الشهير ، جريجورى أسقف نيسا  
Nyssa الحالة فى القسطنطينية فى القرن الرابع بقوله : « لقد امتلأ  
كل شيء بأولئك الذين يتحدثون بغوامض الكلم ، وازدحمت بهم الطرقات  
والأسواق والأزقة . فاذا ما سألت عما يجب أن أدفعه ثمنا لشيء ، فلسفوا  
لى الاجابة حول المولود والمخلوق . واذا ما رغبت فى الوقوف على ثمن  
الخبز ، اجابنى البائع بأن الآب اعظم من الابن ، واذا ما بحث عما اذا  
كان حمامى قد أعد ، جاءتنى الاجابة تقول ان الابن خلق من العدم ، .  
ومن المعروف أن الخلاف بين الكنائس وصل ذروته فى القرن الخامس  
الميلادى ، فى مجمع خلقيدونية سنة ٤٥١ ، وهو المجمع المسكونى الرابع ،  
وانتهى الأمر بانفصال كنيسة الاسكندرية عن كنيسة القسطنطينية وروما ،  
ولم يلبث أن تم حدوث الشقاق بين الأخيرتين فى القرن التاسع ايان ما عرف  
بفتنة فوطيوس ، الى أن وقع الشقاق الأعظم بينهما سنة ١٠٥٤ . وتدين  
كنيسة الاسكندرية الأرثوذكسية بما ذهب اليه أسقفها كيراس وديوسقورس  
من القول بطبيعة واحدة للمسيح من طبيعتين ، أو بتعبير آخر « طبيعة واحدة  
للکمة المتجسدة » . بينما تقوم الأرثوذكسية اليونانية على الاعتراف بأن  
المسيح شخص واحد أو اقنوم واحد فى طبيعتين متحدتين ، مستقلتين غير  
منفصلين . وتوافقهم الرأى كنيسة روما ، بناء على رسالة البابا ليو الاول  
الى مجمع خلقيدونية . وان كان الخلاف قد وقع بين الكنيستين بسبب  
اضافة روما تعبير « والابن » filioque على قانون الايمان فيما يتعلق  
بانبثاق الروح القدس .



مدارس الفكر والفلسفة اليونانية في الاسكندرية وايطاليا واسيا الصغرى ،  
ثم اتينا في بلاد اليونان نفسها ، بينما نعم الغرب بجهالة تربتت على خلوه  
من مثل هذه المدارس ، ونجا من الخوض في تلك المتاعمات العقيدية ، الى  
حد أن أشهر آباء الكنيسة فيه في القرن الرابع ، هيلاري Hilarius اسقف  
بواتيينه Poitiers ظل لمدة ثلاثين عاما بعد مجمع نيقية (٣٢٥) لا يعرف  
شيئا عن مصطلح « الهوموسية » Homousius (Consubstantial) « مساواة الابن للآب في الجوهر » ، وهي العقيدة التي أصبحت قاعدة  
الايمان الأرثوذكسي بعد ذلك . ولم يشهد الشرط الغربي من الامبراطورية  
نيران هذا الصراع الا في عامي ٣٥٢ ، ٣٥٥ عندما حاول الامبراطور  
قسطنطيوس ، أن يفرض عليه العقيدة الأريوسية في مجمع آرل  
وميلانو (٣٧) . ولم يعكر صفو سلام الكنيسة في الغرب بعد ذلك ، وحتى  
وضع مارتن لوثر احتجاجه ضد الكنيسة وتصرفاتها ، على باب كنيسة  
فيتنبرج سنة ١٥١٧ ، الا الجدل العقيدى الذى أثاره بلاجيوس Pelagius ،  
حول أهمية الارادة الانسانية فيما يتعلق بالغفران (٢٨) . ولكن هذا لا يمنع

---

(٢٧) انظر Hilarius, De synodis, 91 والمقدمة الرائعة التي كتبها  
عنه وتناول فيها أعماله بالتحليل ، E. W. Watson ضمن مجموعة —  
Nicene and post Nicene Fathers of the Christian Church, vol. IX,  
pp. i—xcvi راجع أيضا للمترجم ، الجزء الثالث من الدولة  
والكنيسة ، الفصل السادس .

(٢٨) بلاجيوس هو أحد رهبان بريطانيا في القرن الخامس ، جهر  
بآرائه التي تقول بأن من الخطورة الاعتراف بأن الطبيعة البشرية قد فسدت  
الى الحد الذى أصبحت فيه مسلوية الارادة تماما ، فالانسان مسئول عن كل  
كل خطيئة يقدم عليها ، وخطيئة آدم الأولى لا يمكن أن يتحملها بنوه وأن  
يولدوا بها ، ومن ثم فهو يرتب على ذلك عدم أهمية طقس العماد بالنسبة  
للمولود ، وينكر القول بأن الغفران لا يتحقق الا بنعمة الله فقط ، ويؤكد  
دور الارادة الانسانية في هذا السبيل . وقد لقيت مبادئه رواجاً واسعاً في  
ايطاليا وبريطانيا ، وان كانت قد قوبلت بعدم الارتياح في أفريقيا . نتيجة  
لجهود القديس أوغسطين في مقاومتها . فقد أدين تلميذه كايلاستوس  
Caelestius في مجمع قرطاجة سنة ٤١١ ، وان كان بلاجيوس نفسه  
قد برئت ساحته في مجمع عقد في مدينة اللد Diosopolis عام ٤١٥ .

من وجود بعض الآراء الاخرى التى نعتتها كنيسة روما بالهرطقة ، وان كانت قد ظهرت أولا كاحتجاج على فساد رجال الدين وسوء خلقهم ، ثم تضمنت فيما بعد أفكارا عقيدية (٢٩) . وساعد الغرب على ذلك ، الى جوار

ولكن البابوية أدانت الآراء البلاجية رسميا . انظر Hefe, History of the Councils of the Church, vol. 11, pp. 466 - 80 وايضا H. Chadwick The early Church, pp. 228 - 232.

(٢٩) ظهرت هذه الآراء بصفة خاصة فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، وقد دارت كلها حول محاربة الفساد والانحلال الذى تردى فيه رجال الاكليروس ، وتشير بعض المصادر المعاصرة أن عدد هذه الطوائف قد بلغ فى القرن الثالث عشر قرابة مائة وخمسين فرقة ؛ على أن الكثير منها لم يكن له أهمية تذكر ؛ ولم يتعد خطره البقعة التى ظهر فيها . بينما حظى عدد منها بالذيع والانتشار مثل « المتضعين » Humiliati و « المتلثمين » Beguines نسبة الى لامبرت الأرم Lambert le Begue فى ايطاليا والأراضى المنخفضة على التوالى . على أن أهم هذه الفرق على الإطلاق انحصرت فى اثنتين - الولدونين Waldonsians والأطهار Cathari أما الطائفة الأولى فتنسب الى بطرس ولدو Peter waldo وهو أحد التجار الأثرياء فى ليون Lyons ، أقدم فى سنة ١١٧٢ على التنازل عن ثروته ووزعها على ذوى الحاجة ، وأسس جماعة تعرف باسم « فقراء ليون » هجروا دورهم . وسار كل اثنين منهم حفاة . فى ثياب خشنة ، ليس لأحدهم ملكية فردية فالملكية يجب أن تكون مشاعا . ولم يكن لهم على هذا النحو آراء يمكن أن تدينها الكنيسة ، بل ان بطرس ولدو زار روما فى سنة ١١٧٩ وحصل من البابا اسكندر الثالث على اعتراف به وبجماعته ، وعلى الآن لهم بالتبشير ؛ وعلى ذلك انتشرت الآراء الولدونية فى جنوب فرنسا واسبانيا ولبارديا والأراضى المنخفضة وبوهيميا والمجر . واتحدت مع بعض الفرق المنتشرة فى هذه المناطق . ولما احست الكنيسة بأسرها أصدرت قرارا باديانتها فى عام ١١٨٤ مع الطوائف الأخرى فى مجمع فيرونا Verona .

أما الطائفة الثانية وهى طائفة الطهار ، فقد ذاع صيتها باسم الألبيجنيين Albigensians وانتشرت فى مقاطعة برومانس Provence ولانجدوك Languedoc وخاصة مدن مونتيايه وناريون وتولوز ومرميا وأجن ومونتوبان ، ولما كانوا يتركزون فى منطقة البي Albi فقد عرفوا بذلك الاسم نسبة لتلك المنطقة . وهم يستقون عقيدتهم فى المانوية ، ويقسمون العالم الى قسمين ، الخير وهو الله ، والشر وهو الشيطان أو المادة .

خلوه من المدارس الفلسفية ، أن لغته اللاتينية لم تكن لتسمح له بممارسة هذا الجدل ، إذ كانت تفتقد الديوية التي تتمتع بها اللغة اليونانية .

أما الشرق الروماني فقد قدم بفكر رجال اللاهوت فيه وآباء الكنيسة آراء عديدة من حول طبيعة المسيح ، فقد اکتوى القرن الرابع بنيران الجدل الذي دار بين الأريوسية وخصومها ، أو بين الأريوسيين وأنفسهم (٤٠) ،

والشيطان هو الذي خلق العالم المادي ، ومن ثم فالمادة كلها شر محض بما فيها الصليب والقربان المقدس . ويشيع عنهم خصومهم القول بأن المسيح ليس الها ، وأنهم يرفضون العشاء الرباني والقداس وتعظيم الأيقونات والتثايت . ولما كانوا يوقنون بأنه من المستحيل أن يطأوا إلى كل أتباعهم أن يحققوا أعلى مراتب الرهبانية ، فقد قسموا أنفسهم إلى مرتبتين ، المؤمنون *Credentes* والأكمل *Perfecti* . وكل ما كان يطلب من المؤمنين أن يطلقوا الكنيسة ، وأن يجلوا الكامل ويوقروه ، وأن يتلقوا قبل الموت السر المقدس *Consolamentum* الذي يسمح لهم بالارتقاء إلى مرتبة الكامل . إلى هذا الحد لم تلق لهم الكنيسة بالا ، فلما أخذوا يصوبون سهامهم نحوها ، سيرت ضدهم حملات عسكرية ، وصفت بأنها صليبية . فقد سخرُوا من هذه الأموال الطائلة التي يكتزها البابوات والأساقفة ، ونددوا بالدعوة للحروب الصليبية وأبدوا استهزاءهم بصكوك الغفران . وقد أصدر البابا انوسنت الثالث *Innocent III* ضدهم قرار الحرمان ، وأوقع القرار أيضا على الأراضي التي يسيطرون عليها . ثم سير ضدهم حملات عسكرية جمعها من المتطوعين الأوروبيين . وقد استمرت هذه الحرب حوالي ثلاثين سنة ، إلى أن انتهت سنة ١٢٢٩ بالقضاء على الأليجنين . انظر عن هذه الطوائف *Thompson & Jonson, op. cit., pp. 1002, 624-629* وأيضا *Stephenson, op. cit., 420 - 22* وكذلك *Davis, op. cit., 350 sqq.* وراجع أيضا *Strayer & Munro, op. cit., pp. 316 - 18, 320* وراجع أيضا *Mundy, Europe in the high Middle Ages, 1150 - 1309, C. M. H. vol. VI. pp. 342, 345. sqq., 702 - 716*

(٤٠) للمزيد من التفاصيل عن الأريوسية الأصلية والفرق الأريوسية الجديدة .

انظر *Gwatkin, The Arian Controversy* ولنفس المؤلف أيضا *Arianism* ضمن مجموعة *C. M. H. vol. 1* وانظر كذلك *Neander, Lectures on the history of Christian Dogmas. 2. vols.* ولنفس المؤلف راجع أيضا *General history of the Christian Religion and Church, 9 vols*



ثم الماكيدونية (٤١) . حتى اذا كان القرن الخامس ، سعرت نيران ذلك الجدل ، واشتد لهيبها عندما سيطرت عليها حمى التنافس بين كنائس روما والقسطنطينية والاسكندرية وانطاكية من أجل الزعامة . فظهرت النسطورية واليوطاخية التي اقترنت منها المونوفيزية ، ثم الديوفيزية أو ما ذاعت شهرتها بالخلقيونية واصطلح على تسميتها بالارثوذكسية الحكومية . ولعبت الاسكندرية طيلة هذا الصراع دورا بارزا ، وكسبت منه ثلاث جولات ، الى ان تكاثفت عليها في منتصف القرن الخامس روما والقسطنطينية . ولم تعرف الامبراطورية الهدوء فيما يتعلق بالمسألة الكريستولوجية الا في القرن الرابع الميلادي ، بعد ان فقدت ولاياتها الشرقية عندما فتحها المسلمون . ليتخذ الجدل العقيدى اشكالا اخرى في القرون التالية . ولاشك ان هذا الصراع الفكرى صبغ الامبراطورية بصبغة مميزة في حينها والى هذا الزمان ، حتى أصبح تعبير « الجدل البيزنطى » دليلا على كل جدل طويل وعقيم . واذا كانت العصور الوسطى قد اقترنت في الازمان بعصور الايمان ، فان بيزنطة تعد التجسيد الحى لهذا المصطلح .

وظهر اثر المسيحية كذلك جليا في الناحية التشريعية ، ولما كانت مسألة التقنين تمس كثيرا من جوانب الحياة فى المجتمع ، فقد اقتضى ذلك

وانظر للمترجم الدولة والكنيسة . الجزء الثانى الفصل الخامس .  
والجزء الثالث : الفصل السابع . والمعروف ان الأريوسية انقسمت على نفسها الى فرق عديدة . ما بين الأريوسيين الأصليين الذين يقولون بخلق المسيح وعدم مساواته مع الآب فى الجوهر . وأنصاف الأريوسيين Semi-Arians الذين يقولون بالهومويوسية Homoiousian أى التشابه بين الابن والآب فى الجوهر . والأنومويين Anomoeans الذين يذكرون أى شبه بين الآب والابن . والهومويين Homoeans الذين يقولون بالشبه فقط دون تحديد .

(٤١) نسبة الى ماكيدونيوس Macedonius وقد تأثر بآراء أريوس فى خلق المسيح ونادى بخلق الروح القدس . وقد تدين هذا الرأى فى المجمع المسكونى الثانى الذى عقد بالقسطنطينية سنة ٣٨١ على عهد الامبراطور ثيودسيوس الأول . وجاء فى قانون المجمع اقرار الايمان بالروح القدس « الرب المحيى ، المنبثق من الآب ، والمساوى فى الجوهر للآب والابن ، مسجود له ، وممجد الناطق بالانبياء ، » .

قرنا آخر حتى تصدر القوانين وقد تشبعت بالروح المسيحية ، ومن ثم فان تشريعات القرن الثامن هي اصدق الأدلة على ما نذهب اليه . فقد اعتمد الامبراطور ثيودوسيوس الثانى ( ٤٠٨ - ٤٥٠ ) على المجموعتين القانونيتين اللتين وجدتهما على عهده ، وهما المجموعة الجريجورية Codex Gregorianus والمجموعة الهرموجينية Codex Hermogenianus ، وهما تضمان القوانين التى صدرت منذ عهد الامبراطور هادريان ( ١١٧ - ١٢٨ ) حتى بداية النصف الثانى من القرن الرابع . وقد نهج ثيودوسيوس الثانى فى مقننته Codex Theodosianus التى صدرت سنة ٤٢٨ على غرار هاتين المجموعتين ، ونلمس فيها الأثر المسيحى وان كان ما يزال بسيطا . فلما كان القرن السادس ، وأصدر الامبراطور جوستينيان مجموعته القانونية ، ظهر تأثير المسيحية فيها بصورة واضحة أكثر من سابقتها . بل ان جوستينيان كان يعتقد يقينا ان الله هو الذى يمنح الأباطرة حق سن وتفسير القوانين . ومن ثم فالامبراطور هو الشارع ، ويباركه الرب فى الاعالى ، حتى اذا اعتلت الأسرة الايزورية عرش الامبراطورية ، أقدم ليو الثالث على اصدار الاكاجا (المختارات) التى جاءت فى نصها وروحها متمشية الى حد كبير مع المبادئ المسيحية ، فهى تتميز بوفرة الاسناد الى الكتاب المقدس لتأكيد مختلف المبادئ القانونية . وجاء فى مقدمتها عند الحديث على القضاء ، ان الخزانة الامبراطورية يجب ان تدفع لهم مرتباتهم حتى لايتقاضوا ممن يقاضونهم شيئا ، خشية ان تقع نبوءة النبى « لانهم باعوا البار بالفضة والبائس لاجل نعلين فتسلط علينا الرب بتجاوز وصاياه » . ( عاموس ٢ : ٦ ) .

ويعتبر الفن البيزنطى المرآة الحقيقية لهذا التحول الذى تم خلال القرون الثلاثة ، من الرابع الى السابع . فالفن المسيحى المتقدم لم يكن ، خلال القرنين أو القرون الثلاثة الاولى من تاريخه ، الا تطورا او حتى تقريبا للفن الرومانى المتأخر . وفى الاعمال الفنية التى ظهرت فى الامبراطورية الرومانية المتأخرة ، أو عصر الامبراطور قسطنطين نجد استباقا للسمات الاساسية للفن المسيحى المتقدم ، كنزوعه الى الروحانية والتجريد ، واثيره للأشكال المسطحة التى هى أشبه بظلال لجسم لها ، والتسلسل فى مراتب الناس ، وعدم اكترائه بالحياة العضوية بما فيها من

لحم ودم . وعدم اهتمامه بما هو شخصى مميز للفرد والنوع . فهو فن تظهر فيه الرغبة غير الكلاسيكية فى تصوير الجانب الروحى لا الحسى ، وتظهر بجلاء فى صور القبور ، وأعمال الفسيفساء بالكنائس الرومانية ، والمخطوطات المسيحية الأولى . ولما كانت القيصريّة البايوية - كما أسلفنا - هى عصب الحياة السياسية فى نظر الأباطرة ، ولما كانت هذه الاوتوقراطية الروحية الزمنية التى يتمتع بها الامبراطور ، فى حاجة الى الى تعرض على الملأ من أجل إثارة الخيال الشعبى ، ولما كان المسيح قد اتخذ بصفته المخلص ، هيئة الانسان وطبيعته البشرية ، فأضفى بذلك على الذات قيمة لا تقدر ، كان الفن البيزنطى يمثل القمة فى محاولة تقسيم صورة رائعة للشخصيات الرسمية التى كانت تطالب باحترام الناس وتبجيلهم . فالمسيح يصور فى بيزنطة كما لو كان ملكا ، والعذراء كما لو كانت ملكة ، وهما يلبسان أردية ملكية زاهية ، ويجلسان على عرشيهما فى وقار وتحفظ دون أن يعبر وجههما عن شيء . ويقترب منهما صف طويل من الحواريين والقديسين بإيحاءات بطيئة يعاوها الوقار . وتحول الشعائر الصارمة بين أشخاص الصورة وبين التحرك بحرية ، أو الخروج عن الصف المنتظم ، أو حتى النظر الى جانبهم . فكل شيء يبعث على الشعور بالهيبة فى جلاله الملوكى .

ولعل أروع تعبير فنى عن الروح الشعائرية هى أعمال الفسيفساء المهداة الى كنيسة القديس فيتالى St Vitale فى رافنا والتى تعود الى القرن السادس ، وهى أعمال لم تشهد العصور التالية لها نظيراً فى هذه الناحية ، فلم تنجح أى حركة كلاسيكية ، أو مقلدة لها ، أو أى فن مثالى أو تجريدى ، فى التعبير عن الشكل والايقاع بمثل هذه الطريقة المباشرة الخالصة . كما أن كنيسة أيا صوفيا التى شيدها جوستنيان فى القرن السادس فى القسطنطينية تعد بحق أعظم انجاز فنى فى تاريخ الامبراطورية البيزنطية على الإطلاق ، فهى على حشد تعبير شارل ديل ، عنوان الفن البيزنطى ، وأن أحدا لا يمكنه مطلقا أن يفهم أو يقدر قيمة الفن المسيحى الشرقى وأصالته ، قبل أن يشهد الرجال ، بادئ ندى بدء الى هذا البناء الرائع ، « الكنيسة الكبرى » الاسم الذى عرفت به فى الشرق أبان العصور



وتقدم اللغة دليلا هاما ، الى جوار كل ما تقدم ، على التحول الذى عاينته تلك القرون الثلاثة . فقد كانت اللاتينية هى اللغة الرسمية فى الامبراطورية بطبيعة سيادة روما ، وان كان الشرق الرومانى قد ظل محتفظا بلغته اليونانية ، التى كانت لسان الصلوات ، القداسات فى كنائس الشطر الشرقى من الامبراطورية . وقد حرص الامبراطور قسطنطين على أن يلقي خطابه فى افتتاح مجمع نيقية سنة ٣٢٥ باللاتينية ، على الرغم من أن أساقفة المجمع كلهم ، عدا الثمانية الذين يمثلون كنائس الغرب ، يتحدثون اليونانية . ويبدو هذا أمر طبيعيا يتفق وقنة المامه باليونانية ، كما يشير الى ذلك المؤرخان الكنسيان يوساب القيسارى وسوزومين Sozomenos الغزاوى ، وان كان المؤرخ جونز يعلق على هذا بقوله ان قسطنطين فعل ذلك ، لا لجهله باليونانية ، ولكن لأنه وجدها الفرصة السانحة ليؤكد رسمية اللغة اللاتينية فى الامبراطورية (٤٢) . وكان طبيعيا أن تكون اللاتينية فى تلك الفترة هى لغة الفكرة والثقافة ، حتى أن كثيرين من كتاب ذلك العصر الذين ينتمون لأصول شرقية ، وضعوا أعمالهم باللاتينية ، ومن أشهر هؤلاء مؤرخ القرن الرابع الوثنى ، أميانوس ماركلينوس Ammianus Marcellinus الذى ولد فى أنطاكية ، ويعتبره شتاين Stein أعظم عبقرية أدبية فى العالم بين المؤرخ الرومانى تاكيتوس

---

(٤٢) أنظر : أرنولد هاويز Arnold Hauser ، الفن والمجتمع عبر التاريخ . ترجمة الدكتور فؤاد زكريا . الجزء الأول . ص ١٤٥ - ١٦٦ .

وأبضا Ch. Diehl, Byzantine Art فى Byzantium, ed. by Baynes & Moss, pp. 166 - 199 وكذلك بينز . الامبراطورية البيزنطية . ص ٢٢٢ - ٢٢٥ .

وراجع رنسيان . الحضارة البيزنطية . ص ٣٠٩ - ٣٣٩ .  
Vasiliev, op. cit., 1, pp. 187 - 92  
C. M. H. vol. I, pp. 598 - 614, vol. IV, وأيضا وكذلك

EVSEB, vita Const. 111. 13, SOZOM. hist. eccl. 1. 20 (٤٣)  
Jons, Constantine and the Conversion of Europe. p 156 وراجع  
وانظر أيضا للمترجم الدولة والكنيسة . الجزء الثانى . الفصل الخامس .

Tacitus وشاعر الكوميديا الالهية دانتي Dante • ويعده نورمان بيثرو آخر مؤرخى روما العظام •

وكان طبيعيا مع انتقال مركز الثقل فى الامبراطورية الى الشرق ، بانتقال العاصمة ، ثم فقدان النصف الغربى من الامبراطورية نتيجة الغزوات الجرمانية فى القرن الخامس ، بحيث أصبحت المناطق التى تسيطر عليها الامبراطورية كلها تتحدث اليونانية • ولهذا أخذت اللاتينية تتوارى تدريجيا ، لتحل محلها اليونانية • وليس أدل على ذلك من أن الامبراطور جوستنيان عندما أصدر فى النصف الأول من القرن السادس ، مجموعته القانونية ( المقننة والجامع والمبادئ ) باللغة اللاتينية ، لم يستطع أن يفعل ذلك فى المتجددات Novellae ، ومن ثم فقد جاءت هذه النوفلات باليونانية • ولا شك أن هذا يعد اعترافا ضمنا من جوستنيان بذلك التحول الذى تشهده الدولة • يضاف الى هذا أن مؤرخ تلك الحقبة الشهير ، بروكوبيوس Procopius كتب مؤلفاته العديدة ، من حروب جوستنيان وأعماله الانشائية باللغة اليونانية ، بل انه كان يجهل اللاتينية بصورة فاضحة • وباليونانية أيضا كتب معظم كتاب عصر النقلة ذاك ، بطرس البطريرق ، وأجاثياس Agathias ونونوسوس Nonnosus وهزيكيوس Hesychius الملىتى ، ويوحنا ملالاس John Malalas الانطاكى ، ويوحنا الافسوسى John of Ephesos ولكن هذا لا يمنع من بقاء اللاتينية سبيلا الى الترقى فى سلك الوظائف الحكومية • كما يخبر بذلك عن نفسه يوحنا الليدياوى Iohannes Lydus الذى أمضى معظم حياته ضمن الهيئة القضائية للنائب الامبراطورى فى الشرق •

على أنه بمقدم القرن السابع ، أصبحت السيادة للغة اليونانية ، وتجلى ذلك فيما أقدم عليه الامبراطور هرقل سنة ٦٢٩ ، بعد انتصاره الحاسم على الفرس فى نينوى من اتخاذ لقب Basileus ويعلق بيورى على ذلك بقوله « طالما كان هناك بازيلئوس عظيم مستقل خارج حدود الامبراطورية ( يعنى ملك فارس ) . أحجم الأباطرة عن حمل لقب يشاركهم عاهل آخر • فلما أدل هذا العاهل الأجنبى ، ولم يعد هناك مكان لبازيلئوس آخر ، دلل الامبراطور على هذه الأحداث بأن خلع على نفسه رسميا ذلك اللقب ، •

وأخذت اليونانية نمك لنفسها فى البلاط الامبراطورى ودواوين الحكومة والمكاتب الرسمية والدوائر القضائية والتشريعية ، حتى اضحت اللغة الرسمية للامبراطورية ، وعلى هذا النحو صدرت الاكلوجا والباريليقا والقوانين المكملة فيما بعد . كما وضع اباطرة الاسرة المقدونية كتبهم عن الادارة الامبراطورية ومراسم البلاط وفنون الحرب باللغة اليونانية .

ولعله مما ساعد على تدعيم هذا الاتجاه ايضا ، ان الاباطرة الذين تولوا العرش بعد وفاة جوستينيان وحتى سيطرت الاسرة المقدونية على شئون البلاد ، قدموا من اسيا الصغرى ، وحملوا معهم اهم الدلائل على ذلك ، فالاسرة الهرقلية تعود الى اصول ارمينية ، والايذوريون ينتسبون الى مرتفعات ايزوريا فى الطرف الجنوبى الشرقى لاسيا الصغرى ، والعموريون يعودون الى منطقة فريجيا . بل ان كبار القادة العسكريين ، الذين حكموا كاباطرة مشاركين ثم اباطرة ، فى الاسرة المقدونية ، جاءوا من طبقة كبار الملاك فى تلك المنطقة . ثم الاسرات الى حكمت بعد ذلك حتى النهاية .

وكان ضياع النصف الغربى اللاتينى من الامبراطورية ، وقيام الممالك الجرمانية فيه ، واكتساح العناصر الآفارية والصقلبية لمنطقة البلقان ، ثم فتح المسلمين لسوريا ومصر وشمال افريقيا من اهم العوامل التى قوت من هذا الاتجاه ، بحيث اصبحت الامبراطورية تتمركز فى المناطق اليونانية الخالصة .

وليس بخاف على احد ان بناء مدينة القسطنطينية ، كعاصمة للامبراطورية الرومانية ، وسط العالم اليونانى بفكره وحضارته ولغته وثقافته ، قد ادى الى تأصل ذلك التحول الذى شهده عصر الانتقال . وكان لنجاح القسطنطينية ، بموقعها الحصين ، فى التصدى للاغارات الجرمانية ، والسياسة الذكية التى اتبعها اباطرتها فى القرن الخامس ، اثرهما الفعال فى ابعاد النفوذ والطابع الجرمانى ، الذى كانت له آثاره البعيدة فى الغرب ، عن النصف الشرقى من الامبراطورية . ومن ثم كانت القسطنطينية هى البوتقة التى انصهرت فيها كل هذه العوامل المختلفة التى عرضنا لها ، وأبرزها التراث اليونانى والتقاليد الرومانية والمبداى المسيحية ، لتخرج



لنا مع القرن السابع الامبراطورية فى ثوب جديد ، ليس من العسير ان نتبين فيه خيوط الامبراطورية الرومانية ، بحيث يمكن اعتدار مرحلة الانتقال هذه ، التى استغرقت القرون من الرابع الى السابع ، عصرا رومانيا متاخرا او عصرا بيزنطيا متقدما .

لهذا يصطلح كثير من المؤرخين (٤٤) على اتخاذ القرن السابع ، بما ظهر فيه من ملامح متميزة ، بداية طبيعية لما عرف بالامبراطورية البيزنطية ، وتنحو ج . م . هسى بدورها هذا المنحى ، ويتضح ذلك فى النهج الذى اختارته عند تأليفها لهذا الكتاب . فهى تتناول الفترة الممتدة من قسطنطين حتى هرقل ، او التى اعتبرناها عصر انتقال فى تاريخ الامبراطورية ، لتضع لها عنوانا هو The Byzantine Empire takes Shape وهذا يعنى أنها أخذت تتشكل خلال هذه القرون الثلاثة ، وتشير الى عاملين رئيسيين وراء الاختلاف بين عالمى القرن الاول والقرن الرابع ، يكمنان فيما جلبته المسيحية على روما الجديدة ، بحكم موقعها ، من خلافت عقيدية ، والأخطار الخارجية التى تعرضت لها الامبراطورية من جانب الفرس والجرمان . وكيف أودى الأخيرون بالشطر الغربى وأن اطلاق تعبير « عصر رومانى متاخر او بيزنطى متقدم » ، يعد أمرا لاغرابة فيه . اذا أدركنا مدى ارتباط الامبراطورية الثقافى بالعالم الهلنستى ، وان اتخاذ جانب المسيحية لايعنى نبذ الحضارة الوثنية ، فيما يتعلق بنظام الحكم وسلطان الامبراطور الفرد ، وازدياد السلطة المركزية ، ونمو الادارة المدنية .

---

(٤٤) انظر Baynes & Moss, Byzantium, XV - XXXI ولنورمان بينز  
 الامبراطورية البيزنطية . ص ، ك . ل . وكذلك Vasiliev, op. cit., 1. pp. 43  
 Ostrogorsky, history of the Byzantine State, p. 78  
 وراجع Jones, The Later Roman Empire 3 vols. وهو يتناول فيه  
 مرحلة الانتقال هذه ويؤرخ العصر الرومانى المتاخرا ما بين ٢٨٤ - ٧٠٢ .  
 ويؤكد هذا المعنى أيضا فى كتابه The decline of the Ancient World  
 Thompson & Johnson, op. cit., pp. 117 - 152 وقارن  
 Stephenson op. cit., pp. 99 - 108, 178 وايضا  
 Boak op. cit., p. 521, Strayer & Munro op. cit., p. 138 وكذلك

والكتاب الذى بين أيدينا يقع - فى أصله الانجليزى - فى مائة واحد وستين صفحة من القطع المتوسط ، وينقسم الى قسمين متكافئين تماما من حيث عدد الصفحات . خصت المؤلفات القسم الأول منهما بعرض سريع لتاريخ الامبراطورية السياسى منذ قسطنطين حتى دخول الأتراك العثمانيين القسطنطينية فى منتصف القرن الخامس عشر . وهى لاتعالج التاريخ السياسى من حيث أحداثه ووقائعه ، ولكنها تعرض لأهم الملامح السياسية البارزة على امتداد التاريخ البيزنطى ، الذى تقسمه الى أربع فترات .

تحدث فى الأولى منها عن فترة تشكيل الامبراطورية خلال عصر الانتقال ، وتقارن بين شطرى الامبراطورية حيث يتميز النصف الشرقى بكثافته السكانية ووفرة موارده ونجاته من الخطر الجوماني ، ومن ثم أصبح يمثل مركز الثقل فى الامبراطورية منذ القرن الثالث للميلاد . بينما نجح الجرمان فى اقامة ممالك متعددة لهم فى الغرب . ولكن مكن الخطورة فى الشطر الشرقى تمثل فى تلك النزعات الانفصالية التى جنت اليها بعض الولايات ، لا من الناحية السياسية ، ولكن ظهر ذلك واضحا فى الأدب واللغة ، وازداد بعدا يتباعد هذه الولايات ، خاصة مصر ، عن القسطنطينية فى المسألة العقيدية ، ومحاولة الاباطرة فرض الأرثوذكسية الحكومية ، أو المذهب الذى يرتضيه الامبراطور ، قسرا على أهالى تلك الولايات . بالإضافة الى ما ذهب اليه الاباطرة أيضا من تفضيل كنيسة على أخرى ، بناء على قرارات الجامع المسكونية ، مما أثار الحقد بين هذه الكنائس الرسولية ، وأصاب المسيحيين بخيبة أمل بالغلة - نتيجة مما تحقق لديهم من أن اعتمادهم على الدولة لم يحقق للكنيسة الوحدة أو السلام .

وتدافع المؤلفات عن جوستينيان ضد ما يتهمه به المؤرخون ، من أنه جلب الكوارث على الدولة نتيجة سياسته الخارجية ، ولكن جوستينيان كان يصدر فى سياسته هذه ، لاستعادة الاراضى التى سيطر عليها الجرمان ، عن النظرية السياسية الرومانية ، التى تقوم على أساس العالمية ، ووجود امبراطورية واحدة لاتقبل التجزئة . ومن ثم فقد كان جوستينيان بحق آخر الاباطرة الرومان . بحيث تحدد أعماله الزاهرة نهاية هذه الفترة الرومانية المتأخرة أو البيزنطية المتقدمة . ولهذا لم يكن غريبا أن يفسح له شاعر عصر النهضة الشهير دانتي الجيبرى مكانا فى « الفردوس » .

ولاشك أن خلفاء جوستينيان كانوا على قدر كبير من الواقعية ، عندما أبدوا مقدرتهم على التكيف مع الأوضاع الجديدة التي تعرضت لها الامبراطورية بعد وفاة جوستينيان ، وحتى بواكير القرن السابع ، وادت الى تقلص مساحة الامبراطورية في الشرق والغرب على السواء . ومن بين هؤلاء جميعا يبرز الامبراطور موريس الذي جعل الامبراطورية تستنشق ، ولو من بعيد ، عبير جوستينيان ، وأقام - للحفاظ على ماتبقى من أملاك الامبراطورية - أرخونيتى رافنا وقرطاجة ، حيث عهد بإدارة كل من هاتين المنطقتين الى حاكم عسكري هو الأرخون أو الأكزارك ، ومنحه سلطات مطلقة ، لمجابهة الامور المتردية في ايطاليا وأفريقيا ، ولإعادة الهيبة الى الادارة الامبراطورية فيهما .

وتجعل المؤلفه كلا من هرقل وباسل الثانى أعظم الأباطرة البيزنطيين ، على الرغم من التفاوت فى الظروف التى واجهتهما . فبينما اعتلى هرقل عرش الامبراطورية ، والأنواء تكاد تعصف بها من الشرق ممثلة فى الزحف الفارسي السائر قدما ، ومن الغرب الآفار . وفى الداخل ذكرى مذابح فوقاس وعهده المقيت . تسلم باسل الثانى أزمة الأمور وسط فيض من الانتصارات الخارجية التى حققها أسلافه ، والانتعاش الاقتصادى والرواج المالى فى الداخل . ومع ذلك فقد أدت الأسيرة الهرقلية دورها بارزا فى تشكيل الامبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى .

أما الفترة الثانية فتحدث عن هذه النقطة ، وهى تاريخ الامبراطورية الرومانية فى العصور الوسطى ، منذ اعتقال الأيزوريين العرش الامبراطورى ، حتى نهاية العصر الذهبى للامبراطورية بانتهاء آخر أفراد البيت المقدونى سنة ١٠٥٦ .

وقد شهدت بداية هذه الفترة القسطنطينية وهى قاب قوسين أو أدنى من السقوط فى أيدي المسلمين ، ولكن جهود الامبراطور ليو الثالث حالت دون ذلك ، ومن ثم فقد كان من أعظم منجزات الأسيرة الأيزورية فى عهد أول أباطرتها ، انقاذ العاصمة وبالتالي الامبراطورية من السقوط ، ولا تقتصر أهمية ما فعله الأيزوريون على ذلك فحسب ، بل ان نجاحهم فى صد المسلمين عن القسطنطينية ، يفوق بكثير ما فعله شارل مارتل فى



الغرب سنة ٧٢٤ من وقف الزحف الاسلامى من التوغل فى أوروبا ؛ ذلك أن منطقة البلقان كانت تموج آنذاك بالشعوب الصقلية التى كانت ماتزال على الوثنية ، وكان من اليسير تحويلهم الى الاسلام ، اذا ما قدر للمسلمين فتح القسطنطينية فى اوائل القرن الثامن .

ولم يكن دور الأيزوريين قاصرا على مواجهة المسلمين فى الشرق ، ومحاربة البلغار فى الغرب ، بل انهم اكملوا ذلك الجهد الضخم الذى بدأه أباطرة القسطنطينية منذ القرن الخامس على عهد ثيوسيسيوس الثانى ، ثم القرن السادس زمن جوستينيان ، فيما يتعلق بالناحية القانونية ، فأصدر ليو الثالث ، وقد أشرك معه ابنه قسطنطين الخامس ، الاكلوجا التى ظهرت مصطبغة بالمبادئ المسيحية . ورغم أن المقدونيين من بعدهم هجروها ، وأعادوا قوانين جوستينيان ، الا أن ذلك لا يقلل من قيمتها شيئا ، ولا يبخس الأيزوريين أعمالهم .

على أن الأيزوريين قد ذهبوا فى التاريخ بشهرة واسعة نتيجة موقفهم من تقديس الصورة أو الأيقونة Icon ، فقد أعلن ليو الثالث ومن بعده ابنه قسطنطين الخامس الحرب السافرة على تقديس الأيقونات الى حد الخلط بين ما يجب تقديمه لله من وجوه العبادة ، وما يقدم لهذه الأيقونات . وعقد قسطنطين الخامس مجمع هيريا سنة ٧٥٤ ليضفى على موقفه رضاء كنسيا ، ووقفت كنائس الغرب فى بلاد اليونان وروما موقفا عدائيا من القسطنطينية ، وأقدم ليو الثالث على فصل منطقتى كالابريا وصقلية عن السيادة البابوية وأخضعهما لسلطان أسقف القسطنطينية مباشرة . وكان الرهبان هم أكثر الفئات احساسا بخطورة هذه السياسة التى يتبعها الأيزوريون ، لأن الأديرة كانت تمتلئ بالكثير من هذه الأيقونات الرائعة ، وزاد الامر سوءا استيلاء الحكومة على عدد من هذه الأديرة وتحويلها الى مرافق عامة . ومن ثم فقد تزعم الرهبان حركة مضادة لسياسة الأيزوريين ، وكان على رأس هؤلاء يوحنا الدمشقى وثيودور رئيس دير ستوديون ، وأذاع أولهما آراءه التى كانت تنادى بالفصل بين السلطتين الزمنية والروحية . وقال : « نحن نطيع الامبراطور فيما يتعلق بحياتنا اليومية ، أى فى الولاء والضرائب وما يحق له من الامور » .

الكنيسة فلنا القسيسون والمبشرون بالكتاب المقدس ، وشارحو القوانين الكنسية . فالتنظيم السياسى من اختصاص الامبراطور ، أما التنظيم الكنسى فهو من اختصاص القسيسين ، وليس تجريدهم منه الا من قبيل اللصوصية » .

وكان اقدام الأسيرة الايزورية على ذلك نابعا من اعتقادهم بوجوب تطهير المسيحية مما شابها عبر هذه القرون الطويلة ، ولاشك أن الأباطرة اللايقونيين قد تأثروا الى حد كبير بالمفاهيم الاسلامية ؛ والآراء التطهيرية التى ظهرت فى آسيا الصغرى خاصة فى القرن الرابع ، ولا يخفى علينا أن هؤلاء الأباطرة قد قدموا من تلك المنطقة . وإذا كانت الامبراطورة ايرين قد قضت على الجهود التى بذلها ليو الثالث وقسطنطين الخامس ، طيلة نصف قرن ( ٧٢٦ - ٧٧٥ ) ، وذلك بما تم عليه الاتفاق فى المجمع المسكونى السابع الذى عقد فى نيقية سنة ٧٨٧ ، الا أن أباطرة الاسرة العمورية وخاصة ثيوفيلوس Theophilus ( ٨٢٩ - ٨٤٢ ) قد عادوا الى معاداة الايقونية مرة ثانية ، بل ان سياستهم كانت أشد عنفا وضراوة مما اتبعه الايزوريون ، وربما يعود ذلك الى أن انصار الايقونات كانوا قد جمعوا كلمتهم ووحّدوا جهودهم وتصدوا للأباطرة أشد من ذى قبل . حتى استطاعت الايقونات فى النهاية أن تعود سيرتها الاولى بعد وفاة ثيوفيلوس . ولا شك أن حرب الايقونات الاولى والثانية قد تركت آثارها الواضحة على مختلف نواحي الحياة فى الامبراطورية ، سياسيا وعسكريا واقتصاديا ، وبرز ذلك بصفة خاصة فى الناحية الفنية (٤٥) .

---

(٤٥) « أدت الحروب ضد الايقونات الى اتجاه جديد فى ممارسة الفن . بحيث أصبح مفرطا فى الشكلية ومتكررا . فقد أدت الاتجاهات الزخرفية البحتة التى أصبح المصورون يقتصرون عليها الآن الى العودة الى الأسلوب الزخرفى الهلنستى . واستطاعت هذه الاتجاهات بعد ان أصبحت متحررة من الأهداف الكنسية . ان تتيح معالجة الموضوعات الطبيعية بطريقة أقوى مما كان مسموحا به من قبل . وعندما تطورت هذه الموضوعات بعد ذلك الى مناظر للصيد والبساتين . أصبحت الهيئة البشرية بدورها تصور أقل جمودا . وبميزت من الحرية . وعلى نحو قل تسطعيا وأقل التجاء الى أسلوب « المواجهة » . وعلى ذلك فإن العصر الذهبى الثانى

وبانتقال العرش الى الاسرة المقدونية ، عاشت الامبراطورية البيزنطية عصرها الذهبي ؛ فقد حظيت بنوع من الباطرة الادباء والفلاسفة ، وبعدد من القادة العسكريين ، ومنهم من اعتلى عرش الامبراطورية ، رد عليها اعتبارها . ورغم ما كان يبدو لاول وهلة ، من أنها تعاني من الباطرة الاحداث ، الا أن نظام الباطرة المشاركين قد خلص الامبراطورية من العواقب الوخيمة التي كان الممكن وقوعها .

امتدت حدود الامبراطورية البيزنطية في القرن العاشر كثيرا باتجاه الشرق فقد توغلت القوات الامبراطورية الى الدجلة والفرات ، واصطدمت بالحمدانيين في بلاد الشام ، مستغلة في ذلك فرصة انقسام العالم الاسلامي بين خلافتي بغداد العباسية ، والقاهرة الفاطمية ، وتصارع كل منهما على السيادة على بلاد الشام . وربما تكون الحروب التي شنتها بيزنطة على العالم الاسلامي قد صاحبها نوع من الحماسة الدينية ، حتى أننا لنجد الامبراطور نقفور فوقاس يعلن ، أن كل من يقتل في الحرب المقدسة سوف يحشر في زمرة الشهداء . وعلى الرغم من أن الجيوش البيزنطية وصلت الى فلسطين ، الا أنه لم يتحقق لها أبدا الاستيلاء على بيت المقدس ، حتى أنه ليحلو لبعض الدارسين ، أن يعتبروا هذه الحملات ارهاصات بالحروب الصليبية . ولكن الطريف أنه لم يدر بخلد البيزنطيين أنه بعد قرابة قرن من الزمان ، سوف تقوم أوروبا اللاتينية ، بما كان هدفا لنقفور وتزيمسكس من الاستيلاء على بيت المقدس .

وفي الناحية الغربية ، كان الصراع قائما بين الامبراطورية والعناصر الصقلية خاصة المملكة البلغارية ، وهي حروب طويلة تعود الى زمن بعيد . وقد أخذ أباطرة الأسرة المقدونية على عاتقهم مهمة مواصلة هذه الحرب ،

=

للفن البيزنطي في القرنين التاسع والعاشر ، وهو الذي واصل السير في اتجاه نزعة محاكاة الطبيعة السائد في هذه الفترة الدنيوية ، وطبق على التصوير الكنسي ، هذا العصر يمكن أن يعد بحق نتيجة لحركة تحطيم الصور . انظر ارنولد هلويزر . الفن والمجتمع عبر التاريخ ص ١٦٥ - ١٦٦ .



الى أن تمكن باسل الثانى من اخضاع مملكة البلغار لسلطانه ، وأصبحت جزءا من الامبراطورية طيلة ما يقرب من مائة وخمسين عاما . ونتيجة للقسوة التى استخدمها باسل فى حربه ضد البلغار ، ذاعت شهرته فى التاريخ باسم سفاك البلغار Bulgaroctonus وكان النشاط التبشيري البيزنطى يسير فى ركاب الحملات العسكرية ، ووصلت جهود المبشرين البيزنطيين الى الصرب والكرواتيين وامارة كييف الروسية . وان كانت هذه المناطق قد أصبحت ميدانا للصراع الكنسى بين روما والقسطنطينية ، وهى نعمة عرف ملوك البلغار بالذات كيف يفيدون منها فى الحصول على استقلال الكنيسة البلغارية ، بل وعلى بعض التنازلات فى أمر العقيدة من أجل الحصول على ولائهم للكنيسة الأرثوذكسية فى القسطنطينية أو الكاثوليكية فى روما .

وفى هذا العصر الزاهر ، تم احياء الامبراطورية فى الغرب من جديد على يد أوتو الأول سنة ٩٦٢ ، ولكن أباطرة القسطنطينية لم يتقاضوا مطلقا عن اعتبار امبراطوريتهم هى الامبراطورية الرومانية الحقيقية . ولكن هذا لم يمنع من حدوث بعض التقارب بين الامبراطوريتين عندما أقدم أوتو الثانى على الزواج من الأميرة البيزنطية ثيوفانو Theophano ، وانجبت هذه الزيجة أوتو الثالث الذى امتلأ عقله وقلبه بحب الامبراطورية الرومانية ، وعمل على إعادة المجد الضائع لروما القديمة . ولكن قدره لم يمهله لاتمام ذلك .

ولا شك أن هذا النجاح الذى تحقق للامبراطورية فى الخارج ، يعود الى استقرار الأحوال الداخلية ، وتدعيم السلطة الامبراطورية القوية ، وتنشيط الجهاز الادارى الضخم ، بالإضافة الى المجموعات القانونية التى أصدرها الامبراطور باسل الأول ، مؤسس الأسرة المقدونية ، والامبراطور ليو السادس الحكيم . وكذلك نجاح الأباطرة فى الحد - ولو قليلا - من نفوذ العائلات الكبيرة ، وكبار ملاك الأراضى ، الذين ازداد سلطانهم كثيرا فى القرن الحادى عشر الميلادى . بل ان نقفور فوقاس نفسه ، كان ابنا لواحدة من تلك الأمر الكبيرة .

وكان انكسار حدة الجدل العقيدى ، اذا ما قورن بالقرنين الرابع

والخامس عاملا هاما فى استقرار الأمور فى الكنيسة وازدهارها وازدياد نفوذها ، ويعبر عن ذلك بوضوح ما قاله يوحنا تزيمنسكس « لا يسعنى الا أن اعترف أن فى العالم قوتين . الكنيسة والامبراطورية » . ولكن يبدو أن صفحة من صفحات الصراع بين الكنيستين الشرقية والغربية ، كانت قد بقيت مفتوحة لم تطو بعد ، ذلك أن العداء بين روما والقسطنطينية كان يزداد بمرور الأيام شدة ، وساعدت الاحداث فى الشرق والغرب على السواء ، على تصعيد هذا الخلاف ، حتى اذا كان عام ١٠٥٤ وقع الانفصال التام بين الكنيستين فيما عرف فى تاريخهما بالانشقاق الأعظم . وكانت هذه الحادثة هى آخر ما شهدته الأسرة المقدونية قبل نهايتها بعامين .

وتعطى المؤلفة اهتماما خاصا للفترة التى أعقبت وفاة باسل الثانى المقدونى سنة ١٠٢٥ وحتى اعتلاء الكسيوس كومنينوس العرش عام ١٠٨١ ، أى حوالى نصف قرن تقريبا . على اعتبار أنها شهدت تغييرات جوهرية فى الدولة من النواحي السياسية والاجتماعية والاقتصادية . وكان السبب الرئيسى فى حدوث هذه التغيرات ، الضعف الذى كان عليه الأباطرة الذين خلفوا باسل الثانى ، وخاصة أبان ذلك الحكم الثانى العجيب الذى شهدته الامبراطورية بين الأختين زوى Zoe وثيودورا .

ومع هذا الضعف الذى كان عليه الأباطرة ، فقد جمعوا الى جوار ذلك أيضا التبذير والاسراف الذى وصل الى حد السفه ، حتى أن المؤرخ المعاصر القريب من البلاط ، ميخائيل بسللوس Michael Psellus يذكر أن ذلك الطيش المهلك كان نقطة التحول فى قدر الدولة . وقد لجأ الأباطرة الى أسلوب غاية فى الخطورة لمعالجة هذه الأوضاع الاقتصادية المتردية ، فأقدموا على تخفيض قيمة العملة بصفة مستمرة ، وكان هذا الاجراء يعنى فى حد ذاته تخريب الاقتصاد البيزنطى .

وقد أصبحت الدولة عاجزة عن حماية صغار المزارعين من جور الملكيات الكبيرة أو هجمات المغيرين ، مما أدى بالتالى الى أن يتحول الفلاح الحر الى مجرد مستأجر ، وكان التشجيع الامبراطورى المستمر لصغار الملاك منذ القرن السابع وما تلاه ، من أهم العوامل فى تجديد شباب الدولة ، ولهذا فان فقدان هذا العنصر أو اختفائه كان له أثره على الناحيتين المالية

والدفاعية ، كما أنه أدى الى أحداث تغييرات فى التركيب الاجتماعى  
للامبراطورية . ذلك أنه بهذا الضعف الذى انتاب السلطة المركزية ، أخذت  
الأسر الثرية وكبار ملاك الأراضى فى فرض وصايتهم على صغار الملاك  
والفلاحين الأحرار ، مما أدى الى ازدياد نفوذ هذه العائلات ، وبصفة  
خاصة فى آسيا الصغرى ، ودار الصراع على السلطة واضحاً بين  
العسكريين والمدنيين ، وكان اعتلاء الكيسوس كومننوس العرش يعنى  
انتصار الطبقة العسكرية .

وزاد الأمر سوءاً إبان هذه الفترة أيضاً ، الأخطار الخارجية التى  
تعرضت لها الامبراطورية ، وتمثلت فى قبائل البشناق والكومان على  
الدانوب . وكان تحطيم المملكة البلغارية وتحويلها الى ولاية تابعة  
للامبراطورية سنة ١٠١٨ . متنفساً لهذه القبائل التى لم تعد تجد من  
يتصدى لها ، فى وقت ضعفت فيه القوة العسكرية البيزنطية ، وانخفضت  
موارد الخزانه من جراء السياسة غير الحكيمة التى اتبعها خلفاء باسل  
الثانى . ومن ناحية أخرى فقد أبدت بلغاريا هى الأخرى تبرمها من هذا  
الاذلال الذى تعرضت له ، وأصبحت تتحين الفرصة المناسبة ، بالاشتراك  
مع الإمارات الصقلبية الأخرى ، لمواجهة الامبراطورية ، وبينما هذا يجرى  
فى الغرب والداخل ، كانت الجبهة الشرقية تشير الى وقوع صدام عنيف  
بين البيزنطيين ، وبين عنصر اسلامى جديد أخذ يظهر فى الساحة منذ  
دخوله بغداد فى أواخر النصف الأول من القرن الحادى عشر ، نعى  
الأتراك السلاجقة ، وسرعان ما دارت رحى معركة حاسمة بين الطرفين  
فى مانزكرت (ملاذكرد) عام ١٠٧١ ، حيث لقيت الامبراطورية هزيمة مروعة ،  
أسر فيها الامبراطور رومانوس الرابع ديوجينيس . وكانت خطورة هذه  
الموقعة تتمثل فى اجتياح السلاجقة لآسيا الصغرى ، فخسرت بيزنطة بذلك  
نبع الجند ، أو المورد الأساسى الذى كانت تعتمد عليه فى تجييش جيوشها .  
وقد تكالبت المصائب على الامبراطورية فى آن واحد ، ففى نفس العام فقدت  
الامبراطورية آخر موطئ قدم لها فى ايطاليا ، عندما استولى النورمان  
على مدينة بارى . وكان التعليق الذى ذكره بسللوس حول هذه الأحداث  
قوله : « ان الأمور قد وصلت الى الدرك الأسفل من الانحطاط » .



غير أنه في عام ١٠٨١ أخذت الامبراطورية تفتيق من كبوتها ، حيث عمل الامبراطور الكسيوس كومنتوس على علاج الأوضاع الاقتصادية المنهارة في الداخل ، واعادة الهيبة الى الامبراطورية في أعين جيرانها ، حتى أن جهوده كانت السبب في تأخير سقوط الامبراطورية الى أكثر من قرن من الزمان . ولعلنا ندرك هذه الناحية للوهلة الأولى . ففترة نصف القرن السابقة شهدت على عرش الامبراطورية أحد عشر امبراطورا وامبراطورتين ، أما الكسيوس فقد ظل يشغل العرش الامبراطوري طيلة سبع وثلاثين سنة .

وكانت الناحية العسكرية أهم ما يشغل بال الكسيوس ، خاصة وقد راح النورمان يعدون مشروعاتهم لغزو القسطنطينية . ولم يجد الامبراطور أمامه الا الوسائل الدبلوماسية لمسألة السلاجقة ليتفرغ للنورمان . وقد ساعدته الأقدار بموت روبرت جويسكارد الزعيم النورمانى ، وهزيمة البشناق ، وانقسام الاتراك السلاجقة على أنفسهم ، فتمكنت الامبراطورية بذلك من التقاط أنفاسها . واتجه الامبراطور الى البندقية لمساعدته في تحسين الأسطول البيزنطى ، فى مقابل منحها امتيازات تجارية ضخمة فى القسطنطينية . وإن كانت هذه السياسة قد تركت آثارها الواضحة فيما بعد على العلاقات بين البيزنطيين واللاتين ، بحيث أخذت حدة العداء تنمو تجاه المدن التجارية الإيطالية والتجار المقيمين فى القسطنطينية ، الى حد تعرضهم للمذابح من جانب البيزنطيين الذين اعتبروهم دخلاء متطفلين شاركوهم أرزاقهم .

وتتناول المؤلفة أهم أحداث هذه الفترة المتمثلة فى الحركة الصليبية ، وتلقى الضوء على ذلك التفاوت الكبير فى المستوى الحضارى بين الغرب اللاتينى الذى قدم منه الصليبيون ، والامبراطورية البيزنطية ، وعلاقات التوجس والريبة التى كانت قائمة بين القسطنطينية وأمرء الحملات الصليبية الذين كانت لهم أطماعهم الشخصية فى الشرق ، بل وفى الامبراطورية نفسها ، ومن أشهرهم برهمند النورماندى . الذى غادر أماره انطاكية الصليبية الى ايطاليا . ليقوم بهجوم فاشل على بلاد اليونان سنة ١١٠٧ . وعلى عهدى يوحنا ومانويل . تمثل الخطر الغربى على

الامبراطورية البيزنطية في الامبراطورية الغربية زمن فردريك برياروسا وهنرى السادس ، حتى ان الامبراطور الالماني فردريك اعان سلطان قونية السلجوقي ليوقع الهزيمة بمانويل سنة ١١٧٦ ، بالاضافة الى مشروعات هنرى السادس للاستيلاء على القسطنطينية ، وان كان لم يقدر لها ان توضع في حيز التنفيذ . ورغم العداء الذى كان قائما بين البيزنطيين واللاتين ، الا ان مانويل حرص على ان تظل علاقته بهم وطيدة ، يدفعه الى ذلك المصلحة الامبراطورية التى فرضت عليه نوعا من التعايش السلمى مع الغرب ، بدليل حرصه على ابقاء الصداقة مع كونراد الثالث ملك المانيا ، بعد فشل الحملة الصليبية الثانية .

ولقد كان مانويل رجل دولة وحاكما بارعا ، جنديا ، ودبلوماسيا ، يؤمن بالسيادة العالمية للامبراطورية واصالة العرف الامبراطورى ، راودته احلام استعادة ايطاليا . غير ان مشروعاته لم يكتب لها النجاح بسبب الظروف السياسية المعاصرة ، وان كانت الدبلوماسية قد لعبت دورا ما في عهده بكفاءة .

وقد حرصت اسرة كومنين على ان تكون صاحبة السيادة فى علاقتها مع الامارات الصليبية ، فقد نجح يوحنا فى تأكيد سيادته على انطاكية سنة ١١٣٧ ، التى لم تلبث ان سقطت فى عام ١١٤٤ ، فلما كان عهد مانويل مد نفوذ دولته الى بيت المقدس . ولكن على الرغم من كل ذلك ، فقد اثبتت الاحداث ان الزمن قد عفا على هذه الامبراطورية ، ذلك انها لم تستطع ان تصمد امام التحديات التى واجهتها بعد وفاة مانويل . فازدادت قوة كبار الملاك ، وقامت الثورة فى بلغاريا ، وتم اختيار ملك جديد لها ، وتضاعفت غزوات النورمان لبلاد اليونان ، فى نفس الوقت الذى جاءت فيه الحملة الصليبية الثالثة التى اشترك فيها اقوى ملوك اوربا . فردريك برياروسا الالماني ، وفيليب اوغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد ملك انجلترا . وقد انتهت هذه الحملة بالفشل ، وكان فشلها نذير سوء للامبراطورية البيزنطية ، اذا اخذت الآراء تدور حول مسئولية القسطنطينية بنصيب كبير فى فشل الحملات الصليبية ، ومن ثم اخذت الآراء تتجه الى مهاجمة القسطنطينية نفسها ، وسرعان ما تولت الحملة الصليبية الرابعة تنفيذ هذه المهمة .

والآن تصل بنا المؤلفسة الى الفترة الرابعة والاخيرة فى التاريخ السياسى للامبراطورية البيزنطية . وهى الفترة التى تمتد الى قرنين ونصف ( ١٢٠٤ - ١٤٥٣ ) . وشهدت سقوط القسطنطينية لأول مرة فى تاريخها ، ثم للمرة الاخيرة ايضا .

ونحن نرى منذ بداية الحركة الصليبية تلك الاطماع الخاصة الكامنة فى نفوس الأمراء ، والتى ظهرت لأول وهلة عند عبورهم البسفور ، ولم تكن فكرة الاستيلاء على القسطنطينية جديدة على الفكر اللاتينى او مستحقة ، فهذا شىء لا يثير الغرابة ، ولكن الذى يدعو الى الدهشة ، هو تأخر وقوع ذلك الى بداية القرن الثالث عشر . وقد لعبت البندقية فى ذلك دورا بارزا ، مستغلة ما كانت تعانيه أسرة انجيلوس من الضعف . وعلى ذلك فقد تم تحويل وجهة الحملة الصليبية الرابعة من مصر الى القسطنطينية . وفى سنة ١٢٠٤ استولى الصليبيون على العاصمة البيزنطية واقاموا امبراطورية لاتينية استمرت نصف قرن وينيف ( ١٢٠٤ - ١٢٦١ ) .

وقد انتقل النظام الاقطاعى بنظمه المعروفة فى أوروبا الى بلاد اليونان ، فى هذه الامارات اللاتينية التى قامت على انقاض الامبراطورية ، وبقي الأمراء على تبعيتهم الفصلية للملك أوروبا . وان كانت حركة التجارة قد شهدت رواجاً واسعاً بفضل جهود البندقية وهؤلاء الأمراء ، وبسبب سيطرتهم على كثير من الجزر والموانئ الاستراتيجية الهامة .

أما الامبراطورية البيزنطية فانها ، بالرغم من سقوط القسطنطينية ، فقد ظلت قائمة ، وان كانت منقسمة على نفسها ، متناحرة فيما بينها . مملكة ابيروس فى الشمال الغربى لبلاد يونان ، ومملكة نيقية فى الشمال الغربى لآسيا الصغرى ، ومملكة طرابيزون جنوب شرقى البحر الأسود ، وهذا الانقسام فى حد ذاته دليل على النزعات الأسرية الانفصالية التى كانت كامنة فى الامبراطورية . على ان مملكة نيقية كانت اقوى هذه الاقسام جميعا ، وعمل حكامها من أسرة لاسكاريس على تنمية مواردها الداخلية ، بحيث استطاعت فى النهاية تحت قيادة ميخائيل باليولوجوس (٤٦)

---

(٤٦) للمزيد من التفاصيل عن ميخائيل باليولوجوس ، وكيفية



Michael VIII Palaeologus من توسيع دائرة سلطاتها ، واسترداد القسطنطينية سنة ١٢٦١ ، وقدر لأسرته أن تظل في حكم الامبراطورية بعد استردادها قرنين تاليين .

غير أن قيام سلطة مركزية قوية مرة ثانية ، لم يعد ممكنا ، واضطر آل باليولوغوس أن يلجأوا الى نظام الهبات الاقطاعية ، والاعتماد على الولايات الثغرية ( الثيمات ) في الناحية الدفاعية ، والمرتزة في تكوين الجيش . أما الأسطول البيزنطي فقد توارى الى الظل ، واخذت حال الفلاحين في الانحطاط ، وضعفت الموارد المالية للخزانة ، وكانت هذه الأخيرة في أهم المشاكل التي واجهت الامبراطورية بعد عام ١٢٦١ .

ولكن على الرغم من كل ذلك فقد استطاع ميخائيل الثامن أن يحقق لبيزنطة مكانة دولية طيبة . إذ نجح في احباط المحاولة التي قام بها شارل دوق انجو ، والذي أصبح ملكا لصقلية بعد سقوط أسرة الهوهنشاوفن ، لتكوين حلف ضد الامبراطورية . وحاول التقرب الى الكنيسة الكاثوليكية في روما ، وأن كان هذا الاتجاه قد لقي معارضة شديدة في الداخل ، ولكن هذا الوضع الذي حققته بيزنطة لم يستمر طويلا بعد وفاة ميخائيل الثامن ، فقد شهد العرش الامبراطوري صراعا اسريا ، وشهدت الامبراطورية حربا أهلية ، في الوقت الذي ازدادت فيه قوة الصرب في الغرب ، الى حد أن ملك صربيا راح يدعوا نفسه « سيد كل الامبراطورية الرومانية تقريبا » ، والأتراك العثمانيين في آسيا الصغرى ، الذين اخذوا يتدخلون في الحرب الأهلية البيزنطية ، ويوسعون دائرة نفوذهم في الغرب على حساب صربيا وبيزنطة على السواء ، ونقلوا مركزهم الى ادرينوبل في تراقيا ابتداء من عام ١٣٦٥ .

وأمام هذه الأخطار لم يجد يوحنا الخامس بدا من الارتقاء في احضان روما واعتناق الكاثوليكية ، لعل ذلك يشفع له في طلب العون من الغرب ،

---

استرداده للقسطنطينية ، وعلاقة بيزنطة بمصر زمن المماليك ، وكذلك باللاتين في بلاد اليونان ، وما دار في مجمع ليون الثاني سنة ١٢٧٤ ، راجع : دكتور اسحق عبيد : الدولة البيزنطية في عصر باليولوغوس .

ولكنه لم ينل سوى وعودا جوفاء ، بينما اشتد تيار المعارضة ضد اتجاهه الكاثوليكي في الداخل من جانب الكنيسة والجموع . وقد أخذت حدود الامبراطورية تتضاءل حتى ان مانويل الثاني كان يحكم بين عامي ١٣٩١ - ١٤٢٥ ، امبراطورية تتكون من القسطنطينية وحدها !! حتى ان السلطان العثماني خاطبه بقوله : « اغلق عليك ابواب المدينة واحكم داخلها ، فكل ما وراء الأسوار ملك لي » . وان كانت الخطوة الاخيرة للقفز على القسطنطينية قد تأخرت قليلا ، بسبب الصراع التركي المغولي بين بايزيد العثماني وتيمورلنك .

وقد اتبع مانويل نفس سياسة سلفه في التجول في الغرب طلبا للعون ، وأعلن في سنة ١٤٣٩ وحدة الكنيستين ، ولكن هذا لم يجلب عليه الا المزيد من الاستياء من جانب البيزنطيين والشعوب الصقلية الأرثوذكسية . وظل اهل القسطنطينية يرفضون حتى النهاية أي تألف مع روما ، وشاعت هذه القالة انهم يفضلون ان يروا عمائم المسلمين وسط العاصمة على ان يشهدوا قلنسوات اللاتين . وفي ٢٩ مايو ١٤٥٢ سقطت القسطنطينية وسقطت معها الامبراطورية في يد الاتراك العثمانيين ، وكان لهذه الحادثة رنة فرح واسى عند الشرق الاسلامي والغرب المسيحي . وقبل نهاية القرن الخامس عشر كان العثمانيون قد فرضوا سيادتهم تقريبا على كل الامبراطورية البيزنطية القديمة .

اما النصف الثاني من الكتاب ، فقد تحدثت فيه ج . م هسي عن النواحي الثقافية والحضارية للامبراطورية البيزنطية . وخصت الحياة الكنسية والرهبانية بالنصيب الاكبر ، ثم تناولت بعد ذلك الحياة اليومية ، والتعليم والادب ، والفن البيزنطي ، ثم عقدت الفصل الأخير من الكتاب للحديث عن العلاقة بين بيزنطة والعالم المجاور لها . وفضاها الذي لا ينكر على ذلك العالم .

والحضارة البيزنطية نجد جذورها في تراث العالم اليوناني الروماني ، فهي ليست منفصلة عن هذا التراث ، كما انها لم تكن منعزلة عن الحضارات الشرقية القديمة وان كانت مؤثراتها قد جاءت عن طريق التراث الروماني . يضاف الى هذا ان المسيحية قد صبغت هذه الحضارة

بصبغة خاصة ، كان لها أثرها الواضح فى مختلف النواحي . ويظهر هذا بادىء ذى بدء فى السلطة الامبراطورية . فالامبراطور كان يعتبر نائباً عن المسيح فى حكم الامبراطورية ، وهذه الناحية يبرزها كتاب « المراسم » الذى تركه الامبراطور قسطنطين السابع ، حيث يبين مدى ارتباط الامبراطور بالمسيح . مما أعطى للامبراطور وضعاً متميزاً عن أى علمانى آخر . وبهذه الكيفية كان لابد أن يابشر الامبراطور البيزنطى نوعاً من السيادة على الكنيسة ، حتى غدت الكنيسة فى الشرق جزءاً من الدولة أو دائرة من دوائرها الحكومية . فالامبراطور له السيادة فى الناحية التنظيمية ، وهو الذى يدعو الى عقد المجامع الكنسية ، المكانية والمسكونية ، ويترأسها ويدير دفعة الحوار فيها ، ويصدق على قراراتها . وتميل المؤلفة الى عدم استخدام مصطلح « القيصرية البابوية » فى التعبير عن العلاقة بين الامبراطور والبطريرك ، وتفضل اعتبارها نوعاً من « المصلحة المشتركة » ، أو بتعبير آخر مثل الروح والجسد ، كما ورد ذلك فى كتاب « المدخل » Epanogoge فى القانون الذى ظهر فى القرن التاسع . ورغم هذه السلطة المطلقة للامبراطور ، الا أنه كانت هناك حدود معينة لا يجب عليه تجاوزها ، والا تعرض شأن أحد رعاياه للحرم الكنسى . ولاشك اننا نجد الاختلاف واسعاً ، فيما يتصل بعلاقة الدولة بالكنيسة بين الشرق والغرب . فبينما كانت الصورة فى الشرق على هذا النحو الذى رأيناه ، كان الصراع يدور سافراً فى الغرب بين البابوية والامبراطورية حول السيادة ، متخذة من مشكلة التقليد العلمانى ستاراً (٤٧) .

وقد جرت العادة منذ القرن الخامس بتتويج الامبراطور على يد أسقف القسطنطينية . وان كان هذا مجرد تقليد للدلالة على أن الامبراطور يباشر حكمه بنعمة من الله وفضل . بينما أخذت العهود والمواثيق على الامبراطور باتباع الأرثوذكسية وعدم الخروج عليها ، وجاء هذا رد فعل لما حدث على عهود أعداء الأيقونات (٤٨) . وقد أدى ذلك بالتالى الى ازدياد سلطان الأساقفة ، خاصة بعد أن تحقق النصر لانصار الأيقونات .

(٤٧) راجع مقدمة الجزء الثانى من الدولة والكنيسة للمترجم .

(٤٨) ربما تعود مسألة المواثيق التى كانت تؤخذ على الأباطرة باتباع



وكانت السمة البارزة في السياسة الداخلية للباطرة البيزنطيين ، تتمثل في اهتمامهم بالقانون ، ولم يكن هذا شيئا غريبا على الفكر الروماني ، الذي برع في زمن الامبراطورية القديمة في سن التشريعات واصدار القوانين ، التي تمكنت بها الامبراطورية من ان تحقق السلام لرعاياها على اختلاف طبائعهم وتقافتهم الحضارى . وكان هذا أيضا ديدن اباطرة القسطنطينية ، نأمنه بوضوح في تلك المقتنات والكتب القانونية التي صدرت على عهد ثيودوسيوس الثاني وجوستنيان وليو الثالث وباسل الأول وقسطنطين السابع وغيرهم من الاباطرة . وكان لابد ان يتبع هذا أيضا الاهتمام بالمحاكم وساحات القضاء ، الكنسية منها والمدنية .

وباعتبار الامبراطور مسئولاً عن السياسة وتوجيه الادارة ، فقد كان يمثل رأس الجهاز المركزى ، وهو الذى يمنح الألقاب التشريعية لكبار الموظفين ، ولأن ادى للدولة خدمات معينة . ورغم التعقيد الذى كانت عليه الادارة البيزنطية الا انها تميزت بالكفاءة والمقدرة والمرونة .

وقد تمتعت الدبلوماسية البيزنطية بقدر كبير من الذكاء ، خاصة وأن أعداء الدولة كانوا يحيطون بها من كل جانب وفى كل حين على امتداد عمرها الطويل . ولهذا فان سلاح الحرب وحده كان كفيلا بأن يورد الامبراطورية مورد الهلاك ومن ثم لعبت ادارة الخارجية البيزنطية دورا بارزا فى التعامل مع الدول والجماعات الأجنبية . ويفصح كتاب الادارة الامبراطورية الذى وضع منتصف القرن العاشر ، عن أساليب الدبلوماسية البيزنطية الذكية ، كمنح الألقاب التشريفية على بعض الزعماء ، أو تحريض

=

العقيدة الأرثوذكسية الى زمن متقدم اعنى قرب نهاية القرن الخامس . فقد حدث عند اختيار انسطاسيوس الأول للعرش الامبراطورى ( ٤٩١ - ٥١٨ ) ، أن رفض البطريرك يوفيموس Euphemius أن يباشر مراسم تتويج الامبراطور ، لما عرف عنه من ميل الى العقيدة المونوفيزية ، ولم يقدم البطريرك على اتمام اجراءات التتويج الا بعد أن حصل على وثيقة رسمية وقعها انسطاسيوس يتعهد فيها باتباع الأرثوذكسية الخلقيدونية . انظر Jones, Later Roman Empire. I.p. 232 ولجونز أيضا The decline of the Ancient world, p. 94 وانظر كذلك Vasiliev, op. cit., I, p. 109

جماعة على أخرى ، أو الزيجات السياسية وما الى ذلك ، وقد نجحت بيزنطة في هذا الميدان نجاحا بعيدا .

ولا شك أن الامبراطور كان يتحمل المسؤولية الكبرى في تكوين الجيش وبناء الأسطول ، ولما كان الجيش يعتبر بحق عصب الامبراطورية البيزنطية بسبب الاخطار التي كانت تتهددها دائما ، كان الاباطرة يحرصون على أن تظل قواتهم على أعلى قدر من الكفاءة والمقدرة العسكرية . وليس بخاف على أحد ذلك الدور الكبير الذي لعبه الجيش والاسطول في حماية الاراضى والسواحل البيزنطية ، والدفاع عن الامبراطورية طوال هذه القرون . وكان مما يشد أزر الجنود اعتقادهم أنهم يحاربون من أجل نصرة قضية المسيحية واعلاء كلمة المسيح ، ومن ثم كان يغمرهم دائما تيار الحماسة الدينية . بل ان الاباطرة أنفسهم ، أو على الأقل بعض منهم ، شاركوا جنودهم هذه العاطفة (٤٩) .

ولو حاولنا أن نلقى نظرة على التنظيمات الكنسية ، لوجدنا أن الكنيسة قد تمثلت الدولة في بادئ الأمر وراحت تخطو على نحو منها . مبتدئة بالكراسى الرسولية التي تعود الكنيسة بتأسيسها الى أحد الرسل الاثنى عشر ، وكان لهذه الكنائس التقدمة على غيرها من الكنائس الأخرى . وياتى في مقدمة هذه الكراسى روما والاسكندرية وانطاكية ، ثم زاحمتهم القسطنطينية في القرن الرابع ، وحاولت أن تعود بأصلها الى القديس أندراوس ولقيت العون في ذلك من جانب الاباطرة الذين حرصوا على أن

---

(٤٩) صحبت الحملات العسكرية التي قام بها هرقل لاستعادة الولايات الشرقية التي استولى عليها الفرس في مطلع القرن السابع ، حالة من الحماسة الدينية شملت الامبراطورية وتركزت في العاصمة ، وتمثلت في الخطب والعظات الدينية التي كان يقوم بها البطريرك سرجيوس واكليروسه . بل ان هرقل نفسه ، بعد فشل حملاته الأولى ، اعتزل بعض الوقت في أحد الأديرة يناجى العذراء ويتطهر ، وحمل معه أيقونة العذراء عند خروجه الثانى للحرب ، مما جعل الناس يعزون انتصاره على الفرس الى هذه الصورة . ودفع نفرا من المؤرخين الى اعتبار هذه الجروب نوعا من الحرب الصليبية . انظر : اومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٠٥ وأيضا دكتور اسد رستم : الروم ح ١ ص ٢٢٥ . وكذلك C. M. H, p. 292 .

يعلو كعب أسقفية العاصمة على سائر الكراسي الرسولية الأخرى ،  
فتضمنت قوانين بعض الجامع المسكونية ( الثانى ٢٨١ والرابع ٤٥١ )  
النص على أنها تلى كنيسة روما فى المرتبة مباشرة باعتبارها « روما  
الجديدة » .

وقد أخذت هوة الخلاف تتسع بين كل من روما والقسطنطينية ،  
وازدادت على مر القرون عمقا وتباعدا ، بفعل اختلاف الفكرى واللغوى  
والعقيدى ، وما يتعلق بالنظام الكنسى . ثم تدخلت المسألة السياسية فزادت  
النار ضراما خاصة إبان الحرب ضد الايقونات ، واستباق الكنيستين على  
الاستئثار بمنطقة البلقان ، وبلغاريا بالذات ، واتجاه روما الى مملكة  
الفرنجة ، وتتويج شارلمان وأوتو أباطرة فى الغرب ، الى أن انتهى الأمر  
بحدوث الشقاق الأعظم بينهما سنة ١٠٥٤ ، والذي جاء نتيجة طبيعية لسلسلة  
من الأحداث المتلاحقة عبر القرون الطويلة .

ومما لا شك فيه أن القسطنطينية قد أفادت الى حد كبير من جراء  
بعض هذه الأحداث ، فأقدم أسقفها فى نهاية القرن السادس على اتخاذ  
لقب « مسكونى » ، وإن كان هذا لم يعن السيادة العالمية . كما أن فقدان  
الامبراطورية لولاياتها الشرقية فى القرن السابع ، قد خلص القسطنطينية  
من منافسة الاسكندرية وأنطاكية ، وهى منافسة طالما ضاقت بها العاصمة .  
وأصبحت كنيسة القسطنطينية هى كنيسة الجامع المسكونية السبعة (٥٠) .

---

(٥٠) كان قسطنطين هو أول من ابتدع سنة عقد هذه الجامع  
المسكونية ، وقد عرفت الكنيسة قبل ذلك الجامع المكانية ، ولكن الجامع  
المسكونية لم يكن من السهل تحقيقها فى ظل السياسة العدائية التى كانت  
تنتهجها الدولة الوثنية . وكان أول هذه الجامع فى نيقية سنة ٣٢٥ لمناقشة  
العقيدة الأريوسية ، والثانى فى القسطنطينية سنة ٣٨١ على عهد الامبراطور  
ثيودوسيوس الأول ، وكان من بين مهامه بحث الآراء الماكيدونية . وفى  
عام ٤٣١ عقد المجمع المسكونى الثالث فى أفسس زمن ثيودوسيوس الثانى  
للرد على أفكار نسطور ، بينما دعا الامبراطور ماركيان سنة ٤٥١ الى عقد  
المجمع المسكونى الرابع فى خلقيدونية ، الذى أقر مذهب الطبيعتين فى  
المسيح . فلما كان عهد جوستينيان عت المجمع الخامس ٥٥٢ للتوصل الى  
حل حول الجدل العقيدى بين النافزة والديافزة . أما المجمع المسكونى



ولم تكن هذا المجامع المسكونية قاصرة على مناقشة الآراء العقيدية .  
 يل عمل بعضها أيضا على بحث مسائل التنظيم الكنسى الى جوار الناحية  
 العقيدية (٥١) . وكانت الكنيسة تضم عددا كبيرا من رجال الكليروس ،  
 وأوضح مثال على ذلك كنيسة أياصوفيا ، التى اضطر أسقف العاصمة فى  
 القرن السابع زمن هرقل أن يسفنى عن كثير جدا من الكليروسها . وكان  
 الزواج مسموحا به لمن هم دون مرتبة الأسقفية . وفى بعض الأحيان كان  
 يفضل الرهبان لشغل المناصب الكهنوتية ، وان لم يكن هذا تقليدا ثابتا . وقد  
 حرصت الكنيسة دوما أن تظل غنية بمواردها ، وازداد فعلا ثراء الكنيسة  
 بما كانت تمنحه الدولة لها والمؤسسات والأفراد .

وكانت الكنيسة اليونانية تتسم فى نظر البعض بالجمود أو المحافظة،  
 ولكن بقاء الكنيسة اليونانية قائمة ، هو فى حد ذاته رد على هذا الاتهام ،  
 ذلك أن التقاليد لكى تبقى فلا بد أن تتطور وهى تنتقل من جيل الى آخر .  
 ولا مجال للشك فى أن الكنيسة اليونانية قد حفظت للعالم المسيحى تراث  
 الآباء اللاهوتيين ، ومحاوراتهم للتوصل الى تعريف دقيق للايمان  
 الارثوذكسى .

وقد لعبت كنيسة القسطنطينية دورا كبيرا فى الحركة التبشيرية بين  
 الجماعات الوثنية ، ولعل أقوى الأدلة على ذلك ، الجهود التى بذلتها بين  
 الجماعات الصقلبية أو القبائل الخزرية . ولا يقل عن هذا دور رجال الدين  
 فى الداخل لرعاية شعب الكنيسة ، وتعليم المسيحيين شئون دينهم . ويعتبر

=

السادس فقد التأم عقده سنة ٦٨٠/٦٨١ ، لقرار التخلي عن المونوثيتية  
 ( الارادة الواحدة ) الذى ابتدعه هرقل فى محاولة لاسترضاء الولايات  
 الشرقية . وكان هذا المجمع على عهد الامبراطور قسطنطين الرابع . أما  
 المجمع السابع والأخير فقد دعت اليه الامبراطوره ايرين سنة ٧٨٧ لشجب  
 الآراء اللاقونية ، وإعادة الصور الى قداستها .

(٥١) للوقوف على تفاصيل القوانين الكنسية الخاصة بالناحية  
 التنظيمية انظر .

H. Perrcival, The Seven Ecumenical Councils, (Nicene and post-  
 Nicene Fathers, Second series). Vol. XIV

Hefele, History of the Councils of the Church, 5 Vols. وراجع أيضا .

البيزنطيون أعظم كتاب العظات فى العالم المسيحى . وقد اهتموا اهتماما بالغاً بالقداسات الكنسية ، فيما يختص بالالحن الموسيقية والتراتيم والتسابيح . وكان قداس القديس باسل وقداس القديس يوحنا ذهبى الفم ، هما العماد الرئيسى الذى استقى منه البيزنطيون قداسهم الكنسى .

ولا سبيل الى الشك فى أن الكنيسة فى بيزنطة قـت تمكنت من حياة الناس ، فتعلقوا بها الى حد كبير ، وزاد من تعلقهم ايمانهم العميق بما شاع عن اتيان القديسين للمعجزات ، فسعوا الى أن ينالوا البركات على أيديهم . وحظى الرهبان فى هذا المجال بالنصيب الاوفر .

وتعتبر مصر صاحبة الفضل الأول على العالم المسيحى فى الحياة الرهبانية ، فهى التى قدمت الى دنيا المسيحية هذا الأسلوب فى الزهد والتسكية بنمطيه التوحدى والديرانى . فالقديس أنطونيوس يعد رائد الرهبانية فى مصر والعالم بشكلها التوحدى فى أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع . والقديس باخوم هو صاحب أول مجتمع ديرانى فى القرن الرابع . ومن مصر انتقلت الرهبنة الى مختلف أنحاء الامبراطورية بين الجماعات المسيحية خلال ذلك القرن ، فعبرت البحر الى غالة وإيطاليا وإسبانيا ، ثم اتجهت الى فلسطين وسوريا وآسيا الصغرى وبلاد اليونان . حتى اذا كانت الامبراطورية فى العصور الوسطى ، لم يكن هناك مكان يخلو من الرهبان ، وأصبحت الرهبانية عنصرا مكملا للحياة البيزنطية . ومن أشهر هذه الأمكنة فى فترة العصور الوسطى ، جبل أوليمبوس بالقرب من بروسيا ، وجبل لاتروس فى أقصى جنوب آسيا الصغرى ، والجبل المقدس الكلابرى ، ثم جبل اثوس على مقربة من سالونيك ، وهو أشهرها جميعا . فقد اجتذب اليه الرهبان من جميع أنحاء العالم المسيحى ، وحظى بالاحترام العميق والحماية الامبراطورية . ورغم الانحلال السياسى الذى أصاب الامبراطورية فى القرنين الأخيرين من عمرها ، فإن الجبل على العكس من ذلك تزداد قوته ، وكانت حركة الزهد الصامت خير دليل على هذه المكانة التى بلغها .

وتعتبر الأديرة الباسيلية ، التى تنسب الى القديس باسل أسقف قيسارية الكبادوك ، فى آسيا الصغرى ، النظام الذى ارتضته الرهبنة

البيزنطية منذ القرن الرابع . فقد أثر الديرانية على التوحيد ، وسار على نهجة ثيودور الاستودي ، رئيس دير ستودايوس في القسطنطينية ، وأبرز الديرانيين في الامبراطورية في عصورها الوسطى وقد اختط نهج سلفه في القرن الرابع باسل الكبادوكي ، وترك كثيرا من العظات والخطب للسائرين على هداه . وكانت القدرة على التفكير الواضح - كما هي عند يوحنا الدمشقي - تعنى عنده الفهم العميق لكتاب المقدس وآراء آباء الكنيسة ومجابهة الهرطقة .

ولما كانت الحركة الرهبانية قد نشأت في اطار الكنيسة ، فقد اهتمت هذه على ان تقيد من هذه الطاقة قدر الطاقة ، وظهر ذلك واضحا في الدور الذي لعبه الرهبان في المجامع الكنسية ، ووقوفهم وراء الاساقفة في التصدي للآراء التي تنعتها الكنيسة بالهرطقة ، مما دفع بعض المجامع الكنسية الى تنظيم الاطار الرهباني وتحديد نشاط الرهبان ومهامهم ، واتضح هذا بشكل ظاهر في المجمع المسكوني الرابع الذي عقد في خلقيدونية عام ٤٥١ . وعلى أية حال فان القرن التاسع يعتبر الفترة التي اكتملت فيها النظم الأساسية للحياة الديرانية . بحيث أصبح من اليسير على العالمين اللاتيني والصقلي ان يقفا على أسرارها وأن يفيدا منها .

وقد بلغت الأديرة في كثير من الأحيان قدرا كبيرا من القوة والنفوذ ، وازدادت قوتها بفعل الثراء الذي وجدت نفسها غارقة فيه ، نتيجة للهبات والأوقاف التي كانت الدولة أو الأفراد يقدمونها اليها ، وقد أحست الدولة بخطورة هذه الناحية على الموارد المالية للخزانة الامبراطورية ، فتدخلت الاباطرة للحد من بناء الأديرة ، أو لتحديد الهبات الموقوفة عليها ، كما حدث في القرن العاشر . وعلى الرغم مما تعرضت له الأديرة من العسف زمن الاباطرة اللايقونيين الا انها ما لبثت ان استعادت نفوذها وقوتها مرة ثانية بعد هزيمة أعداء الايقونات ، ولم تجد محاولات الاباطرة القالين للحد من سلطانهم . ولا شك ان هذا الثراء الذي كانت عليه الأديرة ، قد أدى الى خروجها عظميتها ورسالتها الأساسية . ولهذا نجد كثيرين من المصلحين - العلمانيين والاكليروسيين على السواء - يرفعون أصواتهم بضرورة الإصلاح ، وعودة الأديرة الى وظيفتها وطبيعتها الاولى . وقد



كتب يوستاتيوس Eustathius رئيس أساقفة سالونيك في القرن الثاني عشر ، نقدا لاذعا لما كانت عليه الحياة الرهبانية آنذاك ، وعلى نفس المنوال كتب يوحنا السلمى John Climacus وثيودور الاستوديى .

وقد تسابقت الدولة والافراد فى تأسيس الدير ، وكان لكل دير يقام وثيقة تأسيس تضم الالتزامات الخاصة بالطقوس ، كالصلاة وقواعد الصيام والاحتفالات الدينية ، وعدد الأفراد الذين يستوعبهم الدير ، والهبات الموقوفة عليه . ورغم ذلك فقد كان هناك بعض الدير التى تتمتع بالاستقلال الكامل عن أى سلطة علمانية أو كنسية ، ولاتخضع حتى لمؤسسها ، وكانت هناك كذلك قوانين تنظيم عملية دخول الأفراد الدير ، وتضمنت مراسيم الأباطرة الكثير من هذه القوانين المنظمة ، من أهمها فترة الاختبار التى قد تمتد الى ثلاثة أعوام للوقوف على مدى جدية الراغبين فى أن يسلكوا هذا السبيل ، وان كانت هناك استثناءات من هذه القاعدة ، لمن عرف عنهم منذ الصغر الورع والتقوى . وكان الانتقال من دير الى آخر يمثل أهم المشاكل التى تواجه ادارة الدير المستقبل ، لما يترتب على هذا الانتقال من مسائل خاصة بالانتماء والملكية . ولهذا كان ينظر الى هذه الناحية بشئ من الامتناع . وكيفما كان الامر فان الدير يعتبر البداية الطبيعية لهذه الحياة المشتركة . ولكن بعض الرهبان كان يخطط طريقا أكثر صعوبة ، كالتوحيدين أو الذين يحيون على عمود أو داخل الكهوف أو تجاوبف الاشجار .

ولا ريب أن حركة الرهبنة قد أدت للدولة البيزنطية خدمات متعددة فى مجالات شتى ، أهمها بطبيعة الحال النواحي الثقافية والاجتماعية والاقتصادية ، وقام الرهبان بدور كبير فى الدفاع عن العقيدة الارثوذكسية . ولهذا لا غرابة فى أن يصبح الرهبان عمدة العالم البيزنطى ، الذين تعلقت بهم أفئدة الجموع ، وراحوا يطلبون اليهم قضاء حوائجهم وتحقيق الآمال . وهكذا احتل الرهبان مكانة فريدة فى الشرق الرومانى .

وفى فصل ممتع ، قدمت المؤلفة تصويرا رائعا للحياة اليومية فى الامبراطورية والقسطنطينية بصفة خاصة . فالاسرة هى محور الحياة (م ٥ - العالم البيزنطى)

الاجتماعية ، ولهذا كان طبيعيا ان يحظى الزواج بالمرتبة الاولى فى التشريعات البيزنطية ، بينما كان الزواج للمرة الثانية أمرا غير مرغوب فيه ، أما الزيجة الرابعة فقد كانت ملعونة ، ومن هنا ندرك تلك المشاكل التى واجهت الامبراطور ليو السادس لزواجه المتكرر • وكان الطلاق شيئا كريها • على الرغم من شيوعه ، وعلى الرغم من حرص القانون البيزنطى على أن يضيق عليه الخناق • وكان للمرأة وضعها اللائق فى هذا القانون ومى المجتمع أيضا ، وقامت الكثريرات من النساء بدور سياسى له خطورته بصورة مباشرة أو من وراء ستار • ففضل ثيودورا على جوستينيان لا يمكن التغافل عنه ، والجهد الذى بذلته كل من الامبراطورة ايرين زوجة ليو الرابع والامبراطورة ثيودورا زوجة ثيوفيلوس ، فى القضاء على كل محاولات رجال الاسرتين الايزورية والعمورية المعادين للايقونات ، كان السبب الرئيسى فى انتصار الايقونيين •

وكانت الطقوس المسيحية هى السمة المشتركة التى تجمع كل افراد المجتمع البيزنطى ، من الامبراطور حتى أدنى الادنياء • على أن القسطنطينية كانت ترتدى أحلى ما عندها لتبدو فى أبهى زينة ، اذا كان الطقس يتعلق بأفراد البيت الامبراطورى ، كتناول أحدهم سر المعمودية • ولا شك أن القسطنطينية كانت مركزا للحياة خلال العصر البيزنطى الزاهر زمن المقدونيين •

ورغم أن هيئة التركيب الاجتماعى للمجتمع البيزنطى قد تعددت بصورة دقيقة ، إلا أن الانتقال من طبقة لأخرى لم يكن عسيرا • فقد اعتلى العرش اباطرة كثيرون يعودن فى أصولهم الى الفلاحة أو الجندي • هذا على حين كانت للخصيان أهمية خاصة ، وبلغ بعضهم أعلى المناصب فى الدولة •

وتتناول المصادر المعاصرة ، وفى مقدمتها كتاب المراسم وكتاب الوالى ، الحياة الأسرية للباطرة داخل قصورهم ، وحياة الناس فى دورهم ، وأنواع الأطعمة والشراب عند سرات القوم وعلى موائد الكنيسة والأديرة ، ووجبات أصحاب المهن المختلفة والحرفيين ، وقوانين تنظيم الاسعار ، وقصور الامراء والنبلاء وبيوت الاثرياء ، وملابسهم وكيفية

تنوعها ، والأدوات المنزلية على اختلافها . ولقد كان الجيش البيزنطى يضم بين جنبه الطرفين المتناقضين . الثراء الكامل والفقر المدقع . وبينما كان المترفون يرفلون فى حلل النعيم ، كانت حياة الأسياء بنيسة مهلكة ، لم تجد معها محاولات العون من جانب المؤسسات الخيرية الديرانية ، التى كان من أهم واجباتها ، كما يتضمن ميثاق تأسيسها ، رعاية ذوى المسغبة والمقربة .

وقد ازدهرت الصناعات فى القسطنطينية وغيرها من مدن الامبراطورية مثل سالونيك وطرابيزون ، وفى مقدمتها الصناعات الحريرية والصوفية ، التى بلغت قدرا كبيرا من الرقة والدقة عندما كان الامر يتعلق بثبات البيت الامبراطورى ، بل كانت هناك مصانع اقتصرت انتاجها فقط على الاسرة الحاكمة . أما الحياة فى الريف فيصورها لنا ما عرف بقانون الفلاح ، وهو القانون الذى تختلف الآراء حول تاريخه ما بين اخريات القرن السابع والقرن الثامن ، وكيف كان مجتمع القرية يتكون من الملاك الاحرار والفلاحين والعبيد . كما أن هذا القانون تضمن أيضا العقوبات اللازمة لمواجهة كافة الاحتمالات . ولكن الصورة العامة التى كان عليها الفلاح كانت تدعو الى القنوط ؛ فقد كان يعيش على هامش الحياة ، ومن الصعب عليه أن يفى بالتزاماته الضريبية تجاه الحكومة فى كثير من الأحيان .

ولما كان للامبراطورية سواحلها الطويلة ، كان طبيعيا أن يتجه أهلها للاشتغال بالاعمال البحرية ، سواء على الاسطول العسكرى ، أو التجارى ، أو بالصيد ، وكان لابد كذلك أن توجد القوانين التى تنظم حركة التجارة ، كالقانون البحرى الروموسى ، الذى وضع من أجل حماية سفن صغار التجار . ومن الطريف أن هذه القوانين نصت على المساحة التى يجب أن يحتلها المسافر على السفينة ، وما يجب عليه فعله أو تركه ، كعدم قلى السمك أو اشعال النيران وهكذا .

وكان الشعب البيزنطى بطبيعته يميل الى الجدل والنقاش ، وكانت الحمامات العامة تمثل له متنفسا طبيعيا لاشباع فضوله فى هذه الناحية ، وربما يقضى البيزنطى يومه كاملا فى الحمام أو ذاك يتجاذب ورفاقه اطراف الحديث فى مختلف الموضوعات ، وفى الجانب الآخر ، كان التردد على



مزارات القديسين بصفة مستمرة يمثل مسألة حيوية للبيزنطيين المتدينين ، حتى أن كثيرا من العقود التجارية والاتفاقات كانت تتم اثناء هذه الزيارات .

وقد انتشرت الخرافات والخزعبلات وأعمال السحر والشعوذة في المجتمع ، وساعد على ذلك ما ترسب في تقاليدهم من التراث اليوناني - الروماني القديم وما خالطه من مؤثرات شرقية ، بالإضافة الى ايمانهم العميق بقدرة القديسين والرهبان على الاتيان بالمعجزات . ولم ينس المجتمع البيزنطي وسط متاهات جدله من حول العقيدة ، وتعلقه برهبانه وقديسيه ، أن يوفر لنفسه الكثير من وسائل اللهو والتسلية ، فكانت هناك فرق الاكروبات ، والحواة والمهرجون ، والعروض الموسيقية . وان كانت بيزنطة قد افترقت الى ما يمكن أن يرقى الى مستوى الدراما الاغريقية القديمة ، التي تقدم في أسلوب جاد ، يجتذب اليه جمهور النظارة بكل الاهتمام والانتباه .

وكان أهم ما يميز روح البيزنطي السخرية اللاذعة بكل شيء بالأطباء ورجال القانون ، والاكليروس ، ورغم الكوارث التي تحيق بالمجتمع البيزنطي على امتداد عمره ، وحياة اليقظة التي كان يحيها الكثيرون ، الا أن البيزنطي كان ينظر الى كل ذلك باعتباره تجربة من السماء ، اراد الله أن يبتليه بها ، وما عليه الا أن يصطبر عليها ليرى الله قدر ايمانه وتقواه .

ورغم ما ساد بين الجموع من الخرافات والخزعبلات ، الا أن المجتمع البيزنطي يعد من المجتمعات المثقفة ، تعود جذور ثقافته الى العالمين اليوناني والروماني ، حيث كانت الامبراطورية البيزنطية هي السورث الشرعي للامبراطورية الرومانية المتأخرة ، فقد كان ينظر الى التعليم نظرة تقدير واحترام باعتباره أمرا سياميا ، وينعكس هذا على المعلمين الذين كانوا يلقبون التكريم ، العام منهم والخاص ، ويتضح ذلك بصورة جلية ، في الاهتمام الذي اولته الدولة للعملية التعليمية حتى في أجلك الأوقات التي كانت تمر بها الامبراطورية ابان الغزو اللاتيني .

ومن الأمور المسلم بها أن التعليم كان أمرا لامندوحة عنه بالنسبة لذوى اليسار ولم يكن مقصورا على البنين وحدهم دون البنات ، بل لقد نبغت كثيرات من بنات الطبقة الراقية ، وكانت حلقات المناقشة التي يشتركون

فيها ، تعود البعض ، حسب تعبير أحدهم ، الى ذكرى فلاسفة الاغريق الأقدمين . ويبدأ التعليم الابتدائي في القرية أو المنبة ، ويحتوى على الكثير من كتابات المفكرين الكلاسيكيين ، ثم تأتى المرحلة التالية بعد ذلك فى مدارس المدن الكبرى كاثينا وبيروت والاسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية . وقد ازدهرت جامعة القسطنطينية بطبيعة الحال للاهتمام الذى أولاها اياه الأباطرة ، حتى اذا كان القرن السادس ، علا كعبها بعد ان أقدم جوستنيان سنة ٥٢٩ على اغلاق جامعة اثينا ، ثم ازدادت شهرتها بعد ان خضعت مصر وسوريا للمسلمين فى القرن السابع . ورغم الجدل العقيدى الذى اتسم به المجتمع البيزنطى ، الا ان جامعة القسطنطينية لم يكن بها كرسى للدراسات اللاهوتية ، فقد كانت هناك مدارس لاهوتية خاصة ملحقة بالكاتدرائيات الكبرى ، وان كان هذا لا يمنع من القول بأن الكثيرين من اساتذة جامعة القسطنطينية كانوا من علماء اللاهوت .

ولقد شهدت بيزنطة تقدما مرموقا فى مختلف نواحي المعرفة الانسانية ، وكان فى مقدمة العلوم التى برعت فيها الرياضيات والفلك ، وكانت الفلسفة ترتبط بالرياضيات فى كثير من الأحيان ، الى الحد الذى أبدى البعض أسفه لعدم الاهتمام بالفلسفة فى حد ذاتها فى فترة متأخرة من تاريخ الامبراطورية . واذا كانت الفلسفة قد ارتبطت أحيانا بالرياضيات ، فقد كان ارتباطها باللاهوت مسألة حتمية ، حيث كان ينظر اليها باعتبارها رياضة فكرية ، وكان على آباء الكنيسة ان يعكفوا على دراستها حتى يمكنهم مواجهة تحديات الفلاسفة للعقيدة المسيحية ، وظهر الاهتمام بصورة واضحة بأعمال افلاطون وأرسطو ، وظهرت مؤلفات عديدة تناولت كتاباتهم بالتحليل والتفسير والتعليق . ولم يكن الاهتمام بالأدب اليونانى القديم يقل عن قرينته الفلسفة كثيرا ، وخاصة الأعمال الفيلولوجية والنصوص .

ولما كان البيان هو الخطوة الأولى والأساسية فى تفوق أى كاتب أو أديب ، كان لابد أن يحظى بقدر عظيم من الرعاية والاهتمام . وهذا شئء كان من أهم ما ورثته بيزنطة عن أسلافها ، ولم يجسد الكتاب الذين يفتقدون القدرة البلاغية على التعبير الا الازدراء ، ولم يقدر لأعمالهم النجاح . واذا كان الأدب البيزنطى قد تعرض للنقد لأنه يشتمل على أعمال بلاغية لفظية ، فذلك راجع بلا شك الى ان النقاد كانوا يقارنون الأدب

البيزنطى بالأدب الكلاسيكى الزاهر ، مما أوجد هذا الرأى لديهم • وعلى أية حال فقد اهتم الشعر بالنواحي التصويرية والوفاء والشعر الغنائى وقصائد الحب والفروسية أو الشعر الحماسى •

على أن الدارسين لا يمكنهم اغفال نواحي التقوى الذى حققته بيزنطة فى ميدانين رئيسيين ، هما الكتابات التاريخية والعقيدة • حقيقة لم يستطع البيزنطيون محاكاة هيرودوت أو ثوكيديدس أو اكسنوفون فى ميدان التاريخ ، ولكنهم قدموا نماذج جيدة من المؤرخين الذين ذاع صيتهم بفضل كتاباتهم ، فاذا استثنينا المؤرخين الكنسيين فى القرنين الرابع والخامس ، كان لدينا عدد غير قليل من المؤرخين فى فترات لاحقة مثلى اجاثيا وبروكوبيوس وليو الشماس واناكومتنا ونقفور جريجور •

أما الكتابات اللاهوتية فقد كانت بلا ريب ميدانهم الفسيح والساحة الرئيسية التى ليس من السهل على أحد أن يباريهم فيها • ويعود ذلك الى الولاء الكامل للعقيدة المسيحية ، والحرص على التوصل الى تعريف دقيق للاقنوم الثانى فى الثالوث ، الابن أو المسيح ، الكلمة المتجسدة ، وساعدهم على ذلك ما أفادوه من دراسة الفلسفة اليونانية القديمة بمدارسها المختلفة واتجاهاتها الفكرية المتباينة • وقد قدمت بيزنطة الكثير من مشاهير اللاهوتيين الى عالم المسيحية فى مقدمتهم اباء كبادوكيا الثلاثة ، جريجورى النازيانزى *Gregorius Nazianzenus* وجريجورى النيسارى *Gregorius Nysaeus* والقديس باسل اسقف قيسارية ، وهؤلاء الثلاثة عاشوا فى القرن الرابع ، ثم هناك ايضا سيمون اللاهوتى الجديد كما اشتهر بذلك ، فى القرن الحادى عشر ، وهو الذى تكشف ترانيمه وعظاته عن الطبيعة الخلاقة فى الفكر الدينى البيزنطى •

ولا شك أن هذا التنوع فى نواحي التعليم والأدب ، هو دليل صدق على ثراء اللغة اليونانية ، وما كانت تتمتع به من الحيوية ، بحيث أصبحت أداة طيعة فى يد ابنائها المقتدرين عليها ، وليقدموا بها صنوف الأدب الوانا •

ولم يكن الفن البيزنطى اقل ثراء من قرينه الأدب • وهو شأن التاريخ البيزنطى يعود فى جذوره الى العالم اليونانى الرومانى ، وإن كان أكثر



من الأدب تأثرا بالجيران الشرقيين ، وكانت مرحلة الانتقال الممتدة من القرن الرابع الى السابع هي الفترة التي تشكل فيها الفن البيزنطى والعمارة بصفة خاصة ، ولهذا فقد تحددت سماته واضحة بالتقاليد الامبراطورية والعقيدة المسيحية . ومن ثم كان لابد أن يظهر فى أسلوب جديد ليعبر عما أصبحت عليه الامبراطورية ، وإن كان التقليد القديم قد ظل ساريا ، وهو الفن فى خدمة الحاكم ، حيث راحت اللوحات الفسيفسائية تمجد الأوتوقراطور والباينتوقراطور ، يشاركها فى ذلك التحف العاجية والعملة والمنسوجات . واتخذ الفن سبيله فى مدرستين بارزتين ، المدرسة السكندرية بتأكيدهما على الواقعية والأبعاد الثلاثة ، ومدرسة آسيا الصغرى وسوريا وتركيزها على صورة البعدين الرمزية . وهذان النمطان يتمثلان بوضوح فى فسيفساء القرنين الرابع والخامس فى إيطاليا .

وإذا كانت القصور التي أقامها الأباطرة قد درست ، ولم يعد من السهل تصورها إلا عن طريق ماورد فى المصادر الأدبية ، فإن الكنائس التي شيدت مازالت باقية ، فقد أقاموها لتبقى مابقيت العقيدة التي أقيمت من أجلها . ويتضح منها مدى الاهتمام البالغ بتزيين الكنائس ، والأدوات اللازمة لاتمام القداسات كالملبس والأردية الكهنوتية والأواني المقدسة . وهناك اختلاف واضح بين الفن الذي امتازت به الكنيسة البيزنطية ، عن الفن الكنسى فى الغرب . فعلى حين كان الأول يقصد به تفسير الايمان وتوضيحه ، الى الحد الذي اعتبر فيه جزءا من عمل شعب الكنيسة فيما يتصل بالعبادة ، كان الفن فى الغرب يقتصر على إثارة مشاعر الرائيين .

وكانت القباب هي أهم ما يميز الفن المعمارى البيزنطى ، ورغم أن القبة كانت شائعة فى فارس وما بين النهرين ، حيث تندر الأخشاب ، ويصبح الحجر هو الوسيلة الطبيعية للبناء ، إلا أن البيزنطيين أضافوا إليها من إبداعهم الفنى . وبلغ الفن البيزنطى أعظم مراتب ارتقائه فى الزخرفة الداخلية للكنائس بالفسيفساء والفريسك . وعرف الفنانون كيف ينتزعون الاحساس الصادق من نفوس العابدين إذا ماراحوا يتأملون هذه الفسيفساء على مسافة معينة وسط الكنيسة . وكان انتشار اللوحات الفسيفسائية دليلا على ازدهار الدولة البيزنطية وثرائها ، نظرا للتكاليف

الباهظة التي تقتضيها تلك الصور ، فلما تعرضت الامبراطورية للضعف والانحلال ، ونضبت مواردها وجدت في الصور الجصية ( الفريسك ) عوضا عن الفسيفساء . وان كان الفريسك قد وجد في فترة مبكرة من تاريخ الامبراطورية ولكن بصورة بدائية .

ولا يخفى علينا ان الحروب التي شنها الايزوريون والعموريون على الايقونات وتقديسها ، قد تركت دون ريب اثارا الواضحة على النواحي الفنية (٥٢) ولكن الفن سرعان ما عاد سيرة الاولى وان كان بصورة متطورة بعد انتهاء هذه الحروب ، وانتصار الايقونيين . واتبع الفنانون والصناع المنهج الايقونوجرافي الجديد الذي يهدف اساسا الى خدمة الأغراض اللاهوتية ، حيث يهتم بالثقل وخلص العالم بواسطة المسيح ، حتى أصبحت الكنيسة من الداخل وكأنها تستحضر الكون ، بالاله والقبة الزرقاء والفردوس والمسكونة .

ولم تكن الزخرفة قصرا على الكنائس او القصور ، بل حظيت المخطوطات هي الأخرى بالاهتمام الفني ، حيث كان بعضها يكتب بالفضة على نسيج أرجواني وما زالت هناك الى الآن خطيات نادرة من هذا النمط للكتاب المقدس او كتاب المزامير ، مع الخطيات التي تتناول الموضوعات العلمانية . يضاف الى هذا ما ظهر من مخطوطات مصورة كانت تستخدم في حملات التشهير السياسي او الديني .

وقد طرق الفنانون البيزنطيون كل مجالات الزخرفة ، واستخدموا كل ما اتيح لهم من وسائل في التزيين ، فبرعوا في صناعة الميناء ، والعاجيات ، والتحف المعدنية ، والمنسوجات وتتناول كلها مختلف الأغراض الدينية والدنيوية .

ولاشك ان الهزة العنيفة التي اصابته كل شيء في الامبراطورية ، نتيجة سقوط القسطنطينية سنة ١٢٠٤ على يد اللاتين ، قد اثرت بصورة مباشرة على الناحية الفنية ، فاستخدم الفريسك بدلا من الفسيفساء ، وندرت الأعمال الفنية الدقيقة . ولكن الحركة الفنية مع ذلك لم تتوقف .

ويعتبر التصوير الدينى على الجدران أروع منجزات هذه الفترة المتأخرة .  
خاصة ما وجد منه فى منطقة البلقان يعود الى القرنين الثانى عشر والثالث  
عشر .

هذه الحضارة الزاهرة التى اتسمت بها الامبراطورية البيزنطية ،  
خلافا لما جرى به الاعتقاد آنفا عند بعض المؤرخين ، امتدادا لعالم اليونان  
والرومان ، وتفاعلا مع بعض العناصر الحضارية الشرقية ، كان لابد ،  
بحكم الموقع الذى تحتله الامبراطورية ، ان تفرض عليها نوعا معيناً من  
التعامل مع الجيران . الذين يختلفون معها حضاريا وفكريا . خاصة فى  
الشمال والغرب . وكان لابد ايضا ان يفيد هؤلاء الجيران من الحضارة  
بيزنطية قدر طاقتهم ، فى الادارة والأدب والفن ، وقبل هذا وذاك ،  
العقيدة .

وعلى حين كانت العلاقات البيزنطية الاسلامية تقوم - بغض النظر  
عن النواحي السياسية والعسكرية - على اساس الاحترام والتقدير  
الحضارى ، فان الموقف فى البلقان وعند الدانوب كان يختلف عن ذلك  
تماما ، حيث تنزل عناصر سكانية متباينة ، تنظر الى الحضارة البيزنطية  
والامبراطورية بعين المهابة بل التقديس ، ابتداء من الجرمان فى القرنين  
الرابع والخامس (٥٣) وحتى الصقالية فى القرون من الثامن الى العاشر .  
وقد اتضحت مقدرة الامبراطورية فى استيعاب معظم هذه القبائل .

---

(٥٣) لعل خير مثال على ذلك هو ثيودوريك Theodoric زعيم  
القوط الشرقيين ، الذى قاد قبيله واتجه الى ايطاليا ، بموافقة الامبراطور  
زينون ، وتمكن من السيادة عليها سنة ٤٩٣ بعد هزيمته لأودواكر . وكان  
ثيودوريك من أشد المعجبين بالحضارة الرومانية ، فعندما زار روما وقف  
مشدوها أمام أثارها الرائعة ، وأعترف صراحة انه كان يشاهد فى كل  
يوم وفى عجب شديد عمود تراجان الشاهق . وأظهر اهتماما كبيرا بالناحية  
الثقافية ، فحاول تشجيع الأدباء والمفكرين الرومان على القدوم الى بلاطه ،  
وكان كاسيودور Cassiodorus الذى يعد من أعظم المثقفين فى أيامه  
مستشارا له ، بينما كان بونثيوس Boethius فيلسوف عصره أقرب  
الرومان الى قلبه ، قبل ان يعسده ، ورغم أريوسيته فقد أعطى للكنيسة  
الرومانية كل التقدير والاحترام . انظر Strayer & Munro, op. cit., p. 42



أما في الغرب ، فقد كان للعلاقات بين بيزنطة وإمبراطورية الغرب طابعها الخاص نتيجة التباين الحضارى والثقافات الفكرى ، ثم الاقتناع الكامل لدى أباطرة بيزنطة بالإمبراطورية الواحدة ، وأنهم وحدهم الأباطرة الرومان ، مما أدى بالتالى الى تعارض المصالح السياسية فى إيطاليا بالذات ، وادعاءات السيادة عند كل من الإمبراطوريتين . حتى اذا كان القرن الحادى عشر ، قدر للدبلوماسية البيزنطية أن تواجه تحديات جديدة لم تعرفها من قبل فى عمرها الأول وتمثلت هذه التحديات فى استيلاء النورمان على جنوب إيطاليا وصقلية ؛ ومشروعاتهم المستمرة لغزو القسطنطينية ، واعتداءاتهم التى لا تنقطع على بلاد اليونان ، ثم نمو الحياة المدنية فى إيطاليا الذى اقترن بالنشاط الاقتصادى المتزايد . وكذلك قيام الحروب الصليبية وما فرضته من ضرورة تعامل الإمبراطورية مع هذه العناصر اللاتينية . يضاف الى ذلك ازدياد الاعداد والاغارات الصقلية فى منطقة البلقان وتهديد العاصمة فى كثير من الاحيان ، كما حدث على يد البلغار . وتجدد الخطر الشرقى مرة اخرى ممثلا فى الأتراك العثمانيين فى آسيا الصغرى . وقد تكاثفت هذه الاخطار فى وقت كانت القوة العسكرية البيزنطية تريد أن تنقضى ايزانا بالانهيار ، ومن ثم تحملت الدبلوماسية النصيب الأكبر من هذا العبء الكبير .

ولاشك أن الدول التى قامت فى العصور الوسطى ، وخاصة فى البلقان وعند الدانوب والبحر الأسود ، تدین للإمبراطورية البيزنطية بالكثير ، ومن بين هذه الدول الصرب والبوسنة وبلغاريا والمملكة المוסكوفية ومملكة كييف . فقد استقت من بيزنطة التصور الدقيق عن مفهوم الدولة ، والتقاليد الإمبراطورية ، ومراسم البلاط ، والنظم الادارية ، والمبادئ الفقهية الرومانية التى تضمنها مقننات الأباطرة وتشريعاتهم كجوستينيان وليو الثالث وباسل الأول وغيرهم .

---

وكذلك Davis, op. cit., p. 40 وايضا Thompson and Johnson, op. cit., Pirenne, op. cit., p. 38; pp. 85 - 103. راجع كذلك جيون ، اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية ، ج ٢ ص ٢٧٢ .

وكان للامبراطورية أيضا علاقاتها البعيدة مع أقصى الغرب ، فقد توطدت أواصر الصداقة بين البيتين الحاكمين في كل من بيزنطة وبريطانيا ، عن طريق المصاهرات السياسية ، وتبادل السفراء والهدايا ، بالإضافة الى الحرس الامبراطوري الخاص الذى عرف أفراده بالورنك Varangian وكان يتكون في معظمه في القرن الثانى عشر من الانجليز ، دلت على ذلك الرسائل المتبادلة بين الامبراطور مانويل كومنينوس وهنرى الثانى .

على ان العلاقات مع الغرب بصفة عامة ، كان يحول دون كمالها ، ذلك الخلاف العقيدى القائم بين كنيسة روما والقسطنطينية ، فكلتاهما اختطت لنفسها طريقا عقائديا مخالفا ، وأدخلت احدهما الأخرى في عداد الهرطقة . وساعدت الأحداث السياسية ، كما أسلفنا ، على تعميق هوة الخلاف واتساع الصدع . وكانت الشعوب الصقلية بدورها عاملا هاما في التباعد بين الكنيستين الشرقية والغربية ، حيث كانت ميدانا فسيحا للتنافس بينهما . وهنا لا يمكن انكار ذلك الدور الذى قامت به الكنيسة الارثوذكسية في مجال التبشير بين هذه الجماعات الصقلية ، واتضح التأثير البيزنطى خاصة في القداسات ، والألحان الكنسية . ونظرا للصلات السياسية والعائلية التى كانت قائمة بين القسطنطينية والكنيسة الهنغارية ، فقد افاد المجيار من ذلك كثيرا ، واقامت الاديرة اليونانية في هنغاريا ، وكانت تخضع بصفة مباشرة لبطريك القسطنطينية . ففي كثير من الاحيان كان يتبع العملية التبشيرية الضم الإدارى ، وتصبح معظم الهيئة الكهنوتية العليا في منطقة التبشير من بين رجال الدين البيزنطيين . وقد افادت هذه الشعوب من الكتابات التى تركها الهاجيوجرافيون عن سير القديسين منذ القرون الأولى للمسيحية . هذا بالإضافة الى العلوم والآداب ، وبصفة خاصة المنطق الذى كان الاداة الضرورية لمعالجة القضايا اللاهوتية .

واذا كانت الحملة الصليبية الرابعة قد انتهت بسقوط القسطنطينية ، واقامة امبراطورية لاتينية ، وزادت من حمى العداء بين اللاتين واليونان ، الا انها كانت في الوقت ذاته وسيلة للتقارب بين الشرق اليونانى والغرب اللاتينى . فقد وقف الغرب عن كثب على الحضارة البيزنطية الزاهرة ، وتمت بعض الزيجات بين الطرفين . وادرك الغرب قيمة ما قدمته بيزنطة لعالم

المسيحية من أياد بيضاء في كثير من نواحي الفكر والفن ، وما قامت به من جهود للحفاظ على العقيدة المسيحية ضد زحف المسلمين من الشرق ، وأريوسية الجرمان ، ووثنية الصقالية .

وبعد .. ترى ما السر وراء بقاء الامبراطورية البيزنطية طيلة ما يزيد على ألف ومائة عام ، اذا أدخلنا في حسابنا العصر البيزنطي المتقدم ، رغم ما تعرضت له الامبراطورية من هزات عنيفة كادت تعصف بها في كثير من الأحيان ؟ وهو تساؤل طرح نفسه على كثير من الدارسين ، وتعددت فيه الآراء ، خاصة بعد أن استقرت في أذهان المؤرخين لفترة ليست بالقصيرة نظرية جيبون حول الانهيار الذي لازم الامبراطورية منذ القرن الثاني . على أنه يمكننا أن نرى عوامل هذا البقاء في نقاط معينة . وان كان هذا لا يفي تعددها وتنوعها .

تأتي القسطنطينية في مقدمة العوامل التي منحت الامبراطورية هذا العمر المديد ، فقد اختار قسطنطين موقعا استراتيجيا ممتازا ، فوق اطلال المدينة الاغريقية القديمة بيزنطة ، تحمية المياه من ثلاث جهات : القرن الذهبي من الشمال والبسفور وبحر مرمرة من الشرق والجنوب . أما الجهة الغربية فقد اقام فيها سورا ، فأضحت « روما الجديدة » ، بذلك قلعة حصينة ، وازداد هذا السور البري مناعة على يد خلفائه (٥٤) . ولاشك أن قسطنطين كان يبتسم في قبره وهو يرى مدينته تتصدى لكل الهجمات التي حاولت النيل من الامبراطورية . وقد اثبتت الأحداث التاريخية أن قسطنطين كان نافذ البصر ذكيا . ففي عام ٣٧٨ ثقت الامبراطورية هزيمة

---

(٥٤) يقول المؤرخ أومان في حديثه عن مدينة بيزنطة ، التي بنيت القسطنطينية في موضعها أنه من وجهة النظر الحربية والتجارية على السواء ، لا تستطيع مدينة أخرى أن تقاومها من ناحية موقعها . وهي تشرف من أقصى نقطة شرقية في تراقيا ، وتقف أوروبا كلها خلفها وآسيا جميعها امامها . ولذلك فإن موقعها جعلها صالحة كل الصلاحية لتكون قلعة الحدود التي تدافع عن حدود الأولى ، أو قاعدة العمليات الحربية للقيام بالغزو من الثانية . وفي تاريخ بيزنطة القديم كله لا نجد أنها سقطت بالقوة أبدا . وفي الحالات القليلة التي سقطت فيها كانت المجاعة أو الخيانة هي التي أدت إلى ذلك السقوط . انظر . الامبراطورية البيزنطية ، من ه .



مروجة عند أدريانويل ، خر فيها الامبراطور فالنز صريعا على يد الفيزيقوط ( الفوط الغربيين ) ، واندفعت هذه الجحافل تخرب قراقيا ولم تفق من نشوة نصرها الا عندما اصطدمت بأسوار القسطنطينية ، فوقف القوط أمامها عاجزين . وعلى امتداد القرن التالي كانت البلقان تموج بشتى القبائل الجرمانية ، وكلها تشتت القسطنطينية ، ولكن المدينة وقفت عاتقا دون تسرب هذه القبائل الى الشرق الروماني .

وكان عام ٦٢٦ يمثل كارثة محققة للامبراطورية ، فالقوات الرومانية تتقدم باتجاه الأراضي الفارسية عند أرمينيا والفرات ، في الوقت الذي احدثت فيه الجيوش الفارسية بالعاصمة حيث عسكرت على السواحل الاسيوي لليسفور بينما راحت جحافل الآفار تطوق العاصمة من الغرب ، وقد خلت القسطنطينية الا من حامية صغيرة . ورغم ذلك فقد تمكنت من رفع حصار الآفار ، بينما راح هرقل يتعامل مع الفرس في الشرق ، فنجت العاصمة من السقوط . وقد تمكنت القسطنطينية من رد الحصار الاسلامي الذي فرض عليها ثلاث مرات (٥٥) . ولم يستطع البلغار أن ينالوا منها شيئا ، بل لقد أصبحت المملكة البلغارية نفسها ولاية بيزنطية في أوائل القرن الحادي عشر . وذهبت سدى محاولات النورمان الاستيلاء عليها ، وتبخر مشروع هنري السادس الامبراطور الغربي في القفز اليها .

وفي عام ١٢٠٤ سقطت الامبراطورية للمرة الأولى في تاريخها ، أي بعد تسعة قرون اقليلًا ، بعد انشائها . وجاء هذا السقوط نتيجة الصراع على العرش في الداخل ، واستنجد الكسيوس الرابع بالصليبيين لاعادته وأبيه اسحق الثاني انجيلوس الى العرش وما تبع ذلك من فوضى انتهت بمقتلها . ورغم سقوط القسطنطينية فقد بقيت الامبراطورية البيزنطية في نيقية وطرابيزون وابيروس ، الى أن نجح أباطرة نيقية في استعادة

---

(٥٥) وقع هذا الحصار الاسلامي للقسطنطينية زمن الأمويين ، المرتان الأولى والثانية على عهد معاوية بن أبي سفيان ( ٦٦٩ ، ٦٧٢ ) ، والثانية أيام سليمان بن عبد الملك ( ٧١٧ ) . للمزيد من التفاصيل انظر دكتور ابراهيم العدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ١٦٢ - ١٦٦ ، ١٧٢ - ١٧٤ .

القسطنطينية ثانية ، لتعيش الامبراطورية من بعد قرنين تالين . اما في عام ١٤٥٣ ، فكانت الامبراطورية قد هربت ، ولم يبق منها الا القسطنطينية فقط ، فقد أحاط بها العثمانيون من الشرق والغرب . ولم تكن الامبراطورية خلال القرنين الاخيرين من عمرها من الناحيتين السياسية والعسكرية ، الا ظلا باهتا للامبراطورية في عصورها الزاهرة . ومن ثم كان لابد ان تسقط القسطنطينية بعد أحد عشر قرنا من الزمان .

وكانت الفوضى التي عمت الامبراطورية في النصف الثاني من القرن الثالث قد علمت الابطاطرة من بعد ان يبحثوا عن أسلوب للحكم يضمن الاستقرار . وكانت آفة النظام السياسي الامبراطوري آنذاك ، انه لم يكن هناك نظام ثابت لوراثة العرش ، لأن روما الامبراطورية - حتى بعد ان فقدت كل سمات الجمهورية - كانت تمتعت مسألة الوراثة رغم انها كانت تعيشها ، ومن ثم كان لابد ان تحدث هذه الفوضى السياسية خاصة بعد ان غلت ايدي السناتو عن التدخل في اختيار الابطاطرة ، وبعد ان أصبحت الفرق العسكرية الرومانية هي صاحبة الحول والطول في الامبراطورية . بل ان دقلديانوس نفسه الذي أعاد للمنصب الامبراطوري هيئته ، بل أضفى عليه نوعا من القداسة ، رفض مبدأ الوراثة في حكومته الرباعية ، وأقر مبدأ التبني (٥٦) . ولكن لابد ان تعصف مطامح خلفائه بنظام الحكومة الرباعية ، وان تكتوى الامبراطورية بنيران حرب أهلية دامت ثمانية عشر عاما (٣٠٦ - ٣٢٣) ، أسفرت في النهاية عن انفراد قسطنطين بحكم الامبراطورية . ولم يفعل قسطنطين أكثر من انه جعل الأمر الواقع - اعنى مبدأ وراثة العرش - حقيقة مؤكدة بصورة سافرة ، فأقدم قبل وفاته سنة ٣٢٧ على تقسيم ادارة الحكم في الامبراطورية بين ابنائه الثلاثة . قسطنطين الثاني وقسطنطيوس

---

(٥٦) اختار دقلديانوس زميله لحكم الغرب وهو ماكسيميان ، وقيصرين هما جاليريوس وقسطنطيوس . ورفض ان يعين ماكسنتيوس ابن ماكسيميان ، او قسطنطين ابن قسطنطيوس قيصرين سنة ٢٩٣ . وأكد هذا الرفض سنة ٣٠٥ عند اعتزاله وزميلة ، ووافق على اختيار سفروس وماكسيمين دازا ، اللذين رشحهما جاليريوس . للمزيد من التفاصيل انظر : LACTANTIUS. de mort. pers. 18 وانظر للمترجم : السدولة والكنيسة ، الجزء الثاني ، ص ٦١ ، ٦٢ .

وقنسطانز . وسار خلفاؤه على سنة سلفهم ، فعرف العرش الامبراطورى الاستقرار ، بعد أن أصبحت مسألة الوراثة امرا ثابتا ، واعتلى العرش البيزنطى عدد من الأسرات ، توالى افرادها على كرسيه . ولم تشهد الامبراطورية منذ عهد قسطنطين الاول فى القرن الرابع ، حتى قسطنطين الحادى عشر فى القرن الخامس عشر ، آخر أباطرتها ، حربا أهلية من أجل العرش الا النذر اليسير كان آخرها تلك التى أودت بحياة الامبراطور قنسطانز سنة ٣٥٠ على يد ماجنتيوس Magnentius الذى نصب نفسه امبراطورا فى غالة ، وقيام كل من فترانيو Vetricano ونبوتيانوس Nepotianus باعلان نفسيهما امبراطورين فى الليريا وروما . وقد استمرت الحرب الأهلية ثلاث سنوات حتى تمكن قسطنطيوس من أن يحكم الامبراطورية منفردا سنة ٣٥٣ .

وكان الأباطرة يحظون بالولاء الكامل من جانب رعاياهم ، وليس أدل على ذلك من أنه فى أشد الأوقات حرجا ، وعندما يكون الامبراطور الجالس على العرش ضعيفا واهنا ، كما حدث مثلا فى نهاية الأسرة المقدونية بعد وفاة باسل ثانى ، زمن الامبراطورة زوى Zoe التى جلبت على نفسها بسلوكها سمعة سيئة ، لم يحدث أن أطيح بها تقديرا لما أدته الأسرة المقدونية للامبراطورية من جلائل الأعمال . ولا شك أن هذا الاستقرار السياسى ، بالإضافة الى اعتبار الامبراطور نائبا عن المسيح فى حكم الامبراطورية ، كان له بطبيعة الحال عند شعب متدين ، آثاره الواضحة التى تجلت فى بقاء الامبراطورية هذه القرون الطويلة .

ويرتبط بهذا العامل نقطتان هامتان . اولاهما الدبلوماسية البيزنطية الذكية التى تمكنت من تحقيق نجاح منقطع النظير ، فحققت عن الجيش العبد الكبير الذى ناء بحمله ، بل وافلحت فى أن تقوم بدورها كاملا فى الوقت الذى أخذت قواه العسكرية فيه تترنح من كرة ماوجه اليها من ضربات ، أما الثانية فهى النظام الادارى الكفء الذى امتازت به الامبراطورية البيزنطية . فقد حظيت بادارة مركزية قوية ، يتربع على قمة جهازها الامبراطور ، ويتبعه جيش كبير من الموظفين فى العاصمة ومختلف الولايات . ورغم ما اعترى هذا الجهاز الادارى من التعقيد ، الا انها لم تكن لتفتقد المرونة . ولعل



الكتاب الذي وضع في منتصف القرن العاشر ، بقلم امبراطوري ، دليل واضح على مدى ما يمكن أن تحققة الادارة الناجحة من خدمات .

ولا شك أن الجيش البيزنطي كان العماد الرئيسي لقوة الامبراطورية وبقائها ، فالمتتبع لتاريخ الامبراطورية منذ القرن الرابع ، وحتى سقوطها في منتصف القرن خامس عشر ، يدرك للوهلة الأولى ، أن الامبراطورية ظلت في حرب مستمرة طيلة هذه القرون الأحد عشر . وأنها لا تكاد تتخلص من عدو حتى تبلى بأعداد جدد ، وتمثل ذلك في الفرس والمسلمين الأوائل والجرمان والهون والصقالبة والنورمان والسلاجقة والصليبيين والاتراك العثمانيين . لهذا لم يكن غريبا أن يكتب رنسيومان قائلا « لقد قضت الضرورة على البيزنطيين ان يصوغوا أنفسهم على أسس عسكرية ، وأن يولوا للشئون العسكرية كل التفاتهم وعلمهم . وكان ذلك في صالحهم » ولهذا كانت بيزنطة هي البلد الوحيد طوال العصور الوسطى ، الذي كان يدرس فيه أدوات القتال ووسائل تنظيم الجيش والفنون الاستراتيجية بعناية واتزان » . ويضيف نورمان بينز « لا يمكن اعتبار بيزنطة وريثا لروما في شيء بقدر ما يصدق فيما يختص بسياستها العسكرية » . لقد بنيت الإمبراطورية وأمنت بفضل كتابها ، (٥٧) .

والحقيقة أن الجيش البيزنطي كان بمثابة الذراع الطويلة للامبراطورية ، اذا جاز استخدام هذا التعبير ، تستطيع أن تمدها في أي وقت وفي أي اتجاه . حقيقة انها تداولت النصر والهزيمة في كثير من الأحيان مع جيرانها في الشرق والغرب ولكنها كانت قادرة بجيشها على أن تحتفظ بحدودها التي رضيت بها منذ القرن السابع حتى الحادي عشر . ولهذا كانت هزيمتها سنة ١٠٧١ في منزكرت على يد الاتراك السلاجقة ،

(٥٧) لدينا الكثير من الكتابات العسكرية التي قدمها كتاب متخصصون أو جاءت على أقلام بعض المؤرخين المعروفين ، فهناك فيجينوس في القرن الرابع ، وبروكوبيوس في القرن السادس والامبراطور موريس ، وكذلك ليو السادس . انظر : رنسيومان ، الحاضرة البيزنطية ص ١٥٨ ، ١٥٩ وأيضا بينز ، الامبراطورية البيزنطية ص ١٧١ . وكذلك .

Vasiliev, op. cit., pp. 180 - 181.

خسرية قاصمة نزلت بها ، لأن الاتراك استولوا على آسيا الصغرى ، فحرموا الامبراطورية بذلك من المصدر الرئيسى الذى تعتمد عليه فى تكوين جيشها . ومن ثم نجد أن الامبراطورية البيزنطية لم تسترد قوتها العسكرية ابدا بعد هذه الهزيمة ، ولم تعد الى ما كانت عليه قبلها حتى سقطت فى عام ١٤٥٣ .

وإذا كنت عظمة الامبراطورية الرومانية القديمة تتجسد فى القانون ، بحيث نجحت فى أن تفرض سلطانها لمدة قرون على مساحة هائلة من الأرض تمتد من الفرات الى بريطانيا ، ومن الدانوب الى النوبة ، وتحتوى شعوبا بلغ التفاوت الحضارى بينها حد التضاد ، فمن شعوب ذات حضارات رائعة كالمصريين واليونان ، الى جماعات ضاربة فى التخلف كالغسال والكلت . ومع ذلك فقد جاءت التشريعات الرومانية تتفق وطبائع كل من هؤلاء جميعا . ولهذا كان القانون الرومانى بحق عنوانا صادقا على عظمة الامبراطورية الرومانية القديمة . ولما كان البيزنطيون ورثة الرومان ، فان جهود اباطرة القسطنطينية التشريعية كانت امتدادا لما تركه اسلافهم . فقد نجح فقهاء القانون البيزنطيون والمشرعون ، فى أن يجعلوا تشريعاتهم تلاحق باستمرار تلك التغييرات التى تعرضت لها الدولة عبر هذه القرون ، وأن تستجيب للمناخز والمؤثرات الجديدة فى الامبراطورية وفى مقدمتها المسيحية . ولهذا فان اهم سمات القانون فى الامبراطورية البيزنطية ، المرونة والتكيف ، وهذا امر يمكن التوصل اليه من دراسة مجموعات القوانين التى صدرت تباعا فى عهد ثيودسيوس الثانى وجوستنيان وليو الثالث وباسل الاول ، كما يمكن ادراكه ايضا من المتجددات . وعلى هذا النحو كان القانون عاملا مساعدا على تهيئة الاستقرار السياسى والاجتماعى للامبراطورية البيزنطية .

ولا ريب أن التزاوج الذى تم بين الدولة والكنيسة فى بواكير القرن الرابع ، كان له اكبر الأثر فى هذه الاستمرارية التى حظيت بها بيزنطة . فقد اقلعت الدولة فى احتواء الكنيسة حتى أصبحت دائرة من دوائرها الحكومية ، وأصبح اسقف القسطنطينية موظفا كبيرا عند الامبراطور .

(م ٦ - العالم البيزنطى)

وان كان هذا قد كلف الدولة كثيرا ، حيث تمكنت الكنيسة من أن تورطها في متاهات الجدل العقيدى الذى اتسم به الشرق الرومانى . ولكن رغم هذا فقد أصبحت الأمور السياسية والكنيسة تمثل خطين متوازيين ، ان لم يكن خطا واحدا . وهذه الحقيقة أدركها مؤرخ الكنيسة فى القرن الخامس ، سقراط : عندما ذكر فى تاريخه الكنيسى انه من الصعب على أى انسان أن يرسم خطا فاصلا بين أمور الدنيا وشئون الدين ، فاذا ما اضطربت أمور الدولة ، بدت شئون الكنيسة أشد تعقيدا . ولهذا يندر أن نجد أسقف القسطنطينية يتخذ موقفا معارضا للامبراطور ، بل لقد تعاونت الكنيسة فى كل الأمور تقريبا ، حتى العسكرية منها مع الامبراطور . وهكذا نجت الامبراطورية البيزنطية مما ابتليت به الامبراطورية فى الغرب . فقد دار الصراع سافرا بين البابوية والامبراطورية حول السيادة ، واتخذ هذا الصراع من مشكلة التقليد العلمانى ستارا له ، حتى اذا كانت اتفاقية وورمز سنة ١١٢٢ بين الامبراطور هنرى الخامس والبابا كالكستوس الثانى Calixtus II ، كشف هذا الصراع عن نفسه سافرا ، لمن تكون السيادة ؟ للبابا ام للامبراطور ؟ وزيفت فى ذلك النظريات ، واستند كل فريق الى حجج قانونية او حتى من الكتاب المقدس لتدعيم رأيه . ولقد بلغ الصراع فى بعض مراحل حد المذلة والمهانة للامبراطورية فى شخص هنرى الرابع الذى جرى اذلاله فى كانوسا سنة ١٠٧٦ على يد البابا جريجورى السابع . وقد ظل هذا الصراع قائما حتى تمكنت البابوية من تحطيم الامبراطورية فى النهاية سنة ١٢٦٨ .

هكذا عاشت الامبراطورية البيزنطية طيلة ألف ومائة عام ، بما فيها العصر البيزنطى المتقدم ، تحمل تراث عالم اليونان والرومان ، وتحفظ المسيحية الشرقية ، وتهدى فى البلقان وعلى الدانوب خطى الحائرين . ذلك مبلغى من العلم ، فان أصبت فمن الله ، وان أخطأت فمن نفسى .

مدينة نصر - القاهرة

رأفت عبد الحميد

أول ديسمبر ١٩٧٦



العالم البيزنطى



## مقدمة

كانت بيزنطة اسما للمستعمرة الاغريقية القديمة ، التي اصبحت في زمن تال مدينة قسطنطين ، والكلمة التي ظلت تستخدم طوال عدة قرون للدلالة على ما كان يظن انه انحلال وتدهور الامبراطورية الرومانية في العصور الوسطى . وقد رفض بيورى J. B. Bury ذلك وفضل ان يتحدث عن « امبراطورية رومانية شرقية » ، واثر تعبير « شرقية » ليفرق بين هذه بعاصمتها القسطنطينية ، والامبراطورية « الغربية » في العصر الوسيط ، وابقى على لفظة « رومانية » لاعتقاده انها ماتزال في جوهرها الامبراطورية الرومانية . غير انه مهما كانت قوة الروابط التي تصلها بماضيها اليونانى - الرومانى ، الا انها حققت لنفسها خصائص مميزة ، واصبح من اللائق استخدام كلمتى « بيزنطى » و « بيزنطة » دون ان يتضمن ذلك اى انتقاص لشأنها . وقد مكنتنا الدارسون خلال نصف القرن الاخير او ينيف ، واعتمادا على الاسس التي ارساها رواد القرنين السادس عشر والسابع عشر ، ومن بينهم دى كانج Du Cange ، من ان ننظر الى تاريخ وحضارة الامبراطورية الرومانية الشرقية بصورة اكثر موضوعية ، وان تدرك بعض منجزاتها الخلاقة ، وان نقدر مدى ما يدين به لها جيرانها دانيهم والقاصى .

ولقد بدأ المؤرخون يحررون انفسهم من سحر جيون Gibbon ، ورغم انهم اغتبطوا كثيرا « بالاضمحلال والسقوط » ، الا انه قد تحقق لديهم ان قصة الامبراطورية البيزنطية ليست « نمطية » ولا « مملة » ، كما اعتقد جيون .

وانى لأعترف بكل الامتتان ، بما ادين به لمؤرخى التاريخ البيزنطى ، القدامى والمحدثين ، واخص بالذكر الأستاذ نورمان بينز Norman Baynes الذى يعد هاديا ملهما فى ارتياد عالم روما الشرقية . اليه اهدى هذا الكتاب الصغير بكل المحبة والعرفان .

ابريل ١٩٥٧

ج . م . هـ





# الفصل الأول

## تكوين الامبراطورية البيزنطية

٣٢٤ - ٧١٧

١ - قسطنطين العظيم وظهور امبراطورية

• مسيحية

٢ - غزوات البرابرة ونجاسة نصف

• الامبراطورية الشرقي

٣ - الامبراطور جوستنيان والقرن السادس

٤ - الصراع من اجل البقاء فى القرن

السابع : مشاكل الاسرة الهرقلية •



## الفصل الأول

### تكوين الامبراطورية البيزنطية

٣٢٤ - ٧١٧

#### ١ - قسطنطين العظيم وظهور امبراطورية مسيحية :

في عام ٣٢٤ وقع اختيار الامبراطور الروماني قسطنطين العظيم Constantine the Great على بيزنطة Byzantium المستعمرة الاغريقية القديمة (١) ، التي تحتل مثلثا من اليابسة تحيط به مياه القرن الذهبي والبسفور وبحر مرمرة ، ليقيم في مكانها مدينة جديدة تغدو حاضرة الامبراطورية في الشرق (٢) . وقد تم الاحتفال بتدشين مدينة قسطنطين

---

(١) في منتصف القرن السابع قبل الميلاد ، قام جماعة من اغريق ميجلرا بالارتحال شرقا ، بحثا عن مكان يقيمون فيه مستعمرة لهم . ولما راحوا يستلهمون وحى الاله ابوللو ، ارشدهم الى بناء مدينتهم في المكان المقابل لمدينة العميان . وهو يعنى بذلك تلك المنطقة الواقعة على الشاطئ الأوربي للبسفور ، والمحصورة بين مياه القرن الذهبي والبسفور وبحر مرمرة ، ويقصد بالعميان أولئك الاغريق الذين خرجوا قبل ذلك من اليونان ونزلوا على الشاطئ الآسيوي ، واقاموا مدينة خالقيدونية Chalcedon . وعميت ابصارهم عن هذه المنطقة الحصينة . ولما كان قائد هذه الجماعة التجارية يدعى بيزاس Byzas فقد حملت المدينة اسمه فعرفت ببيزنطة . انظر Vasiliev. op. cit., I, p. 57 وايضا A. V. Millingen, Constantinople, p. 10 وكذلك أومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٠ : المترجم .

(٢) لم يكن قسطنطين أول الأباطرة الرومان الذين ولوا روما دبرهم متحرفا الى الشرق ، فقد سبقه أباطرة القرن الثالث وآخرهم دقلديانوس ، يدفعهم الى ذلك أن الأفكار التي باتت تهدد الامبراطورية ، أصبحت تتركز شمالا عند الدانوب ، وشرقا على الفرات . ومن ثم أصبحت روما بموقعها البعيد على ضفاف التير ، عاجزة عن أن تدفع بقواتها بسرعة لانقاذ اقاليم الحدود ، في الوقت الذي اضحى الثقيل السياسي والاقتصاد للامبراطورية يتركز في نصفها الشرقي ، هذا بالاضافة الى رغبة



رسميا في مايو ٢٢٠ باعتبارها مستقرا له ومقاما وواحدة بين العواصم . ورغم أنه سبق اختيار عدد من المدن في الشرق لهذا الغرض ، إلا أن هذه المدينة أثبتت على مر الزمن ، بموقعها الجغرافي الممتاز ، أنها واسطة العقد بين أوروبا وآسيا ، بين البحر الأسود بهذه الأراضي البكر الفسيحة التي تمتد وراء شطآنه ، والبحرين الايجي والمتوسط مفتاحي الطرق الى الشرقين الأوسط والاقصى . ويحدد تأسيس هذه العاصمة الشرقية ، مستقر الامبراطور الأوحده ، الطريق الى العصور الوسطى ، عندما كانت

=

دقلديانوس وقسطنطين في الابتعاد عن روما بتقاليدها الجمهورية ، حتى وإن كانت مجرد شبح للماضي . وقد اتخذ دقلديانوس من نيقوميديا Nicomedia في آسيا الصغرى عاصمة له ، أما قسطنطين فقد راح يقلب النظر في كثير من المدن ، قبل أن يهديه تفكيره الى موقع مدينة بيزنطة . ومن بين هذه المدن كانت مدينة نيش Naissus في صربيا ، وهي مسقط رأس الامبراطور ، وقلب البلقان ، إلا أنه تخلى عنها بحجة أن خطوط المواصلات اليها عسيرة ، وبقدر قريبها من الحدود بقدر بعدها عن البحر . وتراءت له كذلك سرديكا Sardica ( حاليا صوفيا عاصمة بلغاريا ) وسالونيك Thessalonica . وربما أيضا شرع قسطنطين في بناء عاصمته على مقربة من طرواده القديمة ، تحت تأثير ما تذكره الأساطير عن انحدار الشعب الروماني من أصل طروادي . كما أن مدينة نيقوميديا لم تحظ باهتمام قسطنطين ، ولفت نظره ذلك الموقع الممتاز الذي تحتله مدينة بيزنطة الاغريقية القديمة ، فشرع في بنائها في عام ٣٢٤ بعد أن أصبح الامبراطور الأوحده عقب انتصاره على ليكينيوس . وتذكر الروايات أن قسطنطين راح يخط بحريته على الأرض حدود مدينته الجديدة وحاشيته تلهث من حوله ، ولما سألوه متى يتوقف : أجاب : « على أن أمضي حتى يتوقف ذلك الذي يسير أمامي ! ولعل هذه القالة التي وردت في مصاصم متأخرة تشير الى قصة اعتداء قسطنطين الى المسيحية كما تصورها كتب التاريخ الكنسي . ولم يتوقف قسطنطين إلا بعد أن أدخل في مدينته القتل السبعة التي تضمنها المنطقة الواقعة بين بحر مرمرة والقرن الذهبي . انظر : اومان ، الامبراطورية البيزنطية ، ص ١٤ - ١٧ وايضا Millingen, op. cit. p. 18 وكذلك Jones, Later Roman Empire, 1, pp. 83-84 وانظر ايضا SOCRATES, historia Ecclesiastica, I, 16 وكذلك الكتاب الأول من الانبياء للشاعر الروماني فرجيليوس والمقدمة التي وضعت لترجمتها ص ٤٨ . وتاريخ الرومان تأليف الدكتور ابراهيم نصحي ، الجزء الأول ص ٧٧ . وكذلك Boak, op. cit., p. 39 المترجم .

تمثل النصف الشرقى للامبراطورية الرومانية الذى حبا دون أن يتعرض  
 لثلمة طوال تاريخه . ولعله ليس جوهريا أن نطلق على فترة التكوين هذه  
 التى بدأها قسطنطين العظيم ، عصرا بيزنطيا مبكرا أو رومانيا متأخرا ،  
 فلم تزل فى جوهرها الامبراطورية الرومانية ، تسودها الثقافة اليونانية  
 وتأثيرات شرقية واضحة . . تلك كانت حقيقة الامبراطورية الرومانية أيام  
 القديس بولس St Paul وزمن القديس أمبروز (٢) St Ambrose  
 ومع ذلك فإن الخلاف بين عالمى بولس الطرسوسى وأمبروز الميلانى ، لا يكمن  
 فى نسيج البنيان الامبراطورى ، أو طبيعة الحضارة اليونانية الرومانية ،  
 ولكن فى تغيرين أساسيين : أولهما داخلى ، إذ تمثل الاهتمام المتزايد  
 بالشرق ومذاهبه العقيدية بشكل جلى فى روما الجديدة التى أقيمت على  
 شطآن البسفور ، مدينة أول امبراطور مسيحي ، والآخر خارجى يتعلق  
 بالأخطار الناجمة عن ضغط الامبراطورية الفارسية المنافسة ، والتهديد  
 المتزايد للقبائل النازحة من الشمال ، مما أدى الى اضعاف الموارد  
 الامبراطورية . وبما كان الشرق بمنأى عن ذلك ، فإن هذه الأخطار قد  
 عرضت النصف الغربى من الامبراطورية الرومانية للتفسيخ السياسى ،  
 وقيام ممالك جديدة مستقلة تحت سيادة الغزاة الجرمان .

ولم تكن معالم ذلك التفكك المرتب للخطر الغربى من الامبراطورية  
 الرومانية قد وضحت بعد على عهد قسطنطين العظيم . ولكن الشئ الذى  
 أثار بعضا من دهشة ، هو اقدام الامبراطور على اتخاذ جانب  
 المسيحية (٤) ، وما تبع ذلك من تسامح ورعاية للكنيسة المسيحية ، ذلك

---

(٢) أسقف ميلانو الشهير ( ٢٧٤ - ٢٩٧ ) وأحد أعمدة الكنيسة  
 الغربية ، وله مواقف مشهودة مع الامبراطور ثيودوسيوس الأول . أنظر  
 Nicene and post Nicene Fathers, vol. X. وكذلك Dect. de theol.  
 Cath. art. Amb. vol. I وأيضا E. K. Rand, Founders of the Middle  
 Ages, pp. 69 - 101 للمزيد من التفاصيل؛ انظر للمترجم ، الدولة والكنيسة  
 الجزء الرابع « المترجم » .

(٤) أثارت مسيحية قسطنطين وما تزال كثيرا من الجدل والنقاش ،  
 وانقسمت الآراء بين قائل بأن قسطنطين قد اعتنق المسيحية عن اقتناع  
 ويقين ، وهذا رأى رددته مؤرخو الكنيسة قديما وعلى رأسهم شيخهم

التسامح الذى لن يلبث أن يتحول مع نهاية القرن الرابع الى الاعتراف بالمسيحية ديناً رسمياً ، واضطهاد كل العقائد الأخرى . ومع ذلك فإن الطقوس الوثنية لم تذهب دفعة واحدة ، ولكنها اثقلت متباطئة عبر أجيال عديدة ، بل الى قرون طويلة ، وإن كان من العيب أن يدافع المرء عن التسامح ، أو الزعم بأنه يمكن التوصل الى مثل هذه الحقيقة الواضحة خلال طريق واحد فقط . ومهما تكن طبيعة « التحول » الذى أقدم عليه قسطنطين ، فإن اعتقاده فى اله المسيحية وإيمانه بالارث الرومانى ، دفعاه الى الاقتناع بأن عليه أن يأخذ زمام المبادرة لايجاد وحدة عقيدية وتنظيمية داخل الكنيسة المسيحية . ولهذا فقد دعا وترأس أول مجمع مسكونى عرفته الكنيسة فى مدينة نيقية (٥) Nicaea سنة ٣٢٥ . وعلى هذا النحو جسد

=

يوساب Eusebius أسقف فيسارية فلسطين وتابعهم فى ذلك عدد من الدارسين المحدثين . والرأى الآخر يرفض هذا ويذكر أن قسطنطين كان سياسياً أريباً عرف كيف يستغل الأوضاع التى تردت فيها المسيحية فى أوائل القرن الرابع لتحقيق مآربه السياسية فى وحدة الامبراطورية وخضوع الجميع لسلطانه ، وفى مقدمة هؤلاء بيركهارت J. Burckhardt الذى يصفه بأنه « رجل » لادبى . عن مسيحية قسطنطين والآراء التى دارت حولها انظر للمترجم . الدولة والكنيسة . الجزء الثانى . الفصل الثالث . المترجم . (٥) فى سنة ٣١٨ جهر أريوس أحد قساوسة الاسكندرية بأرائه فى التقدم الثانى فى الثالث ، المسيح . وخلاصتها أن الآب هو الاله الحق فى مقابل الابن الذى ليس لها حقاً ، فيما يتعارض بالضرورة على أساس التعارض بين غير المخلوق والمخلوق ، ومن ثم فليس هناك الهان لامتناهيات ، والابن ليس غير مولود وليس جزءاً من غير المولود ولا يستمد كيانه من مادة . والله لم يكن يوماً أباً ، لأنه كان ، حيناً ، ولم يكن اللوجوس ، قد حدد بعد ، ثم أراد الله أن يخلق موجوداً معيناً اسماء اللوجوس ، الحكمة . الابن ، حتى يمكن أن يخلقنا بواسطته . ولهذا توجد حكمتان : حكمة خاصة بالله وأخرى يشارك فيها الابن . كما أن فى الله لوجوس آخرى غير الابن ، وقد سمي الابن باللوجوس تكريماً . والله قوة طبيعية ليس كمثالها شئ ، سمرمدية . أما المسيح فهو ليس القوة الحقيقية لله ، وإنما هو إحدى هذه القوى ، وفى علاقته بالمخلوقات خالق ، أما علاقته بالآب فهو مخلوق ، والة للخلق وأداة . والأريوسيون فى ذلك يتصورون مسافة شاسعة بين



• • • • •

الله والمخلوقات ، الأمر الذى يلزم منه أن الخلق المباشر محال • ومعرفة الابن بالله معرفة غير كاملة ، وذلك لأن الآب غير منظور للابن ، فالابن لا يتأمل ولا يعرف تماما الآب • وما يراه الابن وما يعرفه فانمسا يعرفه بالنسبة لقواه ، ان الابن لا يعرف حتى طبيعته هو • وقد رفض اسكندر اسقف الاسكندرية هذه الآراء • وعقد مجمعين فى سنتى ٣١٩ و ٣٢١ ادان فهما أريوس وآراءه ، وقد انتشرت الأفكار الأريوسية فى فلسطين وسوريا ، ولقيت هناك رواجاً وتشجيعاً خاصة من يوساب أسقف نيقوميديا ، الذى كان زميلاً لأريوس فى المدرسة الأنطاكية • وكان طبيعياً أن تسود العقيدة الأريوسية هناك حيث كانت مدرسة أنطاكية تتبع المنهاج الارسطى العقلى فى تفسير الكتاب المقدس ، رغم أن الفكرة الأريوسية تقترب من ان فكر الافلاطونى • ولما أصبح قسطنطين حاكم الامبراطورية الفرد ، أرسل مستشاره الدينى هوسىوس Hosius اسقف قرطبة الى الاسكندرية لحل هذا الخلاف وحمله رسالة الى اسكندر وأريوس تفصح عن مدى سطحية قسطنطين فى الأمور اللاهوتية • وقد فشل هوسىوس فى مهمته ، فدعا الامبراطور الى عقد مجمع عام يضم اساقفة الامبراطورية ليكون قراره ملزماً لجميع الاطراف ، مستفيداً فى ذلك بتجربته مع الدوناتيين فى شمال افريقيا • وكان هذا المجمع هو أول مجمع مسكونى عرفته الكنيسة ، حضره حوالي ٢١٨ اسقفاً يمثلون كنائس الامبراطورية ، وأصدر المجمع قراره فى النهاية ، بعد مناقشات طويلة ، بادانة الأريوسية ، وجاء فى مرسوم الايمان الصادر عنه أن الابن « مساو للآب فى الجوهر » أو ما عرّف بالهوموسية Homousius وأنه « مولود غير مخلوق » • وأصبح هذا المرسوم هو قاعدة الايمان الأرثوذكسى للكنيسة الجامعة فيما بعد وان كان مصطلح الهوموسية قد فتح باب الجدل اللاهوتى على مصراعيه بعد ذلك •

EVSEB, vita Const. 11, 61, 65 - 66, 69 - 72, 111, 6 - 8, 10 - 13 أنظر

SOCRAT. hist. eccl. 1, 5, 7 - 8, 10, 13 وكذلك

SOZOM. hist. eccl. 1, 15 - 17, 19, 24, 26 و

THEOD. hist. eccl. 1, 3 - 5, 7, 11 و

ATHANAS. depos. Ar., hist. Arian. 66, de decr. 11, 3, 111, 6. و

Dict. theol. Cath. 1. 2. col. 1784 - 86 وراجع

A dictionary of Christian biography, art. Arianism وأيضا

Duchesne, histoire ancienne de l'église, 11, p. 144, وكذلك

Hefele, op. cit., pp. 231 - 349 و

والمترجم : الدولة والكنيسة ، الجزء الثانى الفصل الخامس • المترجم •



قسطنطين التفاهم بين الكنيسة والدولة الذي يميز الامبراطورية الرومانية في العصور الوسطى . ولقد وضع مؤرخه الأسقف يوساب (٦) Eusebius أسس نظرية السيادة المسيحية ، مؤكدا لا على الاختلاف القائم بين المدينتين ، أو ما هو الله وما هو لقيصر ، ولكن على الامبراطورية المسيحية باعتبارها حقا زمنية ، وان كانت في الوقت ذاته مقدسة لكونها أداة الهية ، يحكمها امبراطور يعد نائباً للمسيح على الأرض . ومن ثم فان لقبى « الحواري الثالث عشر » أو « قرين الرسل » يعبران بصددق عن مكانة قسطنطين العظيم في دولة العصور الوسطى .

(٦) أسقف قيسارية فلسطين (حوالي ٣١٣ - ٣٤٠) ، كان تلميذا لبامفيليوس Pamphilus أشهر شيوخ كنيسة قيسارية في نهاية القرن الثالث وأوائل الرابع ، شديد التعلق به ، حتى غلب عليه اسم استاذة . شهد بعينى رأسه فترتين من أهم الفترات في تاريخ الكنيسة ، مرحلة الاضطهاد الاعظم ، ثم ميل الدولة الى المسيحية زمن قسطنطين ، وأعرب عن سعادته بهذا التزاوج بين الدولة والكنيسة في أوائل القرن الرابع . وضع كتابين هما : تاريخ الكنيسة Historia Ecclesiastica تناول فيه أحداثها منذ المسيح حتى موقعة خريسوبوليس Chrysopolis سنة ٣٢٣ التي انتصر فيها قسطنطين على منافسه ليكينيوس وامتدح في نهايته الامبراطور ، وهلل لهذا النصر الذي حسبه انتصارا للكنيسة المسيحية . أما الكتاب الثانى وهو « حياة قسطنطين » Vita Constantini فيعتبر قصيدة نظمها في مدح الامبراطور ، وذكر ذلك بنفسه في مقدمة الكتاب حيث أعلن أنه سوف يحدث فقط عن فضائل الامبراطور ، ورفع قسطنطين بهذا الكتاب الى عليين حتى بلغ مصاف الحواريين . ولما كان يمثل جانب الاعتدال ابان احتدام الجدل الأريوسى ، فقد كان من أخلص أصدقاء الامبراطور ، خاصة بعد أن رفض ترسيمه أسقفا لأنطاكية خلفا ليوستاثيوس Eustathius الذي عزله اليوسابيون حتى لا يساعد على اشعال نيران الفتنة في انطاكية . انظر المقدمة الرائعة التي كتبها McGiffert عن يوساب في المجلد الأول من Nicene and post Nicene Fathers وكذلك ما كتب Richardson

عنه أيضا في فس المجموعة عند تقديمه لكتاب « حياة قسطنطين » .  
 Dict. theol. Cath. art. Eusb. وراجع  
 Vasiliev, op. cit., p. 119 وأيضا  
 Burckhardt, The age of Constantine the Great, pp. 260 - 261 وكذلك  
 Latourette, A history of Christianity, pp. 154 - 155,  
 وانظر للمترجم الجزء الأول من الدولة والكنيسة . المترجم .

ولم تشهد الامبراطورية خلال القرن الرابع أى تغير مفاجيء فى كثير من النواحي ابان هذه الفترة المبكرة ، وربما كان من المناسب أن نطلق عليها عصرا رومانيا متأخرا أو بيزنطيا متقدما . فقد أظهرت ارتباطها الثقافى الكامل بالعالم الهلنستى ، ولم يعن اتخاذ جانب المسيحية نبذ الحضارة الوثنية ، اذ ظل التعليم والفن والفلسفة اليونانية أشياء تزدهر بها بيزنطة المسيحية . وكانت حكومتها فى جوهرها هى نفسها حكومة الامبراطورية اليونانية - الرومانية ، حيث استمرت تحكم بواسطة حاكم فرد تزداد سلطته نتيجة لمركزه الخاص ، باعتباره الممثل المختار لاله المسيحية .

أما الخدمات الادارية والمدنية فكانت ثمرة تجربة طويلة ، وقد تعرضت لحركة تجديد شاملة على يد دقلديانوس Diocletian وقسطنطين ، هيات الجهان الحكومى كى يصبح قاعدة التطوير المقبل . وضمنت فى الوقت ذاته استمرارية السلطة المركزية وفعاليتها . ولا شك أن الامتداد الواسع للامبراطورية جعل من الضرورى توجيه اهتمام خاص الى التنظيمات الاقليمية ، ومن ثم فانه مع نهاية القرن الرابع كان هناك أربعة اقاليم : اقليم الشرق ( ويضم مصر وآسيا الصغرى وثرأقيا ) ، والليريا Illyricum ( ويشمل وسط البلقان وبلاد اليونان ) والاقليم الايطالى ( ويحتوى على ايطاليا وشمال البلقان ودالماتيا Dalmatia وجزء من أفريقيا ) ، واطليم الغال ( و يتكون من بريطانيا وغالة واسبانيا وغربى موريتانيا ) . وكانت هذه المساحات الشاسعة تنقسم فى داخلها الى ولايات عديدة تنقسم بدورها الى مقاطعات . ولم يعد لاطاليا أى مركز تنفرد به . وحددت سلطات الولاة البريتوريين فى أضيق نطاق ، وانحصرت منذ عهد قسطنطين على الناحية المدنية فقط ، وكفت أيديهم عن ادارة القسطنطينية وروما ، ووكل أمر كل منهما الى الحاكم المدنى eparchos . أما سلطانهم على دوائر الحكومة المركزية فقد قيد بظهور طبقة الموظفين المتنافسين وعلى رأسهم كبير الموظفين Master of Offices ولم يكن تضاؤل سلطة الولاة البريتوريين الا مظهرا واحدا فقط من مظاهر التغيير والتكيف المستمر لنظام الادارة الرومانى ، وليس أدل على هذا من أن الناحية العسكرية شهدت فى الأخرى عملية إعادة تنظيم وتعديلات مشابهة ، فقد تم فصل السلطتين المدنية والعسكرية فى الولايات ، بحيث أصبح القائد dux يتمتع بالسلطة العسكرية وحدها ،

وان كان ممكنا أن تمتد سيادته لتشمل عددا من الولايات • وقد أدى ذلك الى ازدياد قوة الامبراطورية من ناحية عن طريق تقوية وسائلها الدفاعية على الحدود ، خاصة تلك القوات التي كانت تقيم في هذه المناطق وتحصل غالبا على الأراضى مقابل الخدمة العسكرية ومن الأخرى بتكوين قوة متنقلة يمكن أن يدفع بها ضد الغزاة في أى منطقة على الحدود الطويلة للامبراطورية ، أو تستخدم اذا دعت الضرورة لاختفاء أية فتنة يثيرها مدع للعرش •

وكانت الناحية العسكرية في حقيقة الأمر تمثل المسألة الأساسية بالنسبة للدولة البيزنطية في أول أمرها ، فالجيش الذي كان أفراد وقواده من العناصر الجرمانية ، طالما تم استدعاؤه ليصد زخوف البرابرة في الشمال ، أو ليواجه الضغط العنيف الواقع على الشرق من جانب ملك الملوك الفارسي • ويبدو أن تزايد الأخطار على الدانوب والجبهة الشرقية ، كان من بين العوامل التي دفعت قسطنطين ( ومن قبله قلديانوس ) الى اختيار النصف الشرقى من الامبراطورية لنفسه ، وترك الغرب تحت سيادة زميله (٧) فقد كان الشرق آنذاك يعتبر مركز الثقل في الامبراطورية ، حيث كان الشطر الشرقى *Pars orientalis* أكثر ثراء بموارده الاقتصادية وكثافته السكانية ، وموطن النشاط الثقافى والعقيدى الخصب يزخر بمدنه الكبيرة شأن المدينتين العالميتين ، الاسكندرية وانطاكية ، بل وحتى هذه المدينة الامبراطورية الجديدة على البسفور ، التي نمت نموا سريعا بحيث أضحت تنافس روما •

## ٢ - غزوات البرابرة ونجاة نصف الامبراطورية الشرقى :

شهدت الامبراطورية خلال الفترة الأخيرة من القرن الثالث وطوال القرن الرابع ، عددا من أنظمة الحكم المختلفة ، التي تتأرجع ما بين السيادة المطلقة لامبراطور فرد الى حكومة رباعية (٨) أكثر اتقانا ابتدعها

---

(٧) كان هذا النوع من « الامبراطور الشريك » أمرا عاديا • انظر بعده (٨) اعتلى قلديانوس عرش الامبراطورية سنة ٢٨٤ . وأدرك أنه لا يمكنه وحده ادارة دفة الحكم في الامبراطورية الواسعة منفردا ، فاختر



دقلديانوس ، ورغم أنه كان هناك امبراطور شريك أو أكثر ، إلا أن الذي لا شك فيه هو أن الامبراطورية بقيت واحدة دون انقسام . ومع ذلك فإن كلا من شطري الامبراطورية الشرقي والغربي ، أخذ يخطط لنفسه طريقا مغايرا ، لكل منهما مشاكله السياسية الخاصة .

وفي عام ٣٩٥ حضرت الامبراطور ثيودوسيوس العظيم Theodosius the Great الوفاة ، فترك حكم النصف الشرقي لابنه الأكبر أركاديوس Arcadius بينما آل نصفها الغربي الى ولده الصغير هونوريوس Honorius مع بقاء وحدة الامبراطورية قائمة ، يدل على ذلك أن القوانين التي كانت تصدر في أحد شطري الامبراطورية ، كانت لها شرعيتها عند اذاعتها في النصف الآخر . غير أن الأحداث السياسية أدت الى تحطيم الحكم الروماني في الغرب ، ذلك أنه منذ نهاية القرن الرابع وحتى عهد جوستنيان Justinian في منتصف القرن السادس افتقد الغرب ( أعني ولايتي ايطاليا وغالة ) الأباطرة المقتدرين ، ولم يكن من سبيل لتقاضي الانحلال في مواجهة ضغط البرابرة الا بمقدرة هؤلاء القادة الذين استولوا على مقاليد الأمور هناك ، وكانوا هم أنفسهم ينتمون في الغالب

زميله ماكسيميان Maximianus وخلع عليه مرتبة الأوغسطية وجعله امبراطورا شريكا في حكم الامبراطورية ، وعهد اليه ادارة النصف الغربي . وازاء الثورات التي اندلعت في الامبراطورية فقد عين مساعدين آخرين حمل كل منهما لقب قيصر ، جاليريوس Galerius في الشرق وقسطنطيوس Constantius في الغرب . ولما كانت أفة النظام السياسي في القرن الثالث هي تدخل الجيش في السياسة ، مما أدى الى اعتقال ستة وعشرين امبراطورا العرش في مدى نصف قرن ( ٢٢٥ - ٢٨٤ ) قتلوا جميعا عدا أحدهم ، فقد عمد دقلديانوس الى الاقادة من نظام الحكومة الرباعية Tetrachia هذا لضمان الاستقرار السياسي ، حيث يعتلى القيصران الى مرتبة الأوغسطية بعد وفاة الأوغسطين أو اعتزالهما ، ويتم اختيار قيصرين جديدين لهما وهكذا . ولكن هذا النظام فشل بعد اعتزال دقلديانوس مباشرة . للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث راجع للمترجم : الدولة والكنيسة - الجزء الثاني - الفصل الثاني .



لأصول جرمانية مثل ستليكو Stilicho وريكيما (٩) Ricimer .

وكانت القبائل الجرمانية المهاجرة مصدر قلق بالغ للامبراطورية لفترة طويلة ، ولن يمضى وقت طويل حتى تصبح لهم السيادة على ولايات الامبراطورية في الغرب من بريطانيا القصية الى ايطاليا وشمال افريقيا . ولا يعنى هذا ان الشرق قد سلم من الأذى ، فقرب نهاية القرن الرابع هطل القوط ، الذين طالما ناكدوا اقاليم الحدود ، على البلقان ووقعوا بالجيش الامبراطوري هزيمة ساحقة في سنة ٣٧٨ (١٠) ، وتبع ذلك استقرار عدد

(٩) ستليكو هو أحد القادة الجرمان الذين ذاع صيتهم في النصف الغربي من الامبراطورية ، جمع بين الشجاعة والطموح والذكاء والكفاءة . تولى الوصاية على الامبراطور هونوريوس عام ٣٩٥ ، وقد نجح في التصدي لهجمات القوط الغربيين على روما أكثر من مرة في بواكير القرن الخامس ولم يتمكن الاريك من اجتياحها والاستيلاء عليها ، الا في سنة ٤١٠ بعد ان ثم اعدام ستليكو عام ٤٠٧ على يد هونوريوس بتهمة الخيانة . اما ريكيما فقد كان أيضا أحد قادة الجرمان ، ينتمى لقبائل السويقي ، انتهز فرصة الفوضى التي أعقبت مقتل فالنتينيان الثالث Valentinian III سنة ٤٥٥ . وراح يولى الأباطرة ويعزلهم بمحض ارادته حتى عام ٤٧٢ . ولم يكن ينقصه فقط الا حمل اللقب الامبراطوري .

انظر C. M. H. I, pp. 260, 262, 265, 269 sqq, 310, 424

وايضا Thompson and Johnson, op. cit., pp. 90, 92 100 . المترجم .

(١٠) في سنة ٣٧٦ سمح امبراطور القسطنطينية فالنز Valens لقبائل الفيزيقوط بعبور نهر الدانوب والاستقرار في البلقان ، هربا من زحف الهون الآسيويين ، وكان الامبراطور يهدف من وراء ذلك الى تعمير الأراضي القاحلة في البلقان ، والى ان يجعل منهم سدا منيعا امام الهون اذا ما فكروا في عبور الدنوب . لكن الامبراطور لم يضع في اعتباره توفير الاحتياجات الضرورية التي يتطلبها هذا العدد الهائل من النازحين . وعلى امتداد سنتين قاسى القوط الغربيون من سوء معاملة موظفي الامبراطور الذين استغلوا المجاعة التي كان يعاني منها القوط وباعوهم لحوم الكلاب المائتة والقطط ، ثم باعوا القوط انفسهم في الأقاليم ، مما أدى الى اشعال نيران التمرد بينهم ، على اثر المذبحة التي اوقعها لوبيكينوس القائد العسكري في تراقيا بحامية قوطية ، مما أدى الى وقوع الصدام بين جيش الامبراطورية والقوط الغربيين عند ادريانوبل Adrianopolis ( حاليا ادرنة ) في تراقيا ، ودارت الدائرة على الرومان ولقى فالنز

كبير من القوط فى البلقان حيث تم الاعتراف بهما كقوة عسكرية احتياطية ( معاهدين Feoderati ) . ولكن هذا الاجراء اُرهِق الامبراطورية من أمرها عسرا ، فقد أثبتت هذه الجماعات انها مبعث ازعاج ( للامبراطورية ) ، ان نهبوا البلقان وسلبوا بلاد اليونان انى شاءوا ، وكان لهذه الأحداث آثارها السياسية البعيدة ، حيث لم تستطع حكومة القسطنطينية أن تتنفس الصعداء الا عندما أمكن تحويل أنظارهم الى منطقة أخرى . فبعد أن نهب القوط الغربيون Visigoths روما سنة ٤١٠ ( ١١ ) ، انسحبوا الى جنوب فرنسا

مصرعه . وكان لهذه الواقعة نتائجها البعيدة فى علاقة الامبراطورية بالجرمان .  
أنظر . Jones, Later Roman Empire, I, pp. 152 - 4

وايضا : اومان : الامبراطورية البيزنطية . ص ٢٨ - ٢٤ .  
وكذلك Thompson & Johnsen, op. cit., pp. 89 - 90  
و Davis, op. cit., pp. 22 - 23 وراجع الكتابين الأخيرين من  
Res Gestae الذى وضعه المؤرخ الوثنى المعاصر أميانوس ماركتلينوس  
Ammianus Marcellinus ووقف فى نهايته عند هذه المعركة ومقتل  
الامبراطور فالنتر . المترجم .

( ١١ ) كان الاستيلاء الاريك زعيم الفيز يقوط على روما سنة ٤١٠ ردود فعل واسعة متباينة فى مختلف الأوساط ، فالوثنيون القوا تهمة هذا السقوط على المسيحية ، وأعلنوا ان الأرياب الرومانية القديمة هى التى قادت خطو الرومان الى النصر عندما كانوا يتمسكون بعبادتها ، فلما هجروها - او على الأقل بغضهم - الى المسيحية غضبت الأرياب وتخلت عن روما أبان محنتها . وقد انبرى القديس أوغسطين Augustine اسقف بونة Hippo فى شمال افريقيا ، للرد على هذه الاتهامات والدفاع عن المسيحية ، فوضع كتابة الشهير « مدينة الله » De Civitate Dei الذى يتناول فيه هذه الاتهامات الوثنية وفندما ورد عليها بحجج مقابلة ، وانتهى الى ان المدينة كان لابد ان تسقط ، لأن الله اراد ذلك ، لأنها لم تقم منذ البدء على فكرة العدالة ، هذه الفكرة تجد تجسيدا لها فى « مدينة الله » ، وهى ليست الكنيسة او البابوية كما اعتقد الكثيرون فى القرون التالية ولكنها موجودة فى النفس الانسانية المؤمنة ، واعتبر هذه الحياة الأرضية مجرد رحلة حج بين الأشرار ، تجربة يخوضها المؤمن الحق للوقوف على مدى صلاحيته لمدينة الله ، لحظة عابرة فى اللانهاى .  
أنظر St. Augustine, The city of God, trans. by Marcus Dods

واسبانيا . على حين أفلح الامبراطور زينون Zeno في وقت متأخر من القرن الخامس ، في أن يبعث بأعداد غفيرة منهم الى ايطاليا ، فجاءوها رجالا ونساء وأطفالا في عام ٤٨٨ يقود جمعهم ثيودوريك Theodoric القوطي الشرقي (١٢) .

ومع نهاية القرن الخامس أمست ايطاليا ، شأن معظم ولايات الغرب ، وقد ضاعت من الامبراطورية . وكانت سلطة الأباطرة الرومان . خلفاء ثيودوسيوس العظيم ، قد انتقلت الى أيدي القادة الجرمان ، وأصبحت سيادة شبه الجزيرة في قبضة أودواكر Odoacer . ومع ذلك فقد تمكن ثيودوريك زعيم القوط الشرقيين Ostrogoths من تثبيت نفوذه في ايطاليا ، لا بوصفه امبراطورا ، ولا حتى حاكما مستقلا مثل معاصره كلوفيس Clovis ، ولكن باعتباره ممثل الامبراطور الروماني في القسطنطينية ، وقد سار ثيودوريك في رعيته سيرة حسنة حتى أصبح جديرا بأن يطلق عليه « امبراطور صالح » ، كما جرى ذلك على قلم معاصره الأصغر في القرن السادس بروكوبيوس Procopius .

وبينما أمسى الغرب بين يدي هؤلاء المستوطنين الجدد ، كان الشرق أسعد حظا بكثير ، ذلك أن العهد الزاهر لثيودوسيوس الثاني Theodosius II ( ٤٠٨ - ٤٥٠ ) بما شهدته من عناية بالتعليم وإنشاء الجامعة ، وإدارة ذائعة الصيت ، واتساع لحدود المدينة ، وإقامة للأسوار الحصينة الضخمة

---

وراجع المقدمة التي كتبها المترجم ماركوس دودس ،  
 Davis, op. cit., pp. 38 - 42 وأيضا  
 Hughes, A history of the church, pp. 23 - 24 وكذلك  
 و C. M. H. I, pp. 170, 173, 575 sqq. وراجع الدراسة الخاصة التي  
 قدمها الدكتور اسحق عبيد عن « مدينة الله » في كتابه : الامبراطورية  
 الرومانية بين الدين والبريرية ، ص ١٢٩ - ١٥٢ .  
 وأيضا Rand, Founders of the Middle Ages, pp. 266 - 272  
 و D. Knowles, The evolution of Medieval thought, pp. 32 - 50  
 وأنظر كذلك F. Copleston, A History of philosophy, Vol. II  
 Mediaeval philosophy, part I, pp. 102 - 105.

وأیضا G. Leff, Medieval thought, p. 41 . المترجم .  
 (١٢) أنظر قبله حاشية رقم ١ ص ٧٣ . المترجم .



التي تحمي القسطنطينية من ناحية البر ، يقابله ذلك القدر التعس للشقيقة القديمة روما .

غير أن الشطر الشرقي كانت له هو الآخر مشاكله ، فمع انه في نهاية القرن الخامس سوف تتمكن العناصر الجرمانية ، التي كانت قد دخلت الامبراطورية في شيء من القوة مستوطنين وجنودا ، من السيطرة على الحكومة الامبراطورية نفسها ، كما حدث من قبل في روما ، الا ان اعدادا كبيرة منهم صرفت ثمانية تلقاء الغرب ، ولكن الأهم من ذلك ، أن الشرق استطاع أن يعتمد على أهله في فجود آسيا الصغرى كي يجعل منهم جندا وقادة تمكنوا بنجاح من التصدي للجرماني اسبار (١٢) Aspar

(١٢) كانت معركة أدريا نوبل سنة ٢٧٨ فاتحة عهد جديد في العلاقة بين الامبراطورية والجرمان ، فقد تحولوا من جند مرتزقة إلى معاهدين ، وارتقوا في سلك المناصب العسكرية حتى احتلوا مراكز القيادة ، وساعد على ذلك السياسة التي اتبعها ثيودوسيوس الأول - كارها - بالاعتماد عليهم في تكوين الجيش ، وخلا العرش من شخصية قوية في الشرق والغرب على السواء بعد وفاته ، فازداد نفوذهم في العاصمة بدرجة كبيرة متمثلا في جايناس Gainas زمن أركاديوس ، واسبار الذي كان السبب المباشر في اعتقال كل من مارقيان Marcianus (٤٥٠ - ٤٥٧) وليو الأول (٤٥٧ - ٤٧٤) عرش الامبراطورية ، وراح يباشر سلطات واسعة ، وكف أيدي ليو عن ممارسة سلطاته . وكان ابنه اردابور Ardaburius قائدا لجيش الشرق ، بينما كان ابنه الثاني باتريكيوس Patricius يحمل لقب قيصر وزوجا لابنة ليو . وقد انتهز ليو الأول فرصة ازدياد العداء من جانب الرومان في العاصمة تجاه الجرمان ، وموجة السخط التي علت نتيجة فشل الحملة العسكرية التي وجهت ضد الوندال سنة ٤٦٨ ، وأفاد من المساعدة التي قدمها له الايزوريون في آسيا الصغرى تحت زعامة تراسيكوديسا Trasicodissa ، الذي أصبح الامبراطور زينون Zeno فيما بعد ، ووجهت الى اسبار ، وابناؤه تهمة الخيانة ، وتمت مصادرة اسبار وقتله هو وابنه اردابور ، وجرح باتريكيوس الذي أبقى على حياته بعد أن جرد من كل سلطاته ، أما الابن الثالث هرمانريش Ermanerich فقد نجا بنفسه هاربا وقد فشلت كل المحاولات التي بذلها انصار اسبار لاستعادة نفوذ الجرمان في العاصمة ثانية .

Jones, Later Roman Empire, 1, pp. 221 - 223

The decline of the Ancient World, pp. 127 - 133

ولنفس المؤلف



واتباعه . وبرهنت آسيا الصغرى آنذاك ، كما اثبتت أيضا فيما بعد ، أنها  
عضد الامبراطورية .

أما الأخطار الحقيقية التي عانى منها الشرق فكانت ذات طبيعة  
مغايرة ، إذ أن الامبراطورية الساسانية الفتية كانت تركز في قوتها على  
امتدادها ناحية الشرق . وقد راحت القوتان تتطلعان بعين ملؤها الشره الى  
منطقة القوقاز الاستراتيجية . وتناوران من أجل الحصول على حليف في  
هذه الأقاليم ، وسعت كل منهما لتدعى لنفسها قدرا من السيادة على المناطق  
الصحراوية المتاخمة للولايات الرومانية في سوريا وفلسطين ومصر . ورغم  
أن العلاقات بين الفرس والرومان على الجبهة الشرقية قد اتسمت بطابع  
التيقظ الحذر والنزاع المستمر ، إلا أن الفرس كانوا يمثلون للرومان خصما  
يختلف تماما عن أولئك البرابرة الذين أغرقوا الامبراطورية بسيل طوفانهم  
العرم . فقد كان الفرس أصحاب تقاليد مرعية وحضارة تقابل حضارة  
العالم اليوناني - الروماني ، حتى أنه كان في مقدور المؤرخ الروماني  
ثيوفيلاكس « القط الأفطس » (١٤) Theophylact Simocattes أن يكتب في  
نهاية القرن السادس قائلا : « منذ البدء قضت العناية الالهية أن  
تزدان الدنيا بعينين وضاءتين ، مملكة الرومان القوية القادرة ، وصولجان  
الحكمة في الدولة الفارسية » .

وكذلك C.M. H. vol. 1, pp. 395, 467 - 471

وأيضا Vasiliev, op. cit., 1, p. 104 . المترجم .  
(١٤) يعتبر من أشهر مؤرخي الفترة البيزنطية الأولى ، وهو ينتمى  
لأصل مصرى ، عاش في أواخر القرن السادس وأوائل السابع ، وشغل  
وظيفة أمين البلاط . وقد خلف لنا كتابات في التاريخ الطبيعي ، ومجموعة  
من الرسائل ، ثم وضع تاريخا لعهد موريس ( ٥٨٢ - ٦٠٢ ) ويتميز  
أسلوبه باستخدام البديع بشكل واضح ، ويتفوق على بروتوكوبيوس  
وأجاثيا في الكتابة ، بما يفاجيء به القارئ من ومضات لا يتوقعها من  
الخيال والمجاز والمأثورات والأساطير . وهو يعدنا في كتابه عن موريس  
بمعلومات وافية عن فارس وعن الصقالية في البلقان في أواخر القرن  
السادس .

Jones, Later Roman Empire, 1, p. 303, 11, 1010.

أيضا Vasiliev, op. cit., 1, pp. 181 - 182 . المترجم .

لكن أخطار السخط الهادر فى الولايات الشرقية كانت تفوق بكثير المطامح العسكرية لدى الامبراطورية الفارسية ، وكان الاستياء المتزايد تجاه الحكم الرومانى يلاحظ بوضوح فى سوريا وفلسطين ومصر ويعود فى جوهره الى ظهور الشعور المحلى بالانتماء الى طرائق الحياة الشرقية ، وليس الغربية أو اليونانية - الرومانية . وقد تبنت هذه الانفصالية فى عدد من المظاهر مثل الاهتمام باللغات والآداب الوطنية التى ظهرت جنبا الى جانب اليونانية وسيلة الاتصال العالمى آنذاك . وفى مصر كانت القبطية ، اللغة الوطنية ، تستخدم على نطاق واسع فى الحياة اليومية ، وغالبا ما كانت اللغة الوحيدة المفهومة أو المقروءة . وفى الأديرة الكبيرة حيث نجد الرهبان يتحدثون القبطية واليونانية ، وحيث كان من المتوقع قدوم عديد من الزائرين من عالم البحر المتوسط ، كان من الضرورى وجود المترجمين . ولقد انعكست بشكل حاد كل هذه الاختلافات اللغوية والتنافر السياسى فى المشاكل الدينية منذ القرن الرابع وما تلاء من زمان : وكان المجمع المسكونى الأول قد دعى للانعقاد فى سنة ٢٢٥ على يد قسطنطين العظيم ، لمناقشة وقرار مشاكل العقيدة ومسائل التنظيم الكنسى . ورغم أن هذا النظام المجمعى لم يكن السبيل الوحيد لحسم المشاكل الكنسية ، إلا أنه اتبع على نطاق واسع خلال العصور الوسطى . وكانت الكنيسة المسيحية قد بلغت درجة متقدمة فى النواحي التنظيمية ، عندما حصلت على اعتراف امبراطورى بها سنة ٣١٣ ، وقام بالدور القيادى فى هذا السبيل اساقفة الكراسى الكبرى فى روما وأنطاكية والاسكندرية ، وسرعان ما ضمنت القسطنطينية لنفسها خلال القرن الرابع مركزا مرموقا ، ورغم أنه فى المجمع المسكونى الذى عقد فى القسطنطينية عام ٣٨١ ، وقرينه الذى التأم جمعه فى خلقيدونية Chalcedon سنة ٤٥١ ، تم التأكيد على أن كرسي القديس بطرس له الأسبقية فى المكانة على بقية الكنائس . إلا أن القسطنطينية حققت على نحو سريع تقدما كبيرا فى المرتبة والأهمية ، حتى أنها ازاحت الاسكندرية وأنطاكية ، واحتلت الآن المركز الثانى (١٥) ، وأصبح لأسقف

---

(١٥) كان من بين القوانين الخاصة بالتنظيم الكنسى التى صدرت عن مجمع نيقية ( المسكونى الأول ) سنة ٣٢٥ ، القانون السادس ونصه : يتمتع

القسطنطينية التقدمية بعد أسقف روما لأن القسطنطينية هي روما الجديدة ،  
 ( القانون الثالث لجمع القسطنطينية عام ٢٨١ ) • وكان هذا القانون ضربة  
 قاضية لبطاركة الاسكندرية والملوك غير المتوجين لمصر الرومانية ، (١٦) •  
 ولقد غدا واضحا كما أدرك قسطنطين العظيم ، أنه ليس من اليسير  
 ايجاد الوثام والوحدة داخل الكنيسة المسيحية • وكان هناك الكثيرون الذين  
 مازالوا يتمسكون بشكل أو آخر من العبادات الوثنية ، كما كان هناك أيضا  
 المتشككون الذين ارتابت قلوبهم في كل العقائد على الاطلاق • وكان على  
 الكنيسة أن تواجه من جديد تحديات ذوى العقول الأريية والمفكرين النابيين،  
 ونتيجة لذلك ، واستجابة لمتطلبات الناحية التعليمية فيها ، راحت الكنيسة  
 توضح تفصيلا وتعدد عقيدتها ، وكان محور التعليم فيها يدور حول الاله  
 المسيحى ، ولكنها لقيت العنت الأكبر حين حاولت أن تحدد طبيعة ذلك الاله •  
 وعلى موائد تلك اللقاءات العاصفة التى شهدتها الجامع الكنسية بذل  
 الأساقفة ، وغالبهم من الأسقفيات الشرقية إذا ما قورنوا بالغرب الذى كان  
 ما يزال اقل كثافة سكانية ، ولم يصل الى نفس الدرجة من ناحية التنظيم

أسقف الاسكندرية بحق الاشراف على ، ورعاية ، كنائس مصر وليبيا والمدن  
 الخمس الغربية ، كما جرى بذلك التقليد القديم ، ويراعى هذا الحق أيضا  
 لأسقف روما وأسقف أنطاكية كل فيما تحت سيادته ، وكان هذا اعترافا  
 بأسبقية الأسقفيات الثلاث على ما عداها ، ومن الطبيعى أن لا يتضمن القانون  
 القسطنطينية ، لأن المدينة لم تكن قد بنيت بعد • ومن ثم فانه في المجمع  
 المسكونى الثانى الذى عقد سنة ٢٨١ فى القسطنطينية ، نص القانون  
 التنظيمى الثالث الصادر عنه على ما يلى : « لأسقف القسطنطينية حق  
 التقدم فى الكرامة بعد أسقف روما ، لان القسطنطينية هي روما الجديدة ،  
 ومن المعروف أن هذا القانون لا يمس مكانة أسقف روما ، ولكنه ينعكس  
 بصورة مباشرة على مكانة كنيسة الاسكندرية وأنطاكية ، كما أن القانون  
 الثامن والعشرين من قوانين مجمع خلقيدونية ساوى بين القسطنطينية وروما  
 فى المرتبة ، مما سيؤدى الى نتائج بعيدة المدى فيما بعد •

انظر فى ذلك Percival, The Seven Ecumenical Councils, (Nicene and post Nicene Fathers, vol. XIV) pp. 15 - 16, 178 - 179.

وايضا Hefele, op. cit., pp. 388 - 404, II, pp. 357 - 359 • المترجم •

وراجع للمترجم • الدولة والكنيسة - الجزء الخامس •

N. H. Baynes. Byzantine studies. p. 97.

(١٦) انظر



الكنسى ، بذلوا الجهد كل الجهد بحثا عن الرشد لأنفسهم والهداية للأجيال التالية عن طريق وضع تعريف دقيق للثالوث ، خاصة الأقنوم الثانى فيه ، الاله الابن ، غير أن العسداء الكامن بين الكراسى الاسقفية الكبرى ، أدى الى تصعيد الكراهية السياسية ، بل وحتى المنافسة الشخصية ، مما تمخض فى النهاية عن انشقاق مشين واليم ، لكن هذه السهام المقدسة التى كثيرا ما رُمى بها الخصوم بعضهم ، وتلك التسجيلات الحافلة بلحنى نتفت أو أطراف ثلعت ، لا ينبغي أن تضع فى طى الغموض الأعمال البناءة لرجال الكنيسة الأوائل ، ذلك أن صياغتهم المتقنة للعقيدة المسيحية قد أرست الدعائم الأساسية التى مازال يقوم عليها الآن التعاليم واللاهوت المسيحى .

وقد استؤنف جدل القرن الرابع حول الثالوث على يد أريوس Arius واتباعه الذين أكدوا أن الاله الابن أقل من الاله الآب . ومنذ القرن الخامس حتى السابع ، شعر لهيب الجدل الكريستولوجى وظهر بشكل واضح فى اتجاهين متطرفين ، أولئك الذين يصرون على طبيعة واحدة ( المناقزة Monophysites ) وآلء الذين ينادون بطبيعتين منفصلتين ( النساطرة Nestorians ) أتباع نسطور Nestorius الذى ذاع صيته عندما انفجر النقاش اللاهوتى فى بواكير القرن الخامس (١٧) . وفى مواجهة هذين

---

(١٧) اتسم جدال القرن الرابع بالصيغة الأريوسية القائلة بخق المسيح والرد عليها من القول بولادته ، ودار الجدل حول « مساواته » بالآب أو « شبهيته » بين الأريوسيين والنيقيين وبين الأريوسيين وأنفسهم . أما القرن الخامس فقد طغى عليه الحوار حول طبيعة المسيح ، واحدة هى أم اثنتين ، وزاد من أواره ما داخله من صراع بين الكنائس الرسولية فى الإمبراطورية حول الزعامة . وفى أوائل القرن الخامس ، جهر نسطور أسقف القسطنطينية برأيه القائل أن العذراء هى أم المسيح البشر وليست أم الاله ، وهو هنا يغلب الطبيعة البشرية فى المسيح . وكان طبيعا أن تثور القسطنطينية لأن أسقفها يجرد ربتها « العذراء » من قداستها ، ولما كان الامبراطور ثيودوسيوس الثانى رجلا تقيا ورعا ، فقد استجاب لنداء أسقفه الذى خاطبه بقوله « أعطى الأرض وقد تظهرت من الملحدىن ، أمنحك نعيم الجنة المقيم » ، فانزل الامبراطور سخطه على الجموع الثائرة وقضى على الفتنة . ولكن كيرلس Cyrillus أسقف الاسكندرية ، تناول آراء نسطور بالتنفيذ وأعلن شجبها ووضع اثنى عشر بندا للايمان السكندرى



النقيضين ، ظهر من بعد اتجاه وسط في المجمع المسكوني الذي عقد سنة ٤٥١ في مدينة (١٨) خلقيدونية Chalcedon ، لقي الاستحسان من روما

أردف كل واحد منها باللعنة Anathema على كل من يقول بغيرها ، وانحازت أنطاكية الى نسطور لانه كان أحد أبنائها وتلميذا لمدرستها اللاهوتية العقلية الارسطية . ولم يجد الامبراطور مخرجا من هذا المأزق الا بالدعوة لعقد مجمع عام ، التأم عقده في مدينة افسوس Ephesus عام ٤٣١ وعرف بالمجمع المسكوني الثالث . ودار الصراع رهيبا بين الاسكندرية واورشليم في جانب ، والقسطنطينية وانطاكية في الجانب الآخر ، واستخدم كيرلس كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للفوز في هذه المعركة ، حتى ختب له النصر في النهاية ، وأدين آراء نسطور وتم نفيه . غير أن أحد رهبان القسطنطينية ويدعى يوطيخا Eutyches جعل من « أناتيميا » كيرلس المادة التي بنى عليها آراءه في القول بأن في المسيح طبيعة واحدة هي الطبيعة الالهية ، التي ابتلعت الطبيعة البشرية . وعرفت هذه التعاليم الجديدة بالمونوفيزية ، واشتدت حمى الجدل ، ودخلت روما طرفا في هذا الصراع ، ودعا الامبراطور الى مجمع جديد عقد أيضا في مدينة افسوس سنة ٤٤٩ وترأسه ديوسقورس Dioscorus اسقف الاسكندرية الجديد ، خليفة كيرلس وتلميذه . وقد برا المجمع ساحة يوطيخا ولم تتل فيه رسالة العقيدة Tome التي بعث بها البابا ليو الأول ، مما دفع روما الى أن تطلق علم المجمع فيما بعد اسم « مجمع الأمعوص » . واذلك ارتبطت كنيسة الاسكندرية بالمونوفيزية رغم ايمانها بأن للمسيح طبيعة واحدة من طبيعتين . المتراحم .

للمزيد من التفاصيل عن هذه الأحداث راجع للمترجم - الدولة والكنيسة - الجزء الخامس .

(١٨) لم تحل المشكلة العقيدية في مجمل افسوس ، ولهذا دعا الامبراطور ماركيان ، الذي خلف ثيودوسيوس الثاني ، الى عقد مجمع جديد في مدينة خلقيدونية سنة ٤٥١ ، حمل اسم المجمع المسكوني الرابع . وكان الامبراطور الجديد بشعرا بضعف موقفه الداخلي ، حيث لم يكن يتمتع لاسرة ثيودوسيوس ، رغم أنه تزوج من بولكيريا أخت سلفه . ولهذا أراد استرضاء الاسقف الروماني ، لما يعلم من تدهور الأمور في الشطر الغربي من الامبراطورية وفي هذا المجمع وقفت روما والقسطنطينية في جانب ، والاسكندرية في الجانب الآخر ، وتم التصديق على رسالة العقيدة التي كان ليو الأول قد أرسلها انطا ، ونص قانون الايمان الصادر عن المجمع على الاعتراف بطبيعتين في المسيح « فهو نفسه كامل بحسب اللاهوت ، وهو نفسه كامل بحسب الناسوت » .

والقسطنطينية ، وان لم يحظ الا باقلية ضئيلة فى حوض البحر المتوسط الشرقى . وظهر فى سوريا وفلسطين ومصر نوع من الشروح والتاويلات المخالفة ، زاد من ضراوتها التبرم السياسى الذى يمكن أن يوضع فى عداد العوامل التى أدت الى فقدان الامبراطورية الرومانية لهذه الولايات فى فترة متأخرة زمن الفتوحات العربية . وهكذا نشأت الى جوار الكنيسة « الأرثوذكسية » كنائس أخرى منشقة بنظامها الهيراركى ، مثل الكنائس المونوفيزية فى مصر وسوريا . والتى مازال بعضها قائما الى أيامنا هذه .

حقيقى وإنسان حقيقى . وهو نفس واحدة وجسد ، مساو للآب فى جوهر اللاهوت ، ومساو لنا فى جوهر الناسوت . مماثل لنا فى كل شىء عدا الخطيئة . مولود من الآب قبل الدهور ، وهو نفسه فى آخر الايام مولود من مريم العذراء والدة الاله بحسب الناسوت لأجلنا ولأجل خلاصنا . ومعروف هو نفسه مسيحا وابنا وريا ووحيدا وواحد بطبيعتين بلا احتلاط ولا تغير ولا انقسام ولا انفصال . . . . . وقد أدين ديوسقورس أسقف الاسكندرية فى الجلسة الثالثة من جلسات المجمع وقطع من شركة الكنيسة . على ان أهمية هذا المجمع وخطورته تعود الى أن مصر وسورية أخطتا لأنفسهما منذ الآن طريقا مستقلا منفصلا عن القسطنطينية ، وأبطلت الكنيسة الاسكندرية استخدام اللغة اليونانية فى قداساتها واستبدلتها باللغة المصرية القديمة ، وأصبحت تعرف بالكنيسة الارثوذكسية وتعترف بطبيعة واحدة فى المسيح من طبيعتين ، على حين اعتبرت القسطنطينية نفسها هى صاحبة الايمان الارثوذكسى منادية « بطبيعتين تؤلفان شخصا واحد واقنوما واحدا » . عن هذه الحاشية والتى سبقتها راجع للمترجم ، الدولة والكنيسة : الجزء الخامس .

SOCRAT. hist. eccl. VII, 29, 31, 32, 34

Dict. theol. Cathol. art. Nest. and Mono.

The New Schaff - Herzog encycl. of Relig. Knowledge,

Encycl of Relig. & Ethics, 12 vol. و 13 vols.

Neander, lectures on the history of Christian Dogmas,

Percival, op. cit., 192 - 295 و 2 Vols.

Hardy, Christian Egypt: Church and people. pp. 111 - 116

Neale, A history of the Holy Eastern Church, Patriarchate

Hefele, op.cit., vol. III. و of Alex. 2 vols.

Lambart, The Canons of the first four general Councils

of the Church and those of the early local Greek Synods.

وايضا الدكتور اسد رستم ، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى الجزء الاول ،

٢٠٧ - ٣٤٤ المترجم .

على هذا النحو أدركت المسيحية ان الحماية الامبراطورية وما تبعها من الاعتراف بها ديانة رسمية ، لم تجلب لها الوحدة أو السلام ، بل ان الامتزاج التام بين الكنيسة والدولة ، قد أدى الى ايجاد عدد من المشاكل الجديدة ، وان كان في الوقت ذاته قد دعم مركز الكنيسة ، وفتح امامها افاقا جديدة في الداخل أو في ميدان التبشير ، وزاد من موارها دخلها المادي ، وضمن لها التفوق دائما . ولكن هذا الارتباط الكامل بالأمور التي تخص القيصر ، والذي كان من العسير تجنبه ، أفضى الى عدد من العواقب السياسية ، فالمجامع المسكونية أصبح باستطاعتها الآن اعلان اسبقية هذه الأسقفية أو تلك بسبب كونها « امبراطورية » يرفع من قدرها سيادة الدولة ومجلس السناتو ، وليس بسبب تأسيسها على يد أحد الرسل ( على الرغم من انه لم يحدث انكار صريح لهذه الناحية ، بل ان القسطنطينية سمعت في وقت لاحق ، حفاظا على مكانتها بين الكراسي الاسقفية القديمة ، الى الادعاء بانها ذات علاقة خاصة بالقديس اندراوس St. Andrew (١٩) . كما ان هذا الاقتران بالدولة ترك اثره الواضح في المسائل العقيدية ، على النمو الذي كشفت عنه الأحداث في عهد جوستنيان Justinian .

---

(١٩) ظهرت أسطورة الارتباط القسطنطينية بالقديس اندراوس للمرة الأولى في القرن السابع . (المؤلفة) . وقد شهد القرن الخامس احتدام الصراع بين الكنائس رقيا الى مرتبة الزعامة ، وغلف هذا الصراع نفسه برداء العقيدة ، حتى انتهى الأمر باختصاص الكنائس جميعا فيما بينما . وقد أسلفنا ان مجمع نيقية المنعقد سنة ٣٢٥ ، قد نص في قانونه السادس على اسبقية كنائس الاسكندرية وانطاكية وروما . وقد قدر لمدينة روما ان تكون للقديس بطرس مستقرا ومقاما ، حيث اقام بطرس هناك في القرن الأول الميلادي قواعدا للكنيسة المسيحية . ولما كانت روما لقرن خلت عاصمة امبراطورية غريضة وحاضرة مجد الرومان ، ولما كان بطرس بين الرسل اميرهم ، اعتمادا على ما جاء في حديث المسيح اليه ذات مرة وهو يحاوره « ... طوبى لك يا سمعان بن يونا ، انت بطرس وعلى هذه الصخرة ابني كنيسة وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، واعطيك مفاتيح ملكوت السماوات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا في السماء ، وكل ما تحله على



الأرض يكون محلولا في السماء ، • نقول انه انطلاقا من هذا الواقع ، اعتبر أساقفة روما كرسيهم الأسقفى رأس الكنيسة العالمية • وساعد على ذلك أن أباطرة روما منذ القرن الثالث قد هجروا المدينة الى معسكراتهم على الحدود ، أو مدن أخرى في الشرق مثل نيقوميديا ثم القسطنطينية ، وحتى أباطرة القرن الخامس في النصف الغربي ، ولوها دبرهم الى رافنا في الشمال • وهكذا وجد أساقفة روما أنفسهم وحيدون في العاصمة ، فراحوا يمارسون سيادتهم الروحية دون أدنى قلق ، الى الحد الذي اتسعت فيه هذه السيادة لتشمل فيما بعد النواحي السياسية بل والعسكرية في مطلع القرن الخامس • وعلى الطرف الجنوبي للبحر المتوسط ، كان مرقس الانجيلي قد قدم الاسكندرية يحمل بشارته ، ولم يكن مرقس من بين الرسل الاثنى عشر ، ولكنه كان قريبا الى بطرس محببا اليه ، شاركه رحلته الى روما وكتب انجيله بناء على « رغبة الاخوة الرومان » ثم اتخذ طريقه الى ليبيا ومنها الى الاسكندرية • ونقف على هذا كله من رسالة بطرس الاول ، وما كتبه القديس جيروم ويوساب القيساري •

واذا كانت كنيسة الاسكندرية قد افقدت المرتبة الرسولية ، فقد اعتمد أبائنا في تعويض ذلك على ما ذهبوا به الاسكندرية من شهرة في العالم الهلنستي فكرا وثقافة ، وما قدمته لعالم المسيحية من آباء اللاهوت ، وما لها من ماض مجيد قديم كانت تعيشه الاسكندرية عاصمة لامبراطورية البطالة • وهناك على الساحل الشرقي للبحر المتوسط كانت تقوم أنطاكية ، ولها ما لها من سمعة عريضة وحضارة ، ولكنها الآن تفخر على روما والاسكندرية بأن أمير الرسل بطرس هو الذي وضع أسس كنيستها قبل أن يرتحل الى روما ، وأنه قضى في أنطاكية سبع حجج ما بين عامي ٢٤ - ٤١ - ويطلعنا على هذه الحقيقة صراحة يوساب القيساري في تاريخه الكنسي • وفي عام ٣٣٠ برزت الى الوجود مدينة القسطنطينية ، وحاولت كنيستها أن تجد لها مكانا على سلم الزعامة فوق الدرج الذي ارتقت اليه تلك اللدات • ولما كانت مدينة حديثة عهد بالحياة ، فقد اعتمدت على حاضرها كعاصمة للامبراطورية ومستقر للأباطرة ، وأنها تفوق كل تلك المدن في أنها نشأت على المسيحية ، لم تسع الى مذبح لتشرق أمام الأرياب بخورا أو تقدم قربانا • ثم كانت أسطورة ارتباطها بالقديس أندراوس ، التي تقول انه هو الذي أسس كنيسة بيزنطة ، المدينة التي على أطلالها شيدت القسطنطينية ولما كان أندراوس هو الذي أخذ بيد أخيه سمعان ( بطرس ) الى المسيح ، كان له فضل السبق في الايمان والمكانة ( لاحظ أن انجيل يوحنا وحده هو الذي ينفرد بذكر هذه الحادثة ) • ومن ثم يصبح كرسيه رسوليا • وقد قدمنا



### ٢ - الامبراطور جوستينيان والقرن السادس :

« لدينا كبير أمل في أن يأذن الاله لنا باسترداد أراضي الامبراطورية الرومانية القديمة التي من جراء التراجي ضاعت » ( نوفلا ٣٠ ، ١١ ) .

يتود جوستينيان في أصله الى فلاحى مقدونيا ، ولكنه كان شأن أسلافه ومن خلفوه ، يضطرم عقله بفكرة امبراطورية رومانية مسيحية تعود الى حدودها القديمة ومركزها المرموق في عالم البحر المتوسط . وخلال فترة طويلة من عهد خاله جوستين الأول Justin I ( ٥١٨ - ٥٢٧ ) ، وطوال ما يقرب من أربعين عاما حكمها منفردا ، قام جوستينيان بالمحاولة الجريئة والأخيرة لاعادة فرض السيادة الرومانية على الشعوب الجرمانية التي كانت قد استقرت الآن في ايطاليا وفرنسا واسبانيا وشمال افريقيا ، وكان لدى جوستينيان حافز آخر تمثل في الاستغاثة التي جاءت من الكاثوليك ، ادعوا فيها انهم يتعرضون للاضطهاد من جانب سادتهم الأوستروقوط في ايطاليا والوندال في شمال افريقيا ( ٢٠ ) ولم يكن تأييد الأرثوذكسية بالنسبة لـ جوستينيان يقل شأنًا وأهمية عن استعادة السيادة الامبراطورية .

في حاشية سابقة ما تضمنه القانون الثالث الصادر عن المجمع المستونى الثانى سنة ٢٨١ حول مكانة أسقف القسطنطينية وكذا قانون رقم ٢٨ لمجمع خلقيدونية . عن هذه الأحداث بالتفصيل راجع للمترجم - الدولة والكنيسة - الجزء الخامس .

( ٢٠ ) تحولت معظم الشعوب الجرمانية - عدا الفرنجة - الى المسيحية في صورتها الآريوسية ، ويعود ذلك بالدرجة الأولى الى أن أولفيلاد - *Ulfilas* - أحد رجال القوط قد رسم أسقفا في سنة ٢٤١ على يد يوساب النيقوميدى ، أبرز زعماء الآريوسية الأصلية ، ورفيق آريوس في مدرسة اللاهوت الأنطاكية ، ثم وقع أولفيلاد أيضا على مرسوم الايمان الذى اتفق عليه الآريوسيون في ٣١ ديسمبر سنة ٢٥٩ في نيقا - *Nice* - وذلك في مجمع القسطنطينية الذى عقد في يناير/فبراير سنة ٣٦٠ ، وهو المرسوم الذى أقر العقيدة الهوموية *Homoion* - ( الشبه بين الابن والاب ) - ومن ثم انتشرت الآريوسية بين القوط ومنهم الى القبائل الجرمانية الأخرى . وإذا كان الوندال قد اتبعوا سياسة عدائية تجاه الكنيسة الكاثوليكية ورعاياها في شمال افريقيا منذ البداية ، فان الكنيسة في روما حظيت بالاحترام من جانب ثيودوريك الذى كان حاكما متسامحا في عصر لا يعرف التسامح .

في عام ٥٢٢ كان جوستينيان قد أعد للامر عدته • فبعث بقائدة الوفي  
المقتدر بليزاريوس Belisarius على رأس حملة استطاعت القضاء على  
سيادة الوندال في شمال أفريقيا ، وتمتعت المنطقة تحت السيادة الرومانية  
العائدة بقدر من السلام ونوع من الحكومة المنظمة قدر لها أن تظل قائمة  
طوال قرن وينيف حتى مقدم الفتح العربي • وبعد جهود مضنية تمت هزيمة  
القوط الشرقيين في ايطاليا ، واستعادة جزر غربي البحر المتوسط ،  
واكتساب موطىء قدم في جنوب شرقي اسبانيا ، وان ظلت معظم اراضي  
هذه المنطقة في ايدي الفيزيقوط ، مثل جنوبي فرنسا ، اما ولاية غالة الفقيرة  
فلم يقدر لها ان تعود ثانية الى أحضان الامبراطورية (٢١) •

وكثيرا ما تعرض جوستينيان لحمالات من النقد بسبب حروبه  
الاستردادية ، واتهم بالفشل في محاولته ايجاد نوع من التوافق بين السياسة  
الامبراطورية والوضع السياسي المتغير ، واعلن هؤلاء النقاد بأنه كان  
يتعين على جوستينيان ان يركز اهتمامه في بلاد اليونان ومنطقة البلقان  
والمشاكل المتعلقة بالولايات والجبهة الشرقية • ولكن الحقيقة لا يمكن  
ان نتوقع من أي امبراطور روماني التخلي عن كل ولايات الغرب هذه او  
معظمها دون حرب ، خاصة ايطاليا ، التي كانت لزمان بعيد قلب الامبراطورية

انظر SOZOM hist. eccl. IV, 24, SOCRAT hist. eccl. 11, 41  
وراجع C. M. H. vol. I, p. 212  
وايضا Strayer & Munro op. cit., pp. 40 - 45  
و Davis, op. cit., pp. 45 - 53 وانظر للمترجم • الدولة  
والكنيسة • الجزء الثالث •

(٢١) للوقوف على التفاصيل العسكرية لحروب جوستينيان  
الاستردادية ، والظروف السياسية التي احاطت بها ، انظر

Ure, Justinian and his Age, pp. 17 - 84  
و Jones, Later Roman Empire pp. 269 - 78, 287 - 94  
وكذلك Vasiliev, op. cit., I, 133 - 141 وايضا C. M. M. vol. II, pp. 11 - 19  
Thompson & Johnson, op. cit., pp. 120 - 127

وكذلك ه • موس ، ميلاد العصور الوسطى ، ترجمة عبد العزيز  
جاويد ، ١٧٣ ، ١٨٢ وايضا : اومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص  
٦٤ - ٧٦ •

و Gibbon, op. cit., IV, ch. 41 و Bury, op cit., II pp. 124 - 291

وملتقى أنظارها . ورغم أنه لم يعد لها الآن ذلك المركز الاستراتيجي الممتاز الذي كان ، إلا أنها ما زالت تمثل أول عاصمة للامبراطورية ، روما القديمة . وعلى هذا النحو فإن جوستينيان كان يقتفى وقع أقدام أسلافه ، فالامبراطور زينون على سبيل المثال لم يعترف البتة بأدواكر أو ثيودوريك الأستروقوطي حاكمين مستقلين في إيطاليا ، ولكن فقط مجرد ولاته . وبعد انتهاء عهد جوستينيان ظل أباطرة القرن السابع يقدرون تماما قيمة إيطاليا والغرب . ويرون أن استرداد هذه المناطق وإدخاله ثانية ضمن حدود الامبراطورية ، أمر يقع ضمن نطاق الممكن . ورغم أن أسلوب حكم جوستينيان كان يلقي النفور حقيقة في إيطاليا ، وأن الشمال الإيطالي قد وقع في أيدي الغزاة اللومبارديين Lombards عقيب وفاة الامبراطور (٢٢) ، إلا أنه يعزى إلى مشروعه هذا تجديد الاتصال السياسي المباشر مع إيطاليا مرة ثانية . وحتى القرن الحادي عشر كنت ما تزال هناك أجزاء من إيطاليا تحت السيادة البيزنطية . أما الروابط الثقافية التي ربطت طويلا جنوب إيطاليا وصقلية بعالم بحر إيجه فقد قويت بصورة غير محدودة .

---

(٢٢) توفي الامبراطور جوستينيان في عام ٥٦٥ ، ولم يكد يمضي على ذلك ثلاثة أعوام حتى كانت عناصر اللومبارد قد أخذت تجتاح شمال إيطاليا ، وكان جوستينيان قد دعاهم للنزول على حدود نوريكوم Noricum إلى الشرق من مملكة الجبيديين Gepids الذين كانوا قد احتلوا بانونيا Pannonia وقد راحت العلاقات بينهما تجري إلى السوء ، مما دفع اللومبارد إلى الاستعانة بعناصر الآفار الذين كانوا يستوطنون الشرق البعيد عبر الدانوب . وقد قبل الآفاريون ذلك شريطة أن يسلم إليهم اللومبارديون عشر قطعانهم ونصف أسلاب الحرب بعد النصر وكل أراضي الجبيدي . وتمكنت القوات المتحالفة من تدمير مملكة الجبيديين ، وكان هذا في حد ذاته نذير الكوارث للامبراطورية . فقد أدرك اللومبارديون أن حلفاءهم الآفار يشكلون جيرة خطيرة على أمنهم ، ومن ثم قرروا هجران أقليمهم ذاك الحرب ، وغزوا الأراضي الإيطالية لحسابهم الخاص . وكان اللومبارد قد وقفوا على ثراء إيطاليا عندما أقدم نارسس Narses ، قائد الامبراطور جوستينيان ، في عام ٥٥٢ على تجنيد عدد كبير منهم محالفين ، أثناء صراعه مع الأوستروقوط . أو حوالي عام ٥٦٨ ، أي بعد ثلاث سنوات من وفاة جوستينيان تمكن ملك اللومبارد ألبوين Alboin من دخول فينيسيا



على أنه لا يمكن بأي حال أن تتخذ الحماسة والاهتمام بمشروعات الامبراطور في الغرب ، دليلاً على الخلاص من القلق الذي ينتاب الجبهات الأخرى ، ذلك أن المشاكل التي كان يعاني منها عهد جوستينيان تشبه إلى حد كبير تلك التي واجهت أي امبراطور روماني ، سواء في العصور القديمة أو الوسطى ، فأعداء الامبراطورية في الشرق كانوا يتطلعون منها الانتباه الدائم والحذر ، الأباطرة الساسانيون ذوو المطامح في فارس ، وفي الوقت ذاته القبائل النازحة غير المستقرة التي لم يتوقف سيلها عبر الدانوب إلى داخل الولايات الامبراطورية ، أما للنهب أو حتى بغرض الاستيطان . وفوق هذا وذاك حالة الاضطراب الدائم والعنيف بسبب السخط السياسي ونتيجة الجدل العقيدى ، مما عمل على تقويض دعائم الولاء للحكم الروماني ، وأدى ذلك إلى تكدير العلاقات بين الاسقفيات الكبيرة المختلفة ، خاصة روما والقسطنطينية .

ورغم أن قلب جوستينيان ومظامحه كانت معلقة بالغرب ، إلا أنه لم يكن باستطاعته أن يغمض عن الشرق عينيه ؛ ذلك أنه عاصر في الجزء الأكبر من عهده خصمه الساساني كسرى الاول Chosroes I ( ٥٣١ - ٥٧٩ ) الذي كان على قدر كبير من الكفاءة والثقافة . وقد ترك بروكوبيوس ( ٢٣ )

وفي العام التالي استولى على لجيوريا بما فيها ميلانو ، ثم سار الغزو اللومباردي لاطاليا بعد ذلك قدما إلى أن استعان البابوات بمملكة الفرنجة . أنظر Jones, Later Roman Oman, The Dark Ages, pp. 181 - 203 وكذلك Pirenne, op. cit., pp. 43 - 45 المترجم . ( ٢٣ ) هو بروكوبيوس القيساري ، ولد في قيسارية فلسطين حوالي نهاية القرن الخامس ، ودرس القانون في القسطنطينية ، واشتغل بالمحاماة ، ثم أصبح سكرتيراً للقائد الشهير بليزاريوس ، ورافقه في حملاته العسكرية بما أتاح له فرصة متابعة الأحداث عن قرب ، وأباح له الاطلاع على الوثائق الرسمية . وقد ترك لنا ثلاثة أعمال يأتي في مقدمتها بلاشك « التاريخ » الذي يقع في ثمانية كتب ، تناول فيها بالتفصيل حروب جوستينيان مع الفرس والوندال والقوط ، أما عمله الثاني فقد وضعه في ستة كتب عن « الانشاءات المعمارية » التي اقامها الامبراطور جوستينيان ، وهذا المؤلف يعد تصيدة



Procopius سكرتير بليزاريوس ، تقريراً مفصلاً عن الحروب الفارسية الطويلة المتقطعة . وتمكن جوستينيان في عام ٥٦٢ ، بمعاهدة السلام التي وقعت بين الطرفين ، أن يحتفظ بالسيادة على لازيقا Lazica ، وهي المنطقة الواقعة عند الطرف الجنوبي الشرقي للبحر الأسود ، يسكنها المسيحيين وأهميتها الاستراتيجية ، سواء من الناحية السياسية أو التجارية . كما أنه حافظ على الولايات الرومانية الشرقية مصونة في مواجهة قوة العدو الفارسي ، وإن كانت هذه النتيجة وحدها اقتضت حملات عسكرية باهظة التكاليف . تدعمها مساع دبلوماسية لا نهاية لها . وجزية مالية سنوية ضخمة . وتحسين وتحصين الوسائل الدفاعية على الجبهة الشرقية .

وكان جوهر سياسة جوستينيان في الشمال ، شأن الشرق . دفاعياً بحثاً . ولم يكن لديه من الوقت ما يكفي ليسوق إلى هذه المنطقة حملات عسكرية ذات فعالية ، ولكنه كان راضياً بما يمكن تسميته السياسة الانتهازية التي تقوم أساساً على التصدي من حين إلى آخر لزخوف الغزاة الصقالية والافار الذين دأبوا على التوغل في الولايات الرومانية ، خلال

---

نظمها بروكوبيوس في مدح جوستينيان . أما كتابه الثالث فهو « مذكرات لم تنشر » أو ما شاع بين الدارسين باسم « التاريخ السري » وقد جاء على النقيض من الكتابين السابقين تماماً ، إذ يحمل فيه على الامبراطور وزوجته ثيودورا وبليزاريوس وزوجته أيضاً ، ويعزو إلى الامبراطور كل البلايا التي حلت بالامبراطورية حتى أن الدارسين انتابهم الشك في نسبة هذا الكتاب لبروكوبيوس ، ولكن الدراسات الدقيقة الجادة أثبتت أن واضعه هو بروكوبيوس نفسه . وعلى الرغم من أن بروكوبيوس قد تتبع نسق المؤرخين الأغريق القدماء ، مثل هيرودوت وثوكيديدس . إلا أن أسلوبه رغم استخدامه اللغة الكلاسيكية ، كان يتميز بالحيوية والسلاسة ، انظر دكتور نور الدين حاطوم ومجموعة من الاساتذة ، الدخول إلى التاريخ ، ص ١٢٥ - ١٢٨ ورنولد توينبى : الفكر التاريخي عند الأغريق ، ص

Vasiliev, op. cit., I, pp. 180 - 181

وكذلك

١٠٥ - ١٠٩ .

Bury, op.cit., 11, pp. 21, 24, 50

و

Ure, op. cit., pp. 168 - 184

و

59, 419 sqq. المترجم .

اغاراتهم التي استهدفت السلب والتهب ، وان كان جوستنيان قد أورث خلفاءه مشكلة الصقالبة والبلقان .

لقد دعى جوستنيان بحق « الامبراطور الذي لم تغمض له عين » ، وقد يبدو أن مطامحه الهجومية في الغرب ، والأزمات المستمرة والحروب في الشمال وعلى جبهة الشرق ، شغلت منه الوقت كله ، ولكن الأمر لم يكن على هذا النحو فحسب . فقد لعب جوستنيان نفسه دورا كبيرا في الجدل الكنسي الذي تأجج في القرن السادس . وكانت روما قد أخذت على عاتقها من قبل مسئولية وضع التعريف الأرثوذكسي للعلاقة بين الطبيعتين الإلهية والبشرية في المسيح ، والذي أذيع في مجمع خلقيدونية المسكوني سنة ٤٥١ . وقد علمنا أن هذا التعريف لم يحظ بموافقة بعض الولايات الرومانية في الشرق (٢٤) ، ومن ثم فإن جوستنيان قضى من عهده عدد سنين في محاولة لإيجاد بعض السبل التي من شأنها استرضاء سوريا وفلسطين ومصر ، دون أن يجلب على نفسه في الوقت ذاته عداوة روما والغرب . لقد كان جوستنيان إلى درجة ما لاهوتيا ، يبدى اهتماما خاصا باللاهوت ، وقد دفعه ذلك إلى البحث عن طريق وسط *via media* يحفظ بها وحدة الامبراطورية .

وبقدر ما كان المنافزة والشرق المنشق يحظون باهتمام خاص ، فقد وجدوا نصيرا وفييا في زوج جوستنيان ، ثيودورا Theodora ( ت ٥٤٨ ) التي كانت إحدى راقصات المسرح ، ذات ماض ملوث ، وقد ساحت في الأراضي المونوفيزية قبل زواجها ، ولذا مالت ناحية المنافزة . وكانت تضم بين جوانحها شخصية قوية تتم عن فطنه سياسية وشجاعة في آرائها وفكرها ، تجلّت في مواقف كثيرة كان أبرزها عندما وضعت نفسها على رأس أولئك الذين استحثوا جوستنيان على أن يدعم مركزه في القسطنطينية ، حينما اشتعلت الفتنة في الهيدروم ، وهدد مثيروها باختيار امبراطور منافس (٢٥) . وربما كانت ثيودورا تعتقد أنه من الأفضل استرضاء الشرق

(٢٤) راجع حاشية ١٨ ص ١٠٦ ، ١٠٧ . المترجم .

(٢٥) انتهى الأمر بالفرق الرياضية الأربع التي عرفت القسطنطينية ،

. . . . .

تمثل عناصر الحياة الأربعة ، الماء والهواء والنار والثرث ، ( الأزرق - الأبيض - الأحمر - الأخضر ) الى الاندماج في فريقين فقط هما الزرق والخضر ، ولم يعد نشاطهما مقصورا على النسواحي الرياضية في الهيدورم ، بل امتد ليشمل نواح أخرى ، فعهد اليهم بالحفاظ على الامن في العاصمة ليلا ، ثم مهمة الدفاع عن القسطنطينية ، ثم أصبحوا يمثلون الطبقات الاجتماعية ، فالزرق عنوان اهل المدن والتجار والنبلاء ، والخضر دليل اهل الريف ، ثم راحوا يعبرون تبعا لذلك عن التيارات العقيدية المتصارعة ، فالخضر هم اصحاب الطبيعة الواحدة والزرق هم اصحاب الطبيعتين . ولقد عانت العاصمة الكثير من جراء صراعهم السياسى والاجتماعى والدينى . وبذل أباطرة القرن الخامس وأوائل السادس جهودا كثيرا للحد من نفوذهم دون جدوى . وكانت فتنة النصر التى وقعت سنة ٥٢٢ فى القسطنطينية واحدة من هياجهم المألوف . فقد بدأت بشغب عادى فى الهيدورم بين الفريقين ، امتد أثره الى انصارهما ، قابله محافظ المدينة يواديمون Eudaemonius بعدالة صارمة ، حيث قبض على سبعة من زعماء الثائرين ، أعدم بعضهم بينما أفلح بعض آخر فى الفرار . ولكن هذا السلوك من جانب المحافظ ، بالاضافة الى السياسة المالية التى كان ينتهجها يوحنا الكبادوكى ، وجدت بين الفريقين المتصارعين ، قتالفا فيما بينهم وجعلوا من كلمة (Nica) Vika « النصر » شعارا لهم ، ومن ثم عرفت الفتنة بهذا الاسم . وقد قاموا فى ١٤ يناير ٥٢٢ بإشعال النيران بمبنى المحافظة ، ثم أضرموا هذه النيران فى دور الحكومة والمرافق العامة والمنشآت ، وعقدوا اجتماعا عاصفا فى الهيدورم ، خلا الامن الفوضى . وقدموا مطالبهم التى تنادى بطرد العادل الصارم يودايمون ويوحنا الكبادوكى والمشرع ترييونيان ، وكان المترفون فى العاصمة يكرهون هذين الأخيرين . وقد تملك الخوف جوستينيان ، فأصغى لمطالب الثائرين ، وأنس هؤلاء فى انفسهم قوة فاستحثوا خطاهم الى دار بروبوس Probus ابن اخى انسطاسيوس الامبراطور الاسبق ، لاعلان اختيسارهم له امبراطورا فلما رفض أحرقوا داره ، وفى ١٨ يناير اصدر الامبراطور عفوا عاما يبتغى به ترضية الثائرين ، غير ان الزخوف اكتسحت سماحة جوستينيان فى أنفة حمقاء ، فاختاروا هيباتيوس Hypatius ، وهو ابن اخ آخر لانسطاسيوس ، امبراطورا ، واقتادوه الى الهيدورم لتتويجه . وقد شجع الثائرين على التمردى فى غيهم اقوال العاصمة كانت خالية من الجند ، ولهذا تسرب الياس



على الاحتفاظ بعلاقات ودية مع روما . فلما توفاهما الموت أقدم جوستينيان على أن يتخذ بنفسه بعض الاجراءات والقرارات الكنسية ، حقق فيها فشلا ذريعا ، حيث جلبت عليه عدااء انطاكية والاسكندرية وروما ، ومع ذلك فقد سار جوستينيان في سياسته وراح يمارس سلطة واسعة على الكنيسة ، حتى انه يعد واحدا من الأباطرة الرومان القلائل الذين تنطبق على سياستهم الدينية ذلك التعبير الذي أسىء استخدامه بصورة واضحة « القيصرية البابوية » Caesaropapism .

وعن طريق الخدمات التي اداها مساعده ذور الكفاية والدراية ، تمكن جوستينيان من توفير المال اللازم لسياسته الخارجية ولأسكات طنين أعدائه ، وقد أقدم جوستينيان على تنفيذ برنامج واسع من المشروعات المعمارية ، تمتد من التحصينات العسكرية الجديدة في البلوبونيز Peloponnese والسقايات الضخمة في افسوس Ephesus الى انشاء ايا صوفيا Hagia Sophia التي دشنت للحكمة المقدسة ، والتي ما تزال تعد إحدى روائع القسطنطينية . ويدل كثير من قوانينه على اهتمامه باستئصال الفساد الاداري . وقد أصدرت اللجنة التشريعية التي ألفها مجموعة من الكتب عرفت بمجموعة جوستينيان Corpus of Justinian وكانت

---

الى نفس الامبراطور وقرر الهروب . غير أن ثيودورا وقفت تخاطب زوجها في حزم ، فرفضت فكرة الهرب التي لاتليق بالملوك ، على حد تعبيرها ، وبيت له أن ذلك من أيسر الأمور ، ولكنها تفضل أن تموت في مكانها على العرش ، وانتهت حديثها بقولها ان « الأرجوان خير الاكفان » ، تعنى بذلك تفضيل الموت في العباءة الامبراطورية على الهروب . وكان لهذا القول أثره في تغيير فكر جوستينيان ، الذي أمر قائديه بليزارىوس وموندوس بالقضاء على الثائرين ، وعلى الفور رتب القائدان ما توافر لهما من الجنود ، وأطبقوا على الثائرين في المضمار ، حيث جرت فيهم مذبحة مروعة ذهب ضحيتها ، على حد بعض التقديرات ، ثلاثون ألف قتيل على رأسهم هيباتىوس . ولم تقم لحزبى الزرق والخضر بعد ذلك قائمة .

انظر Bury, op. cit., II, pp. 39 - 48 و Vasiliev, op. cit., I, pp. 154 - 157 و Jones, Later Roman Empire, I, pp. 271-272 و Ure, op. cit. pp. 201-203

وايضا . اومان : الامبراطورية البيزنطية ، ص ٥٩ - ٦٣ . ودكتور اسد رستم بالروم . الجزء الاول ، ص ١٧٠ - ١٧٢ . المترجم .



فى حد ذاتها محاولة لتقويم وتهذيب الأسلوب القانونى الرومانى البالغ التعقيد بما يتلاءم وطبيعة العصر ، وبشكل مغاير فى أغلب الأحيان فيما بعد ، وتضم هذه المجموعة ، المقننة Code وهى عبارة عن المراسيم الامبراطورية التى صدرت منذ عهد هادريان Hadrian فصاعدا ، بما فيها تلك التى صدرت فى عهد جوستينيان ، والجامع Digest وهو تصنيف لأحكام وتشريعات الفقهاء الرومان ، ومبادئ القانون Institutes وهو مختصر يعتمد عليه طلاب القانون (٢٦) ، والمتجددات Novels (novellae leges) وهى مراسيم جوستينيان التى أذيعت منذ نشر المقننة ، أول مجلد صدر من المجموعة . وقد وضعت مجموعة القانون المدنى Corpus Juris civilis هذه الاسس التى ارتكزت عليها من بعد القوانين البيزنطية ، واستخدمت أجزاء منها على الأقل فى الاراضى الصقلبية التى أصبحت ضمن دائرة النفوذ البيزنطى ، فلما ظهرت فى القرن الثانى عشر ، تركت بصماتها الواضحة على الفكر القانونى والسياسى للعالم المسيحى اللاتينى .

كان جوستينيان - بكل ما تعنيه الكلمة - آخر الأباطرة الرومان ، نجح فى أن يستعيد للمرة الأخيرة « امبراطورية رومانية » imperium romanum تضم تقريبا كل عالم البحر المتوسط . أما عظمة سياسته ومنجزات رعاياه من القواد العسكريين والاداريين والمهندسين المعماريين وفناني الفسيفساء والشعراء والفقهاء ، فقد تركت انطبعا كبيرا على اناس عصره والاجيال التى قلت . ومن ثم فقد كتب دانتي Dante فى نهاية القرن الثالث عشر عن فكر جوستينيان ، معتبرا اياه يمثل الامبراطورية الرومانية ، وافسح له فى « الفردوس » Paradiso مكانا (٢٧) .

ولا شك أن أعمال جوستينيان بكل ما لها من بهاء تحدد نهاية الفترة الرومانية المتأخرة أو البيزنطية المتقدمة . فقد كان على حلفاء جوستينيان

(٢٦) راجع حاشية ١٢ من ١٣ . المترجم .

(٢٧) انظر ما جاء عن جوستينيان فى الكوميديا الالهية للشاعر

الايطالى الشهير دانتي « المطهر » Purgatory, c.VI 88 و « الفردوس »

Paradise, c.V 117 sqq, c.VI. 1 sqq. المترجم .

المباشرين أن يتصدوا لمشاكل إعادة تنظيم عنيفة ، حتى تتمكن الامبراطورية الرومانية من تهيئة نفسها لمواجهة التغييرات التي أحدثتها الممالك البربرية في الغرب ، والتحديات المتجددة على جبهتي الشمال الشرقي . وأصبحت أية محاولة للعودة الى الحدود القديمة شيئا غير وارد . على أن طاقات الامبراطورية الفتية ، ومواردها الاقتصادية ، وقوتها الحيوية الخلاقة ، جعلت من اليسير مواءمة اطارها السياسى حتى أن العقاليد الامبراطورية والحياة الثقافية للعالم الايجى ، لم تتعرض لهزة عنيفة في الشطر الشرقى من الامبراطورية ، وانتقلت بلا قصد من العصر القديم المتأخر الى عالم العصور الوسطى المسيحي المبكر .

#### ٤ - الصراع من أجل البقاء في القرن السابع :

##### مشاكل الأسرة الهرقلية

كان خلفاء جوستينيان المباشرين في القرنين السادس والسابع واقعيين الى حد القدرة على إعادة تشكيل الامبراطورية الرومانية وتأكيد استمراريتها . ولم يحى هؤلاء على الأمانى السائدة كما فى فعل جوستينيان . ولعل أقل قدر من الانصاف يمكن أن يزجى للشجاعة والتصور اللذين كانوا يعالجون بهما أى مشكلة تعن لهم . وكان عليهم أن يواجهوا العجز المالى فى الداخل، والاعتداءات المتكررة على جبهات متعددة . فقد غزا اللومبارديون ايطاليا فى سنة ٥٦٨ واقاموا عسكدا من الولايات لهم فى شمال شبه الجزيرة ووسطها ، وان كانت الامبراطورية قد اقلحت فى الاحتفاظ بشريط من الأرض يمتد من رافنا - Ravenna الى روما ، وكذلك الاراضى الأكثر اضطباغا بالهللينية فى الجنوب . ومع تباشير القرن السابع كانت المناطق التى تم استردادها مؤخرا فى اسبانيا ، قد عادت ثانية الى أيدي الفيزيقوط ، وفقدت بذلك من الامبراطورية الى الأبد . أما الصقالية فقد استمر تقاطرهم على البلقان دون انقطاع .

أدى ضياع الأقاليم الامبراطورية فى الغرب على هذا النحو الى أن يصبح أكثر الأمور أهمية ، انقاذ الحدود الشرقية ، وهنا كان البيزنطيون اقدر على الاحتفاظ بمراكزهم . فقد رفضوا الاستمرار فى دفع الجزية

السنوية التي كان جوستنيان قد تعهد بأدائها ، وبعد حروب طويلة ومتقطعة أصبح بوسعهم التوصل الى معاهدة مرضية مع الفرس في ٥٩١ ، تمكنوا بمقتضاها من الحصول على جزء من أرمينيا الفارسية ، مما اعطاهم مركزا قويا في اقليم يعد معينا لا ينضب للتجنيد العسكري . كانت هذه النتيجة تبعث على الارتياح منذ أصبح من الضروري ايجاد قوات جديدة تحل مكان الجنود الجرمان الذين كانوا يعملون عندئذ في مناطق أخرى .

ولو أن الامبراطور موريس Maurice كان قد بنى أياصوفيا ، أو ظهر على الفسفيساء في كنيسة سان فيتالي San Vitale في رافنا ، وأشرف على اصدار مجموعة القانون المدني ، لكان من الممكن التحدث عن « عصر موريس » وليس « عصر جوستنيان » ؛ فقد كان حكمه يمثل نصف امتداد لعهد جوستنيان ، ومع ذلك فقد كان كافيا لابرار الصفات التي امتازت بها أمور الدولة ، بحيث دعمت قلب الامبراطورية الرئيسي . ذلك أن موريس انتهز الفرصة التي سنحت له في السياسة الفارسية ، ومد يد العون للملك الصغير كسرى الثاني Chosroes II ، ووصل بالحرب الفارسية الطويلة الى نهاية ناجحة (٢٨) . أما في ايطاليا وشمال أفريقيا ، فان تنظيماته الجديدة كان لها اثر كبير في انقاذ ما تبقى من هاتين المنطقتين عن طريق

(٢٨) شهد البلاط الفارسي في عام ٥٩١ تراجعنا مروعة ، انتهى الفصل الأول منها بوضع حد لقساوات هورميرزدا ، وذلك بمؤامرة تم تدبيرها داخل القصر ، ليزاح الستار في الفصل الثاني عن تولية ابنه كسرى الثاني ، الذي بدا عاجزا عن الاحتفاظ بحقه الشرعي في مواجهة فاران Varanes الذي تمرد في ميديا ، واضطر كسرى للهروب الى قرقيسية Circesium ووضع نفسه تحت رحمة امبراطور بيزنطة ، فقد عرض عليه أن ينتازل له عن ميافارقين Martyropolis ودارا وأن يتخلى عن ادعاءاته في أرمينية وأرزانيني Arzanene على الحدود الجنوبية لأرمينيا الفارسية ، في مقابل عونه لاسترداد عرشه . وقد استقبل كسرى بما يليق بمظاهر التكريم ، وقبل موريس العرض وأمره بجيش استطاع هزيمة فاران واعادة السلطة الى كسرى الذي أوفى بما عاهد عليه الامبراطور . وهكذا قدر لجبهة الشرق أن تشهد سلاما ظلت ترقبه طويلا .

انظر في ذلك C. M. H. vol. 11, p. 280 و Jones, Later Roman Empire, I, p. 311 و Vasiliev, op. cit., I, p. 171

انشاء اكزارخيتى رافنا وقرطاجة . وقد دعمت سلطة الاكزارخ ، الحاكم فى كل من رافنا وقرطاجة ، بجمع السلطتين المدنية والعسكرية فى يديه ، وهو نظام استخدم على نطاق واسع فى القرن التالى لتسهيل مسألة الدفاع العاجل والضرورى عن آسيا الصغرى فى مواجهة التهديدات بغزوها من جانب الفرس أولا ثم العرب .

تصدى موريس للمشكلة القائمة على الجبهة الشمالية ، حيث كان الأهالى الرومان فى المنطقة الواقعة جنوبى الدانوب يتعرضون مع صبيحة كل يوم لاغارات تستهدف النهب والسلب من جانب جماعات الآفار Avars والصقالية . وكانت مملكة الآفار قد استقرت الآن شمالى الدانوب ، بينما نزل الصقالية ، سواء كانوا مستقلين أو تحت سيادة الآفار ، على الدانوب الأوسط أو الأدنى . وما ان اقترب القرن السادس من نهايته حتى كان الصقالية ، شأن الجرمان من قبل ، قد استقروا داخل الامبراطورية . وقد توقفت الحملات التى كان موريس قد انفذها لتجبر الصقالية على التراجع نتيجة عزله ثم اعدامه بسبب الثورة التى اشعلها الجنود المتمردون الذين لم يستطيعوا احتمال النظام الصارم الذى فرضته الحملات المتكررة على الجبهة الشمالية .

لم يضع موريس وقتا أو يبدد مالا فى الاقدام على مشروعات واسعة من اجل استرداد الغرب ، بل كان قليل الاهتمام تماما بالادعاءات الرومانية التى تعود الى زمن بعيد عن السيادة العالمية ، وظهرت الرغبة التى افصح عنها سنة ٥٩٧ ملة الكبير فى ان تكون روما شأن القسطنطينية عاصمة تمارس منها السلطة الامبراطورية اثناء اقامة الامبراطور ، وأن يقيم ابنه الثانى فى روما ، على ان يبقى اكبر ابنائه فى العاصمة الشرقية الأكثر أهمية . ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، فقد أعقب موت موريس فترة من الفوضى ( ٦٠٢ - ٦١٠ ) تمثلت فى الفتن التى وقعت فى المدينة ، والاضطراب السياسى والجدل الدينى ، واقضى هذا كله الى نوع من الارتباك الداخلى بدا معه وكان النصف الشرقى من الامبراطورية سوف يساقط فى أيدي الصقالية والآفار من الشمال ، والفرس من الشرق . ولم يلبث كسرى



الثانى . وقد استبد به الغضب نتيجة اعدام صديقه وحليفه موريس واسرته ،  
ان ضرب سوريا وفلسطين وعاث في آسيا الصغرى هسادا .

الا ان هذا التفسخ العام لم يلبث ان توقف بمقدم هرقل Heraclius  
اكزارخ شمال افريقيا . ويعتبر هرقل الى جانب باسل الثانى Basil II  
فى اواخر القرن العاشر اعظم حكام البيزنط ، ولكن بينما وجد باسل الثانى  
نفسه فى فيض من نجاح بيزنطى ، ووجه هرقل بموقف غاية فى الخطورة  
الى الحد الذى دفعه الى التفكير فى نقل مقره الامبراطورى من القسطنطينية  
الى قرطاج ، غير انه تمكن من انقاذ الامبراطورية بحسن استخدامه لموارد  
دولته . فقد تحالف مع الكنيسة ، واستغل الى اقصى حد الحماسة  
المسيحية الصليبية ضد عدو كافر احتل بيت المقدس . واستولى على الصليب  
الاعظم . وخلال القرن السابع تم ضم ولايات آسيا الصغرى معا (فى وقت تحررها  
من قبضة الأعداء) . فى وحدات عسكرية ضخمة تحت سيادة حاكم عسكرى  
Strategos - اطلق عليها ثيمات Themes ( وادتها ثيما Thema )  
وقد روى فيما بعد ضرورة تفتيت هذه الوحدات الكبيرة فى آسيا الصغرى  
للحيلولة دون تركيز سلطات ضخمة فى يد رجل واحد . ومع ذلك فان نظام  
الثيمات هذا قد انتشر تطبيقه تدريجيا فى الامبراطورية كلها خلال القرن  
السابع والقرون التالية . وليس لدينا سجل رسمى عن مثل هذا التنظيم  
الجديد ، وغالبا ما نجد اول ذكر له فى بعض المزمونات او حياة القديسين .  
وفى نفس الوقت يبدو ان الجنود قد وطنوا فى مزارع صغيرة ثم منحهم  
اياها فى مقابل الخدمة العسكرية . وكان انتقال هذه الأرض والالتزام الى  
اكبر الأبناء ممهدا لقيام جيش وطنى .

ولا شك ان ما كان يعد فى حقيقة الأمر تأصيلا للنزعة الحربية فى  
الامبراطورية ، قد أرسى دعائم تنظيماتها خلال الحقبة البيزنطية الوسيطة ،  
وامدها بالوسائل الكفيلة بايجاد قوة عسكرية وبحرية مقتدرة . وفوق هذا  
وذاك أصبح للجنود المزارعين قيمة اقتصادية واجتماعية تعادل اهميتهم  
العسكرية ؛ فقد زادوا فى عدد صغار الملاك ، ودعموا قوة الفلاحين الأحرار  
الذين يشكلون العمود الفقرى لمجتمع القرية ، يشد من ازهرهم قانون الفلاح

الذى يرجع انه يعود الى اواخر القرن السابع (٢٩) . وكانت الحكومة المركزية تجاهد دوما لتأكيد وضمان الخيرية المستمرة ، وتحول دون ابتلاع النبلاء الأقوياء فى آسيا الصغرى ومناطق أخرى لأراضى صفار الملك .

وكان بناء قوة عسكرية وطنية ، وإعادة تنظيم حكومة الولايات ومناطق الحدود ، أمرا يتطلب بالضرورة فترة تمتد طيلة قرنين أو ينيف . وغالبا ما أخفق هرقل وابنه وحفيده فى أن يروا أية نتيجة يمكن توقعها ، ولكن المنجزات البارزة التى يزهو بها القرن العاشر تعتمد فى جوهرها على الدعائم التى أرسوها .

تمكن هرقل بعد عدة حملات قام بها فى آسيا الصغرى وما بين النهرين Mesopotamia أن يحطم بنجاح المطامح الفارسية . وفى سنة ٦٣٩ دخل بيت المقدس دخول الظافرين ومعه صليب الصلبوت الذى كان الوثنيون قد انتزعوه عندما استولوا على المدينة سنة ٦١٤ . غير أن الهزيمة الفارسية لم تحقق للامبراطورية أى نوع من الأمان ، ذلك أن عدوا أشد قوة وخطرا ظهر بظهور الاسلام . ورغم أن محمدا ( صلى الله عليه وسلم ) قد مات سنة ٦٣٢ ، إلا أن فارس أو بيزنطة لم يقدرأ قيمة المد الحقيقى لاتباعه الذين سرعان مافتحوا فارس وسوريا وفلسطين ومصر ، وهاجموا آسيا الصغرى ، وأغاروا على جزر بحر إيجه ، وأصبحوا بذلك قاب قوسين أو أدنى من العاصمة ، وتعرضت القسطنطينية لحصار طويل بين عامى ٦٧٤ - ٦٧٨ ، ولكن الأسطول البيزنطى أوقع الهزيمة بالمسلمين فى عام ٦٧٨ . وكان لهذا الانتصار أهميته بالنسبة للحضارة الأوروبية ، شأن قرينه عند القسطنطينية أيضا عام ٧١٨ ، أو التصدى للزحف الاسلامى عند بواتيه Poitiers سنة ٧٣٢ .

هكذا فقدت بيزنطة دون رجعة بعض ولاياتها ، وتقلصت الامبراطورية الرومانية الى مجرد جزء فقط من الشطر الشرقى ، وذلك أنه مع نهاية القرن السابع تملك المسلمون سوريا وفلسطين ومصر وشمال أفريقيا ،

---

(٢٩) يدور جدل كثير حول هذا الموضوع . وإن كان هناك اتفاق عام بأن قانون الفلاح يعود الى اواخر القرن السابع أو بداية الثامن .

وضاعت كل ممتلكات الامبراطورية في الغرب ، عدا بعض اجزاء من ايطاليا ( اكزارخية رافنا وشريط ضيق من الأرض يصلها بدوقية روما ، والاراضى الموجودة في الجنوب وصقلية ) ولكن هذا لم يحدث دون عوض ، فيخضوع البطريركيات الشرقية ، انطاكية وبيت المقدس والاسكندرية للمسلمين ، تسلمت القسطنطينية مركزا مرموقا باعتبارها ملتقى انظار الكنائس الشرقية ، ورسمت لنفسها سياسة تتجنب بها اى تحد جديد قد يعيد الى ذاكرتها الايام العظيمة للاسكندرية في القرن الخامس (٢٠) . كما ادى

(٣٠) يمثل الصف الأول من القرن الخامس الفترة التي احتلت فيها كنيسة الاسكندرية مقعد الصدارة بين كنائس الامبراطورية ، وتحقق ذلك في الانتصارات الثلاث المتتالية التي حققها اساقفتها على الاساقفة الآخرين . وقد دار الصراع في الجولة الأولى بين ثيوفيلوس Theophilus اسقف الاسكندرية ويوحنا ذهبي الفم Iohannes Chrysostomos اسقف القسطنطينية ، نتيجة لما حسبه الاسقف السكندري ادعاءات متعجرفة لبطريك العاصمة ، ذلك ان اربعة من الرهبان المصريين ، كان ثيوفيلوس قد حرمهم ، رفعوا شكواهم الى يوحنا الذي ربما يكون قد رفض قبول ملتمسهم ، ملتزما بقرارات مجمع القسطنطينية (٢٨١) الذي حرم على الاساقفة التدخل في شئون زملائهم . ولكن الرهبان لجأوا الى الامبراطورة يودوكيا زوج اركادايوس . ومن ثم صدرت الاوامر الامبراطورية باستدعاء ثيوفيلوس الى العاصمة . وهناك ، استغل الاسقف السكندري كراهية الامبراطورة لذهبي الفم ودعا الى عقد مجمع في ضواحي القسطنطينية ، ورفض يوحنا حضوره ، فصدر ضده قرار الادانة ثم النفي وان كان قد اعيد ثانية نتيجة ثورة الجموع . ولكنه مالبث ان نفى من جديد . اما الجولة الثانية فقد احرز النصر فيها كيرلس على نسطور في مجمع افسوس (المسكوني الثالث) سنة ٤٣١ ، على حين كسب ديوسقورس الجولة الثالثة في مجمع افسوس الثاني عام ٤٤٩ ، (راجع حاشية ١ ص ١٠٥) . ولاشك ان هذا الانتصار المتتابع اثار حفيظة القسطنطينية وروما ، فتكاثفت جهودهما لاذلال كبرياء الاسكندرية ، وتحقق لهما ذلك في المجمع المسكوني الرابع سنة ٤٥١ . راجع للمترجم : الدولة والكنيسة : الجزء الخامس .

Chadwick, The early Church, pp. 184 - 91, 191 - 205

Hardy, op. cit., pp. 111 - 116

T. Ware, The Orthodox Church, pp. 32 - 33

Jones, Later Roman Empire, I, pp. 214 - 216

Vasiliev, op. cit., pp. 95, 98 - 99

أنظر

وكذلك

وأيضا

و

و



فقدان الولايات الشرقية بشقاقها العنيد وهرطقاتها المستمرة الى فتح الطريق امام ايجاد نوع من التعايش السلمى المؤقت *Modus Vivendi* عقيديا مع روما . واصبح من الممكن الآن تركيز الاهتمام حول المشاكل الجوهرية قريبة الصلة بالدولة ذاتها ، مثل الوسائل الدفاعية عن آسيا الصغرى ، المعين الذى لا ينضب من الرجال والمال ، او اقرار كيفية ما من السيادة على الشعوب الصقلية فى البلقان والمناطق الشمالية . ومن ثم فانه ليس من المبالغة فى شئ القول بأن ضياع الولايات الشرقية يمثل الخلاص للامبراطورية الرومانية الشرقية .

وابان القرن السابع بدا الصقلية فى الاستقرار جنوب الدانوب مباشرة ، وهناك دليل أيضا ، وان كان لا يلقى تأييدا اجماعيا ، على ان الصقلية أخذوا منذ القرن السابع فصاعدا فى التدفق جنوبا عبر البلوبونيز ، سواء بمزاحمة الأهالى اليونان او بسوقهم الى منفى مؤقت الى الجزر وربما جنوب ايطاليا وصقلية ، ومع ذلك فلعل بلاد اليونان لم تخضع لسيادة العناصر الصقلية الى الحد الذى تفقد فيه تقاليدها ولغتها الهلينية . وقد عمل اباطرة الأسرة الهرقلية الاواخر ، خاصة قنسطانز الثانى *Constans II* (٦٤١ - ٦٦٨) وجوستينيان الثانى *Justinian II* (٦٨٨ - ٦٩٥ ، ٧٠٥ - ٧١١) على اقرار نوع من السيادة الجزئية فى البلقان ، وعلى استغلال هذا الفيض من القوة البشرية ، وهكذا تم تجنيد الصقلية فى الجيش وتوطينهم كطبقة ملاك صغار عسكريين فى آسيا الصغرى . ولكن على الرغم من ان الامبراطورية تمكنت بهذه الطريقة من تحويل هذا الغزو لمصلحتها ، الا ان بعضا يسيرا فقط من هؤلاء النزلاء الجدد تم استيعابهم داخل الامبراطورية كرعايا ، على حين ظلت الكثرة الغالبة منهم تتمتع باستقلال حقيقى فى الامارات الصقلية التى تشكل فى مجموعها اراض امبراطورية جنوب الدانوب ، والخطر من ذلك انه قرب نهاية القرن السابع شهدت المنطقة وصول عناصر اخرى جديدة أشد عتوا هم البلغار ، الذين ينحدرون من أصول تركية ، مما اضاف تهديدا متزايدا للسلام الرومانى ، بلغ ذروته



فى ذلك التحدى الذى تمثل فى قيام الامبراطورية البلغارية الاولى فى  
بواكير القرن العاشر .

وفى عدا فترة قصيرة فقط ، امتد حكم الأسرة الهرقلية مائة عام  
( ٦١٠ - ٧١١ ) . وكان أباطرتها الأربعة الكبار يتمتعون بصلاية الرأى  
والأوتوقراطية ، مع شىء من المزاج السوداوى فى مظهرهم الخارجى ، وان  
كان كل منهم قد أدى دوره بارزا فى تشكيل الامبراطورية الرومانية فى  
العصور الوسطى . فالى عملية الانعاش العسكرى واعادة التنظيم الادارى  
الذى قام بها هرقل ، يعود الفضل فى انقاذ القسطنطينية من الوقوع فى  
أيدي الفرس . أما قنسطانز الثانى فقد احتمل عنف هجمات العرب الاولى ،  
ووجد لدية فى الوقت ذاته متسعا ليتصدى للصقالية فى البلقان ، على  
حين نجح قسطنطين الرابع Cosnstantine IV فى انقاذ العاصمة من الحصار  
العربى . واستعاد للمسيحية الرومانية الشرقية مكانتها . بينما استمر  
جوستينيان الثانى يواجه العرب والصقالية ويفضى الامبراطورية بدماء  
جديدة عن طريق نقل جماعات كبيرة فى منطقة لأخرى . ولاشك ان الفضل  
يعود الى هذه الأسرة القوية الحاذقة فى ابعاد العرب عن أوروبا . كما  
ان الاستمرار السياسى والثقافى لسيادة التقاليد اليونانية - الرومانية بقى  
دون انقطاع رغم هجمات الغزاة على اراضى الحدود فى الشمال والشرق ،  
يعززها هجوم بحرى لايفتر . لقد كانت القسطنطينية غالبا مدينة  
« متحصنة » . ولكنها رغم ذلك لم تسقط الا فى سنة ١٢٠٤ وفى يد عدو  
مسيحى .

## الفصل الثاني

### الامبراطورية الرومانية في العصور الوسطى

٧١٧ - ١٠٥٦

١ - منجزات الأباطرة اللايقونيين (٧١٧ -

٨٤٢) .

٢ - العصر الذهبي للامبراطورية البيزنطية .

( أ ) العموريون والمقدونيون .

( ب ) الزحف الى الشرق ٨٤٢-١٠٢٥ .

( ج ) القسطنطينية والصقالبة .

( د ) بيزنطة والغرب .

( هـ ) السياسة الداخلية : الكنيسة

والتعليم .



## الفصل الثاني

### الامبراطورية الرومانية في العصور الوسطى

٧١٧ - ١٠٥٦

#### ١ - معجزات الأباطرة اللايقونيين (٧١٧ - ٨٤٢) :

فقد جوستينيان الثاني ، آخر أباطرة الأسرة الهرقلية ، عرشه وحياته نتيجة قساواته الوحشية وطفياه المتزايد ، وبموته سقط بيت هرقل ، وأعقب ذلك فترة من الاضطراب الداخلي ، أجبت نيرانه حى التنافس على العرش ، وصحبه فى الوقت ذاته تجدد هجمات العرب . وفى عام ٧١٧ اعتلى عرش الامبراطورية ليو الثالث Leo III وهو قائد قوات الناطليق (١) Anatolicon فى اسيا الصغرى ، ويمتاز بشخصيته القوية وكفاءته العسكرية ، وينحدر من عائلة تنتمى أصلا لشمال سوريا (٢) . وقد تمكن من أن يضع نفسه على رأس العاصمة فى فترة حرجة عندما تعرضت مرة أخرى للحصار على يد المسلمين .

وتمثل وقفة القسطنطينية الشهيرة ضد العرب سنة ٧١٧ جزءا يسيرا من صراع عنيف استمر طوال مائة عام ، وامتد منذ منتصف القرن الثامن ،

---

(١) فى سبيل تقوية الوسائل الدفاعية على الجبهة الشرقية لمجابهة الاخطار الكامنة هناك ، اقيمت فى القرن السابع اربعة أقاليم عسكرية عرفت فيما بعد بالثيمات : الارمنياق Armeniakoi والناطليق Anatolikoi وهما يحتلان الجزء الاوسط كله من اسيا الصغرى للوقوف فى وجه الجيوش العربية . من حدود كيليكيا Cilicia فى الشرق الى شواطئ بحر ايجة فى الغرب . ثم الابسيق Opsikion بالقرب من بحر مرمره ومهمته حماية العاصمة من الاعتداءات الخارجية . أما آخرهم فهو الثغر البحرى المعروف باسم كارابيسيان Carabisiani على الشاطئ الجنوبى لآسيا الصغرى لمواجهة الاسطول الاسلامى . المترجم .

(٢) يذكر أحد المصادر المتأخرة أنه ينتمى لمنطقة ايزوريا Isauria فى جنوب شرقى اسيا الصغرى . ومن هنا جاءت صفة الايزورية التى عرفت بها هذه الاسرة فى اغلب الاحيان .



ومن هذه الناحية فإن ما تحقق على يد آخر أباطرة الأسرة الهرقلية .  
 وأباطرة القرن الثامن الايزوريين ، يعد عملا متصلا . وقد أدت الجهود  
 التي قام بها ذلك الرجل صاحب الارادة القوية و « المبول العربية » ، ليو  
 الثالث (٧١٧ - ٧٤١) وابنه الداهية قسطنطين الخامس Constantine V  
 (٧٤١ - ٧٧٥) الى تدعيم الحكم الروماني في آسيا الصغرى ، بعد أن  
 اهتبلت الفرصة التي سنحت لهما بسبب الاضطرابات التي تعرض لها العالم  
 الاسلامي ، والناجمة عن انتقال الخلافة من الأمويين في دمشق الى بني  
 العباس في بغداد . ولاشك أن ليو الثالث أفاد من ماضيه (٢) بحيث أصبح  
 يعرف تماما ضرورة تأمين آسيا الصغرى من هجوم العرب ، واستخدم  
 في ذلك كما جرى التقليد البيزنطي - وسائله الدبلوماسية والعسكرية ،  
 وأدرك القيمة الحقيقية للفادة من حسن علاقته بجيرانه ، وأقدم ابنه  
 قسطنطين الخامس على الزواج من ابنة خان الخزر ، الذي تحتل مملكته  
 المنطقة الواقعة شمالي بحر قزوين . على أنه بعد وفاة قسطنطين الخامس  
 لم تحفظ باحكام الامتيازات البيزنطية في منطقتي أرمينيا وما بين النهرين ،  
 وشهدت هذه الفترة وحتى منتصف القرن التاسع تقلبات مستمرة بين النصر  
 والهزيمة مع شيء من الخسارة الجسيمة كفقدان كريت ( سنة ٨٢٧ ) ، وأن  
 كائت آسيا الصغرى قد تمكنت من الصمود . واستقرت الى حد ما الحدود  
 البيزنطية الاسلامية . وطوال ما يزيد على مائة عام امتدت الى الغرب  
 الامارات انقواقازية بين البحر الاسود وبحر قزوين ، متجهة جنوبا الى  
 الشواطيء الغربية لكيليكيا ، دون أن يدخل في نطاقها جبال طوروس .  
 وقد سارت حرب العصابات واغارات التخوم التي كان ينظمها سادة البر ،  
 جنبا الى جانب الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية في هذه المناطق . وخلقت  
 ذلك الملاحم البيزنطية التي خلدت المحارب ديجنيس اكريتاس (٤) Digenis

(٢) ترقى ليو الثالث في سلك الجنودية ، وعمل في خدمة جوستنيان  
 الثاني في الفترة الثانية من حكمه . ولعب دورا في الحملة التي وجهت  
 الى القوقاز ، ثم عين في عهد أنسطاسيوس الثاني (٧١٢ - ٧١٥) قائدا  
 على ثغر الناطليق الذي يعتبر اهم الأقاليم البيزنطية في آسيا الصغرى . وقد  
 أفاده ذلك في الوقوف على احسن الوسائل الدفاعية ضد المسلمين .  
 المترجم .

(٤) انظر بعده ، المترجم .

Akritas غير أن القسطنطينية توصلت الى اتفاق في الشرق تمكنت بمقتضاه من انقاذ آسيا الصغرى على الأقل ، فأتاح لها ذلك الفرصة للقيام بهجمات ناجحة في عصرها الزاهر زمن الأسرة المقدونية في القرن العاشر .

أما بالنسبة للصقالبة في الشمال فقد كان الأمر يختلف عن ذلك ، فلم يكن هناك أدنى أمل في تحول المسلمين عن عقيدتهم ، بينما لم يكن لدى الصقالبة المهاجرين الوثنيين أى ارتباط بالسيحية أو الاسلام ، وكانت طرائق حياتهم نصف بدوية . ومن ثم أصبحوا يمثلون ميدانا فسيحا لأعمال التبشير ومجالا واسعا للنفوذ السياسى والثقافى . ومنذ بدأوا يتحركون باتجاه الجنوب ويعبرون الدانوب في أعداد مائتة من شىء أنت عليه إلا جعلته كالرميم ، ثم أخذوا في الاستقرار بعد ذلك ، أصبحوا عاملا حيويا في التطور الداخلى للامبراطورية البيزنطية . وقبل القرن الثامن كان الصقالبة قد استوطنتوا الاراضى البلقانية التى أضحت من بعد موطننا لهم . وكانت بلغاريا هى الدولة الأولى التى هدت القسطنطينية ، وقد تكونت من خليط يضم الصقالبة والبلغار . على أنه حتى القرن الثامن وأوائل التاسع لم تكن هذه الدولة قد توفر لها الاستقرار الذى يمكن أن يشكل للامبراطورية تهديدا سياسيا خطيرا . ومع ذلك فقد تطلب كل من الصقالبة والبلغار بقظة عسكرية دائمة ، وحظى قسطنطين الخامس بقدر خاص من الاحترام ، على الرغم من أنه كان فى عداد الهراطقة باعتباره قائدا ناجحا الاحترام ، على الرغم من أنه كان فى عداد الهراطقة باعتباره قائدا ناجحا التخريبية .

ولم يكن الايزوريون محاربين فقط ، بل كانوا أيضا اداريين اكفاء ، فقد أدخلوا الكثير من التحسينات على التنظيمات التى استحدثت في الولايات في القرن السابع . ولما كانت الثيمات الجديدة في آسيا الصغرى ، كما كانت هذه الولايات التى ضمت الى بعضها تدعى ، متسعة الى الحد الذى يحمل في ثناياه الخطر ، فقد أعيد تقسيمها من جديد ، وامتد هذا التنظيم تدريجيا الى المناطق الأخرى في الامبراطورية . ويمثل كتابهم في القانون ، المختارات ، Ecloga محاولة لتقديم مختصر عملى للاستخدام

اليومى ، وهو يعتمد فى جوهره على القانون الجوستينيانى ، ولكنه يعكس بعض التغييرات التى وقعت منذ عهد جوستينيان ، ومن بينها نوعية الجزاءات . وقد جمع بعد ذلك بشكل ما فى مجموعات أو كتيبات ، وإن كان قد ظل غير معروف بسبب صدوره عن امبراطور هرطوقى . وقد تم ترجمة الاكلوجا واستخدامها بواسطة الشعوب الصقلية المجاورة .

وامام دواعى اليقظة الدائمة التى اقتضتها أحداث القرن الثامن ، كان لابد أن تتوافر لبيزطة ثروة ضخمة وموارد اقتصادية وفيرة ، وقد هيا لها موقعها الجغرافى تجارة نشطة ومريحة ، كما ساعد على ذلك ايضا ايراداتها من السلع الكمالية ، وصناعاتها الدقيقة من العاج والطرز والحريز ، ومكنتها قوتها البحرية فى أول الأمر من تسيير دفعة التجارة فى البحر المتوسط عبر الطرق التى تعود عليها بالريح ، بالاضافة الى اتخاذها سياسة تحاملية حازمة تجاه مصر وسوريا . وأصبحت طرابيزون Trebizond والبحر الأسود المنفذ الرئيسى للتجارة ناحية الشرق الأقصى ، على حين قامت خرسون Cherson فى شبه جزيرة القرم بنفس الدور باتجاه روسيا وأضحت طريق الشمال . أما فى الغرب فلم تعد التجارة يحتكرها التجار السوريون أو اليونان أو المصريون أو غيرهم من الحوض الشرقى للبحر المتوسط ، بل تقاسمتها المدن البحرية الايطالية كالبندقية ، أو تلك التى ما تزال ضمن دائرة السيادة البيزنطية فى جنوب ايطاليا مثل امالفى Amalfi أو نابلى .

وقد تلا من اجيال بيزنطية ، تناولت الألسن الايزوريين بالتجريح والافتراء ، وجر التناسى والتجاهل ذيلهما على منجزاتهم البشاعة نتيجة انتهاجهم سياسة دينية كانت تختلف عقيدا مع الديانة المسيحية الارثوذكسية . وقد أدى ذلك الى فتح الطريق امام الاصطراع الداخلى الذى عانت منه الامبراطورية ، وتسميم العلاقات مع روما والغرب . ولم يكن ما قد يبدو لائقا ، من استخدام ايقونات Icons أو صور القديسين والمسيح ، بنوع ما فى العبادة المسيحية شيئا جديدا . غير أن هذا النوع من العبادة قد أسىء استعماله ، فالتجاهل قد يربط ما بين الايقونة وصاحبها الحقيقى ، أو يقدم لهذه الايقونة العبادة التى يجب أن ينفردها الله وحده . وقد



أثيرت هذه المسألة من جانب بعض الأساقفة في المجمع الذي عقد في القرن السابع (٥) ، ومع ذلك فقد تم الاعتراف بشرعية الاستخدام الصحيح لمثل

(٥) تشير المؤلفة هنا الى المجمع الذي عقد بقاعة القبة سنة ٦٩١ أو ٦٩٢ على عهد الامبراطور جوستينيان الثاني ، وذاع صيته باسم المجمع الخامس السادس Quinisext ، ذلك أن المجمعين المسكونيين الخامس (٥٥٣) والسادس (٦٨٠/٦٨١) تناولا أمور عقيدية بحثة ، ولم تحظ التنظيمات الكنسية فيهما بنصيب ، ولهذا فقد عقد هذا المجمع وعقد عمله استكمالا للمجمعين السابقين . وكان من بين القوانين التي صدرت عنه القانون رقم مائة ، الذي نص على تحريم « الصور سواء بالرسم أو بأي أسلوب آخر ، والتي تجذب اليها العين وتفسد القلب ، وكل من يقدم على ذلك سوف يحرم من رحمة الكنيسة » . ولم يكن ذلك أول مبادرة لتحريم عبادة الصور ، فقد كانت الكنيسة في أول عهدها تكره الصور والتماثيل وتعتبرها من بقايا الوثنية خاصة وقد جاء في الكتاب المقدس : « فاحتفظوا جدا لانفسكم فانكم لم تروا صورة ما يوم كلمكم الرب في حوريب من وسط النار . لئلا تقسدوا وتعملوا لانفسكم تماثلا منحوتا صورة مثال ماشبه ذكر أو أنثى ، شبه بهيمة ما مما على الأرض ، شبه طير ماذى جثاخ مما يطير في السماء ، شبه دبيب ما على الأرض ، شبه سمك ما مما في الماء تحت الأرض » . (تثنية ٤ : ١٥/١٨) . إلا أن انتصار المسيحية على عهد القسطنطين ، وما كان للبيئة والتقاليد والتماثيل اليونانية والفكر في الشرق ، كل هذا جعل الكنيسة تخفف من غلواتها إزاء هذه الافكار والمظاهر التي عدتها في البدء وثنية ، وراح المسيحيون يتبارون في تشييد الكنائس وتزيينها ، فجعلوا من جدران الكنائس الجديدة توراة وأنجيلا مصورين تصويرا ، فبدأوا بجنة عدن وانتقلوا منها الى بلوطة ممرة وقبر سارة ولقاء يوسف باخوته ، فموسى والشريعة ، فبيت راحاب ، فسبى اسرائيل ، فبشارة مريم ، فقيامه ليعازر ، فالام المسيح ، فموته بقيامته فصعوده ، وكتبوا تحت هذه الصور عبارات تبين مواضعها . وبمرور الزمن وتوالى الايام تضاعف عدد القديسين الذين يكن لهم شعب الكنيسة الاحترام والتقدير . وبذلك نشأت الحاجة الى تذكرهم ، فظهرت لهم وللعذراء صور كثيرة ، وتحول الأمر بعد ذلك عند الجموع الى حد عبادة هذه الصور والسجود والتماس البركة منها وطلب تحقيق المعجزات على يديها . وعلم هذا النحو انتشرت الصور في كل مكان ، تراها في الكنائس والأديار والحواديت واثاث المنازل والحلى والملابس . وأخذت المدن التي تهددها أخطار الوباء أو المجاعة أو الحروب تعتمد على قوة مآلديها من الصور والآثار الدينية للقديسين ، بدلا من الاعتماد على مهارة الجنود وكفاءتهم



هذه الايقونات • وعندما راح ليونتيوس Leontius أسقف نيبوليس Neapolis في قبرص في القرن السابع ، يفند اتهامات اليهود للمسيحيين بالوثنية ، كتب يقول : « نحن لانضرع للصليب ولا لأيقونات القديسين قائلين « انت ربى » ، لأنها ليست لنا اربابا • ولكننا نفتح الكتب لتذكرنا بالله ، ولجده نؤمن الكنائس واياه نعبد » (٦) وفوق هذا فان مؤيدى الايقونات فى معرض الانكار لاستخدامهم لها ، كان لابد ان يؤدى ذلك حتما الى تعقيدات لاهوتية ، ذلك انه اذا كانت الكلمة حقا قد صارت جسدا وحلت

العسكرية • واصبحت الصورة عند اباء الكنيسة هي انجيل الامى يقرأ فيها ما لا يقدر على فهمه فى الكتاب المقدس • غير ان الكنيسة شهدت منذ بداية القرن الرابع رد فعل عنيفا ضد هذه الظاهرة التى تتهددها • ففي اسبانيا عقد مجمع الفيرا Elvira • دوالى سنة ٢٠٠ وأوجب تحريم وجود الصور فى الكنائس (القانون رقم ٢٦) ، وأبدى يوساب امتعاضه من تزيين الكنائس وأعلن ان تعليق الصور واقامة التماثيل محض بدعة وضلال • وبرز بالزمن اشتد ادراك المسيحيين لحاجة الكنيسة الى الاصلاح والرغبة فى تطهيرها ، ولما كان قلب الدولة البيزنطية فى القرنين الثامن والتاسع اسيا الصغرى وارمينيا ، كان لابد ان تتأثر الامبراطورية بما ظهر فى هذه المنطقة من مؤثرات دينية تطهيرية ، خاصة طائفة البياصنة Paulicians الذين أنكروا ما للمسيح من جسد مادى وما يرتبط به من فكرة الخلاص لاعتقادهم ان المادة كلها شر ، ومن ثم أنكروا الصليب وكل الايقونات •

Percival, op. cit., pp. 407, 523 - 528

انظر فى ذلك

Hefele, op. cit., I, p. 151. V, p. 236

و

وراجع ايضا : الدكتور اسد رستم ، حرب فى الكنائس ، ص ٨ - ١٢ والروم ، الجزء الاول • ص ٢٠٤ - ٢٠٥ وكنيسة مدينة اللسه انطاكية العظمى ، الجزء الثانى ص ٨١ •

Vasiliev, op. cit., I, pp. 251 - 258

و

وأومان : الامبراطورية البيزنطية ص ١٤٩ - ١٥٢ وبينز : الامبراطورية

البيزنطية ص ١١٢ - ١٢٢ وايضا ، Baynes & Moss, op. cit., pp. 15 - 16, 105 - 108

Hughes, op. cit., pp. 118 - 126

و

Acton, Essays on Church and State, pp. 97 - 99

وكذلك

Encycl. of Religion and Ethics, art. Iconoclasm

و

C.M.H. vol. IV, pp. 9 sqq. و Oman, op. cit., pp. 300, 321

و

EVSEB. hist. eccl. VII, 18 المترجم •

وانظر

N. H. Baynes, Byzantine Studies, p. 232

(٢٦)

بيتنا ، واذا كان المسيح قد صار انسانا ، لأضحى من الممكن تصويره أو تمثيله .

وربما تعزى محاولة وضع حد لاستخدام الأيقونات بآدىء الامر فى القرن الثامن ، ثم محاولة القضاء عليها ، الى التأثير الاسلامى ولو بصورة جزئية ، ومن الممكن أيضا وضع التأثير اليهودى فى الاعتبار ، وقد تمثلا بشكل واضح فى اراضى آسيا الصغرى ، وان كانت المسألة قد عولجت قسرا عن طريق الأوامر الامبراطورية ، ويعد قسطنطين الخامس ، فى منتصف القرن الثامن ، الممثل الحقيقى ، أكثر من أبيليو (٧) ، المناهض الأيقونات ، يؤيده فى ذلك عدد كبير من رجال الكنيسة والجنود وكل من لاينتمى الى الأصل الأوروبى من أمالى الامبراطورية . وقد استطاع أن ينظم صفوف فريقه بمهارة فائقة ، وراح يشجع الجدل والمناظرة ، ويلقى القبض على خصومه فى النهاية ، ويكتب بنفسه بعض المقالات فى اللاهوت ، محاولا أن يكسب الى جانبه بالحسنى الآباء الديرانين المتشددىن ، فلم تكن لديه الرغبة فى أن يجعل منهم شهداء . وقد دعا الى عقد مجمع كنسى عام ٧٥٤ م ٢٢٨ أسقفا وتقرر فيه أن السياسة اللايقونية تتفق تماما مع التقاليد الأرثوذكسية . غير أن البابا والغرب ، وبصفة خاصة إيطاليا ، تحفظوا على ذلك القرار . وكانت تلك فرصة مناسبة كى يبدى الحكام الكارولنجيون امتعاضهم ، وجعل شارل العظيم Charles the Great من نفسه فيما بعد حامى الأرثوذكسية فى الغرب ، حتى بعد أن أعلن المجمع المسكونى السابع

(٧) أخذ ليو الثالث أول أباطرة الأسرة الايزورية على عاتقه مهمة تطهير العقيدة المسيحية من الشوائب والوثنيات التى لحقت بها ، فأصدر فى سنة ٧٢٦ قراره بانزال ايقونة المسيح القائمة عند أحد مداخل أسقف الامبراطورى ، وقابل هياج العسامة فى العاصمة بالقمع . وعزل أسقف العاصمة جرمانوس الأول الذى عارضه الرأى ، وعقد مجلسا فى سنة ٧٣٠ ضم كبار الموظفين وكبار الشيوخ وبعض رجال الكنيسة لاقرار السياسة التى ينتهجها فى محاربة الصور ، واستتبع ذلك ممارسة الاضطهاد ضد الأيقونيين ، وازدادت العلاقات سوءا مع روما التى كانت تناهض تقديس الأيقونات . وقد سار قسطنطين الخامس على نفس السياسة . ولكنه كان أشد عنفا وضراوة من أبيه . المترجم .

المنعقد في نيقية (٨) سنة ٧٨٧ نبذه لهذه الفكر الهرطوقية . ولقد انفجرت الحركة مرة أخرى في القرن التاسع وان كانت أكثر اعتدالا وأقل تنظيما ، وأعيدت الأرثوذكسية ثانية وللمرة الأخيرة في المجمع الكنسي الذي عقد سنة ٨٤٢ (٩) .

(٨) هو آخر المجمع المسكونية بالنسبة للكنيسة الشرقية ، وقد دعت إليه الامبراطورة ايرين زوج ليو الرابع الايزورى ، وكانت تنحدر من أصل أثيني ولهذا كانت شديدة التعلق بالصور ، شديدة الكراهية لسياسة الايزوريين ، وكان لها تأثيرها على زوجها الذي ظهر معتدلا في سياسته بعكس أبيه قسطنطين الخامس وجده ليو الثالث . وكان من المقرر عقد هذا المجمع سنة ٧٨٦ في القسطنطينية ، ولكن الجيش - وكان معظمه من اللايقونيين - هاجم المؤتمرين وانقض المجمع ، فعملت ايرين على نقل هؤلاء الجنود خارج العاصمة ، واستبدلتهم بغيرهم وعقد المجمع ثانية في مدينة نيقية في العام التالي ، وقرر الغاء قرارات مجمع هيريا الذي عقده قسطنطين الخامس سنة ٧٥٤ ، والعودة الى عبادة الصور المقدسة ، وان كان المجمع قد رأى التفرقة والتمييز بين العبادة الخاصة بالله والعبادة الموجهة للصور .

Percival, op. cit., pp. 523 - 542

أنظر

Hefele, op. cit., V, pp. 342 - 390

وكذلك

و Vasiliev, op. cit., I, pp. 263 - 265 ودكتور أسد رستم : حرب

في الكنائس ، ص ٤٣ - ٤٦ ، كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى ، الجزء الثاني ص ٩٥ - ٩٧ . المترجم .

(٩) بدأت حرب الايقونات الثانية على يد ليو الخامس الأرمني (٨١٣ - ٨٢٠) الذي أعلن أن ما حل بالدولة من كوارث إنما يعود الى عبادة الايقونات ، فعزل أسقف القسطنطينية سنة ٨١٤ لمعارضته اياه . وعقد مجمعا في نفس العام في كنيسة ايا صوفيا قرر فيه تحريم عبادة الصور وإعادة اقرار ما صدر عن مجمع هيريا سنة ٧٥٤ . بينما تأرجحت سياسة ميخائيل الثاني العمورى (٨٢٠ - ٨٢٩) بين الشدة والتسامح ، فلما كان عهد ثيوفيلوس (٨٢٩ - ٨٤٢) ازدادت نيران هذه الحرب ضراوة ، ولكن نلاحظ على الحرب الثانية بصفة عامة انها كانت أقل عنفا من الحرب الاولى زمن الايسوريين . فقد نظم الايقونيون الآن صفوفهم ولم يؤخذوا بغتة كما حدث في القرن الثامن . وتمسك الرهبان بالايقونات ووقفوا يتحدون الباطرة في صلابته . واذا كانت الحرب الاولى قد اُخمدت على يد ايرين ، فان الحرب الثانية والاخيرة قد انتهت على يد تيودورا زوجة ثيوفيلوس . فدعت في



ويعتبر القديس يوحنا الدمشقي (١٠) St. John of Damascus زعيم الكنيسة المدافع الأساسي عن الاستخدام التقليدي للآيقونات . وفي عدد من الرسائل الشهيرة المتلاحقة صاغ يوحنا الأدلة اللاهوتية لاستخدام الآيقونات ، بحيث أصبحت من بعد سلاحا ماضيا اعتمد عليه الآيقونيون

عام ٨٤٣ الى عقد مجمع كنسي اصدر قراراته باعادة قوانين مجمع نيقية ( المسكوني السابع ) . واختتم المجمع جلساته باقامة قداس مهيب في ١١ مارس ٨٤٣ ، ولا يزال هذا اليوم يحتفل به عيداً ارتثوذكسيا في الكنيسة اليونانية . المترجم .

( ١٠ ، ١١ ) يوحنا الدمشقي هو أحد رهبان دير القديس سابا قرب بيت المقدس ، توفي سنة ٧٥٠ لم تكن خطورته على أعداء الآيقونات قاصرة على معارضة سياستهم الدينية ، بل تمثلت فيما نادى به من آراء حول سلطة الجالس على العرش ، فقد فصل بين السلطتين الزمنية والروحية وأكد ذلك بقوله : « نحن نطيع الامبراطور فيما يتعلق بحياتنا اليومية أي في الولاء والضريبة ، وما يحق له علينا من الجبايات . أما في الحكومة الكنسية فلنا القسيسيون والمبشرون بالكتاب المقدس وشارحو القوانين الكنسية . فالتنظيم السياسي من اختصاص الامبراطور ، أما التنظيم الكنسي فهو من اختصاص القسيسين ، وليس تجريدهم منه الا من قبيل اللصوصية . وإذا كان يوحنا الدمشقي قد تولى مهمة التصدي للآيزوريين ، فقد قام ثيودور الاستوديوني بنفس الدور تجاه العموريين ، وقد تعرض للنفي ، وهو الوسيلة الوحيدة التي وجدها الأباطرة للخلاص منه ومات سنة ٨٢٦ ولم تكن أقواله تخرج عما ذكره سلفه يوحنا الدمشقي ، فقد راح يخاطب الامبراطور ليو الخامس الأرمني بقوله : « لاتعكر صفو الكنيسة » فالرسول قال - « وهو الذي أعطى بعضا ان يكونوا رسلا ، وبعضا أنبياء ، وبعضا مبشرين ، وبعضا رعاة ومعلمين ، وهكذا القديسين لأجل عمل الخدمة في سبل بنيان جسد المسيح » - ولكنه لم يذكر الأباطرة . وقد أعطاك الله مقاليد الدولة والجيش فاعتن بها واترك الكنيسة لرعاتها ومعلميها . وإذا كنت لاترضى ، فانتل لانصفى لما تقول ولو نقله اليك ملك من السماء . ولا شك ان الرهبان قد لعبوا دورا بارزا في التصدي للسياسة اللايقونية التي اتبعها الآيزوريون والعموريون ، خاصة عندما أقدم قسطنطين الخامس على الاستيلاء على عدد من المؤسسات الديرانية وجعل منها مرافق عامة للدولة . وقد خسرت بيزنطة الكثير من جراء ذلك عندما هاجر عدد كبير جدا من الرهبان الى الغرب هربا من هذا الاضطهاد جاملين معهم الكثير من الأعمال الفنية الرائعة . المترجم .



صراحة في دفاعهم . وكان القديس يوحنا يعيش داخل الأراضي الاسلامية ، وقضى السنوات الأخيرة من عمره داخل الأديرة القريبة من بيت المقدس ، وبهذا كان يضمن من أن تصل اليه يد السلطة الامبراطورية . أما الزعامة الديوانية داخل الامبراطورية فقد تمثلت في القديس ثيودور (١١) Theodore رئيس دير ستودايوس في القسطنطينية ، وقد تعرض للنفي مرات عديدة بسبب ايمانه الصريح الذي لا يتزعزع بالأيقونات . ومع ذلك فقد كان هناك شيء آخر يمكن ليوحنا الدمشقي وثيودور الاستوديى الاعتماد عليه ، اعني حق الكنيسة في الانفراد بتقرير امور العقيدة . ومهما يكن من أمر ، فقد انتهى ذلك الجدل بالتوصل الى طريق وسط . فقد ظل الارتباط التقليدي الوثيق بين الدولة والكنيسة قائما ، وأعيد من جديد الاستخدام البعيد للأيقونات ، وأن كان قد لزم التأكيد على التمييز بين العبادة التي يجب أن يتفرد بها الله وحده ، والتقدير الذي يمكن أن يقدم للمخلوق وما يبدعه .

هكذا عادت بيزنطة الى الأرثوذكسية ، ولكن الآثار الناجمة عن هذا الجدل ظلت باقية لزمان طويل خاصة في الخارج . فقد أقدم الامبراطور ليو الثالث عام ٧٢٢ على فصل مناطق جنوب ايطاليا واللبيريا عن السيادة البابوية ، واخضعها لسلطة بطريرك القسطنطينية . وقد اغتمت البابوية طويلا نتيجة هذا الاجراء الذي كان سببا في اضطراب العلاقات بين روما والقسطنطينية في القرن التالي . يضاف الى هذا ، أن الحقيقة القائلة بأن الأباطرة الرومان ليسوا إلا هراطقة ، (بالإضافة الى انشغالهم بالجبهات الأخرى) ، أدت الى أن تنشأ البابوية ، ربما كرها ، العون من حكام الفرنجة في الغرب . وهكذا حمل الكارولنجيون على التدخل في السياسة الإيطالية والارتباط الوثيق بالبابوية . وقد عمق هذا من الطبيعة النظرية للدعوات البيزنطية بامبراطورية مسيحية عالمية ، ومع هذه البدايات راحت الامبراطورية ، الفرعية المناقصة تأخذ طريقها الى الظهور .

ورغم أن شارل العظيم استطاع في أوائل القرن التاسع أن يحصل على اعتراف مؤقت بلقبه الامبراطوري من امبراطور بيزنطي واهن الزاداء ، ورغم أن الاضطرابات العقيدية التي كان يعاني منها العالم الأرثوذكسي

أنذاك قد انعكست على الحياة فى القسطنطينية حتى القرن العاشر ( رغم ما تم التوصل اليه سنة ٨٤٢ (١٢) ) ، لم تلبث التسمية المصطنعة لـ «امبراطورية» شارل ان توارت بالحجاب ، بينما اخذت الامبراطورية الرومانية الحقبة تنتقل بثبات منذ منتصف القرن التاسع من قوة الى قوة ، لتحقيق ما يمكن اعتباره مع شيء من التبرير قمة منجزاتها فى العصور الوسطى . وهكذا تمكنت بيزنطة من ان تخرج بنجاح من الازمات التى دهمتها فى القرنين السابع والثامن بعالم يونانى - رومانى وطيد الاركاز ، حقيقة محدود المساحة ، ولكن يدعمه موقع استراتيجى ممتاز يضع احدى قيمه فى اسيا والآخرى فى أوروبا .

## ٢ - العصر الذهبى للامبراطورية البيزنطية :

( ١ ) العموريون والمقدونيون .

شغل العرش البيزنطى فيما بين عامى ٨٢٠ - ١٠٥٦ بأسرتين ، احدهما قصيرة الاجل تمثلت فى البيت العمورى ، والثانية العائلة المقدونية التى حكمت قرابة قرنين من الزمان . ولعله يبدو خطأ أن تفصل

(١٢) فى نفس العام (٨٤٢) الذى شهد خاتمة الحروب ضد الايقونات، كانت الامبراطورية الغربية تشهد نزوعا الى الاستقرار ، وان كان على شكل انقسام ، يتفق . طبيعة الاقاليم التى تتكون منها ، فقد قسمت امبراطورية شارلمان قبل وفاته سنة ٨١٤ ، جريا على عادة الجرمان . بين ابناؤه انقسام ، يتفق وطبيعة الاقاليم التى تتكون منها ، فقد قسمت الامبراطورية الثلاثة ولكن ارثة اندهر فقط فى لويس التقي بسبب موت اخويه ، فلما مات هذا الأخير سنة ٨٤٠ ، دار الصراع عنيفا بين ابناؤه الثلاثة وانتهى الأمر بعقد معاهدة فردان سنة ٨٤٣ ، التى تم فيها تقسيم الامبراطورية بين الاخوة الثلاثة ، فذهب لويس بالناطقة التى اُدرجت فيما بعد المانيا ، وخص شارل ما عرف بعد ذلك بفرنسا ، واحتفظ لوثر بالمنطقة الوسطى التى أصبحت تعرف باسم لوثارنجيا (اللورين) ، واحتفظ بلقب الامبراطور . انظر

Pirenne, op. cit., pp 128 - 133

Oman, op. cit., pp. 409-sqq.

Davis, op. cit., pp. 159 - 162

Strayer & Munro, op. cit., pp. 102 - 103

Stephenson, op. cit., p. 170

Thompson & Johnson, op. cit., pp. 281 - 282

وايضا

وكذلك

و

وكذلك

و

بصورة قاطعة بين الاسرتين ، حيث عنت لهما تقريبا نفس المشاكل ، واشتركنا الى حد كبير في نفس الانجازات . وكان ميخائيل الثالث Michael III العمورى (الذى يدعى احيانا ودون وجه حق « السكير » ) قد قتل فى عام ٨٦٧ على يد باسل Basil وهو سائنس صغير للخيل ، ينتمى الى اصل قروى ، كان قد اصبغ من المقربين الى الامبراطور ، بل اضحى امبراطورا شريكا . ويعتبر باسل هذا « المقدونى » (ويعود نسبه اساسا الى اصول ارمينية) المؤسس الحقيقى للأسرة التى ضربت جذورها راسخة فى الأرض البيزنطية ، حتى ان اخر افرادها ، الاختين المستنيتين زوى Zoo وثيودورا Theodra لقيتا العون الكامل رغم عجزهما الواضح عن التصدى لأعباء الدولة . وقد قدم البيت المقدونى للعرش نوعيات مختلفة : باسل الاول استطاع ان يجعل من نفسه بصورة فائقة وريثا للتقاليد الامبراطورية البيزنطية ، على حين اثبت ابنه ليو السادس Leo VI الحكيم انه اديب وكاتب اكثر منه جنديا ، الى جانب اهتمامه العميق بمواصلة الجهود التشريعية التى شهدتها عهد ابيه . اما قسطنطين السابع Constantine VII والذى اريد له ان يظل طفلا لفترة طويلة (١٢) ، ابن ليو من زواجه الرابع (الذى عد زواجا غير شرعى) فك ذاع صيته لانشغاله بالأدب والفن ، وفوق هذا وذاك المؤلفات التى وضعها حول ادارة أمور الدولة ، وجهد ليضع بها أمام الأجيال المتعاقبة أسس الدبلوماسية البيزنطية تجاه جيران الامبراطورية وأعدائها ، وكذا مراسم البلاط عبر هذه القرون

---

(١٢) كان قسطنطين السابع واقفا تحت وصاية القائد البحرى الشهير رومانوس لكابنوس Romanus Lecapenus الذى جعل من نفسه الامبراطور السيد ، وانزل قسطنطين ، الامبراطور الشرعى ، الى مرتبة الامبراطور الشريك . بل رفع ابناؤه ايضا الى هذه المرتبة ، وظل يسير دفة الدولة طيلة ربع قرن (٩١٩ - ٩٤٤) ، وكف ايدي قسطنطين طوال هذه السنوات عن ممارسة سلطانه . وفى عام ٩٤٤ دبر ابناؤه ضده مؤامرة تم فيها القبض عليه . وقد استغل قسطنطين هذه الفرصة التى منحت له ، فلم يسمح لولدى رومانوس بأن يفرضوا عليه من جديد سلطة ابيهما . وأيده فى ذلك أهالى العاصمة . فأعدمهما سنة ٩٤٥ ، وهكذا تولى الحكم وهو فى سن الأربعين .

المترجم -



الطويلة والتي تتناغم وفصول السنة الميلادية . بينما لم يعمر ابنه رومانوس الثاني *Romanus II* طويلا ، ولعل رومانوس كان مسئولاً عن ذلك الى حد كبير ، فقد اتضحت عبقريته الأثيمة في زواجه من ثيوفانو *Theophano* الابنة الطامحة الأنانية لصاحب إحدى الحانات ، اذ سرعان ما مات رومانوس عام ٩٦٢ م خلفا وراءه صبيين هما باسل الثاني وقسطنطين ليفدو بذلك الحاكم الأول صاحب السيادة الفعلية ، بينما قنع أخوه قسطنطين ، الذى كان قد توج شأن باسل وهو غرض العمر ، بموقع الامبراطور الشريك . ويعد باسل الثاني بحق آخر حكام الاسرة المقدونية المقتدرين . وقد استطاع أن يحتل مكانة مرموقة بين أولئك الباطرة الذين تدين لهم الامبراطورية البيزنطية بالكثير ، ولما كان قد عانى في شبابه اليأكر من جراء المؤامرات والدسائس التى كان عليه أن يواجهها ، فقد اضرب عن الزواج ، وغدا حاكما صعب المراس صارما ، وقائدا من الطراز الاول لا يعرف الملل ولا الرحمة في مشروعاته العسكرية . وسياسيا حاذقا في تعامله مع البلغار المهزمين ، او في سيادته على الاسر صاحبة النفوذ المتزايد خطورة . ولكن هذا كله دون الاهتمام بذلك الشغف البيزنطى بالانشطة الثقافية والفنية ، او ازدياد لمراسم البلاط . وربما كان يحمل بين جوانحه عواطف انسانية ، كما يدعى ميخائيل بسللوس (١٤) *Michael Psellus* ذلك المؤرخ الذى كان يدور في فلك العرش ، غير أن طابعه المميز كان يتمثل في كونه رجل دولة صارما سافرا . فلما قضى باسل الثاني نحبه ، اكره أخوه قسطنطين الثامن ، الامبراطور الشريك ، على الخروج من حياة الدعة التى كان يعيشها في الظل ، ليحكم منفردا ثلاث سنوات سويا (١٠٢٥ - ١٠٢٨) ولما لم يكن له ولد ، فان بناته الثلاث أمسين يمثلن آخر سلالة البيت المقدونى . يودوكسيا *Eudoxia* التى أثرت أن تعكف على نفسها في أحد الأديار ، وخذت ثيودورا حذوها ، وأن كانت قد أرغمت على أن تترك الدير لتعتنى العرش في منتصف القرن الحادى عشر . أما زوى *Zoe* فقد خلفت وراءها شهرة ذائعة لسمعة ملطخة ، يمكن أن

(١٤) انظر بعده . المترجم . وراجع للمترجم : ميخائيل بسللوس من خلال كتابه « التاريخ الزمنى » - مجلة كلية الآداب - جامعة صنعاء - العدد الثانى ١٩٧٩ .



تبعث الى الحياة من خلال ذلك الوصف التفصيلي الذي كتبه عنها بسللوس ،  
 لمعرفة الوثيقة بها تدعمه صورتها الفسيفسائية التي تشد الرائين ، والتي  
 تم الكشف عنها على جدران ايا صوفيا ، وكانت زوى يبشرتها البضة  
 الناعمة ، وعنايتها الفائقة بتألقها وجمالها ، بطابع الحسن فيها وطلعة  
 بهية . عابثة تجرى وراء الخزعبلات مؤمنة بها ، متلفة تعوزها الحكمة ،  
 املت عليها اعتبارات محض شخصية اختيار ازواجها ، او ابنا يتبنى . ولم  
 تكن ثيودورا الى جوارها شيئا مذكورا . هكذا امسى بيت باسل الاول بهاتين  
 الكهلتين الى افول ، تناضلان من أجل الحفاظ على عرشها بمنجاة من ذلك  
 الولاء غير الصحيح لاسرتهما .

وفيما بين باسل الاول وسميه الثاني ، فقط ، تنحصر كل الانجازات  
 الرائعة التي رفعت كثيرا من قدر الامبراطورية البيزنطية خلال هذه الفترة  
 الطويلة ، ولقد تعرضت الامبراطورية ابان القرن الحادى عشر لبعض المشاكل  
 التي نجمت عن حداثة سن بعض اباطرة البيت المقدونى ، او عجز بعضهم  
 عن ادارة امور الدولة ، وان كان قد امكن التغلب على هذه المشكلة بذلك  
 النظام البيزنطى الذى يسمح بوجود امبراطور شريك دون تهديد لوحدة  
 الحكومة . وكان امرا مالوفا ان يتوج الامير لمبراطورا هو يحبو فى مدارج  
 الطفولة ، او حتى وهو بعد رضيع ، ومن ثم تمنح الفرصة لاحد قادة  
 الجيش او الاسطول ، اوتى من القوة قدرا يجعله يمر بعملية التتويج التي  
 تدفعه الى ادعاء مرتبة الامبراطور الاول . ولعله من اوضح الامثلة على ذلك  
 انه خلال قيصر قسطنطين السابع ، وحتى بعد ان بلغ سن الرشد ، اعتلى  
 الادميرال رومانوس لكابينوس *Ramonus Lecapenus* العرش باسم رومانوس  
 الاول (٩١٩ - ٩٤٤) . واستطاع ان ينفذ بقوة شكيمته وحسن تصريفه  
 للأمور ، الامبراطورية فى الداخل والخارج . على الرغم من ان قسطنطين  
 السابع الذى تزوج من هيلينا *Helena* ابنة رومانوس الاول وصاحبة  
 الارادة الحديدية ، قد ذهب بعيدا فى وصف صهره ( الذى كان يحمل له  
 كل الكراهية ) بأنه « جاهل حقير » . وفى اخريات القرن العاشر كان نقفور  
 فوقاس *Nicephorus Phocas* واحدا من ابرز القادة على النجبة الشرقية ،  
 ينتمى لعائلة من اكبر عائلات الارستقراطية الزراعية . وقد اقدم على الزواج  
 من الوضية على العرش . الملكة الام ثيوفانو . ومن ثم توج امبراطورا

واقام من نفسه وصيا على الامبراطورين المقدونيين الصغيرين ، باسل وقسطنطين . وكان هذا يتفق تماما مع الواقع العملي للحكومة البيزنطية . وقد دفع هذا ليوتبراند Liutprand اسقف كريمونا Cremona ، المبعوث الحائق الذي قدم من ايطاليا في عام ٩٦٨ ، الى ان يحمل انطبعا يعد الى حد ما غير واقعي ، عندما اصر على اعتبار نقفور الثاني محدث نعمة ازاح عن السلطة « سيديه » ، ولما اغتيل نقفور في ليلة ثلجية في مشهد تراجيدي بتحريض من ثيوفانو ، التي ربما وجدت في طباعه صرامة لا تتناغم وهواها ، قبض منافسه يوحنا تزيمسكس John Tzimiskes على زمام الامور ، واخفى على مركزه صيغة قانونية بحمل البطريك على تقويجه . وكان يوحنا تزيمسكس آخر الاباطرة الشركاء ذوي النفوذ . وبات واضحا ان باسل الثاني لم تكن لديه نية السماح بمثل هذه الاساليب في عهده . ومن بين الانواج الثلاثة لزوى كان هناك واحد فقط ، هو ميخائيل الرابع Michael IV قادرا بحق على ان يغل يدها ، ولسوء الحظ لم تشهد تلك الآونة سياسيا او قائدا يقدم على انتهاز هذه الفرصة عند الاقتضاء ويفرض على الحكومة ارادته .

ولقد تدعمت السلطة الامبراطورية خلال حكم الاسرة المقدونية بشكل غير محدود بهذه الارضية الاسرية الوطيدة ، يزيدنا رسوخا ذلك النظام الروماني المألوف الذي يتمثل في الاباطرة المشاركين ، حتى غدت بيزنطة مرة اخرى القوة الرئيسية في حوض البحر المتوسط الشرقي . وتمكنت من وقف التقدم الاسلامي في اسيا الصغرى . كما ان الهرطقة اللايقونية ، التي كان واضحا انها تشابه الى حد كبير مع وجهة النظر السامية ، تم شجبها ، بل الى حد ما اجتثاثها . وتم قبول بيزنطة عضوا في الجماعة المسيحية . وكان انتصار الصور انتصارا للروحانية اليونانية الرومانية ، على الرغم من ان ذلك ليس استثناء عاما لعملية الامتزاج بين التأثيرات الشرقية والغربية . وليس هناك من شك في ان مركز بيزنطة في النصف الاول من القرن التاسع كان ما يزال يفتقد الثبات ، ذلك ان نفوذها في ايطاليا والبنواتر البابوية كان قد تضاعف الى حد كبير ، كما انها تعرضت لكوارث بحرية مدققة في البحر المتوسط من جانب الاسطول الاسلامي . هذا الى ان العناصر الصقلية والبلغارية التي استوطنت البلقان لم يعد

زمام أمرها بأيدي السلطات البيزنطية . وعلى الرغم من أن البحرية الإسلامية في شمال أفريقيا كانت تشكل قوة كبيرة إلى الحد الذي مكنتها من مهاجمة بعض المناطق الاستراتيجية مثل كريت ( التي فقدت سنة ٨٢٧ ) أو صقلية ، والاعارة على جنوب إيطاليا والاملاك البيزنطية الاخرى . إلا أن طاقة القسطنطينية الاقتصادية وتجارتها مع الشرق عن طريق طرابيزون وما بين النهرين أخذت في الراج ، بينما نمت علاقاتها مع روسيا . ورغم الازدياد الواضح في قوة بعض المدن البحرية الإيطالية ، وعمليات التهريب التي كان من الصعب القضاء عليها ، إلا أن القسطنطينية ظلت تقوم بتنظيم تسويق صادراتها المرتفعة الثمن . لقد كان لدى القسطنطينية موارد اقتصادية . وإدارة متطورة ، وخدمة مدنية راقية ، ونسق من الحكومة المحلية طبق منذ القرن السابع ليواجه باطراد الاحتياجات المتجددة ، وفوق هذا كله فقد كانت تملك وحدة الهدف الذي يتجمع في ذلك الكيان الامبراطوري ، مع ادراك واع لكل المسئوليات . وعلى هذه الدعائم أقام العموريون والمقدونيون منجزاتهم .

ويتمثل نجاحهم في توسيع رقعة الحدود في آسيا الصغرى ، وإحياء القوة البحرية شرقي المتوسط ، واجتذاب الجماعات الصقلية في روسيا والبلقان ضمن دائرة الثقافة البيزنطية وإخضاعها لنفسه الامبراطورية السياسية . مع ما صاحب ذلك من تعميد جديد في أطرافها بحيث أمست المملكة البلغارية ضمن حدود الامبراطورية . ولا شك أن هذه الانجازات كان لها دلالاتها الهامة ، فهي من ناحية أعادت ، بل ربما أوقفت إلى حد ما ، الزحف الإسلامي في أوروبا ، ومن الأخرى كان لها تأثيرها الفعال في الارتقاء بالصقلية الجنوبيين .

( ب ) الزحف إلى الشرق ( ٨٤٢ - ١٠٢٥ ) .

في منتصف القرن التاسع كانت الحدود البيزنطية في آسيا الصغرى تأخذ طريقها ناحية الجنوب حين يتعطف البحر الأسود باتجاه الشمال ، شرقي طرابيزون إلى القرع الشمالي من الفرات ، ثم تنحدر جنوباً بغرب حتى تصل إلى البحر المتوسط . مخلفة وراءها طوروس ، وسلسلة طوروس الداخلية . والجزء الأكبر من كيليكية تحت السيادة الإسلامية . وطوال

القرنين التاليين لم يكن الصراع على هذه الجبهة يمثل الا سلسلة متصلة من الانتصارات البيزنطية ، وان أمكن القول على أحسن الفروض أن الفترة التي انقضت على عهدى الأسرة الهرقلية والأباطرة اللايقونيين ، تعتبر انتصارا للقيادة العسكرية والدبلوماسية البيزنطية ، واقامة الثيمات . فمن الناحية العسكرية وجه الامبراطور ميخائيل الثالث كل اهتمامه الى تدعيم وتقوية القلاع المقامة فى منطقة الحدود ، خاصة تلك التى تتحكم فى الممرات الاستراتيجية . هذا الى أن الحملات المستمرة التى خطط لها قواده ، الى جانب الهزيمة الحاسمة التى لقيها أمير ملطية Melitene الذى قام بالهجوم على ثغر الأرمنياق ، أدت الى أن تتحول عمليات الغزو بعد ذلك الى الأراضى الإسلامية . فاستولى باسل الأول على لؤلؤة Iulium التى تتحكم فى الممر الهام بالنسبة لدخل كيليكيا من ناحية الجنوب ، وكان ذلك فى حد ذاته أولى الخطوات الفعالة فى سبيل حرمان الهجمات الإسلامية السنوية من معاقلها الجبلية ، كما أن باسل أوقع بالبيالصة Paulician الهراطقة الذين يقيمون حول تفريق Tephrike هزيمة قاسية . وذهب ليو السادس خطوة أبعد من ذلك يضم الأراضى المتاخمة الواقعة بين فرعى الفرات والتى تؤدى الى منطقة الجزيرة ، وفى عهد رومانوس الأول اندفع قائده الشهير يوحنا كوركواس John Curcuas (الذى ينحدر شأن الامبراطور من أصل أرمنى) داخل أرض الجزيرة وأرمينيا . على الرغم من المقاومة العنيفة التى أبدتها سيف الدولة ( الحمدانى ) أمير الموصل وحلب ، الا أن يوحنا استولى على ملطية وعدد من المدن ناحية الشرق شمالى الجزيرة (ميافارقين Martropolis ودارا Dara ) . وفى سنة ٩٤٤ هاجم الرها Edessa واستعاد ذلك المنديل الثمين الذى كان المسيح قد جفف به وجهه والذى انطبعت عليه ملامحه (١٥) وهكذا تمكن البيزنطيون من التوغل فى منطقة دجلة والفرات ، وراحوا يحكمون سيطرتهم على المرتفعات الكليكية .

---

(١٥) ترتبط مدينة الرها فى ذاكرة المسيحيين دائما بعلاقتها المبكرة مع المسيح ، وبما فيها من آثار القديسين . ومما تذكره الروايات أن أبجار Abgar ملك الرها كتب الى المسيح يطلب اليه ، وقد علم بالمعجزات التى



لم يتوقف نجاح الجيوش المسيحية ، ويعود ذلك الى عدد من العوامل المتشابكة ، فالسلطات البيزنطية كعادتها دائما كانت تشجع أى تحالف ممكن ، وتستغل فى الوقت ذاته الى أقصى حد تلك الخلافات السياسية القائمة بين الحكام المسلمين ، أو الصراعات الناشبة بينهم الناجمة عن تضارب مطامحهم . ولعله كان مما يدخل السرور على قلب بغداد ومصر الفاطمية أن يروا قوة أمير الموصل وحلب تهن فى منتصف القرن العاشر أمام الزحف المسيحى فى ميزوبتاميا الشمالية ، لعله أيضا كان من الحكمة فى نظر دمشق أن تعترف بسيادة يوحنا تزيملكسكس التى أخذت تزداد باطراد فى فلسطين عام ٩٧٤ . ولم يكن يقل عن ذلك أهمية تلك القوة التى تبدت فى قيادة الجيش تدعمها عائلات ذوى ملكيات كبيرة فى آسيا الصغرى ، يدفعها الى ذلك ، ليس مجرد الرغبة فى تحقيق النفوذ السياسى الذى سوف يمنحهم اياه للنجاح العسكرى لهؤلاء القادة ، بل التوسع الاقتصادى الذى سيجد فى هذه الارض الجديدة التى يتم الاستيلاء عليها ميدانا أرحب مما يجده فى مشروعات صناعية أو تجارية تخضع لسيطرة الدولة . وقد استمد هذا الباعث الأخير دفعة أقوى من المحاولات الامبراطورية التى جرت بقصد وضع حد لعملية شراء وجهاء القوم لأراضى صفار الملك . يضاف الى ذلك أن الصلابة التى تمثلت فى أولئك القادة المتعاقبين ظهرت دوما فى الحرب البيزنطية ضد الخارجيين عن دائرة الايمان . وليس أدل على ذلك من أن الامبراطور نقفور الثانى نفسه وهو الذى يعد واحدا من أعظم قادة أسيرة فوقاس فى آسيا الصغرى ، أعلن أن كل من يقتل فى الحرب المقدسة سوف يحشر فى زمرة الشهداء . وقد واكب التوغل البيزنطى فى الأراضى الاسلامية ، اغارت بحرية نشطة أسفرت فى النهاية عن الاستيلاء على عدد من المواقع الاستراتيجية مثل كريت وقبرص ، وهى التى ظلت لفترة طويلة من أهم المراكز الاسلامية البحرية التى يشن منها الاسطول الاسلامى

---

تمت على يديه ، أن يبرئه من مرضه ، فكان من بين يديه ما بعث به المسيح اليه ، على ما تذكر الأسطورة ، منديلا Mandilon طبع عليه وجه المسيح ، وقد شاعت الأساطير حول مدى قدرة هذا المنديل على شفاء المرضى واثبات المعجزات . وقد قام يوحنا كوركواس بنقل هذا المنديل فى موكب مهيب من الرها الى القسطنطينية . المترجم .

مجماته . وكان بناء قوة بحرية ضاربة والاهتمام بها مسألة حيوية للدفاع عن الامبراطورية ، خاصة وانها تمتلك سواحل طويلة متعرجة وعددا لا حصر له من الجزر فى مياهها .

وتوضح خريطة الامبراطورية سنة ١٠٢٥ عند وفاة باسل الثانى ، تقدما كبيرا باتجاه الشمال ( متضمنا جزءا رئيسيا من الاراضى القوقازية ) . وقد نظمت الآن فى ثيمات او ولايات مثل ايبيريا Iberia وفازبورقان Vaspurkan وارزن Theodosiouolis وطارون Taron اما ما تبقى من مملكة ارمينيا ( انى Ani ) فكان لابد ان يؤول الى بيزنطة بعد وفاة حاكمها . والى الجنوب كانت هناك ايضا اقاليم جديدة مثل الجزيرة وملطية ومدن الفرات ، بينما كانت مدن كيليكيا وتلوخ Teluch التى تتحكم فى مداخل المرتفعات الجنوبية ، وكذلك كرسى البطريكية القديم فى الاقليم الانطاكي بسوريا الشمالية تحت السيادة المسيحية . ورغم ان بيت المقدس كانت مازال بايدى الكافرين (١٦) ، الا ان الجيوش المسيحية كانت قادرة على ان تعيث فسادا فى المناطق الجنوبية من فلسطين . ولاريب انه كان يبدو شيئا مثيرا لسخرية القسطنطينية فى اوائل القرن الحادى عشر ان يظهر فى الافق ما يشير الى استيلاء الصليبيين اللاتين على سوريا وفلسطين ، فقد بدا آنذاك كما لو كان البيزنطيون انفسهم عازمين على استعادة الاراضى المقدسة .

#### ( ج ) القسطنطينية والصقالبة :

اذا كان الصراع قد جرى فى الجنوب على هذا النحو ، فان نظيره فى

(١٦). يرد هذا التعبير ابتداء من الآن وفى مواضع تالية متعددة اشارة الى المسلمين ، وهو التعبير الذى استخدمته الكنيسة الغربية والبابا اوريان الثانى فى صيحته عام ١٠٩٥ لاثارة اوروبا للخروج بحملاتها الصليبية الى الشرق الاسلامى . ورغم ان المؤلف قد استخدمت كلمتى « الاسلام » و « المسلمين » قبل ذلك فى مقابل الجيش البيزنطى ، فاننا نجدها تستخدم الآن هذا التعبير « الكافرين » فى مقابل « الجيش المسيحى » للدلالة على ما ساد حروب القرنين العاشر والحادى عشر عند البيزنطيين من روح قد تبدو صليبية ، ولما حدث بعد ذلك من قيام الحركة الصليبية . وقد ترجمت هذه الكلمة كما هى توخيا للأمانة العلمية وللدلالة على نظرة اوروبا المسيحية فى العصور الوسطى الى المسلمين . المترجم .

الشمال كان يجرى على نحو يختلف : حيث ووجهت بيزنطة بعدد يمكن ترويضه ، كان على استعداد للاعجاب بالحضارة المسيحية والرغبة فى التعلم منها ، وكان توسع الشعوب الصقلية فى وسط وجنوب شرقى أوروبا سلاحا ذا حدين لعالم المسيحية ، ذلك أن الاهتمام المتزايد فى ميدان البعثات التبشيرية كان قد أصبح التزاما مسيحيا وامبراطوريا فى الوقت ذاته منذ القرن الرابع على عهد قسطنطين . ومنذ الحروب اللاتينية واطراد التحالف بين البابوية وحكام الفرنجة فى القرن الثامن . اتسعت هوة الخلاف بصورة مستمرة بين كنيسة روما والقسطنطينية ، وراحت كل منهما تحاول أن تضم الصقلية الى دائرة كنيستها ، واستطاعت كل منهما أن تحقق نجاحا معيناً فى اجزاء مختلفة من أوروبا . وفى النصف الثانى من القرن التاسع خرجت القسطنطينية مبشرين من بينها كانوا يجمعون بين التقوى والمعرفة والسياسة فى آن واحد ، بحيث مكن أن نعتبرهم خير نموذج يمثل طرائق الحياة البيزنطية ، وعلى رأس هؤلاء يأتى ميثوديوس Methodius (توفى عام ٨٨٥) وكيرلس Cyril اللذان اتصفا بالمقدرة والحكمة الى درجة استطاعا بها ان يضعوا الاسس الكفيلة بجعل صربيا Serbia وبلغاريا وروسيا ، تخضع فيما بعد لنفوذ وسيادة اسقفية القسطنطينية . كما انهما وضعوا ايضا الأبجدية التى أصبحت القاعدة الرئيسية فى اللغة المكتوبة لدى هذه الشعوب . وهكذا أصبحت الكنائس الصغيرة التى اقيمت ونمت فى هذه المناطق أعضاء ضمن عالم المسيحية ، بخدماتها الاكليروسية وادبها اللاهوتى المبكر فى لغاتها الأساسية حتى اضحت كنائس صقلية وليست يونانية ، رغم انها غالبا ما ترجمت عن الاغريقية أو حاولت أن تحاكي الأصول اليونانية الكلاسيكية (كما يبدو واضحا فى سير قديسيهم أو أو الكتابات النسكية ) ، وتدين هذه الكنائس للقسطنطينية بالالحن الكنسية الصقلية القديمة كما ظلت باقية .

غير أن مشكلة الجوار التى نشأت عن وجود الصقلية فى منطقة البلقان ، كانت تحمل فى طياتها نذر شر مستطير على امتداد التاريخ البيزنطى . فخلال تلك الفترة المبكرة التى كان الصقلية يسمعون فيها لتثبيت أقدامهم عبر الحدود الامبراطورية جنوب الدانوب . كان على القسطنطينية ان تكابد لقرون عديدة تالية الاغارات التخريبية المدمرة لتلك المناطق التى



تمتد لتشمل كل بلاد اليونان ، بل وتصل الى اسوار العاصمة نفسها . حتى اذا كان النصف الثانى من القرن التاسع وجدت بيزنطة نفسها امام خطر مداهم يهددها يتمثل فى المملكة البلغارية . بل ان معظم الكوارث السياسية التى احدثت بالامبراطورية فى القرن العاشر من ناحية الشمال ، كان مصدرها هذه المنطقة ( وقد ظل ذلك حتى القرن الرابع عشر حيث كانت صربيا يداعبها حلم ان تكون وريثة القياصرة المسيحيين ) . لقد كان لدى القسطنطينية الكثير الذى يمكن ان تقدمه ، وكانت حضارتها ذات الصبغة العالمية ، وثرأ امبراطوريتها ، دعوة متجددة وخطيرة تغرى بغزوها . وفى بداية الامر لم تجد القسطنطينية امامها من سبيل سوى ان تلجأ الى ذلك النظام الذى جرى العرف باتباعه وهو الجزية السنوية . فلما كان اوائل القرن العاشر امكن التصدى لرغبة البلغار فى ان يكون لهم على الأقل بعض النصيب فى الامبراطورية ، وتحقق ذلك أولا عن طريق الوعود ، ثم بعد ذلك بالسياسة الأريية التى اتبعها الاميرال رومانوس لكابنوس الذى كان قد توج امبراطورا شريكا آنذاك . فلما قدر للملك البلغارى الطمرح سيمون Symeon ان يموت فى عام ٩٢٧ ، أقدم ابنه بطرس على الزواج من ماريا لكابنا Maria Lecapena احدى حفيدات رومانوس (وهى لا تنتمى لأصول ملكية) . ومع ذلك فقد ظلت بلغاريا دائما شوكة فى جنب الامبراطورية الى ان كان آخر القرن العاشر واخذت قوة الأباطرة فى الازدياد ، بات واضحا ان افضل الحلول وأمنها للمشكلة البلغارية هو الغزو . ومن بين هؤلاء الأباطرة اقدم يوحنا الاول تزييمسكس وباسل الثانى على قهر ذلك الجار المشاغب . ومنذ ذلك التاريخ وطوال ما يقرب من مائة وخمسين عاما ، حتى حركة الاحياء الوطنى الثانية اصبحت المملكة البلغارية جزءا من الامبراطورية وتم تقسيمها الى منطقتين : باريستريون Paristrion وبلغاريا . وقد أضفت هذه الحملات العنيفة القاسية ضد البلغار شهرة ذائعة على الامبراطور باسل الثانى . ولكن « سفاح البلغار » (١٧) هذا كما كان يدعى ، اوجد

---

(١٧) اتسمت الحملات العسكرية التى قام بها الامبراطور باسل الثانى ضد البلغار بالعنف الذى وصل الى حد الوحشية فى بعض الاحيان . وقد استمرت الحرب بين باسل والبلغار سبعة عشر عاما (١٠٠١ - ١٠١٨)



فى هذه الأراضى التى تم الاستيلاء عليها نوعا من الاستقرار السياسى ، فأبقى على التقاليد المحلية ، وأبدى شيئا من التسامح فيما يتصل ببعض المسائل الكنسية بحيث بقى للكنيسة الكثير من استقلالها الحقيقى . وان كانت هذه الاجراءات فى نفس الوقت قد وضعت بلغاريا تحت السيادة الفعلية للامبراطورية ، كما أنها أدت الى ظهور الهرطقة البوجوميلية (١٨) Bogomil التى تفشت هناك تحت السيطرة المباشرة للامبراطور الأرثوذكسى ، الذى

تمكن خلالها الامبراطور البيزنطى من تحقيق انتصارات ضخمة ، كما انه مثل بالبلغار اشنع تمثيل ، ففى احدى المعارك أمر بسمل عيون أربعة عشر ألف أسير من الأسرى ، ثم سمح لهم بالعودة الى ديارهم يقودهم مائة وخمسون أعورا . فلما أبصرهم الملك البلغارى صموئيل على هذه الحال زهقت روحه كمدا سنة ١٠١٤ ، ولهذا سمي باسل الثانى « سفاح البلغار » Bulgaroctonus . ويشرك بعض المؤرخين معه فى هذه النسبة الامبراطور قسطنطين الخامس (٧٤١ - ٧٧٥) .

أنظر C.M.H. vol. IV, pp. 241 - 42, و Vasiliev, op. cit., I, pp. 319 - 320 والدكتور السيد الباز العرينى : الدولة البيزنطية ص ٦٢٦ - ٦٥١ وأومان ، الامبراطورية البيزنطية ص ١٨٨ - ١٨٩ . المترجم .

(١٨) درجت السياسة البيزنطية على نقل عناصر معينة من السكان من مواطنها الى مواطن أخرى ، وقد حدث هذا كثيرا ابان الحروب اللايقونية ، وخلال القرنين العاشر والحادى عشر . وكان من بين هؤلاء جماعات من الأرمن نقلتهم الى تراقيا . وكانت منطقة أرمينيا منذ القرن الرابع مهدا للحركات التطهيرية المعادية للكنيسة ، ومن أشهرها حركة البيالصة ، وأصبحت مدينة فيليبوبولس مركزا رئيسيا لهم فى تراقيا ، وقد تطورت آراء البيالصة فى القرن العاشر على يد بوجوميل Bogemile فى بلغاريا ، والذى خلق الكتاب البيزنطيون اسمه على هذه الطائفة ، وهم يؤمنون شأن أسلافهم بالاثنية . الخير والشر ، أو الله والشيطان ، وسلكوا حياة الزهد والتقشف ، ورفضوا الاعتراف بالنظام الكنسى ، ثم اصطنعت هذه الحركة بصفة اجتماعية بعد أن انضم اليها كثيرون من فلاحى بلغاريا وحوا مقاومين كبار الملاك . وقد انتقلت هذه الحركة الى سائر أنحاء أوروبا وخاصة فرنسا فيما عرف بحركة الألبيجينيين . راجع حاشية ٣٩ ص ٣٦ .

وانظر The New Schaff-Herzog encyclopædia of religious  
Encycl. of religion and ethics. art. Bogmle  
و Vasiliev, op. cit., II. p 383 المترجم .

كان من أهم واجباته القضاء على كل مصادر الدنس ، كما أنها كانت تعنى بصورة قاطعة أنه لم يعد هناك دول حاضرة فيما بين بيزنطة وتلك الاخطار الكامنة فيما وراء الدانوب .

ولم تكن علاقات القسطنطينية مع الشعوب الصقلية قاصرة فقط على بلغاريا ، فقد انساب أثر بعثاتها التبشيرية الى البلقان ، على الرغم من أن كرواتيا Croatia وصربيا لم يصبحا في يوم من الايام جزءا من امبراطورية العصور الوسطى كما حدث لبلغاريا . فقد كانت كرواتيا تميل الى الدوران باتجاه الشمال في فلك هنغاريا . غير أن ساحل دالماتيا اللاتيني ( والذي كان يعد جزءا من الامبراطورية رغم تمتعه بنوع من الاستقلال ) والاراضي الصقلية الشديدة التباين والواقعة الى الداخل ، كانت تعترف بادعاءات القسطنطينية بالسيادة السياسية ، وأن كان هذا الاعتراف يتباين تبعا لتوقع الاخطار مثل الهجمات التي يقوم بها العرب من بحر أدريا ، أو التهديدات المدمرة من جانب البلغار .

وعلى الشواطئ الشمالية للبحر الأسود اظهرت بيزنطة منذ زمن بعيد اهتمامها بهذه المنطقة ، ومارست نوعا من السيادة على ثغر خرسون Cherson الاستراتيجي الموقع في القرم Crimea . وكانت الدوافع الاقتصادية والسياسية ، شأن الدينية سواء بسواء ، وراء المحاولات الجادة للاحتفاظ بهذه العلاقات الدبلوماسية . ومنذ ذلك الوقت المبكر الذي تحولت فيه الامبراطورية الرومانية الى المسيحية ، اخذت البعثات التبشيرية تجوب هذه الاقاليم . ثم مالبث أن تبع ذلك قدوم الاكليروس الى شعوب هذه المنطقة ، سواء النازحين منهم أو المستقرين كالخزر Khazars والأجروفينيش Ugro-Finnish وغيرهما . أما الهنغاربيون فقد أوا الى مضاجعهم حول سلسلة جبال الكريات Crrapathians بعد تجوال كان طبيعيا أن يصبحوا من خلاله على احتكاك بالمسيحية الأرثوذكسية . وقد ازدهرت التجارة مع مدن الشمال عبر الممرات المائية التي تربط البحر الأسود بالبحر البلطى ، خاصة طريق كييف Kiev نوفجورد Novgorod . كما أن المعاهدات التجارية التي أبرمت في القرن العاشر ظلت سارية المفعول . وقد قدم رجال من الشمال للعمل كمرتزقة في الجيش الامبراطوري ، بل شكلوا

في نهاية القرن العاشر الحرس الامبراطوري أو ما عرف باسم « الورنك » (١٩) Varangian الذائع الصيت . ولما أن لادارة كييف أن تأخذ شكلها السياسي ، استقرت العلاقات الدبلوماسية بينها وبين الامبراطورية . غير أن القسطنطينية لم تمارس في روسيا أبداً أي نوع من السيادة ، ولكنها كانت مسئولة عن نشر المسيحية الأرثوذكسية واخضاع الكنيسة الكييفية تحت سيادة بطريركية القسطنطينية ، وعلى هذا النحو أدخل حكام كييف في طور

(١٩) لجأت الامبراطورية البيزنطية ابتداء من القرنين التاسع والعاشر في تعمير المناطق التي اقترنت من سكانها ، نتيجة اغارات الصقالية مازكرت ، وضياع آسيا الصغرى نبع الجند . وكانت العناصر الاسكندنافية والروس والاسكندنافيين والصقالية والعرب والأتراك . ثم امتدت هذه العناصر الى الجيش حيث أصبح يتكون في معظمه من المرتزقة خاصة بعد الهزيمة الساحقة التي منيت بها بيزنطة سنة ١٠٧١ على يد السلاجقة في مازكرت ، وضياع آسيا الصغرى نبع الجند . وكانت العناصر الاسكندنافية بصفة خاصة في القرنين التاسع والعاشر قد شقت طريقها الى نهر الدنيبر Dnieber ثم البحر الأسود ، حيث عرفوا في هذه المنطقة باسم الروس Rhos وغدا الطريق الذي ساروا فيه ، وأصبح طريقاً تجارياً من شمال غربى أوروبا الى جنوبها الشرقى يعرف بطريق الورنك Varangian route . وقد اعتمد البابايرة البيزنطيون على هذه العناصر الاسكندنافية بدرحة كبيرة في تكوين الجيش البيزنطى حتى القرن الحادى عشر ، عندما أعلنوا العصيان سنة ١٠٧٩ ، فعزل الامبراطور الكسوس كومننن ، على استبدالهم بحماعات أخرى . وساعدته الظروف السياسية والعسكرية التي جرت في أقصى غرب أوروبا على النجاح في مهمته ، ذلك أن أعداداً كددة من الأتخلو - سكسون قد خرجت هاربة من بريطانيا بعد الغزو النورمانى لها بقيادة إيم الفاتح سنة ١٠٦٦ . وقد خدمت هذه العناصر في الجيش ، بل أن الأباطرة جعلوا منهم حرسهم الخاص فيما بعد في القرن الثامن عشر وشاعت تسميتهم بالورنك Varangians .

أنظر A Short history of the U.S.S.R. ed. in two vols. by  
Acadamy of Sciences of the USSR, Institute of history, vol. I, pp. 34-38  
أيضا Ch. Brooke. Europe in the central Middle Ages, pp. 45 - 46  
وكذلك Bayens & Moss, op. cit., 300 - 301  
و Thompson & Johnson, op. cit., p. 268  
و Stephenson, op. cit., pp. 172 - 182  
و Runciman. A history of the Crusades. III, p. 118  
وانظر أيضا بعده . المترجم .



من الرقى العمدى • ويبين كتاب الوصايا الدبلوماسية الذى وضع فى القرن العاشر ، والخاص بإدارة الشئون الخارجية البيزنطية ، أن اهتماما خاصا قد وجه الى هذه الناحية • وقد لقيت الأميرة أولجا Olga التى تحولت حديثا الى المسيحية • استقبالا حافلا عند زيارتها للقسطنطينية عام ٩٥٧ • وكان للمساعدة التى قدمتها الفرقة الروسية للامبراطورية فى الحرب البلغارية سنة ٩٧٩ أهميتها ، بحيث جاء تقديرها من جانب بيزنطة بما كان يعد فى تلك الأيام شيئا بعيد المنال ، وهو أن تغدو إحدى أميرات البيت الامبراطورى البيزنطى زوجة لأجنبى ، فتزوج فلاديمير Vladimir أمير كييف من أنا Anna أخت باسل الثانى ، وتعهد هو وشعبه أن يتخذوا المسيحية ديناً •

#### ( د ) بيزنطة والغرب :

لم يكن التوسع البيزنطى فى الغرب مساويا لما حدث فى الشرق أو بين الشعوب الصقلبية • ففى إيطاليا كان مركز الامبراطورية يبدو وكأنه محاولة للحفاظ قدر الطاقة على الحالة الراهنة Staus que المضطربة ، وغالبا ما كان يتعرض فى القرن العاشر للتهديد الخطير من جانب حكام ألمانيا السكسون الذين ورثوا العبادة الامبراطورية عن الكارولنجهين • وقد توج أوتو الأول Otto I بادیء الأمر ملكا على الملكة الإيطالية (٢٠) regnum Italicum (مملكة الشمال الايطالى اللومباردية) ثم أعلن بعد ذلك فى عام ٩٦٢ امبراطورا • ورغم أن فرص الوسائل الدبلوماسية كانت

(٢٠) قام أوتو الأول بحملته الأولى على إيطاليا سنة ٩٥١ بدافع الوقوف أمام زحف ملك برجنديا ودوقى سوابيا وبافاريا عبر ممرات الألب فى إيطاليا الشمالية ، ويفرض المؤرخ المعاصر تشيفالروس Chivalrous اهتمام أوتو بإيطاليا بداءة الى استنجد أدلهيد Adelheid أرملة لوثر الحسناء ، به لانقاذها من مضايقات برنجار الثانى Berengar II ماركيز إيفيريا Ivria وملك الملكة اللومباردية فى شمال إيطاليا فيما بعد • وقد أسرع أوتو لتلبية هذا النداء ، وحل المشكلة بالزواج من هذه الحسناء ، وحمل دون مراسم لقب ملك اللومباردين ، وترك برنجار فصلا تابعا له • انظر C. M. H. vol. III, pp. 194 - 195

Davis, op. cit., pp 217 - 218

Z. N. Brooke, A history of Europe 911 - 1198, pp. 36 - 37

و  
و



متاحة مع الامارات الصغيرة فى وسط وجنوب ايطاليا ، الا ان اوتو الاول فشل فى مجومه على الاملاك البيزنطية فى لونغبارديا Longobardia (أبوليا Apolia ) وصقلية (وكانت هذه المنطقة تتكون آنذاك من اقليم كالابريا Calabria فقط فى جنوب ايطاليا منذ اصبحت جزيرة صقلية تحت السيادة العربية) . واضاف الى فشله هذا فشلا آخر حين اخفق فى الحصول من القسطنطينية على اعتراف بلقبه الامبراطورى . وقد ترك ليوتبراند Liutprand أسقف كريمونا Cremona واحد مبعوثى اوتو الاول تقريرا مفصلا يتسم بالتحيز والسخرية عن مفاوضات الامبراطور الطويلة مع بيزنطة ، وكان أقصى ما استطاع اوتو الاول الحصول عليه زوجة بيزنطية لابنه اوتو الثانى تدعى ثيوفانو Theophano التى تنتمى لأسرة من اكبر ملاك الاراضى ، وليست - كما أراد - من البيت الامبراطورى نفسه . وقد اتت هذه الزيجة ثمرتها حيث انجبت ثيوفانو ولدا هو اوتو الثالث ، كان بدوره يرغب فى الزواج من اميرة بيزنطية غير ان الموت عاجله فى سن مبكرة عام ١٠٠٢ . وقد أبان قبل موته عن تصوره لامبراطورية تكون روما حاضرة لها . غير انه كان يبدو مستحيلا ان يقوم فى الغرب شبيه لتلك الامبراطورية الرومانية imperium romanum القائمة فى القسطنطينية . ومع اشراقة القرن الحادى عشر ظهر واضحا للقسطنطينية انه من المستحيل ايضا بالنسبة لها ان تحتفظ باى مركز قوى فيما كان يعرف واقعا بالجزء الغربى Pars Occidentalis . وقد شرع باسل الثانى فى اعادة تنظيم الحكم البيزنطى فى ولايتى ايطاليا الجنوبية اللتين اتحدتا الآن تحت سيادة حاكم يعرف باسم قطبان(٢١) Catapan . ولاشك ان فكر باسل الثانى كان يحتوى على مشروع استرداد صقلية من ايدى المسلمين ، وان كانت الحقيقية قد اظهرت ان البيزنطيين كانوا غير قادرين على استعادة سلطاتهم

---

(٢١) وهو قائد عسكري ، لا يختلف عن الاكزارخ ، يجمع فى يديه السلطتين العسكرية والمدنية ، اتخذ من مدينة بارى Bari مركزا له . وقد ساعده الاصطراع السياسى القائم فى ايطاليا فى ان يظهر اهتماما معيناً بحماية الشواطىء الجنوبية لاطاليا من هجمات الاسطول الاسلامى .  
أنظر Baynes & Moss. op. cit., p. 24

وأيضا Vasiliev, op. cit., I, p. 398 المترجم .

فى صقلية ، أو حتى الحفاظ على سيادتهم فى شبه الجزيرة الايطالية ذاتها ، حيث كان مقدر أن يصبح النورمان Normans خلفاءهم السياسيين فى الجنوب ، وأن يقتصر النفوذ البيزنطى فى ايطاليا بعد منتصف القرن الحادى عشر على الناحيتين الثقافية والدبلوماسية . غير أن هذه الصورة الأخيرة قد تعطينا انطباعا زائفا يخالف الواقع ؛ فالحقيقة أن الرصيد البيزنطى كان يقف شامخا فى الدوائر الغربية ، ذلك أن الثقة الكاملة فى الامبراطور البيزنطى يعكسها ذلك التقرير الذى كتبته ليوتبراند عن محادثاته مع نقفور الثانى سنة ٩٦٨ ، كما أن النعمة الودية التى احتوتها رسالة البابا ليو التاسع Leo IX الى الامبراطور الارثوذكسى الورى قسطنطين التاسع Constantine IX فى سنة ١٠٥٤ تبين مدى الأمان الذى كانت تشعر به القسطنطينية ، ومدى ما تحقق لها من الاحترام ، طوعا أو كرها ، من جانب جيرانها .

#### ( هـ ) السياسة الداخلية : الكنيسة والتعليم :

لاشك أن نجاح بيزنطة العسكرى والبحرى طوال ما يزيد على مائة وخمسين عاما زمن العموريين والمقدونيين ، وهذا الانتشار السريع لآثار حضارتها المسيحية ، يعود فى الدرجة الأولى الى تلك الأوضاع التى سادت فى الداخل . لقد كانت الكفاءة المقتدرة وتعدد مناحى الأنشطة ، أبرز سمات الحياة البيزنطية . فمنذ منتصف القرن التاسع وحتى موت باسل الثانى (١٠٢٥) على أقل تقدير ، أقدمت السلطة الامبراطورية الأوتوقراطية على أحداث اصلاحات ذات أهمية كبيرة فى مجال التشريع والإدارة ؛ ذلك أن باسل الأول كان لديه العديد من المشروعات بهدف « تنقية » القانون القديم . فنشر « الوجيز » Procheiron ثم سرعان ما اتبعه فى عام ٨٧٩ ب « المدخل » (٢٢) Epanagoge ، وأكمل ليو السادس جهود أبيه باصدار

(٢٢) يؤكد بعض الدارسين أن « المدخل » لم ينشر رسميا على الإطلاق .

لمعرفة الآراء المختلفة حول هذا الموضوع .  
انظر Ostrogorsky, History of the Byzantine state, pp. 213 - 14  
H.J. Schehema, in Cambridge وعن تشريعات المقدونيين انظر  
Medieval history IV, pt. II (new ed. 1967), pp. 65 ff.

« التشريعات الامبراطورية » *Basilica* التي اعتمدت أساسا على التشريعات الباكرة خاصة تلك التي تعود الى عهد جوستينيان وتهدف كتب القانون هذه الى جعل قوانين جوستينيان أيسر تناولا خاصة وأن هذه الكتب صدرت باليونانية اللغة السائدة في الامبراطورية . وقد خضعت هذه « التشريعات الامبراطورية » لكثير من ضروب التعديل والتحسين حتى أصبحت فيما بعد المصدر الأساسى في هذه المجالات . كما أبدى الأباطرة اهتماما كبيرا في مختلف النواحي التشريعية . وتمثل ذلك في كثير مما نشر آنذاك سواء كان يحمل الصفة الرسمية أو غير الرسمية . وكانت القوانين العديدة التي صدرت على امتداد هذه الفترة ، أو « كتاب الوالى » الذى وضعه الامبراطور ليو السادس ، أو الاتفاقيات التجارية ، تتناول التنظيم الفائق للنقابات فى القسطنطينية ، أو الشروط التى يسمح بمقتضاها للتجار الروس بالإقامة فى المدينة ، بل وحتى تلك المشكلة البالغة التعقيد التى تتمثل فى كبار ملاك الأراضى .

وقد ارتبط ابتياع الأراضى بنمو العائلات الثرية التى ظلت حتى الأيام الأخيرة للامبراطورية تسيطر على مصادر كانت تعد تحديا مستمرا لسلطان الدولة . وكانت حيازة الثروة الزراعية تعتبر امتيازًا علمانيا خالصا ، وإن كانت السلطات الاكليروسية قد تراكم لديها هى الأخرى مصادر واسعة من هذا النوع ، خاصة المؤسسات الديرانية الكبيرة ، وغالبا ما كان يحدث ذلك بتغاض أسقفى . ولم تكن السياسة الامبراطورية تجاه التملك المتزايد للأراضى تسير على نحو ثابت ، فقد قام بعض الأباطرة مثل رومانوس الأول أو باسل الثانى بمحاولة جريئة لوقف تيار الحصول على الأراضى من صغار الملاك أو المزارعين بالالتزامات العسكرية الموروثة . وكان ذلك من ناحية وسيلة سياسية لتحديد نفوذ الطبقة الأرستقراطية ، ومن الأخرى لضمان الاحتياطى من الجنود الوطنيين . ولما كان باسل الثانى يدرك تماما مدى الخطورة السياسية التى تشكلها هذه العائلات الكبيرة ، فقد حمل « الأقوياء » مسئولية دفع الضرائب عن « الفقراء » (٢٢) .

---

(٢٢) لم يكن باسل الثانى هو أول الأباطرة البيزنطيين الذين أقدموا على مثل هذا الاجراء ، فقد طبقه الامبراطور ثقفور الأول فى بواكير القرن

بينما نجد نفرا آخر من الأباطرة يقف موقفا متساهلا أزاء هؤلاء « الأقوياء » ،  
 أما لدوافع سياسية معينة ، أو لضعف سلطانهم • ولعل أوضح الامثلة  
 على ذلك أن نقفور الثانى نفسه جاء من إحدى هذه العائلات الارستقراطية ،  
 وتراخى فى تطبيق قوانين الملكية التى شرعت لمصلحة صغار الملاك •  
 ولما كان قائدا عسكريا من الطراز الاول ، فقد أصبح شديد الحساسية  
 للاحتياجات العسكرية ، ومن ثم يتطلع للأقدام على أى شىء من شأنه حماية  
 الجندى - الفلاح • وقد وضع بعض القواعد الخاصة تتعلق بالاقطاعات  
 العسكرية لجنود الجبهة الارمينية الذين سمح لهم باسترداد أراضيهم من  
 « الأقوياء » أو الاديرة ، حتى وان كان قد مضى على ذلك قرابة الثلاثين  
 عاما • كما أن نقفور تصدى بعنف لاقامة مؤسسات ديرانية جديدة ، بنفس  
 القدر الذى حدد به امتلاك الاديرة للأراضى الزراعية ، بعد أن أدت فلاحتها  
 على نحو سيء الى الاضرار بخزانة الدولة •

ولاشك أنه بالقضاء على الهرطقة عرفت الكنيسة طريقها الى الازدهار •  
 ورغم أن الاستخدام الأرثوذكسى للايقونات لم يمح تلك الظلال المختلفة  
 لذلك المعتقد بين رجال الكنيسة • الا ان الاتجاهين الكنسيين الرئيسيين فى  
 هذه الفترة تبديا فى النمو المطرد للسلطة الكنسية فى الداخل والخارج ،  
 خاصة فيما يتعلق بالسلطة الامبراطورية والكنائس الصقلبية التى انشئت  
 مؤخرا ، والتوتر الحادث فى علاقاتها مع روما • وهذه النقطة الأخيرة  
 ترتبط بصفة خاصة باثنين من أشهر أساقفة القسطنطينية ، فوطيوس  
 Photius فى القرن التاسع وميخائيل كريلولاريوس Michael Cerularius

---

التاسع ، حيث حمل الأثرياء مسئولية الاتفاق على اعداد وتجهيز الجنود  
 فى مناطقهم ، فلما كان عهد باسل الثانى واشتدت الحاجة الى الأموال  
 للاتفاق على الحرب البلغارية الطويلة (١٠٠١ - ١٠١٨) ، أصدر فى عام  
 ١٠٠٢ قراره باحياء هذا الالتزام ثانية • وقد عرف هذا الاجراء باسم  
 « الضمان المتبادل » allelengyon ولو كان قد قدر لهذا الاجراء أن يظل  
 فترة طويلة من الزمن ، لادى الى تحطيم قوة كبار ملاك الاراضى من  
 الكنسيين والعلمانيين على السواء • ولكنه مالبث أن ألغى على يد رومانوس  
 الثالث (١٠٢٨ - ١٠٣٤) كوسيلة يسترضى بها كبار الاكليروسين والنبل •  
 أنظر 9 - 348 Vasiliev, op. cit., I, pp. المترجم •



فى القرن الحادى عشر . ولقد أصبح فى مقدور الكنيسة ، بل استطاعت فعلا أن تتحدى الامبراطور ، على الرغم من قوة مركزه . فقد كان على يوحنا تزيمسكس أن يعطى وعدا بإلغاء القوانين التى أصدرها سلفه والمتعلقة بتحديد الملكية الكنيسة ، وأن يتخلى عن فكرة الزواج المقترح من الملكة الأم ثيوفانو ، ذات السمعة القبيحة ، قبل أن يحصل على موافقة أسقف العاصمة لاتمام مراسم تنويجه . كما أن تغير الفن الامبراطورى فى ناحية التصوير خلال هذه الفترة يدل أيضا على مدى ازدياد نفوذ الكنيسة ، هذا بالإضافة الى أن الأعمال التشريعية والقوانين تعكس نوعية العلاقة المتشابكة والمتداخلة بين الدولة والكنيسة ، حتى أننا نجد يوحنا تزيمسكس يقول : « لايسعنى الا أن أعترف أن فى العالم قوتين . . الكنيسة والامبراطورية . عهد البارى الى الأولى بهدى الأرواح ، وخص الثانية بالسيادة على الأبدان . وإذا ما تركتا كلتاهما دون معاناة ، فلسوف يهنا العالم بالرخاء » .

وإذا أنست من نفسها قوة وشعرت بالامان ، تورطت القسطنطينية فى نزاع مع روما كنسيا ودنيويا . وكانت الخلافات العقيدية بينهما حول اضافة الغرب كلمة ، « والابن » (٢٤) filioque الى مرسوم الايمان . وكذا اختلاف النظم والتقاليد الكنسية قد زاد سعيها بذلك الجدل الذى دار حول الاعتراف برسامة فوطيوس أسقفا سنة ٨٥٨ (٢٥) . ومع أن فوطيوس

---

(٢٤ ، ٢٥) فى عهد الامبراطور ميخائيل الثالث ، أضر إباطرة الاسرة العمورية ، كان اجناتىوس Ignatius أسقفا لكرسى القسطنطينية ، ولم يكن على قدر من الثقافة الانسانية الكلاسيكية او المعرفة اللاهوتية . فى نفس الوقت الذى كان هناك شخص آخر يدعى فوطيوس ، الأستاذ بجامعة القسطنطينية ، يعتبر أعظم رجالات عصره علما ومعرفه ، جعل من بيته ناديا أدبيا وعلميا ، وقد دون خلاصة ما كان يقرأه فى النادى من المؤلفات ، فترك بذلك مؤلفه الذى عرف بـ « المكتبة » Bibliotheca . وبفعل التيارات السياسية المتصارعة داخل القصر الامبراطورى بين ميخائيل الثالث وأمه ثيودورا وخاله القيصر بارداس ، عزل اجناتىوس وخلفه فوطيوس ، وانقسمت العاصمة الى معسكرين ودعا الامبراطور لعقد مجمع كنسى لفض النزاع ، ووجهت الدعوة الى بابا روما نيقولا الاول ، الذى انتهز الفرصة للتدخل فى شئون كنيسة القسطنطينية عن طريق مندوبيه اللذين بعث بهما

قد مات على وفاق مع روما (٢٦) ، إلا أن نقاط الخلاف القائمة بينهما ، وتلك الذكريات الاليمة التي ما تزال تنبعث من فقدان البابوية لبعض الأقاليم الخاضعة لسيادتها سنة ٧٢٢ ، ظلت كامنة سرعان ما تطفو على السطح عند أول بادرة تسوقها الاقدار . ورغم السمعة السيئة التي لصقت بأسقف القرن الحادى عشر ، الفطريس ميخائيل كريلولاريوس ، إلا أن الانشقاق الأعظم بين الكنيستين لا يعود فى الحقيقة إلى عام ١٠٥٤ عندما أمسك الكاردينال همبرت Humbert المذوب البابوى المتعجرف ، بقرار اللغنة وألقى به إلى الأرض فى كنيسة أيا صوفيا ، وراح ينفض عن قدميه ما غبرهما

لحضور المجمع . لكن فوطيوس والامبراطور ، بل واجناتىوس نفسه الذى يناصره البابا ، رفضوا جميعا ادعاءات البابا بالسيادة العالمية على الكنائس . وقد عقد نيقولا مجمعا لعن فيه فوطيوس وطالب بإعادة اجناتىوس . وزاد النار ضراما بحلول بوريس Boris الملك البلغارى إلى المسيحية آنذاك ، وتنافس الكنيستين المرير لبسط نفوذهما على رعية المسيح الجديدة . وكانت الخلافات العقيدية ، كما كانت دائما ، حجر الزاوية فى العداء بين روما والقسطنطينية وتباعدهما من بعضهما . ذلك أن مجمع نيقية سنة ٣٢٥ لم يرد فيه أى تفسير للروح القدس أو إشارة سوى القول « نؤمن بالروح القدس » فلما ذاعت أراء ماكيدونيوس فى القرن الرابع عن القول بخلق الروح القدس ، دعا الامبراطور ثيودوسيوس الأول إلى عقد مجمع فى القسطنطينية ، هو المجمع المسكونى الثانى سنة ٢٨١ ، نوقشت فيه هذه المسألة وأصدر المؤتمر قرارهم بالإيمان « بالروح القدس المنبثق عن الآب » . وقد أضافت الكنيسة الغربية كلمة « والابن » على مرسوم الايمان : أى أن الروح القدس منبثق عن الآب والابن ، وظل هذا الجدل مثارا للنزاع بين كنيستى روما والقسطنطينية إلى أن وقع الانشقاق الأعظم بينهما سنة ١٠٥٤ أنظر . الدكتور أسحق عبيد : روما وبيزنطة من قطيعة فوشيو ، حتى الغزو اللاتينى لمدينة قسطنطين سنة ١٢٠٤ س ١ - ١٩ .

Barry, The Papal Monarchy, From st. Gregory to Boniface

VIII, pp. 124 - 129.

W. Ullmann, A short history of the Papacy in the Mid.

Ages, pp. 105 - 110.

والدكتور أسد رستم ، الروم ، الجزء الأول . ص ٢٤٩ .

و ٧ - 296, 290, I, pp. cit., Vasiliev, op. المترجم .

(٢٦) قارن ذلك بما يذكره الدكتور أسحق عبيد فى كتابه روما

وبيزنطة ، ص ١٧ - ١٩ المترجم .

من تراب وهويهم بالخروج . على أنه يمكن اعتبار سنة ١٠٥٤ بداية الانشقاق « الرسمي » بين الكنيستين ، حيث أبطلت القسطنطينية الصلاة من أجل البابا في قداساتها ، وهو ما يمثل المظهر العلني للانشقاق . ولاشك أنه كان من السهل - حسبما رأى الكسيوس الأول Alexius I عام ١٠٨٩ - تدارك كل هذه الأمور . غير أن الأحداث التي جاء بها القرن الثاني عشر ، وتمثلت في مقدم الصليبيين الغربيين ، وبلوغها قمة المأساة في الغزو اللاتيني للقسطنطينية وأقاليم بيزنطية أخرى ، جعلت من المستحيل وصل ما انقطع .

أما ازدهار التعليم والفن خلال هذه الحقبة من الزمان (٨٤٢ - ١٠٢٥) فإنه يجلب عن الوصف ، يطالعنا في بدايتها الأديب فوطيوس بناديه الذي كان يضم الصفوة من الأدباء واللغويين الذين شكلوا في نفس الوقت بواكير البعثات التبشيرية إلى العناصر الصقلية . وتكشف المخطوطات التي ماتزال باقية عن مدى الافادة ، أو محاكاة النصوص الكلاسيكية والمتأخرة ، على حين توضح المخطوطات المصورة ، ومنها المزامير الموجودة في باريس ، أو تقويم Menologion باسل الثاني ، الأرضية الواسعة لهذا النسق بما فيه من فن رمزي وواقعي أيضا متأثر بالحقبة اليونانية - الرومانية المتأخرة - ووراء كل ذلك كان يبدو الجهد الامبراطوري المستمر والاهتمام المتزايد . فقد عمل القيصر بارداس Bardas على تدبير الاعتمادات المالية اللازمة من أجل الجامعة في قصر ماجنورا Magnaura Palace وكان ليو السادس لاهوتيا وشاعرا ، بينما بسط قسطنطين السابع يد العون للمدرسة الزاهرة في تدوين التاريخ ، ووضع بنفسه مؤلفا عن حياة جده باسل . كما أن العرف الدبلوماسي والامبراطوري قد تم تدوينه ، كي تفيد منه الاجيال التالية ، في كتب قيمة عن الادارة والراسم الامبراطورية . ومع أن باسل الثاني كان يتصف بحساسية معينة تجاه ملاحقة المجتمع المثقف ، إلا أنه من غير المحتمل أن يكون ذلك قد ترك بصماته على الآداب والتعليم . ولكن الذي لا شك فيه أن العلماء والانسانيين قد عادوا سيرتهم الأولى بعد فترة ليست ببعيدة عقب وفاة باسل الثاني عام ١٠٢٥ .

# الفصل الثالث

## تغييرات جوهرية

١٠٢٥ - ١٢٠٤

١ - مفترق الطرق في القرن الحادى عشر .

٢ - احياء الامبراطورية زمن آل كومنين .

( ا ) الكسيوس كومنتوس

(١٠٨١ - ١١١٨)

( ب ) يوحنا الثانى كومنتوس

(١١١٨ - ١١٤٣)

ومانويل الاول كومنتوس

(١١٤٣ - ١١٨٠)

٣ - الانحلال الاول .

( م ١١ - العالم البيزنطى )





## الفصل الثالث

### تغييرات جوهرية

١٠٢٥ - ١٢٠٤

#### ١ - مفترق الطرق في القرن الحادى عشر :

استطاعت الامبراطورية ان تحتفظ بقوتها وصلابتها منذ حركة الافاقه الناجحة التى حدثت فى القرن السابع ، واذا كانت قد فقدت بعضا من ارض فى ايطاليا ، فانها تمكنت من تعويض ذلك بالنجاح الذى حققته فى البلقان ثم الجبهة الشرقية بصفة خاصة . غير انها ابان القرن الحادى عشر كان عليها ان تواجه عدوا جديدا يتمثل فى الاتراك السلاجقة - الذين انطلقوا داخل اسيا الصغرى - فى الوقت الذى اخذت فيه الشعوب الصقلبية فى منطقة البلقان تزداد عنفا وضراوة وتتعالى عندها النزعة الاستقلالية ، والنورمان فى جنوب ايطاليا يقومون بحملات معادية ضد الامبراطورية ، بينما تتصاعد فى الغرب الحماسة الصليبية الهوجاء ضد الملاحدة (١) . وازاء كل هذه الاحداث عجزت بيزنطة عن حماية حدودها . وكان عام ١٢٠٤ ارهاصا بسنة ١٤٥٣ .

فى عيد الميلاد لعام ١٠٢٥ ودع باسل سفاح البلغار دنياه . ساعتها بدا لأعين البيزنطيين جليسا ان الامبراطورية مقدمة على تغييرات بعيدة المدى . وقد ترك لنا ميخائيل بسللوس (٢) Michael Psellus ، الذى يعد

---

(١) راجع حاشية ١٦ ص ١٤٧ . المترجم .

(٢) أدت الحروب التى خاضتها الامبراطورية فى القرن العاشر وأوئل الحادى عشر ضد المسلمين والبلغار وغيرهم ، الى أن يتجه الاهتمام كله الى النواحي العسكرية والدبلوماسية ، وأن يتوازى النشاط العلمى والثقافى . غير أن مجموعة من المفكرين دأبت على الاهتمام بهذه الناحية ، الى أن كان عهد قسطنطين التاسع الذى أصغى باهتمام لنصائح هؤلاء القوم ، فاعيد تنظيم جامعة القسطنطينية ، وأسند الاشراف على الدراسات

واحدًا من أشهر كتاب العصور الوسطى ، تاريخًا لمعاصريه في القرن الحادي عشر ، ذكر فيه المصاعب والاختباء بل وحتى الحماقات الامبراطورية ، دون أن يومية الى أن مستقبل بيزنطة ينبىء بالانحلال السياسى والضياع ، على عكس بعض كتاب القرن الرابع عشر عندما كانوا يدركون أن الغم والغناء نهايتهم المحتومة . وربما كان مواطنو القسطنطينية سنة ١٢٠٥ يعلمون تمامًا أن مكانة الامبراطورية لم تعد في سميتها المرموق ؛ فالظروف الداخلية والاحداث الخارجية كانت تعمل بعناد لازاحة الامبراطورية عما تحقق من ازدهار في القرن العاشر ، وللحقيقة فان بذور المشاكل التي كان على الامبراطورية أن تعانيها الآن ، كانت قد غرست بالفعل وبدأت تزهر في القرن العاشر ، واتضح ذلك جليا في الصراع العنيف الذي خاضته الحكومة المركزية ضد ملاك الاراضى الاقوياء .

وكانت السمة المميزة للحكام البيزنطيين في الفترة ما بين عامى ١٠٢٥ - ١٠٨١ عندما اعتلى الكسيوس كومنينوس Alexius Comnenus

---

الفلسفيه الى قسطنطين بسللوس ، الذى عرف باسمه الرهبانى ميخائيل بسللوس . ولد حوالى سنة ١١٠٨ وعنيت والدته بتربيته على يد معلم خاص ، فأصبح من أعظم رجال عصره فكريا وثقافة أخبرنا أنه قرأ لهوميروس وهزيود وهيرودوت وثوكيديدس ، وديموستينيز وبلوتارخ وفلاسفة الرواقية وأرسطو وجريجورى النازيانرى ، وقبل هؤلاء جميعا محبوبه أفلاطون . كان شديد الاعتزاز بنفسه ، فقد كتب يقول أن قسطنطين التاسع كان شديد الإعجاب بفصاحته ، بينما كان ميخائيل السادس يصغى اليه كمن يتذوق العسل ينساب من بين شفتيه ، على حين كان قسطنطين العاشر يملا قلبه بكلماته وكأنه يرتشف ماء الحياة . أما يودوكيا فقد اعتبرته الها ! وكان لابد إذن أن يكون قريبا جدا الى البلاط وأن يصل الى أعلى المناصب . غير أنه فقد أصدقاءه جميعا في أخريات حياته ليموت وحيدا سنة ١٠٧٨ . ومن بين أعماله العديدة نجد « الزمنة » Chronographia التى تعد في نظر المؤرخين من أحسن المصادر المعاصرة عن الفترة الممتدة من موت يوحنا تزيمسكس حتى سنة ١٠٧٧ أى الى عهد ميخائيل السابع (١٠٧١ - ١٠٧٨) . انظر Psellus, Chronographia ، وقد ترجمت الى الانجليزية على يد E.R.B. Sewter تحت عنوان Fourteen Byzantine Rulers وانظر للمترجم : ميخائيل بسللوس من خلال كتابه : التاريخ الزمنى . مجلة كلية الآداب جامعة صنعاء - العدد الثانى ١٩٧٩ .

العرش ، هي أنهم افتقدوا القدرة والكفاية التي تمتع بها إباطرة البيت الهرقلي أو الاسرة الايزورية أو بعض المقدونيين مثل باسل الاول وسميه الثاني . ولعل هذه الناحية تتضح فيما اكتسبته العائلة المقدونية من ولاء شعبي ، مد في عمرها من سنة ١٠٢٥ حتى عام ١٠٨١ ، متمثلا في قسطنطين الثامن Constantine VIII العجوز المتصابي الذي لا يقدر المسئولية ، وابنتيه المسنتين زوى Zoe العابثة المتلافة ، وثيودورا الراهبة التي اخرجت من الدير كرها لتشارك اختها العرش لمضايقة الاخيرة . ولم يظهر آنسذ قائد عسكري أو سياسي يمتلك القدرة أو يسعده قدره بفرض سيادته على الدولة كإمبراطورا شريك ، أو يتولى المسئولية كاملة . حقيقة كان ميخائيل الرابع Michael IV الزوج الثاني لزوى ، جنديا شجاعا عنيدا ، ولكنه كان يعاني من الصرع . أما جورج مانياكس George Maniaces الذي كان يشبه الى حد كبير قسطنطين التاسع Constantine IX زوج زوى الثالث المغلوب على أمره ، فقد لقي مصرعه وهو في طريقه الى العاصمة . حتى اذا جاء اسحق كومنتوس Isaac Comnenus الذي اظهر نوعا من الكفاية التي اتصف بها بعض افراد أسرته فيما بعد ، اتبع سياسة معادية في البداية تجاه البطريرك ميخائيل كريولاريوس ، ثم ثنى ذلك باكتساب عداء الجموع والأرستقراطية في القسطنطينية ، لينتهي الأمر باعتزاله الحكم . وعلى هذا النحو زالت تلك القبضة القوية التي تمثلت في حكم باسل الثاني الأوتوقراطي ، وازداد نفوذ النبالة يوما بعد آخر . وشهدت الفترة من عام ١٠٢٥ حتى ١٠٨١ صراعا فيما بينهم وانفسهم حتى تتحقق السيادة لأقدرهم ، : العائلات والموظفون الذين تركزوا في العاصمة على الرغم مما يمتلكونه من اراض وامتيازات في مختلف انحاء الامبراطورية ، أو الأسر ذات الصبغة العسكرية بقلاعها وضياعها الغنية في الولايات وادراكها الواعي لاحتياجات الدفاع عن الامبراطورية . على أنه مما يستحق الذكر ان اعيان اسيا الصغرى والقوة المخيفة التي كان يسكلها أتباعهم ، تعرضوا جميعا للمقاب الصارم بل والضياع على يد باسل الثاني ، وتمت مصادرة اراضيهم ، وعهد بادارة الأمور هناك لفترة طويلة خلال ذلك العهد الى عدد من الوزراء أو الحكام ، كانوا يتصفون غالبا بقله الحيلة أو سوء الحظ . وقد ضمن ميخائيل بسللوس « مزمنته » Chronographia وصفا رائعا لقصة



الانتصار التي تحققت للمدنيين على خصومهم أصحاب العقول العسكرية ، حيث كان بسللوس يعمل وزيرا ومستشارا لأباطرة عصره ، وساهم بنصيب في صنع تاريخ زمانه ، وفي بعض الأحيان وصف هذا النزاع بأنه صراع بين الأرستقراطية « المدنية والعسكرية » ، ومن بين هؤلاء « العسكريين » جاء اسحق الأول كومنتوس ورومانوس الرابع ديوجينيس Romanus IV Diogenes اللذان بذلا جهدهما في سبيل تدعيم وسائل الدفاع عن الامبراطورية .

وكان لنظام الحكم عند من يسمون بالأرستقراطية « المدنية » بعض الملامح المميزة ، فلم يبد باسل الثاني أى امتعاض كى يظهر نفسه فى صورة ودودة ، وان كان قد تظاهر بازديراء التعليم (مع انه كان يطالع أى شىء يسترعى انتباهه مثل الخطط العسكرية) (٣) ، وكنوع من رد الفعل لخشونة باسل الثانى وفضاظته ، كانت هناك بعض ثمرات يانعات لأنشطة عقلية وثقافية بفضل الرعاية الكاملة التى أولاها اياها المقدونيون الاواخر وخلفاؤهم ، وكان البلاط يمثل مركز هذه الحركة الفكرية ، وعهد بإدارة أمور الدولة الى رجال على قدر كبير من الفكر من بينهم بسللوس العالم الانسانى ، ويوحنا اكسيفيلينوس (٤) John Xiphilinus . ولهذا لم يكن غريبا أنذاك أن يرصد قدر كبير من الأموال العامة لاعادة تنظيم جامعة القسطنطينية تحت سيادة الدولة ، وقد بات واضحا أنه لا يوجد هناك

(٣) أنظر Michael Psellus, Chronographia, trans. E.R.A. Sewter, pp. 24 ff. (ch. 30, 33, 36).

(٤) كان أحد ثلاثة من أخلص أصدقاء ميخائيل بسللوس . وبينما عهد الى الأخير بالاشراف على الدراسات الفلسفية بجامعة القسطنطينية بعد اعادة تنظيمها زمن قسطنطين التاسع ، تولى يوحنا اكسيفيلينوس الاشراف على الدراسات القانونية بها وذلك فى عام ١٠٤٥ . ثم أصبح أسقفا للقسطنطينية فيما بعد (١٠٦٣ - ١٠٧٥) وقد تم ذلك على غير رغبة منه ، حيث كان يفضل البقاء فى سلك الرهبنة التى كانت تستحوذ على فكره ، على العكس من صديقه بسللوس .

أنظر Psellus, Chronographia, VI, 192, VII 26

وراجع مقدمة الترجمة الانجليزية لمؤنة بسللوس ص ١٣ وحاشية رقم ١ ص ٢٥٤ وايضا حاشية ص ٢٤٣ . انظر ايضا Baynes & Moss, Byzantium, p. 217 المترجم .

من بين المعلمين والدارسين ، والعلمانيين ورجال الاكليروس ، والكتاب والفنانين من يحاول الاسفاف او الدونية ، بل على العكس كان كلهم يسعى للنهوض والرقى ، وانطبع ذلك فيما خلفوه من مذكرات وتواريخ ، من تفاسير لاهوتية ومناقشات جدلية ، من تراويل قداسية وموسيقى ، من كنائس وفسيفساء ، من صناعات عاجية ومنسوجات رائعة .

والى جانب هذا كله اخذت الكنيسة هي الاخرى تستحدث الخطى نحو القوة ، وساعد على ازدياد سلطان كنيسة القسطنطينية ، ان نفوذ الكنائس الاخرى المنافسة لها في الشرق . انطاكية والاسكندرية وبيت المقدس . قد راح يضمحل ؛ فقد فرضت سلطتها على جزء حيوى من عالم الصقالبة ، الذين كان تناولهم للعمودية المسيحية من يد المبشرين البيزنطيين يعنى خضوعهم للسيادة الكنسية لبطريك القسطنطينية . وتفجرت الخلافات البعيدة ، وان لم تكن بالضرورة جوهرية ، بين كنيسة روما والقسطنطينية ، والمتمثلة في التقاليد والطقوس الكنسية والمبادئ اللاهوتية ، لتخدم مطامح بطريك متعجرف ازداد ثقة بنفسه الى حد الغرور ، وعلى نفس القدر من الفطرسية كان الكاردينال همبرت المندوب البابوى الذى جاء الى القسطنطينية ، لبحث مع اسقفها هذه المسائل الكنسية المعلقة ، ومن ثم كان لابد ان يتفجر الصراع بينهما في نفس اللحظة التى كانت الاوضاع تحتم فيها ان تنتهج كل من روما والامبراطورية البيزنطية سياسة مشتركة حتى يمكن التصدى للزحف النورمانى السائر قدما في جنوب ايطاليا . ومرة اخرى احست بيزنطة بالحاجة الى امبراطور قوى ، فقد عجز قسطنطين التاسع عن كبح جماح اسقفه المتهور ، بينما القى المبعوثون الرومان قرار الحرم الكنسى في ايا صوفيا . ولكن ايا من الطرفين لم يفلن انذاك الى خطورة الموقف . حقيقة قد لا يكون هذا الصراع الذى حدث في سنة ١٠٥٤ بالضرورة نهائيا ، وربما كان ممكنا ان يندمل فيما بعد لو ان عداء النورمان والبنادقة وطموحهم كان اقل مما بدا عليه .

وقد ازداد وضوحا نمو سلطان الكنيسة البيزنطية بتلك المحاولة التى اقدم عليها ميخائيل كرىولاريوس لاختضاع الدولة للكنيسة على عكس ما جرت به السياسة الامبراطورية في الشرق الرومانى ، ذلك ان الاسقف

لم يقنع بتأكيد استقلاله عن روما ، وأعلن صراحة أن المسائل الروحية تفوق في أهميتها الأمور الزمنية ، وأن تلك المسائل من اختصاص السلطات الكنسية وحدها ، وهكذا قوض الأسقف تلك المكانة التقليدية للامبراطور باعتباره راعي الكنيسة وحاميها . بل أن كريولاريوس خطا خطوة واسعة عندما راح يهدد بعزل الامبراطور ، الذي كان عندئذ اسحق كومنينوس ويبدو أن هذا « العواء » لم يكن أجوفاً تماماً ، إذ مالِث اسحق أن اعتزل الحكم بعد ذلك بقليل ، وأن كان كريولاريوس نفسه قد فارق الحياة في نفس الوقت . غير أن ازدياد السلطة الكنسية لم يكن في حد ذاته شيئاً جديداً ، فقد تمثلت من قبل على عهد الامبراطور ليو السادس فيما يتعلق بمشاكل زواجه ، وزمن يوحنا تزيمنسكس بخصوص وعوده التي قطعها على نفسه للبطريرك قبل تتويجه (٥) . ولكن هذه السلطة أضحت شيئاً يلفت النظر في القرن الحادى عشر بسبب تلك العدوانية المفرطة التي اتصف بها ميخائيل كريولاريوس ، والتي لم يكن من السهل كبحها الا على يد امبراطور مقتدر .

اتضح ضعف السلطة المركزية خلال الفترة الممتدة من ١٠٢٥ حتى ١٠٨١ في عدد من النواحي الأخرى ، وزاد من هذا الضعف حقيقة ، أبان الجزء الأكبر من هذه السنوات ، ليس فقط ما اعتور البصيرة الامبراطورية ، بل أيضاً تلك السياسة المترددة التي اتبعها من بيدهم مقاليد الأمور في القسطنطينية . لقد عرف باسل الثانى جيداً بسياسته الاقتصادية الصارمة وخشونة طباعه ، يظهر رسمياً فقط في رداء أرجوانى « ويد مرصعة بالجواهر كنوع من التمييز ، وكان لديه عدد من الأروقة الحلزونية المثقنة ، حفرت تحت الأرض ليكتنز فيها تلك الثروة الطائلة التي لا يمكن جمعها في الأقبية الامبراطورية . أما اخوه قسطنطين وابنة اخيه زوى وزوجها في الأقبية الامبراطورية . أما اخوه قسطنطين وابنة اخيه زوى وزوجها قسطنطين التاسع ، فقد كانوا واثقاً على طرفى نقيض فقد انحطت سمعتهم الاقدام على إعادة بناء كنيسة سان جورج الشهيد St. George the Martyr ثم هدم ما بدىء فيه وإعادة البناء مرة ثانية على طراز بالغ الفخامة يقصر

(٥) راجع قبله ص ٥٨ . وحاشية ٤٨ من نفس الصفحة ، المترجم .



دونه التصور . « لقد كان الذهب ينساب من الخزانة العامة كجدول رقرق يتدفق من ينابيع لا ينضب لها معين » (٦) . ولقد اعترف بسللوس صراحة بأن ذلك الطيش المهلك « كان نقطة التحول في قدر الدولة » . وكان البذخ الامبراطوري وحده كافيا لايجاد المتاعب ، ولكن الامر لم يقتصر على هذا الحد ، فقد شهد الوقت ذاته ارتفاع نفقات الادارة الامبراطورية وذلك لأن الحكومة كانت تنشئ باستمرار وظائف جديدة في الادارة المدنية .

وبينما كان الاتفاق في الداخل يتزايد ، كان الدخل لأسباب متعددة يتناقض ولعل ابرز أسباب هذا النقصان ، العجز عن السيطرة على « الأقوياء » ، وهكذا فإن تلك الميول المتباينة التي كان من السهل ادراكها حتى على عهد اقوى اباطرة الاسرة المقدونية الاوائل ، قد ترك لها الآن الحبل على الغارب ، واذا كان باسل الثاني قد جعل المسئولية الجماعية في دفع الضرائب عن الجيران والفقراء أمرا ميسورا ، فإن هذه المسئولية توارت بالحجاب على عهد رومانوس الثالث الذي ربما لم يكن له من القوة ما يرغب به « الأعيان » على الاستمرار في تحملها . وعلى هذا النحو حرمت الخزانة من أحد مصادر الدخل . ومما زاد الطين بلة وادى الى نقص الإيرادات بصورة واضحة ، ذلك الاجراء الذي عهد بمقتضاه الى جماعة الملتزمين بجباية الضرائب ، وكان هذا في حد ذاته فقداناً لمهمة من المهمات التي يعد من الضروري أن تضطلع بها الحكومة المركزية ، ومن ثم فإن كلا من الولايات والدولة قد عانت من جراء ذلك : الأولى ناءت بما أثقل كواهلها ، والأخرى لم تحصل الا على النزر اليسير من تلك الضرائب الباهظة .

وكانت معاناة السلطة المركزية في القرن الحادي عشر اشد ايلاما بسبب الاعفاءات والاستثناءات التي كانت تمنح لبعض الشخصيات . وبهذه النقطة بالذات تحددت معالم الطريق نحو الصورة التي سوف تصبح عليها الدولة البيزنطية في عهدها الأخير . فقد تمتعت ضياع العلمانيين والاكليروسيين على السواء بامتيازات خاصة مثل الاعفاء من دفع ضرائب



معينة ، أو الخدمات العامة الالزامية . ويبدو أن هذه المسألة كانت شيئا عاديا . لكن الأهم من ذلك أن تمنح الأرض لشخص ما لفترة محددة ، عادة ما تكون طيلة حياته . وكان هذا الشخص صاحب الامتياز يتولى ادارة الأرض بنفسه والحصول على ريعها . وقد ظهر أول مثال لهذا النوع في منتصف القرن الحادى عشر ، حتى اذا كان العقد السابع منه وجد العديد من هذه المنح التى كانت توهب لقاء حفنة من المال . وان كان لا يوجد حتى الآن أى اشارة الى التزامات عسكرية ترتبط بهذه الهبة . وخلال العصر البيزنطى الوسيط لم نر مثل هذه الصفقات ، وان كانت قد حدثت فى فترة مبكرة وهكذا قوضت دعائم السلطة المركزية . وكانت هذه الصورة فى الحقيقة من أهم ملامح الهزال الذى اعترافا . ويجب أن لا نخلط بين هذا النوع من المنح ، وبين الهبات الديوانية وريعتها الذى يؤول الى العلمانيين ، والتى استنتها كبار ابناء الكنيسة لضمان النمو الاقتصادى للملكية الديوانية . ثم جرى استخدامها كنوع من المكافاة بواسطة السلطة الامبراطورية .

وبتوالى سنى القرن الحادى عشر ازدادت الاحتياجات النقدية ، وقد قوبل العجز المالى الواضح ، بسبب نقص ايرادات الضرائب وبذخ البلاط المتزايد والاتفاق الحكومى ، بفكرة تدل على قصر النظر تتمثل فى تخفيض قيمة العملة . واجراء على هذه المشاكلة كان من شأنه تخريب الاقتصاد البيزنطى . وكان المركز المرموق الذى بلغته القسطنطينية فى التجارة الدولية ، يعود فى الدرجة الاولى الى الثقة فى قيمة عملتها الذهبية النوميذما Nomisma أو البيزنط bezant . وكان معروفا منذ زمن بعيد أن تخفيض قيمة العملة اخذ يظهر منذ عام ١٠٧١ فصاعدا تحت دعوى الاسراع بعلاج الازمات المالية عندما فقد البيزنطيون معظم اراضى آسيا الصغرى بسبب استيلاء الاتراك السلاجقة عليها . ومع ذلك فقد أصبح واضحا الآن نتيجة لتحليل التضخم الذى وقع ، أن المسئولية الحقيقية عن هذا التخفيض الهائل للعملة البيزنطية ، ترتبط بقسطنطين التاسع (١٠٤٢ - ١٠٥٥) الذى خفض قيمة النوميذما من أربعة وعشرين كارتا Carats

الى ثمانية عشر (٧) فقط ، بل بلغت قيمتها فيما بعد ما بين أربعة عشر الى اثني عشر كارتا على عهد ميخائيل السابع (١٠٧١ - ١٠٧٨) التلميذ الغبي لبسلوس .

وقد تمكن كبار السياسيين وعلاك الاراضى من اثراء أنفسهم بطرق مختلفة ، من ذلك مثلا ان ميخائيل بسسلوس كان يمتلك هبات عديدة من الممتلكات الديرانية فى اجزاء متفرقة من الامبراطورية . وكان العجز عن توفير اية حماية امبراطورية خاصة (اكثر من الانحسار الهادىء ) باعثا على ازدياد الصعوبة فى الابقاء على صفار الملك مع الالتزامات العسكرية (او البحرية) ، وتبعاً لذلك فقد تحول الفلاح الحر الصغير والجندى - الفلاح بصورة مطردة الى مجرد مستاجر تابع فى ضيعة كبيرة . ولقد برهن التشجيع الامبراطورى الناجح لصفار الملك على أنه من أهم العوامل فى تجديد شباب الدولة منذ القرن السابع وماتلاه ، وأن فقدان هذا العنصر أو اختفائه كان له تأثيره الواضح على الناحيتين المالية والدفاعية ، كما أنه أدى الى احداث تغييرات فى التركيب الاجتماعى للامبراطورية ، وللمرة الثانية فقد أدت السياسة الحمقاء فى اخريات القرن الحادى عشر الى التعجيل بهذا التغيير فى محاولة لتدبير الاموال اللازمة على وجه السرعة ، فسمح للجنود الفلاحين بشراء الاعفاء من الخدمة العسكرية مقابل مبلغ معين من المال . ومع ذلك فان الحكومة المركزية حاولت ، الآن وفيما بعد ، ابقاء قبضتها على اولاد المستاجرين التابعين *Paroikoi* الذين كان عليهم التزامات مالية قبل الخزانة الامبراطورية ، ولذلك بذلت الحكومة جهودا كبيرة للحيلولة دون استقرارهم فى الضياع الكنسية أو العلمانية حتى لا يصبح للملاك حق ادعاء هذه الحقوق .

وخلال الجزء الاكبر من هذه السنوات الواقعة بين عامى ١٠٢٥ - ١٠٨١ تركزت محاولات العائلات الثرية والوزراء القائمين بالسلطة ، سواء كانوا من الطبقة الارستقراطية أو دونها ، فى حماية اوضاعهم الخاصة بالعمل على اضعاف خصومهم قدر الطاقة . ولامراء فى أنه داخل دولة

تقوم على الحكم الأوتوقراطي مثل الامبراطورية الرومانية الشرقية ، فان الأمور كلها تصبح بيد الامبراطور شريطة أن يكون قويا قادرا . ومن ثم فانه على عهد الامبراطوريتين زوى وثيودورا ، آخر سلالة البيت المقدوني ، وخلفائهما المباشرين ، ترك العداء القائم بين الحزب الحاكم والعائلات العسكرية بصماته واضحة على الخطوط العامة للسياسة الامبراطورية . ولعل النقاش قد دار لزمان حول اتساع حدود الامبراطورية وتحسينها ، ليس فقط على يد الحكام العسكريين قبل عام ١٠٢٥ ، بل بعد ذلك أيضا ، حتى أن قسطنطين التاسع حقق بعض النجاح ، « فقد امتدت الحدود الامبراطورية طويلا ناحية الشرق ، وضم جزء كبير من أرمينيا » (٨) . ولو وضعنا في الاعتبار وجهة نظر الأعداء الجدد القائمين على الأقل عند جبهات ثلاث ، لكان من سوء حظ هؤلاء أن الامبراطورية لم تستطيع أن تقدم على أعمال دفاعاتها العسكرية والبحرية . أو تتراخى في دبلوماسيتها . وهنا يتضح أيضا ، كما في مظاهر أخرى كثيرة ، أن القرن الحادي عشر يمثل نقطة تحول فاصلة في تاريخ الامبراطورية .

ففي الشمال كانت قبائل البشناق Patzinaks والغز Izes والكومان Cumans تنهمر على امتداد حدود الدانوب ، وأخذت قوى هؤلاء الغزاة ، التي لم تعد تجابه بلغاريا ، تتلف داخل الامبراطورية . وقد جرت محاولات لاغراء هؤلاء البدو على الاستقرار كجحافل تقيم على الحدود ، ولكنهم ظلوا بكل جوارحهم قطاع طرق يمثلون للامبراطورية خطرا محققا واستنزافا لمواردها المالية ، وحلفاء متوقعين لأي من أعداء الامبراطورية . هذا بالإضافة إلى أن العناصر الصقلية في الداخل ، كانت هي الأخرى تشكل خطرا كامنا ، فبلغاريا التي كانت قد انزلت إلى مرتبة الولاية ، أضحت متبرمة ، والامارات الصقلية الصغيرة الواقعة في الشمال الغربي والتي كانت مستقلة حقيقة ، مثل زيتا Zeta وكرواتيا Croatia كانت على استعداد لتدعيم استقلالها وإبراز كيائها عن طريق التحول إلى جانب خصوم بيزنطة . ولعله من أوضح الأمثلة على ذلك أن

---

(٨) انظر Michael Psellus, Chronographia, trans. E.R.A. Sewter, p. 190 (Ch. 189).

أمير زيتا ضرب القسطنطينية بروما في عام ١٠٧٠ عندما قبل أن يتلقى التاج من يد البابا جريجورى السابع Gregory VII . ورغم أن هؤلاء الأمراء الصغار كانوا أقل بكثير من أن يصبحوا منفصا مؤلا ، فإن الأوضاع عند الأدرياتى وما وراءه كانت تتغير بشكل أصبح من المستحيل تجنب تأثيره على بيزنطة ؛ ذلك أن ازدياد قوة المجر والبندقية كان يعنى احتمال أن تصبح كرواتيا أو زيتا أو راسكا Rasca عاملا ماعا فى دبلوماسية البحر المتوسط ، بل ربما أيضا تحديا للسيادة الامبراطورية نفسها كما فعلت صربيا Serbia فى القرن الرابع عشر .

وإذا كانت الأمور تجرى على هذا النحو فى الغرب ، فإن بيزنطة كانت قد تمكنت من تحقيق مكاسب واضحة على الجبهة الشرقية قبل عام ١٠٢٥ . وبناء على المعاهدة التى كانت قد وقعت مع باسل الثانى ، آلت الى بيزنطة البقية الباقية من أرمينيا بعد وفاة حاكمها سنة ١٠٤٣ ، وهكذا أمست الدولة الحاضرة ولاية بيزنطية . وإن لم يمض على ذلك بضع وعشرون سنة حتى كانت أرمينيا قد دخلت تحت السيادة السلجوقية ، وذلك فى عام ١٠٦٥ على يد الب أرسلان Alp Arslan . وكان هذا نذيرا بالهجمات المنظمة والغزو المرتقب لآسيا الصغرى التى كانت تعد العمود الفقرى للامبراطورية . ذلك أن الأتراك السلاجقة الذين قدموا من أواسط آسيا ، نجحوا فى السيادة على فارس وبسطوا سلطانهم العسكرى على الخلافة (٩) . وشرعوا فى مهاجمة الولايات الشرقية من الامبراطورية البيزنطية ، وحققوا تقدما كبيرا يفوق مالمقيوه جنوبا فى حربهم مع الفاطميين فى مصر . ورغم أن السلاجقة سرعان ما انقسموا على أنفسهم (١٠) ، إلا أنهم أوقعوا بالامبراطور

---

(٩ ، ١٠) السلاجقة مجموعة من القبائل التركية ، تقيم فى منطقة التركستان أو بلاد ما وراء النهر ، واشتقت اسمها من الزعيم الذى عمل على وحدتها وهو سلجوق بن دقاق وذلك فى أواخر القرن العاشر الميلادى . واعتنقوا الاسلام وتحمسوا له بشدة وخاصة مذهب أهل السنة . وقد ازدادت قوتهم فى القرن الحادى عشر وعملوا على الاستيلاء على المناطق المجاورة وبسطوا سيادتهم على خراسان ، وفى عام ١٠٢٧ أعلن قيام دولة السلاجقة وتولى طغرل مهام السلطة . وبعد مرور ثلاث سنوات فقط حصلوا من الخلافة العباسية على الاعتراف بدولتهم . وبعد أن بسطوا سيطرتهم على



البيزنطى ، الذى حاول طردهم من آسيا الصغرى ، هزيمة مروعة (فى موقعة منزكورت سنة ١٠٧١) ، وان كانوا قد أبدوا رغبتهم فى التوصل معه الى معاهدة مقبولة . وربما كان ذلك مدعاة كى تستجمع الامبراطورية قواها . ولكن الذى حدث أن أنصار أسرة دوكاس Ducas فى القسطنطينية أقدموا على عزل الوجيه الكبادوكى الامبراطور رومانوس الرابع Romanus IV منتهزين فرصة غيابه على رأس تلك الحملة . ورفعوا الى العرش بدلا منه شابا مولعا بالقراءة ، بدا واضحا أنه غير جدير بهذا المنصب هو ميخائيل السابع دوكاس Michael VII فى الوقت الذى كان فيه الاتراك قد رفضوا شروط المعاهدة المقترحة للسلام ، ولم يجسدوا امامهم أى صعوبة تعوق توغلهم داخل آسيا الصغرى .

وكان هذه الأخطار الحادثة فى الشرق لم تكن كافية ، فقد شهد نفس العام (١٠٧١) سقوط مدينة بارى Bari آخر المعاقل البيزنطية فى الغرب فى جنوبى ايطاليا فى ايدى النورمان . هنا أيضا كان يوجد عدو لا يقل خطرا عن السلاجقة ، طموح ، مخاتل ، داهية . فما أن تم للنورمان تقويض السيادة البيزنطية على اليابسة حتى انتزعوا صقلية من ايدى العرب ، ولما كانوا غير

---

ايران ، ودخل طغرل بغداد سنة ١٠٥٥ لينتهى بذلك نفوذ بنى بويه الشيعى من العاصمة السنية ، والذى استمر ما يزيد على قرن من الزمان . ومنذ هذا التاريخ أخذ السلاجقة يحكمون فى بغداد باسم الخلافة العباسية . وقد عاشت الدولة السلجوقية ازهى فترات قوتها زمن السلطان الب أرسلان وابنه ملكشاه ووزيرهما نظام الملك ، حيث امتدت حدود الدولة من خوارزم شمالا الى حدود اليمن جنوبا ، ومن حدود الصين شرقا الى سواحل البحر المتوسط غربا . حتى اذا كانت سنة ١٠٩٢ ومات ملكشاه ، وكان قد سبقه الى الموت قتيلا وزيره نظام الملك ، حتى دخلت الدولة السلجوقية فى طور من الضعف والانقسام بسبب النزاع على العرش ، وينتهى الامر بوجود سلاجقة العراق وسلاجقة سوريا وسلاجقة الجزيرة . وقد حدث هذا الانقسام فى الوقت الذى دهمت فيه الحروب الصليبية العالم الاسلامى ، مما كان له ابعد الأثر فى نجاح الحملات الصليبية فى اول الأمر . للمزيد من التفاصيل عن السلاجقة انظر : دكتور عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ، دكتور حسن محمود ، ودكتور أحمد الشريف ، العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ص ٥٤٢ - ٢٢٦ . المترجم .

قائمين بذلك الجزء الكبير الذى يشكل الأملاك البيزنطية القديمة فى إيطاليا ، فقد حولوا انظارهم الآن تجاه بلاد اليونان نفسها . ولم يكن أمام بسللوس ، حتى وسط مديحه للامبراطور الشاب ، الا ان يعترف بأن الأمور قد وصلت « الى الدرك الأسفل من الانحطاط » وان كان من الصعب ان نعزو ذلك كله الى ميخائيل ومؤدبه ، كما فعل مؤرخ بيزنطى آخر (١١) . فقد كانت جذور تلك المتاعب تكمن فى تلك السياسة العقيمة التى أديرت بها أمور الدولة فى الداخل وما صاحبها من ازدياد نفوذ الاعيان وسلطانهم ، فى نفس الوقت الذى واكب لسوء الحظ ظهور أعداء أقوياء فى الخارج ؛ الأتراك السلاجقة فى الشرق ، والنورمان فى جنوب إيطاليا .

## ٢ - إحياء الامبراطورية زمن آل كومنين :

( ١ ) الكسيوس كومنتوس ( ١٠٨١ - ١١١٨ ) :

باعتلاء الكسيوس كومنتوس Alexius Gommonus العرش فى سنة ١٠٨١ قفزت الارستقراطية العسكرية الظافرة الى المقدمة . فمن بين القادة العسكريين المبرزين كان الكسيوس أقدرهم ، ضابطا وسياسيا ودبلوماسيا ، أدت جهوده وحده ونجاحه فى إقامة أسرة على العرش الى تأخير انحلال الامبراطورية الى ما يزيد على مائة سنة آتية .

وعلى الصفحات الأخيرة لـ « مزمنة » بسللوس تبدو الصعوبات التى كانت تواجه الحكومة فى ستينيات القرن الحادى عشر وسبعينياته ، رغم انه حاول جاهدا ان يتجاوز عن سيئات أصدقائه وحماته ، أسرة دوكاس . اما المشاكل الملحة التى عنت للكسيوس فقد تضمنها ذلك التقرير الذى كتب عن عهده بيد ابنته الاميرة أنا كومنا Anna Comnena وهكذا تنعكس بكيفية تثير الدهشة سمات كل من هاتين الفترتين فى هذين العاملين المتقنين والمختلفين ؛ « المزمنة » Chronographia بأباطرتها الأحد عشر والامبراطوريتين المستنيتين بما تثيرانه من ملل وازدراء ، فى فترة لا تتجاوز ست وخمسين

١١ أنظر John Seylitzes, History (Migne, Patrologia G. vol. 122. col. 846).

Michael Psellus, Chronographia, trans. E.R.A. Sewter, p. 284 (ch. 7).

سنة فقط ، والد « ألكسياد ، Alexiad التي تحتلها شخصية رئيسية واحدة  
لـ « أبى الامبراطور ، الذي ظل يحكم بلا انقطاع طيلة سبع وثلاثين سنة  
قبل أن يتوفاه الموت عام ١١١٨ .

شغل ثلاثة من أفراد آل كومنين ، الأب والابن والحفيد ، الفترة ما بين  
عامى ١٠٨١ - ١١٨٠ ، وكانت شخصياتهم ومنجزاتهم تظهر للعيان خادعة ،  
اذ عصبوا أعين الناظرين عن تلك التغييرات الجوهرية فى العالم البيزنطى ،  
فقد ولى النظام الحكومى والدفاعى السابق ، وازداد نماء العناصر الاقطاعية  
والانفصالية ، ذلك أن الحقبة البيزنطية المتأخرة كانت تمثل عصر الارستقراطية  
العسكرية الاقطاعية ، حيث بات واضحا أن الزعامة العسكرية والسياسية  
التي تنتمى الى العائلات الثرية من كبار ملاك الاراضى ، هى وحدها القادرة  
على استخدام مثل هذه الموارد المتاحة ، وهى التى مكنت بيزنطة فى زمن معين  
من أن تحافظ الى حد ما على مكانتها فى مواجهة القوى اللاتينية والصقلبية  
المتزايدة ، والتصدى للحكام المسلمين فى الشرق الأدنى .

ولم تكن انا كومننا مبالغة عندما قالت على لسان ألكسيوس : « لقد  
وجدت الامبراطورية محاطة من كل ناحية بالبرابرة ، فى الوقت الذى نضبت  
فيه مواردها تماما . . . ولعلكم تعرفون جميعا تلك الهجمات التى يقوم  
بها الفرس (الأتراك) واغارات السكيزيين Scythians (البشناق Patzinaks ) ،  
ولا يمكن أن يكون قد غاب عن ذهنكم تلك الروماح التى شحذت ضدنا من  
لونجبارديا (١٢) Longobardia (الاقليم البيزنطى القديم فى جنوب  
ايطاليا) . ولم تكن المسألة بقاصرة على خزانة خاوية وجدها ألكسيوس ،  
أو عملة انهارت قيمتها ، أو حكومة تقوض سلطانها ، بل فوق كل هذا حلقة  
من الاعداء تحيط بالامبراطورية فى ايطاليا والبلقان وآسيا الصغرى .  
على أن الخطر المدلهم فى زمانه كان يكمن بصفة أساسية فى الغرب  
(النورمان والمدن البحرية الايطالية) ، بعد أن كان الضياح قد حل بالشرق  
فعلا عند اعتلائه العرش . فقد أصبح الجزء الأكبر من آسيا الصغرى واقعا  
الآن فى قبضة الأتراك . وكان لهذه الأحداث آثارها الخطيرة على الموارد

الاقتصادية والعسكرية والبحرية بالنسبة لبيزنطة ، ذلك أن فقدان هذه المنطقة لم يكن يعنى فحسب انحسار الحدود الشرقية ، بل مزيدا من الصعاب أمام الامبراطورية فيما يتعلق بمسألة التجنيد العسكرى . هذا العوز فى القوى البشرية ترك أيضا بصماته الواضحة على القوة البحرية البيزنطية فى وقت كانت الامبراطورية فيه لا يمكن أن تقدم على افعال أسطولها البحرى أو التجارى . هذا على حين كانت المتاعب المالية أمرا مقررًا من قبل ، ولم تكن بحاجة الى مزيد من الانهيار يأتيها عن طريق الكساد التجارى أو انخفاض الرسوم الجمركية .

انحصر اهتمام الكسيوس بادیء ذى بدء فى السياسة الخارجية خاصة الناحية الدفاعية سواء بالوسائل الدبلوماسية أو العسكرية ، ذلك انه توج فى أبريل ١٠٨١ وما لبث أن دخل فى مفاوضات مع السلاجقة فى آسيا الصغرى « الأتراك الملاحدة » (١٣) من منطقة تمركزهم الآن فى نيقية Nicaea ، وكان كل ما استطاع التوصل اليه فيما يتعلق بهذه الناحية الاعتراف بادعاءاتهم فى آسيا الصغرى على أمل أن يوقفوا زحفهم داخلها حتى يصبح مطلق اليد فى مواجهة الهجوم النورمانى . وكان النورمان بعد أن امنوا مواقعهم فى جنوب إيطاليا ، قد اتجهوا الآن تحت رعاية روبرت جويسكارد Robert Guiscard ناحية بيزنطة (١٤) ، رغبة منه فى أن يصبح امبراطورا رومانيا . « حقيقة انجبته نورماندى ، ولكنه نشأ وترعرع بيد الآثام » (١٥) ومما لاشك فيه أن البيزنطيين

(١٣) راجع حاشية ١٦ ص ١٤٧ . المترجم .

(١٤) للوقوف على أصل النورمان وهجراتهم واستقرارهم فى جنوب إيطاليا وصقلية ومشروعاتهم الواسعة للاستيلاء على الأراضى البيزنطية بما فيها القسطنطينية .

أنظر Haskins, The Normans in European history, pp. 1 - 51, 192 - 250.

وأيضا D. Douglas, William the Conqueror, pp. 15 - 30

و Thompson & Johnson, op. cit., pp. 142, 385

وأيضا Pirenne, op. cit., pp. 178 - 179. المترجم .

(١٥) Anna Comnena, op. cit., p. 26 (1 - 10).



تقبلوا بحسب ذلك الوصف الذى جرى به قلم انا كومننا عن روبرت جويسكارد ، ولم تكن تعوزهم الاسباب لذلك ، فقت هاجم جويسكارد بلاد اليونان ومقدونيا محققا بعض النجاح رغم الجهود المشتركة التى بذلها البنادقة مع الكسيوس . ولم يؤد موته المفاجيء عام ١٠٨٥ الا الى تأجيل الصدام فقط بين القسطنطينية والنورمان . وقد كشفت هذه الاحداث بجلاء عن عوامل معينة تعد على قدر كبير من الأهمية فى مستقبل العمل الدبلوماسى البيزنطى ، فالقوى الصغيرة والعديدة فى منطقة البلقان كانت على استعداد لاعطاء ولائها لمن يدفع بسخاء ، ولهذا كان لابد ان تراقب باهتمام . وأصبح من الضرورى معالجة ذلك العجز الذى يعتور البحرية البيزنطية بمساعدة القوى البحرية المجاورة مثل البندقية ، مع العلم بأن ذلك كان شيئا باهظ التكاليف . فقد كان على الكسيوس ان يمنح البنادقة امتيازات تجارية واسعة داخل الامبراطورية كلها ، الى الحد الذى اضحوا فيه أعلى كعبا من التاجر البيزنطى العادى . وكان هذا غرضا لبذور المشاكل التى اتت اكلها فيما بعد حسدا بيزنطيا لهؤلاء المتطفلين اللاتين ، فى الوقت الذى اثارت فيه حفيظة منافسى البندقية من المدن الايطالية الأخرى ودفعتهم للعمل من أجل الحصول على حقوق مماثلة لقاء ما يقدمونه من خدمات .

وبوفاة جويسكارد سنة ١٠٨٥ ، وهزيمة البشناق الساحقة فى عام ١٠٩١ ، وانقسام سلطنة السلاجقة الروم فى اسيا الصغرى عقب وفاة سليمان (١٦) ، أصبح المجال مفتوحا امام الكسيوس لينذل كل جهده لاستعادة بعض اراضى الامبراطورية . غير ان الأوضاع مالبثت ان تغيرت بشكل جذرى بالنسبة للبيزنطيين والآثار على السواء بفعل القنبلة التى فجرها الغرب ممثلة فى الحملة الصليبية الأولى .

ويكمن السبب الرئيسى لذلك العداء المتبادل بين اليونان والصليبيين

---

(١٦) هو سليمان بن قطلمش ، أول من تولى سلطنة سلاجقة الروم ، وقد توفى عام ١٠٨٦ ، وخلفه ابنه قلع أرسلان وتعرضت السلطنة آنذاك الشقاق . انظر دكتور سعيد عاشور ، الحركة الصليبية الجزء الأول .  
 س ١١٩ ، Runciman. op. cit. I, pp. 64 - 65, المترجم .

اللاتين فى تلك الهوة الواسعة التى تفصل بين أهداف كل منهم . فالحركة الصليبية فى الغرب لقيت التشجيع من جانب أعلى سلطة كنسية هناك . فقد بشر بها ودعا إليها البابا أوربان الثانى Urban II فى مجمع كليرمونت الذى عقد فى عم ١٠٩٥ ، ورغم أن الأراضى المقدسة قد ظلت لقرون طويلة فى أيدي الكافرين (١٧) ، إلا أن حركة الحج المسيحي سارت قدما وإطرادا إلى الأراضى المقدسة . والآن اتجهت الحماسة الدينية المضطربة فى العالم اللاتينى لطرد المسلمين من هذه المناطق ، بالإضافة إلى سحر اكتساب أراض جديدة ، واعتبارها منفذا للمشروعات البحرية والاستعمارية . وكان من الطبيعى أن تتوق البابوية فى ثوبها الأصلاحى إلى تحرير بيت المقدس ، ولكنه ليس ببعيد أيضا أن يكون عقلها قد احتوى فكرة مد نفوذها الكنسى إلى الشرق حتى يلتئم ذلك الصدع الرسمى بين كنيسى روما والقسطنطينية .

وكان الكيسوس نفسا يرغب فى القضاء على هذا الشقاق ، وقد أبدى في إحدى رسائله إلى أوربان الثانى دهشته فى إسقاط اسم البابا من الصلوات والقداسات ، وأعلن أنه ما من شك فى أن المياه يجب أن تعود إلى مجاريها . ومع ذلك فإنه كان يأبى تماما التسليم بامتداد السلطان البابوى إلى أقاليم تابعة أصلا لاسقفيات أخرى . يضاف إلى هذا أنه قد أظهر من حين لآخر رغبته الأكيدة فى الحصول على جماعات من المرتزقة أو قوات احتياطية من الغرب ، لا لى تذهب مباشرة إلى بيت المقدس ، فقد كانت لديه احتياجات أكثر إلحاحا تتعلق بالامبراطورية نفسها أولا . وكانت التقاليد الامبراطورية والاحتياجات الملحة تجعل من الاستحيل على امبراطور بيزنطى أن يدرك مغزى حملة صليبية فى الشعور الغربى ، ذلك أن الشرق الرومانى كان يختلف عن الغرب على الأقل فى ناحيتين أساسيتين : فالحرب مع الكافرين (١٨) كانت قد أصبحت بالنسبة لبيزنطة ، ولزمن بعيد ، ضرورة يومية تدور رحاها بصفة أساسية نتيجة اعتبارات تتصل بالسياسة الامبراطورية . ولذا فإن الزحف مباشرة إلى بيت المقدس كان يعد ضربا من

(١٧) انظر حاشية ١٦ ص ١٤٧ . المترجم .

(١٨ ، ١٩) انظر حاشية ١٦ ص ١٤٧ المترجم

العبث ، اذا ما كان يعنى ترك مؤخرة الجيش فى آسيا الصغرى دون حماية كافية . وكان من الضرورى ، اذا رثى ذلك ، التوصل الى اتفاق مع المسلمين اذا مادت الاحداث فى مناطق اخرى الى مثله ، كاشتغال الثورة فى البلقان ، او قيام النورمان بهجوم غادر ، وفوق هذا وذاك فان الظروف الجغرافية والتقاليد كانت تؤكد بجلاء ان الحرب مع الملاحدة (١٩) فى آسيا الصغرى وسوريا وفلسطين انما تقع فى المقام الأول على كاهل الامبراطورية الرومانية الشرقية ، وليست مسئولية العالم المسيحى بعامه .

من اجل هذا لم يكن غريبا ان تنشأ الصعاب ، غير انه نتيجة للسياسة الحكيمة والدبلوماسية التى اتبعها الكسيوس ، أمكن عبور الصليبيين الى آسيا الصغرى مع تجنب الصدام بين الطرفين . ولا شك ان عبور هذه الجماعات ، سواء كانوا من الحجاج غير المسلحين (وهم غالبا من الرعاة) او القوات الاقطاعية ، كان يتطلب توفير السفن والغذاء والادلاء والحراس ، ممالقى بدوره تبعات جسيمة على الأقاليم والموارد البيزنطية . ولما كان الكسيوس يرتاب فى نيات الزعماء اللاتين فقد حاول توضيح موقفه وتأمين مركزه بان ينتزع منهم يمينا بانهم سوف يعيدون للامبراطورية الرومانية كل المدن والقرى والقلاع التى يستولون عليها والتى كانت قبلا تحت السيادة الامبراطورية (٢٠) ، ولعبت الاقدار بالاتفاق مع الادلاء البيزنطيين دورا كبيرا فى عبور القوات الصليبية آسيا الصغرى والتوغل فى شمال سوريا ، حتى اذا نجح الصليبيون فى احتلال انطاكية عام ١٠٩٨ كان ذلك نقطة تمثل مفترق الطرق وتميط اللثام عن الاهداف والسياسات العدائية ، فقد كانت انطاكية قبل ذلك بقليل تحت السيادة البيزنطية (٢١) ، ومن ثم توقع الكسيوس ان يعيدها الصليبيون اليه ، ولكن شيئا من هذا لم يحدث ، اذ أصبحت فى حوزة بوهمند Bohemund ابن عدوه اللدود روبرت جويسكارد ، والذي اقام لنفسه امارة انطاكية . وقد اعقب ذلك مزيد من النجاح للقوات

Annā Comnena, op. cit., p. 261 (X, 9).

(٢٠) انظر

(٢١) كانت انطاكية قد خضعت للدولة البيزنطية ابان التوسع الذى شهده القرن العاشر واولى الحادى عشر زمن الاسرة المقدونية . وقد استمرت تحت ايديها حتى استردها السلاجقة ثانية عام ١٠٨٥ . المترجم .

الصليبية حيث تمكنت من تأسيس إمارة الرها Edessa ومملكة بيت المقدس وأخيرا إمارة طرابلس (٢٢) .

كان بوهمند في نظر القسطنطينية وغد هذه الناحية ، فقد كان من غير المؤكد منذ اللحظة الأولى لظهوره على مسرح التاريخ فيها ، أنه يحمل في نفسه أية « آمانيات طيبة للامبراطورية الرومانية » ، وبصفات جمعت بين الأقدام في تردد والخبث والحق ، راح بوهمند يتنازع مع جيرانه الصليبيين والأتراك والبيزنطيين على قدر سواء . ولما اضطر للعودة إلى الغرب من أجل الحصول على المدد ، لعب دورا كبيرا في نشر تلك القصة التي تشيع أن البيزنطيين قد غدروا بالصليبيين ، بل أنه اقترح على البابا غزو القسطنطينية نفسها . ومن ثم فلا ريب أن تأكدت الشكوك البيزنطية . وقد هاجم بوهمند بلاد اليونان سنة ١١٠٧ ولكنه هزم وازداد مركز بيزنطة هناك رسوخا ، وتمكن الكسيوس من تحقيق التوازن في البلقان ، ذلك أنه باعترافه بأهمية الدور السياسي الذي تقوم به هنغاريا في البلقان وبحر أدريا ، مهد السبيل لزواج ابنه ووريثه يوحنا من أميرة هنغارية . وهكذا أصبح الآن قادرا على اعداد حملة ضد السلاجقة في آسيا الصغرى .

ولم تكن الوسائل التي تلجأ إليها الكسيوس قاصرة على السياسة والدبلوماسية في علاقاته الخارجية ، رغم أنه عمد إلى إثارة بعض القوى ضد بعضها الآخر ، ولكن فطنته ودهاءه استخدما بصورة عملية لاعادة الرخاء في الداخل . وقد تركت أنا كومننا على منححات مؤلفها صورة للامبراطور تفيض بالود والالفة ، ربعة مكتمل البنيان ، كث اللحية ، فصيحاً

---

(٢٢) للمزيد من التفاصيل عن الحملة الصليبية الأولى ومدى نجاحها في بلاد الشام والعلاقة بين زعمائها والامبراطورية البيزنطية ، أنظر أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، لمؤلف مجهول ، وقد نقله إلى العربية الدكتور حسن حبشي ، وراجع للدكتور حبشي أيضا : الحرب الصليبية الأولى . القاهرة ١٩٥٨ ، دكتور جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى . القاهرة ١٩٦٧ ، الدكتور منعيد عاشور : الحركة الصليبية الجزء الأول : القاهرة ١٩٦٢ ، أرست باكر : الحروب الصليبية ، ترجمة الدكتور السيد الباز العريني . ص ٢١ - ٤٥ .  
وأيضا Runciman, op. cit. I, pp. 121 - 326 المترجم .



رغم لثغة لسانه في حرف الرأى ولعثة خفيفة ، اداريا حازما . يدين لوالدته انا دالاسنا Anna Dalassena بالكثير ، سواء في ارتقائه العرش او فيما بعد ، فقد كانت امرأة مهيبة تقدم بها السن ، ذات شخصية طاغية ، اعادت القانون والنظام الى البلاط ، فقد وضعت جدولا صارما للمواعيد يتضمن الصلوات والتسابيح ، ووقتا محددا لتناول الافطار ، وتخدم عند الباحثين عن اللذة مجرد « النظرة الاولى » . وقد تلاشت تدريجيا الصورة التي رسمتها لها انا كومننا على عكس ما جرت به الشائعات فجأة في وقت لاحق حول وقوعها تحت تأثير راهب هرطوق ينحدر من اصل روماني ، يعبد الشيطان ويتوجه في صلواته الى كلب اسود صغير . وكان من الطبيعي ان لا يضخم ذلك في الـ « الكسياد » ، حيث كان لابد من ابراز ارثوذكسية البيت الامبراطوري . لقد كان الكسيوس على علم تام بكل واجبات منصبه الامبراطوري بما في ذلك الحفاظ على الايمان الحق .

وفي سبيل مواجهة الاحتياجات المالية الملحة ، اقدم الكسيوس على رهن « بعض الاملاك الكنسية التي لم تكن تؤدي غرضا معيناً ، بل جرت عليها يد الجذب والاممال ، وكان طبيعيا ان يؤدي هذا الى توتر العلاقة بينه وبين الكنيسة حتى عدل عن ذلك . وقد لجأ اكثر من مرة الى تسليم املاك الكنيسة الى العلمانيين للقيام بامرهم (وقد عرف هذا بـ « هبة » Charisticium ) ، ويمكن القول بوجه عام ان الكسيوس لم يخرج عن الاجراءات التقليدية ، وانه - شأن سلفه الأشهر قسطنطين العظيم - كان يتوق الى اجتثاث الهرطقة وارساء وحدة العقيدة في الدولة . ولقد ادار بنفسه من وراء ستار ، دفة الجدل مع زعماء البوجوميلية الثنويين (٢٢) ، خلال المجمع الذي عقد لمناقشة تلك الآراء ، وان لم تكلل جهوده بالنجاح الكامل . الا انه كان اسعد حظا مع بعض الغاوين مثل يوحنا الايطالي John Italus الذي كان تلميذا متحمسا لافلاطون وارسطو وقد جرى به لمناقشة الراى حول خلطه بين الفلسفة الوثنية والعقيدة المسيحية ، على غرار ما كان يفعل بعض معاصريه في الغرب .

هكذا كانت تجرى أنشطة الكسيوس في الداخل . ولم تكن حياته قاصرة على الحرب والدبلوماسية ، وتجلت فطنته في سياسته الداخلية التي تركزت بصفة أساسية في مشاكل المال والدفاع . وقد استخلصت سياسته عظمتها بمهارة فائقة من خلال ذلك الشعب المنكود ، سواء تم ذلك عن طريق الضرائب الباهظة أو الخدمات الإلزامية . ولم يعد الجندي الفلاح الصغير يمثل عماد الجيش ، فقد أصبح المرتزقة الأجانب أو حتى الأهالي ، لزمن طويل ، يعملون في الخدمة العسكرية ويكونون عنصرا متزايدا أهميته . واستخدم كذلك نظام « الميرة » Pronoia وهو عبارة عن ضيعة تمنح لقاء الخدمة العسكرية أو البحرية . وهذا النظام الذي كان قد جرى العمل به منذ منتصف القرن الحادي عشر ، لم يكن يتضمن آنذاك هذه الالتزامات التي يبدو أنها ظهرت لأول مرة في عهد الكسيوس ، ربما « قبل عام ١١١٩ » . هذا الشخص الموهب يشار إليه غالبا بـ « الجندي » ، stratotes وكان يجهز ويعد بصيحة فرقته العسكرية ، وقد جاء أصلا من توليفة اجتماعية تختلف عن الطبقة الأساسية التي ينتمي إليها الجنود المرابطون الفلاحون ، وهو يتسلم دخل الضيعة بما فيه الضرائب والالتزامات الخاصة بمستأجره . وفي الحقيقة فقد أدى هذا الإجراء المالي إلى إيجاد نوع من أهم أنواع الهبة اثارة . كانت تقدم في هذه الفترة للشخص مدى الحياة دون أن تخضع للتنازل أو الهبة .

على هذا النحو فضل الكسيوس أن يقيم بصورة محكمة تلك العناصر الاجتماعية التي حاول أباطرة بيزنطة في الحقبة الوسيطة اخماد جذوتها ، ولعل أبرز ما تنسم به سياسته في الداخل والخارج ، انتصار الأرستقراطية العسكرية ، وفيها تكمن قوتها وضعفها ، لقد كان الاقطاع البيزنطي نتاجا طبيعيا للتطور الداخلي ، ولم يكن واردا أو مقتبسا من الغرب ، ومن المحتمل أن تكون العناصر الصليبية قد تركت بصماتها عليه ، ذلك أن إقامة عدد من الامارات اللاتينية في فلسطين وسوريا ، وتدفق الفرنجة عبر الامبراطورية البيزنطية خلال القرن الثاني عشر ، يرتبط بجعل الاقطاع الغربي مالوفا لدى البيزنطيين . لقد التقى العالمان وكان لابد أن يأخذ كل منهما عن الآخر . فيمين الولاء الذي انتزعه الكسيوس من الزعماء الصليبيين في القسطنطينية

يشبه بكيفية مستهجنة ذلك الذى كان يربط بين السيد والفصل (٢٤) ، على الرغم من انه لا يتضمن بطبيعة الحال تلك التعهدات التى كان يحتويها عقد الاقطاع الغربى . لقد ارتضى الكسيوس وانتقى احسن الأساليب فى الادارة

(٢٤) تعود جذور الولاء الشخصى فى العلاقة التى تربط بين السيد الاقطاعى والفصل الى اواخر العصر الرومانى وبدايات المجتمع الجرمانى ، ذلك ان النظام الرومانى القديم الخاص بالحماية Patrocinium حيث يحيط احد الأثرياء صاحب النفوذ نفسه بمجموعة من الأتباع Clientes يعتبر نفسه حاميا لها Patronus وتطلب هى عونه وتأيبده دافعا لأخطار متوقعة فى الداخل او الخارج ، كان هذا النظام سائدا بصفة خاصة فى فترة الفوضى التى تعرضت لها الامبراطورية فى عصرها الأخير . كما ان زعيم القبائل الكلتية من غالة كان يسيطر على مجموعة كبيرة من الأتباع يعيشون تحت رعايته وطوع امره ، كما ان كلمة فصل Vassus (Vassal) من المحتمل انها تعود فى اصلها الى جذور كلتية . وكان يطلق على ذلك النظام الذى وجد عند الجرمان ويختص بالولاء بين المحاربين « الحامية » او « الأتباع » Comitatus ومن اهم سماته التى ظهرت بوضوح فى العلاقة الاقطاعية بين السيد والفصل اليمين الرسمى بالولاء الشخصى لزعيم الجماعة المحاربة . وكانت العلاقة التى تربط بين السيد والفصل فى النظام الاقطاعى الغربى فى العصور الوسطى ، فى جوهرها ذات صفة تعاقدية وان لم يكن ذلك بصورة مدونة فعلا ، ذلك ان السيد كان يتوقع من فصله ان يؤدي له خدمات بعينها وان يدفع له ضرائب معينة ، وهكذا الفصل كان يرى ان على السيد تجاهه نوعا من الواجبات عليه ان يؤديها ، من بينها ان يوفر القوة العسكرية الكافية للدفاع عن اقطاعه وقلعته . للمزيد من التفاصيل عن النظام الاقطاعى فى الغرب فى العصور الوسطى .

F. Ganchof, Feudalism, 1976

أنظر

G. A. Hodgett, A Social and Economic history of Medieval Europe, pp. 24-35.

و

H. Pirenne, Economic and Social history of Medieval Europe, pp. 58-66.

وانظر ايضا

Thompson & Johnson op. cit. pp. 290-351

وكذلك

P. Vinogradoff, Stephenson, op. cit. pp. 199-241

و

Feudalism, (C.M.H. vol. III, pp. 458-484) وله ايضا بالاشتراك مع

الأستاذ كوبلاند : الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ترجمة دكتور

محمد مصطفى زيادة . القاهرة ١٩٥٨ . وللاستاذ كوبلاند كذلك : القنية

والاقطاعية ( فى تاريخ العالم الذى اشرف على نشره السيرجون ا .

هامرتن . المجلد الخامس . ص ٢ - ٢٢ ، ودكتور اسحق عبيد : الفرسان

والاقنان فى مجتمع الاقطاع . بيروت ١٩٧٥ . المترجم .



الامبراطورية والسياسة الخارجية ، بحيث لم يترك لولده يوحنا وحفيده مانويل حرية الاختيار ، بل كان عليهما أن يسلكا نفس السبل التي وضعها مؤسس الأسرة .

( ب ) يوحنا الثاني كومنينوس ( ١١١٨ - ١١٤٣ ) :

ومانويل الأول كومنينوس ( ١١٤٣ - ١١٨٠ ) .

في عام ١١١٨ مات الكسيوس كومنينوس ، كما عاش ، محاطا بنسوة ذات شخصيات طاغية ، ولكنه كان حتى اللحظة الأخيرة وهو على فراش الموت يحتفظ برجاحة عقله ، فرفض الاعتراف بادعاء ابنته اناكومنا باحققتها في وراثة العرش وباعتلاء أخيها ومنافسها يوحنا ، الذي كان لديها مقيتا ، عرش الامبراطورية ، تولت الى الظل موهبتها التاريخية ، ومن ثم فليس هناك تاريخ يجعل من يوحنا الثاني الشخصية الرئيسية على صفحاته . لقد كان حاكما يبعث على التقدير ، تنطوى نفسه على اخلاق هي النبالة في حياته الخاصة وبلاطه ، في حديثه واصفائه ، في سلوكه وخلالله . وكان اعتداله كما كانت مبادئة ، واضحا بينا ( بما يذكرنا بصفات جدته انا دالاسنا ) . وعلى نفس القدر كان يتمتع بالحذر والمثابرة مما جعله قادرا على اتباع سياسة ابيه الكسيوس . لقد كانت الواقعية جوهر سياسته .

انقضى القرن الثاني عشر تقريبا بين عهدي يوحنا وابنه مانويل ، وشهدت بدايته قيام اسرة كبيرة على العرش تمثل الارستقراطية العسكرية لكبار ملاك الاراضي ، كما شهدت نهايته الانهيار السريع للأسرة ذاتها ، والذي يمكن اعتباره الانحلال الاول للامبراطورية البيزنطية ، وكانت مقاومة اللاتين في سبيل الابقاء على موطىء القدم الذي انتزعوه بصعوبة في سوريا وفلسطين ، وابعاد دائرة القوق الاسلامية التي تطبق على اماراتهم الصغيرة المتباعدة ، تسير جنبا الى جانب نضال بيزنطة من اجل الحفاظ على مركزها في عالم البحر المتوسط .

وكان الخط الواضح الذي جرت عليه سياسة يوحنا الثاني ، ومانويل الاول ، الادراك التام ان المطامح البعيدة لحكام صقلية النورمان ، الذين كانت سياستهم تستهدف غزو القسطنطينية ، اصبحت يضطلع بها الآن الملك



الألماني برباروسا Barbarossa ، الذي قوى قبضته عن طريق زواج ابنه هنري السادس Henry VI من قنسطانسا Constance وريثة عرش المملكة الصقلية (٢٥) . ولعل الخلاف في سياسة يوحنا ومانويل حول الاهتمام بالشرق ، يعود الى اختلاف شخصية كل منهما عن الآخر ، والظروف التي كانت تحيط بكليهما ، فقد أبدى مانويل اهتماما أكثر من يوحنا بالغرب خاصة إيطاليا ، ولكن هذا لا يمكن أن يخفى الحقيقة الواضحة من أنهما واجها نفس العدو وأنهما استطاعا (رغم الكارثة العسكرية التي حدثت سنة ١١٧٦) (٢٦) تحقيق انتصار كبير في الشرق .

تركزت مشكله يوحنا مع النورمان الى حد ما في انطاكية الصليبية التي أسسها بوهمند ومازالت تحكم بواسطة أسرة هوتفيل Hauteville ولكنه في الوقت نفسه كان عليه أن لا يغمض عينيه عما يجري في صقلية ، وأن يرقب بحذر كامل تحركات القوى الأخرى في الغرب والبلقان وهنغاريا . ومن أجل حماية نفسه في البلقان أوقع بالبشناق هزيمة قاسية عام ١١٢٢ كانت القاضية ، وأجبرت صربيا Serbia على الاعتراف بسيادته ، وأقيمت علاقات محدودة ، أن لم تكن مزعزعة مع المجر ، وكانت الزوجة الأولى ليوحنا هنغارية ، وما أن توج روجر الثاني Roger II ملكا في بالرمو Palermo في سنة ١١٣٠ وأصبحت قوة النورمان في جنوب إيطاليا لا يمكن تجاهلها . كان هذا في حد ذاته تحذيرا للملوك الألمان والأباطرة البيزنطيين على السواء ، جعلهم يقتربون من بعضهم لمواجهة ذلك العدو المشترك ، وتمثل هذا في نوع من التفاهم الذي بقي الى السنوات الأولى من عهد مانويل ، ولقد راح يوحنا يدنو أيضا من البابوية ، وأشار في أكثر رسائله جدلا والتي يعوزها الوضوح ، الى السيفين ، والتي لا بد أنها تعني أن للبابا السيادة الروحية ، بينما يختص الامبراطور الروماني (أعني البيزنطي) بالسيادة الزمنية .

لم يكن وضع الصليبيين اللاتين في الشرق مأمونا ، حتى دون أن ندخل في الاعتبار رغبة امبراطور بيزنطي قوى في اتمام ادعاءاته بالسيادة ،

(٢٥) انظر بعده .

(٢٦) انظر بعده .

بينما تبنت الممالك المسيحية الأرمينية في إقليم طورس بصفة عامة اتجاه العداوة الحذرة . في الوقت الذي حاولت فيه الإمارات الصليبية أن توجد فيما بينهما توازنا كان ييسدو عسيرا ، وذلك بالحفاظ على مواقع أقدامهم وتوسيع دائرتها ، خاصة وأن الخلافات كانت قائمة بين الأمراء المسلمين ، على حين بدت القسطنطينية منهمكة في ميدان آخر . ومع ذلك فإنه بمقدم الثلاثينيات أخذت الأخطار تلقى ظلالها ، فظهرت مشاكل الوراثة في كل من اورشليم وانطاكية ، حيث توفي حاكماهما سنة ١١٣١ دون أن يعقبا وريثا ذكرا ، وفي الشمال كانت قوة زنكي أتابك الموصل تزداد باستمرار ، وفوق هذا وذاك أقدم يوحنا كومنينوس على استخدام الوسائل العسكرية والدبلوماسية للحصول على نتائج طيبة ليس فقط بين جيرانه في الشمال والغرب ، بل في آسيا الصغرى مع إمارة الدانشمنديين Danichmends (الذين كانوا يمثلون في هذه الفترة عدوه التركي الرئيسي أكثر من سلاجقة قونية Iconium) ، كما أنه قام بهجوم ناجح على مملكة أرمينيا الصغرى في كيليكيا Cilicia .

وفي أغسطس ١١٣٧ أتى الإمبراطور البيزنطي أنطاكية ، وأكد بنجاح حقوقه في السيادة على حاكمها الفرنجي زوج الأميرة النورمانية وريثة أنطاكية . وكان من الأهمية بمكان فيما يتصل بذلك الصدع الهائل الحادث في القضية المسيحية أن يوحنا لم يستطع أن يحرز أي تقدم عملي تجاه الملحد (٢٧) في شمال سوريا ، ويعود ذلك في الدرجة الأولى إلى الافتقار إلى المساعدة اللاتينية . وفي سنة ١١٤٤ ، وهي السنة التي أعقبت موته المفاجيء نتيجة جرح أصابه أثناء رحلة صيد ، تمكن زنكي المسلم من الاستيلاء على الرها ، مما كان دافعا لقيام الحملة الصليبية الثانية الفاشلة عام ١١٤٧ (٢٨) .

(٢٧) انظر حاشية ١٦ ص ١٤٧ المترجم .

(٢٨) قوبلت أنباء سقوط الرها في أيدي المسلمين بردود فعل عنيفة

في الأوساط الأوروبية ، فقد عهد البابا إلى القديس برنارد St. Bernard بالدعوة لحملة صليبية جديدة . وقد كتب برنارد يقول أنه نتيجة لاستجابة المسيحيين في الغرب لدعوته ، انفرت المدن والقرى من ساكنيها ، حتى أن

وسط هذه الأحداث انتقل التساج البيزنطى الى مانويل الابن الرابع ليوحنا وشان بطل الملحمة البيزنطية ديجنيس اكريتاس Digenis Akritas سيد البر الذى يعود فى أصله الى شعبيين ، كان مانويل كومنينوس ينتمى لعالمين . وليس من حق الخيال أن يسبح متصورا فارقا كبيرا او تناقضا مع اباطرة الأسر السالفة مثل جوستيان أو قسطنطين السابع بورفيريوجنتيوس، فقد كان مانويل حاكما بارعا ، جنديا ودبلوماسيا ورجل دولة ، اقتنع بصلاحية ذلك التقليد البيزنطى الممتد عبر هذه القرون الطويلة عن السيادة العالمية وأصله العرف الامبراطورى . بيدى حماسا غير محدود للرهبانية (فى مكانها الصحيح) واهتماما بالغا بالجدال اللاهوتى . وقد كانت أمه هغارية ، وأزواجه من الغرب ، أولاهن برقا Bertha من سولزباخ

ملكين من أشهر ملوك أوروبا آنذاك ، أمكن استمالتهما لحمل الصليب هما لويس السابع Louis VII ملك فرنسا وكونراد الثالث Conrad III ملك ألمانيا . وفى ربيع ١١٤٧ قاد الملكان قواتهما عبر الطريق البرى القديم الذى سلكه الصليبيون فى اتجاه الدانوب الى القسطنطينية . وسار الجيش الألمانى قدما حتى يتجنب الاتصال بالجيش الفرنسى ، ولم يترك قرية أو مدينة مر بها الا أتى عليها تخريبا وتدميرا ، حتى أن جيش الفرنسيين الذى سلك نفس الطريق من بعد ، كان يعانى المجاعة لانقار هذه المناطق على أيدي الجيش الألمانى الذى تركها قاعا صفصفا . وكان الامبراطور البيزنطى قد أخذ حذره فأمر بأعداد التحصينات اللازمة للتصدى لهذا الخطر ، خاصة وأن لويس السابع ملك فرنسا كان على صلة وثيقة بأشهر أعداء بيزنطة روجر الثانى ، الذى قام أثناء سير هذه الحملة بحصار الجزر البيزنطية فى البحر الأدرياتي وغزا بلاد اليونان وخرب طيبة وكورنثة واثينا ، وعلى أية حال فقد وصل الملكان بلاد الشام عام ١١٤٨ ، حيث استقبلهم الأمراء الصليبيون بفتور واضح . وكل ما استطاعت أن تفعله الحملة أنها ألقت حصارها على مدينة دمشق دون أن تنجح فى اقتحام المدينة . وقد كتب كونراد الثالث يصف الهجوم على المدينة بما يدل على مدى التخاذل والتفرق والخيانة بين الأمراء الصليبيين وأنفسهم . وقد حاول الصليبيون نفس المحاولة مع عسقلان ، غير أنهم لو يكونوا أسعد حظا منهم عند أسوار دمشق ومكذا حققت حملة الصليبية الثانية فشلا ذريعا .

Runciman, op. cit. II, pp. 247-278

أنظر

والدكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، الجزء الثانى ص ٦٢١ -

٦٢٧ ، أرنست باركر : الحروب الصليبية . ص ٩٠ - ٩٦ . المترجم .



Sulzbach أخت زوجة كونراد Conrad املك الألماني ، ثم ماري Mary فاتنة انطاكية ، وقد شجعت التجارة ، وحسن الادارة والظروف السياسية على تدفق عدد كبير من الغربيين على حوص البحر المتوسط الشرقي ، وعلى الامبراطورية البيزنطية نفسها . بل ان الكثيرين منهم قد آثروا الاستقرار هناك ، وعلى الرغم من أن مانويل كان على معرفة تامة بقدر الامبراطورية البيزنطية الا انه كان يحمل في نفسه هوى معيناً تجاه اللاتين وعاداتهم ، وغالباً ما كان يرى وهو يمارس حياة عادية بعيدة عن الاشكال الرسمية في قصر بلا خرنى(٢٩) Blachernae في القسطنطينية ، بل لقد شارك بنفسه في المبارزة ، وخطا خطوات واسعة في سبيل توطيد صداقته بالغربيين ، ولعل أوضح الأمثلة على ذلك علاقته مع بلدوين الثالث Baldwin III ملك بيت المقدس وكونراد الثالث ملك المانيا . وكان يبعث البهجة في نفوس أصدقائه برقى سلوكه وحسن ضيافته (والتي أخذت شكلاً عملياً ، حيث كان على قدر كبير من المعرفة الطبية ، فراح يرعى كونراد الثالث عندما نزل به المرض سنة ١١٤٧) وهكذا فقد كان عهده في بعض جوانبه يبشر بالعالم الايجي للعصور الوسطى المتأخرة .

ومع هذا فان مانويل كان في تحيزه الى جانب اللاتين يبغي اتقاء خطر أعدائه من ناحية الغرب ، خاصة وأن مشاكله كانت في جوهرها هي التي واجهت من قبل أباه وجده . ولقد أورد المؤرخ نيقيتاس الخونياتي(٣٠)

---

(٢٩) أحد القصور الامبراطورية الشهيرة ، اقيم على أحد تلال القسطنطينية الذي تشغله ضاحية تحمل نفس الاسم وتقع على القرن الذهبي ، والى جوار القصر توجد كنيسة العذراء ، وهذه المنطقة يقوم فيها الآن حي « الباب المائل » (Egtrkapou , Eyri kapu) .

أنظر Millingen, Constantinople, pp. 28, 53 المترجم .

(٣٠) هو نيقيتاس اكوميناتوس Nicetas Acominatus ، اشتهر باسم نيقيتاس الخونياتي نسبة الى مدينة خوناي Chonae في فريجيا بآسيا الصغرى ، ويحتل مكانة مرموقة من المؤرخين في القرن الثاني عشر وبداية الثالث عشر . ولد حوالي منتصف القرن الثاني عشر وارتحل الى القسطنطينية حيث تلقى تعليمه تحت رعاية اخيه الأكبر ميخائيل . وبينما سلك الأخير درب الدراسات اللاهوتية والمناصب الكنسية حتى أصبح رئيساً



Nicetas Choniates فى كتابه السابع الكثير حول هذا الموضوع بالذات وحول كياسة مانويل السياسية . ولابد أن العجب كان سيأخذ بفكره لو أنه قرأ حكم بعض الدارسين المحدثين القائل بأنه « إذا كان هناك أحد يمكن أن يلقى على اكتافه تبعات كارثة سنة ١٢٠٤ فهو مانويل كومنينوس » ، لقد أوضح نيقتاس أن مانويل كان ينظر بعين الاعتبار الى القوة الهائلة للدول اللاتينية ، شأن المزارع الفطن الذى يحاول أن يقتلع الأشواك وهى بعد صغيرة ، وأبان أن الامبراطور كان يخشى أن تجد الامبراطورية نفسها وقد أصبحت بغير حليف فى مواجهة ذلك الائتلاف الغربى القسى ، ولو قدر لسفينة الدولة أن تفقد ربانها ، أعنى مانويل ، لابتلعها اليم . هذا الحديث الذى جرى به قلم نيقتاس خونيايس كتب بعد النازلة التى حلت بالامبراطورية عام ١٢٠٤ . وكان نيقتاس يعلم جيدا ما الذى يحدث عنه .

على أننا نجد فى سياسة مانويل الكثير من الأمور التقليدية ، ومع ذلك فقد كانت لها بعض الملامح غير العادية التى أثارت كوامن الطموح الجامع غير الواعى وخاصة فيما يتعلق بمشروعاته الايطالية ، ولكن يبدو أن الظروف التى أحاطت به لم تترك له مجالا للاختيار بل أملت عليه مظهر واضح فى سياسته تجاه الغرب ، فقد كان من الأمور الجوهرية أن يحقق مانويل نوعا من التعايش السلمى *Modus Vivendi* مع القوى الغربية .

لأساقفة أثينا ، اختار نيقتاس ميدان الدراسات الانسانية ، وحقق فى ذلك نجاحا كبيرا واكتسب تقدير واحترام أسرة أنجيلوس ، بحيث أصبح مقربا من البلاط ووصل الى أعلى المناصب . ولما سقطت القسطنطينية فى أيدي الصليبيين سنة ١٢٠٤ خرج منها كارها حيث وجد مأواه عند أباطرة نيقية ، وقد رد عليه الامبراطور ثيودور لاسكاريس مكانته واحترامه ، وعاش مكرما حتى مات فى نيقية سنة ١٢١٠ . ومن أشهر الأعمال التى خلفها لنا *Historia* فى عشرين كتابا تتناول الفترة الممتدة من اعتلاء يوحنا كومنينوس العرش وحتى الأيام الأولى للامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية (١١١٨ - ١٢٠٦) . ويعتبر « تاريخ » نيقتاس عملا فريدا لايدانيه آخر فى المعلومات التى يقدمها من عهدى مانويل ، وأندرونيكوس ، وأسرة أنجيلوس ، والحملة الصليبية الرابعة ، والاستيلاء على القسطنطينية .

Vasiliev, op. cit. II, pp. 492-495

Baynes & Moss, op. cit. pp. 237. 265-266

وأيضا Runciman, op. cit. pp 13. 122-123 المترجم .

بدا مانويل سياسته بتدعيم التحالف الذى كان قائما بين ابيه والمانيا ، وان كانت عدواتهما المشتركة لملك النورمان لم تترجم الى واقع عملى فى الغرب نتيجة للحملة الصليبية الثانية التى دعا اليها فى اكتوبر برنارد Bernard قديس كليرفو Clairvux بسبب تحطيم امارة الرها الصغيرة ، وقد حمل كونراد الثالث • الحليف الالماني لمانويل ، الصليب وشاركه فى ذلك الملك الفرنسى لويس السابع الذى كان صديقا لروجر Roger ملك النورمان فى صقلية ، وقد كان معروفا ان هذين الملكين يشغلان نفسيهما بالانتاش حول الرغبة فى الاستيلاء على القسطنطينية كنوع من فتح الشهية لوجبتهم الدسمة التى سوف يلتهمون فيها الشرق • غير ان الحملة الصليبية الثانية لقيت الفشل الذريع ، نتيجة الخلاف المستمر بين قائديها من ناحية ، ومن الاخرى انها وجهت كل قواها ضد دمشق ، التى عادة ما كانت تربطها علاقة المودة مع الصليبيين ، بدلا من الاتجاه ضد حلب فى الشمال حيث يكمن التهديد الحقيقى ممثلا فى نور الدين احدى ابناء زنكى • والذى ما ان وافى عام ١١٥٤ حتى استولى على دمشق ، وسرعان ما ترددت اصدااء اجراس الفناء للمالك الصليبية ، عندما نجح قائدها شيركوه وصلاح الدين فى السيادة على مصر ذات الموقع الاستراتيجى الممتاز (٣١) • ولن تلبث

---

(٣١) كان ملوك بيت المقدس يدركون ان توحيد مصر والشام تحت قيادة اسلامية واحدة سوف يضع الصليبيين فى موقف حرج • ولهذا قام بلدوين الثالث بالاستيلاء على عسقلان سنة ١١٥٢ للوقوف فى وجه نور الدين محمود اذا فكر فى الزحف على مصر • بل ان فكرة الاستيلاء على مصر من جانب الصليبيين كانت واردة فى حساباتهم منذ قيام مملكة بيت المقدس الصليبية • وقد عجلت الاحداث فى مصر بوقوع الاصطراع بين نور الدين والصليبيين من اجل الفوز بها ، حيث كنت الخلافة الفاطمية قد غلت ايديها بفعل وزرائها • وقد شهد عهد العاضد الفاطمى آخر الخلفاء المرحلة الاخيرة ايضا من التنافس القائم فى الداخل وصولا الى كرسى الوزارة بين شاور وضرغام • فلما نجح الاخير فى خلع منافسه ، استنجد شاور بنور الدين محمود ، الذى اسرع بارسال قواته وعلى راسها اسد الدين شيركوه وابن اخيه صلاح الدين ، وتمكنت الحملة من القضاء على ضرغام • الذى كان بدوره قد بعث يستنجد بملك بيت المقدس عمورى Amalaric • غير ان شاور لم يف بعهوده لنور الدين ؛ ورأسل عمورى الذى جاء به يشبه الى

حلقة الحصار الاسلامى أن تطبق على الصليبيين عندما يتمكن صلاح الدين من توحيد الامارات الاسلامية .

وفى الوقت الذى كانت تجرى فيه أحداث الحملة الصليبية الثانية هذه ، كان الامبراطور البيزنطى يحاول جاهدا أن يبقى ولو على الأقل على اتصال بالأحداث التى تدور فى الشرق ، ولكن نشاط النورمان العدائى كان يسبب له أرقا دائما ، فقد هاجم روجر الثانى بلاد اليونان ، وجرت محاولة اثارة المتاعب والاضطرابات فى المجر وصربيا . ورغم هذه الحملة الصليبية الثانية ، فقد حافظ مانويل على أواصر الصداقة مع كونراد الثالث ، بل تمكن أيضا بمساعدة البنادقة من استعادة كورفو Corfu من النورمان . وتصور مانويل بوضوح مدى فعالية السياسة الامبراطورية فى استرداد

---

مصر . عام ١١٦٤ وحاصر قوات شيركوه فى بلبس ، ثم تم الاتفاق بينهما على أن يرحلا معا عن مصر . وقد أدرك الجانبان أهمية مصر ومن ثم فإن نور الدين لم يلبث أن بعث قائده من جديد سنة ١١٦٦ ، فلحق به عمورى بناء على استصراخ شاور ، وقد توغل الفريقان جنوبا حتى قرية « البابين » قرب المنيا ، حيث دارت معركة هزم فيها الصليبيون وارتدوا الى القاهرة ، بينما زحف أسد الدين شيركوه الى الاسكندرية ، وعلى الفور جمع عمورى قواه وفرض الحصار على المدينة ، وتم الاتفاق للمرة الثانية على جلاء الجيشين عن مصر ، وان كان عمورى قد حصل على بعض الامتيازات هذه المرة . وقد اتفق عمورى مع الامبراطور البيزنطى على ارسال حملة مشتركة للاستيلاء على مصر . ولكنه قاد جيشه فجأة دون انتظار لوصول القوات البيزنطية ، واتجه الى مصر ، وأحدث مذبحة مروعة فى بلبس ، ولم يجد شاور وسيلة لوقف هذا الزحف الا بإشعال النيران فى القسطنطينية ، وقد ظلت النار تأكلها طيلة أربعة وخمسين يوما ، وكتب العاضد بنفسه الى نور الدين يستصرخه ، وعلى هذا النحو قدمت القوات النورية للمرة الثالثة بقيادة شيركوه وصلاح الدين ، وتم لها الانفراد بالسيطرة على مصر وقتل شاور وتولى شيركوه الوزارة . انظر : ابن شداد : النوارى السلطانية والمحاسن اليوسفية ، ص ٣٦ - ٤٠ ، الدكتور نظير سعداوى : التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبي ، ص ٧ - ١٥ ، الدكتور عبد المنعم ماجد : الناصر صلاح الدين الأيوبي . ص ٩١ - ٦١ ، الدكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، الجزء الثانى . ص ٦٧٩ - ٧٩١ .

Runciman, op. cit. II, pp. 362 - 400 المترجم .



إيطالية أو جزء منها - مدومدى السياسات الغربية التى تحول دون ذلك • وقد  
 جاسفى التقرير البيزنطى عن المعاهدة التى وقعت مع كونراد فى سالونيك  
 Thessalonica - سنة ١١٤٨ أن الامبراطور ذكره (كونراد) بتلك المسائل  
 التى تعهد انفا بتنفيذها ، يعنى أنه سوف يسترد إيطاليا كبائنة للامبراطورة  
 ايرين (٤٢) Irene التى باعتبارها تمت اليه بصلة النسب ، قد خطبها الى  
 الامبراطور ، غير أن هذه الفقرة من التقرير لم ترد فى المصادر الغربية ،  
 وتدور أهميتها أساسا حول ماثعنيه كلمة « إيطاليا » • هل تعنى جنوب  
 إيطاليا فحسب أم إيطاليا كلها •

وفى عام ١١٥٢ مات كونراد ، ولم يكن خليفته فردريك الأول Frederick I  
 يرغب فى الاتفاق مع الامبراطور البيزنطى ، حيث كانت لديه فكرة السيطرة  
 بنفسه على إيطاليا ، بما فيها المملكة الصقلية فى الجنوب ، وقد وعد البابا  
 يوجينوس الثالث Eugenius III بأنه لن يتخلى عن « أية منطقة » على هذا  
 الساحل لملك اليونان • ومن ثم فإن مانويل مالبت أن شن هجومه فى إيطاليا  
 بمساعدة الثائرين النورمان عقب وفاة روجر الثانى مباشرة سنة ١١٥٤ •  
 وقد وجد مانويل نفسه محاطا بالخصوم من كل جانب حيث وقفت ألمانيا  
 منه موقفا عدائيا ، وتزايدت الشكوك ، وقام وليم الأول ملك النورمان بهجوم  
 مضاد ، ولم يكن الامبراطور يقاير على تدعيم مكاسبه فى ابوليا بالعون  
 العسكرى أو البحرى ، وأمسيت نفوذه ودبلوماسيته عاجزة عن تحقيق أى  
 شئ • غير أنه فى سنة ١١٥٨ وقعت الامبراطورية البيزنطية هدنة مدتها  
 ثلاثين سنة مع الملك النورمانى • ولا شك أن مانويل قد أدرك الآن عدوه  
 الحقيقى ، فخلال سننى حكمه الأخيرة كان فردريك برياروسا Frederick  
 Barbarossa يمثل خصمه العنيد •

فشل مانويل فى سياسته الإيطالية ، واثارت هذه السياسة موجات  
 كثيرة من السخط والاعتراض ، كما أن موارده المالية لم تكن لتسمح بأى

---

(٢٢) وهى برتا من سولزياخ ، سميت بايرين عند زواجها من  
 مانويل •

(م ١٢ - العالم البيزنطى)



نوع من الاحياء للامبراطورية الرومانية ، وهنا فقد قاد مانويل طموحه لمحاولة تحقيق مشروع خيالي اثبتت الاحداث انه يعد ضريبا من المستحيل شأن ما كان يحلم به الصليبيون في سوريا وفلسطين . هذا الاتجاه كان قصيرا الأمد ويجب عدم المبالغة في دلالة . وعلى أية حال فإن الدبلوماسية الكامنة وراء ذلك لم تكن جوفاء ، فلو أن بيزنطة كانت تبغى تدعيم نفوذها وسط هذه التحالفات الأوروبية المعقدة المتشابكة ، لكان عليها أن تتاور من أجل الحفاظ على مركزها ، ومواجهة أعدائها الذين لم يكن هناك أدنى شك في حرصهم على غزو بلاد اليونان التي تعد جزءا من الامبراطورية .

وعلى العكس من ذلك ، كللت جهود مانويل في الشرق بالفجاء الى حد بعيد فقد واصل هنا سياسة أبيه من قبل . على نفس النحو في عداوته مع النورمان في ايطاليا ، غير انه اذا كانت العراقيل قد جابهته في الغرب فنتيجة قوة فردريك براباروسا المتزايدة ، فإن الأحداث في الشرق قد ساعدته بسبب ضعف الامارات الصليبية اللاتينية ، فقد راح مانويل ، كما فعل يوحنا ، يؤكد سيادته أولا على الأمير الأرمني في كيليكيا (سنة ١١٥٨) ، ثم توجه تلقاء انطاكية ، عندما كان على رينالد Reynald ، زوج أميرة انطاكية ، أن يعترف بسيادة مانويل ، وأن يسعى إلى معسكره وقد طوق عنقه بحبل . وكان خضوع انطاكية على هذا النحو يمثل المذلة بعينها ، وتمثل ذلك ليس فقط في التعهد بتقديم العون العسكري للقسطنطينية ، بل امتد الى ذلك الحق الذي كان معقد الفخار ومثار الجدل وهو رسالة بطريرك ذلك الكرسي الأسقفى العتيق ، وكان هذا يعنى أسبقا يونانيا . وقد ترك دخول مانويل انطاكية سنة ١١٥٩ انطباعا هائلا على نفوس معاصريه ، وهم يرونه يمتطي صهوة جواده الذي ازدان بكل الأشعة الامبراطورية ، يتبعه (من بعيد) بلدوين الثالث Baldwin III الذي قدم الى الشمال ووضع نفسه تحت حماية مانويل ، « لقد استحثت من بيت المقدس خطاه وجاءنا يقر بسيادة الامبراطور » بينما سار أمير انطاكية بحذاء جواد مانويل . وقد بدا الأمر على هذا النحو كما لو كانت السيادة البيزنطية سوف تحقق شيئا من الانظام والوحدة للشرق المسيحى وتتوج الدبلوماسية الهادئة والجهود العسكرية لألكسيوس الأول ويوحنا الثانى . ولعل أبرز ما يوضح المكانة التي ارتقاها مانويل في الشرق الصليبي ، أن يحتل اسمه مكان الصدارة

فى سجل كنيسة الميلاد فى بيت لحم عام ١١٦٩ ، ليلة من بعد ملك بيت المقدس .

وتمكن مانويل من أن يحرز نجاحا مماثلا على الجبهة الشمالية عند هنفاريا ، حيث سعى ، شأن أبيه ، للتدخل فى النزاع الدائر من حول العرش ، بل لقد خطا هنا خطوات واضحة حيث وضع نصب عينيه السيطرة على المنطقة كلها ، فاقترح حلا جديدا لانتهاء العبودية القديمة بين المجر والقسطنطينية ، وذلك عن طريق زواج وريث العرش الهنفارى « بيلا » Bela من ابنة مانويل ، وأن يخلع عليه لقب « السيد » Despot وأن يعطى من بعد العرش الامبراطورى . وهكذا وضع مانويل خطته كي يدخل هنفاريا ضمن دائرة الامبراطورية ، الى أن تغيرت هذه الخطط بمولد ابنه . وقد ساعد بيلا عند اعتلائه العرش ، فضمن بذلك توطيد نفوذه هناك . ولازمه التوفيق أيضا فى صربيا حيث نجح فى ابقاء سسيانقه على سيقن نمانيا Stephen Nemanya مؤسس أشهر أسرة حكمت صربيا ، « الزوبان الكبير » (٣٢) the Grand Zupan ودشن ذلك بدخوله القسطنطينية بصورة مسرحية تشبه تلك التى اداها من قبل عند مجيئه الى انطاكية .

لكن على الرغم من توالى انتصارات مانويل ، الا ان مركزه أصبح اشد حرجا ، فقد اضميرت البندقية بصفة خاصة الى حد كبير من جراء ازدياد سلطته فى البلقان ، وضم الساحل الشمالى ، وهجومه على أنكونا Ancona وانعكس ذلك فى محاولة مانويل تدعيم مركزه بالتحالف مع جنوة Genoa فى عام ١١٦٩ وبيزا سنة ١١٧٠ . وساد الامبراطورية كلها شعور العداء تجاه البندقية التى كانت امتيازاتها التجارية تمثل عبئا ثقيلا وتلقى استياءا شديدا . وفوق هذا فقد تزايد الشعور ضد اللاتين بصفة عامة ، وفى سنة

---

(٣٢) عاش الصرب - على عكس البلغار - حتى القرن الثانى عشر فى اقاليم منفصلة ، يطلق على كل منها اسم زوبى Zupy على رأس كل منها زوبان Zupan . حتى اذا كان هذا القرن الثانى عشر ، أقاموا اول وحدة سياسية جمعتهم تحت زعامة سيقن الذى أصبح الزوبان الكبير .  
انظر Baynes & Moss, op. cit. pp. 358-359, Vasiliev, op. cit.

١١٧١ قبض على كل البنادقة وصودرت بضائعهم وسفنهم وكان لابد ان تندلع الحرب بين الطرفين ، ولم تعد العلاقات بينهما الى ما كانت عليه الا بعد ان اعيدت الامتيازات ثانية ودفعت التعويضات ربما على عهد اندرونيكوس الأول Andronicus .

واكب نجاح مانويل فى الشرق اللاتينى ومنغاريًا ، تدهور مستمر فى نفوذه فى الغرب حيث اكتسب عداء البندقية ، وفشل فى تحقيق التعاون مع البابوية ، وابتلى بعدو ماهر حقود هو فردريك بربروسا الذى دفع سلطان قونية الى الثورة ضده مانويل ومد له يد المساعدة ، ولقى مانويل نتيجة لذلك هزيمة ساحقة عند ميثريوكفالوم Myriocephalum فى اسيا الصغرى سنة ١١٧٦ . ووسط نشوة النصر هذه ارسل فردريك الأول الى مانويل رسالة تقطر احتقارا تتضمن خضوع ملك اليونان Rex Grecorum للامبراطور الرومانى ، وعلن فردريك نفسه وريثا للباطرة الرومان ، وادعى ان ذلك يتضمن السيطرة على « المملكة اليونانية » regnum Greciaie . هكذا اودت مشروعات مانويل بفوارده المالية وبرهنت على استحالة السيطرة على كل من أوروبا والشرق الأدنى فى مواجهة الدول الغربية المسيحية الناشئة ، وطوق القوى الاسلامية . ولكن هذا لاينفى ان انجازاته ، خاصة فى مجال الدبلوماسية ، تستحق التقدير . كما ان سياسته الخارجية رغم ما يمكن ان يقال عن أنماطها التقليدية ، تظهر بعض الملامح والسمات الأساسية ، ومن اوضح الأمثلة على ذلك محاولته غزو الأملاك الامبراطورية القسطنطينية فى ايطاليا عن طريق العمل العسكرى المباشر ، او مشروعه الجديد بالاعتبار (وذلك قبل ان يولد له ابنه) والخاص بتوحيد عرشى المجر والامبراطورية فى شخص صهره بيلا . او حتى فى اقتراحه الخيالى على البابا اسكندر الثالث Alexander III بأعادة التآمن بين الكنيستين اليونانية واللاتينية فى مقابل التأييد البابوى لاعادة توحيد الامبراطورية .

اما فى الداخل ، فان الحالة الاقتصادية للامبراطورية ، ونزاهة الهوة بين المستأجرين والطبقة العسكرية الحاكمة ، والضرائب الباهظة ، وتسرب التجارة الى ايدي التجار الاجانب ، وهبوط الرجال الأحرار الى مرتبة القنية بل حتى الى مستوى العبودية كل هذا كان مصحوبا بالسير السريع نحو

نظام اقطاعى أضعف سلطة الدولة ، ولقد كانت حكومة مانويل الشخصية الفائقة ، بل يمكن القول حقيقة أنها سياسة أباطرة آل كومنين الثلاثة ، الكسيوس ويوحنا ومانويل هي التي حفظت امبراطورية كانت الأحداث قد أثبتت أن الزمن قد عفا عليها رغم ما كانت تؤديه كدولة حاضرة . وكموطن لحضارة متميزة .

### ٣ - الانحلال الأول :

باختفاء مانويل الأول صاحب الشخصية القوية الجذابة ، واعتلاء ابنه القاصر الكسيوس الثانى Alexius II العرش ، برزت بوضوح الاتجاهات التي كانت قائمة في الحياة البيزنطية في القرن الثانى عشر . فاكتملت صورة الخطر اللاتينى ، ليس فقط بهجوم من الخارج ، بل بتسرب مكر في الداخل . فقد امتلأت بيزنطة باللاتين على اختلاف نوعياتهم ، من المدمين الى التجار الثقاة ، هذا الى جانب ارتباط بعض العائلات الاقطاعية في الغرب بروابط الدم او الصداقة مع البلاط البيزنطى . ولقد كان واضحا تماما أن سلطان الأسرة المالكة للأراضى على عهد آل كومنين قد ازداد قوة وفعالية ، ويعزى ذلك جزئيا الى ما حصلوا عليه هبة من أراض فيما عرف بنظام « الميرة » Pronoia وهى الهبة التى عادة ما كانت تحمل معها المزيد من الحقوق والامتيازات المالية والقضائية . هذا النظام الذى كان قائما وراء الحدود انتشر في الامبراطورية مع سنة ١٢٠٤ حيث أحس الصليبيون عقب استيلائهم على الأراضى أنهم كما لو كانوا في ديارهم ، ولم يبد البيزنطيون في بلاد اليونان من جانتهم أى صعوبة في فهم وضعهم باعتبارهم انصلا لحسادتهم اللاتين .

لقد كان مانويل كومنينوس حاكما ودودا ، يتحرك بحرية بين اليونان واللاتين سواء ، ولكنه كان عاجزا عن مساندة المسد المرتفع لمواجهة العداء تجاه اللاتين او التصدى للتضاؤل المستمر في السلطة المركزية . وبموقعه لهذا ضعف الامبراطورية البيزنطية واضحا للعيان. وضوجه في الامانات الصليبية اللاتينية في سوريا فلسطين . فقد راح كلاهما يهوى حقيقة خلال زمن يسير . وان تباينت الاسباب عند كل منهما : الامبراطورية نال منها



الغرب المسيحي ، والامارات الصليبية غلبها على امرها عدوها المسلم القوي  
صلاح الدين .

لم يلبث حكم ذلك القاصر وامه اللاتينية الكريهة لدى الجميع ان  
انتهى بمقتلها على يد اندرونيكوس الاول Andronicus . ابن عم مانويل  
ولم يحدث ان التقى اندرونيكوس بمانويل ابدا ، بل عاش حياة ملوفا القلق  
طاف فيها قصور الحكام في الشرق الأدنى . وبسحره الذي يذهب بالالباب  
وفتنه ، اوقع في هسواه ثيودورا كومننا Theodora Camnena ارملة  
بلدوين الثالث ملك بيت المقدس ، واغراها بالهروب معه . ولما كان رجلا  
طاعنا في السن (بلغ من العمر خمسة وستين عاما عند اعتلائه العرش)  
فقد استطاع ان يكسب حب وعطف الفرنسية الياقة ، ذات الثلاثة عشر  
رييما ، اجنى انا Agnes Anna ويتزوج منها بعد ان قتل زوجها الصبي  
الكسيوس الثاني . كان اندرونيكوس يمتلك الشجاعة لما هو مقدم عليه ،  
وقد عاد ثانية الى اتباع سياسة الحقبة البيزنطية الوسيطة . غير انه كان  
من الصعب حتى على باسل الثاني نفسه ان يحقق نجاحا ما عند نهاية  
القرن الثاني عشر ، فكيف واندرونيكوس لم يكن يمتلك جلد باسل ومقدرته  
على ضبط النفس . وقد اتجهت سياسته اساسا الى تطهير الادارة ، واقتلاع  
العناصر اللاتينية في الامبراطورية وتدعيم السلطة المركزية بتقليم اظافر  
الارستقراطية العسكرية . ولكن ايا من نواحي سياسته هذه كان يذهب  
سدى نتيجة اساليب التعسفية الهوجاء . وقد شهدت القسطنطينية قبل  
مقدمة اليها هجوما عنيفا شنه الدهماء في العاصمة على كل الاجانب  
المقيمين بها بلا تمييز ، « اولئك اللاتين الملاحين » . ولم يتوان اندرونيكوس  
عن ايجاد نظام للحكومة المركزية والولايات لاصلاح الادارة ، وكان الشعار  
الذي اتخذه لنفسه في هذا العمل « اذا لم تقلع عن فساد الادارة حرام  
عليك الحياة » . واقدم على سحب الامتيازات التي كانت قد منحت لكبار  
الملاك ، ولما كان يخشى على حياته ، لم يجد بدا من اللجوء الى العنف ،  
واتخذ موقفه تجاه العائلات الكبيرة شكل الاعدام والابادة القامة ، وهكذا  
جردت الامبراطورية من القادة العسكريين الذين كانت الدولة في اشدهم  
الحاجة اليهم .

شملت السياسة العدائية لأندرونيكوس كلا من القوى الغربية التي كان من الضروري التوصل الى تراخى معها ، والأرستقراطية الزراعية التي كان لدى أفرادها وخدمهم الموارد التي تمكن الدولة من انجاز مهامها الدفاعية . وقد قامت المجر بهجوم استولت فيه على دماشيا وأجزاء من كرواتيا Croatia وسيرميوم Sirmium ، وتفنر ستفن نمانيا ملك الصرب ( راسكا Rasca [ الجبل الأسود ] وزيتا Zeta ) لولائه السابق ، واحتل الصقليون النورمان كورفو والجزر اليونانية الأخرى ثم زحفوا لنهب سالونيك (عام ١١٨٥) . أما في داخل الامبراطورية فان موجة العداء الكامنة في نفوس كبار الملك الزراعيين قد عبرت عن نفسها بجلاء على يد أحد أفراد أسرة كومنين نفسها ، وهو اسحق Isaac الذي اقام نفسه حاكما مستقلا في قبرص ، ويعد هذا دليلا واضحا على الاتجاهات الانفصالية الدقيقة في بيزنطة والتي قفزت الى السطح خلال الحملة الصليبية الرابعة وما بعدها .

ولا شك ان الرعب الذي اتسم به عهد أندرونيكوس وانباء الانتصارات التي حققها النورمان ، مهدت السبيل في العاصره لسقوط أسرة كومنين في عام ١١٨٥ . وشغل العرش البيزنطي خلال الفترة الممتدة ما بين عامي ١١٨٥ ، ١٢٠٤ بأفراد من بيت أنجلوس Angeli الذين لم يكن لأحد منهم حسن سياسة يوحنا أو مانويل كومنينوس ، وان لم يكونوا في ذواتهم غير ذي قيمة على الإطلاق . غير ان الفساد القديم عاد القهقري الى الحكومة . والآن ازدادت أعداد الثيمات Themes على الرغم من انها كانت قد تقلصت عن سابق شكلها كوحدات ادارية قوية . أما الخطر الحاسم فقد تمثل الآن في الضيعة الكبيرة الخاصة ونظام « الميرة » Pronoia ، وزاحمت سلطة كبار الملك الأقوياء سلطة الحاكم الاقليمي . وكان هذا أرماسا بما سنوف يشهده العصر الوسيط المتأخر من الامارات او الاقطاعيات المستقلة .

وفي الشمال ، فشلت بيزنطة في اخماد جذوة الوطنية او الاتجاه الانفصالي في بلغاريا منذ اجمعت عام ١٠١٨ في الامبراطورية . فقد قامت مملكة مستقلة ، هي الامبراطورية البلغارية الثانية على يد الزعماء المحليين الذين ربما انحدروا من اصل بلغاري - ولاشي Bulgaro—Wallachian ودعوا بأنفسهم بـ « إيلطرة » . كل بلغاريا وولاشيا ووجدوا قانيدا من كثير من

العناصر المتبرمة ، وقد أعلنوا سحقهم سنة ١١٨٥ لعدم منحهم هبات معينة في صورة « ميرة » Pronoia حيث يمكننا أن ننظر الى هذا النوع من الهبة هنا ، ليس باعتباره نمطا من الاتجاهات الاقطاعية ، بقدر ما هو محاولة لترضية هؤلاء المتبرمين ، ويمكننا ان نلاحظ ان هذه الهبات لم تكن تمنح فقط لملك الاراضي البيزنطيين ، او السادة اللاتين الاقطاعيين مثل عائلة مونتفرات Montferrat بل الى عناصر الكومان Cumans في البلقان ، وهم الذين كانت ثرواتهم تتحصر اساسا في القطعان وليست الارض .

وقد عجز الامبراطور البيزنطي اسحق الثاني أنجلوس Isaac II Angelus عن اخمداد الثورة ، وتم تتويج أسمن Asen « امبراطورا » بلغاريا في سنة ١١٨٧ على يد اسقف ترنوفو Trnevo وهي الاسقفية التي دشنت حديثا . ولعل ما كان يجري في البلقان الآن على هذا النحو يغدو دليلا واضحا على التفسخ الحادث في الامبراطورية ، ومدى قوة الاعيان المحليين .

اتخذ التهديد اللاتيني شكلا مزدوجا ، فالغزاة النورمان الذين قاموا بهجومهم عام ١١٨٥ ، وعادوا إغارتهم الآن ثانية على اليونان وخرّبوا سالونيك . غير انهم طردوا من الياپسة بحيث لم تكن الامبراطورية قد فقدت تماما كل قواتها العسكرية ، ولكنهم احتفظوا بجزيرتي كفالونيا Cephalonia وزاكينثوس Zacynthus . يضاف الى هذا ان التهديد تمثل من جديد في حملة صليبية اخبرى ، جاءت في وقت كانت فيه بيزنطة تعاني الضعف من جراء حرب اهلية وحمولات عسكرية في البلغار وبلاد اليونان . وامبراطور لا يمتلك القدرة الكافية لإدارة امورها . وكان على بيزنطة ان تواجه بهذا الوهن في سنة ١١٨٩ اقتراب مجيء الحملة الصليبية الثالثة التي تم تجهيزها عقب سقوط بيت المقدس سنة ١١٨٧ .

كان وضع الشرق اللاتيني قد اخذ يترنح منذ الحملة الصليبية الثانية في عام ١١٤٧ . فقد عجزت مملكة بيت المقدس ، بعد سلسلة من الملوك ذائعي البصيت ، عن اقامة اسرة مستقرة في الحكم . كما ان الصراع المستمر بين بيزنطة واللاتين ، وبين هؤلاء وانفسهم ، جعل من المستحيل تحقيق مكاسب جديدة . ولم تفعل حملة جديدة (٢٤) قادها ثلاثة من ملوك

(٢٤) ارتأقت أوروبا ، والبابوية بصفة خاصة ، لدى سماعها بانباء =



• • • • •

استرداد المسلمين لبيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي سنة ١١٨٧ • وقد هـىء لهذه الحملة منذ البداية كل أسباب النجاح ، غير أنها كانت تحمل معها أيضا بذور فشلها • فقد كان على رأسها أعظم ملوك أوروبا آنذاك ، فردريك برياروسا امبراطور المانيا ، وفيليب أوغسطس ملك فرنسا ، وريتشارد الأول (قلب الأسد) ملك إنجلترا • وهذا التشكيل القيادي في حد ذاته كان عنوانا بارزا على النتائج التي لا بد أن تنتهي اليها الحملة من فشل ، فالعداء كان كامنا في نفوسهم جميعا تجاه بعضهم البعض ، كما أن شعوبهم نفسها لم تكن تحمل لبعضها أي نوع من دلائل المودة • وليس أدل على ذلك من أن الملك الألماني اتخذ سبيله عبر الطريق البري الى القسطنطينية ، التي كانت ترتعد فرقا وهلعا من المصير الذي ينتظرها لو تخلى فردريك عن صليبيته وعادته فكرة السيطرة على العاصمة البيزنطية ، غير أن الجيش الألماني عبر البسفور الى آسيا الصغرى حيث لقي فردريك مصرعه غرقا في أحد أنهار كيليكيا ، فانفرط بذلك عقد الجيش الألماني ، حيث عاد عدد كبير من فرسانه الى بلادهم ، بينما انضمت فلوله تحت زعامة دوق سوابيا الى القوات الانجليزية والفرنسية امام أسوار عكا • حيث كان الجيشان ، الانجليزي والفرنسي ، قد القيا مراسيمهما هناك سنة ١١٩١ بعد أن استولى ريتشارد في طريقه على قبرص • وقد ظل الصليبيون على حصارهم لعكا قرابة عام كامل حتى سقطت في النهاية رغم ما بذله صلاح الدين من جهود لتقوية وتدعيم حاميتها وتحصيناتها • وكان احتلال عكا وتدمير عسقلان هي النتيجة النهائية التي تحققت على يد ثلاثة جيوش أوروبية • ولم يلبث فيليب أن عاد الى فرنسا ، تاركا ريتشارد وحده في الشرق • ورغم أن الملك الانجليزي قد قام بعدة أعمال عسكرية خلعت عليه لقب « قلب الأسد » ، إلا أنه فشل في استرداد بيت المقدس ، وانتهى الأمر بعقد صلح الرملة مع صلاح الدين سنة ١١٩٢ ، ليعود بعد ذلك ريتشارد الى بلاده ، وليقع أسيرا في يد الملك الألماني هنري السادس أثناء عودته ، على أن أهم النتائج التي ترتبت على هذه الحملة ، ما تولد لدى أوروبا من اقتناع كامل بأن مصر هي التي تلعب الدور الرئيسي في فشل هذه الحملات ، وأنه لابقاء للامارات الصليبية في الشام إلا بالاستيلاء على مصر ، وهذا ما حاولته الحملات التالية انظر Runciman, op. cit. III, pp. 3-75 والدكتور سعيد عاشور • الحركة الصليبية ، الجزء الثاني ص ٨٣٧ - ٩٠١ . ارنست باركر : الحروب الصليبية ص ١٠٩ - ١١٩ . الدكتور نظير سعداوي : المصدر السابق ص ٢١٥ - ٢٦٣ F. Barlow, The Feudal Kingdom of England, pp. 353-60

• المترجم



أوروبا الغربية شيئاً لتحسين هذه الأوضاع المتردية ، على الرغم من أن ريتشارد الأول Richard I ملك إنجلترا ، الجندي المقتدر السياسي الأريب عند الضرورة ، كان قادراً على توقيع معاهدة مع صلاح الدين سنة ١١٩٢ ، استخلص بها شريطاً ساحلياً ضيقاً يتضمن عكا وصور ، والسماح للمسيحيين بزيارة الأماكن المقدسة . ولقد كانت رحلات الصليبيين سواء تلك التي جاءت عن طريق البر أو التي اتخذت سبيلها في البحر ، تمثل للبيزنطيين نحساً وقدرًا مشئوماً . فقد سلك الألمان سبيل البحر عبر البلقان ، وأدت عداوة مليكهم فردريك برياروسا ، العدو الكنود للبيزنطيين ، إلى حالة من التوتر الشديد إلى الحد الذي طلب إلى البابا أن يبارك حملة صليبية ضد الامبراطورية البيزنطية . ولكن موت فردريك المفاجيء في آسيا الصغرى عام ١١٩٠ منح بيزنطة فرصة موقوتة . أما ريتشارد ملك إنجلترا فقد ركب البحر وهو يحمل في نفسه قدراً متساوياً من الفوائد للقسطنطينية ، حيث استولى في طريقه على قبرص من اسحق كومنينوس ، وهكذا انتقلت الجزيرة ، التي كانت قد خرجت من قبل عن سلطان الحكومة المركزية ، من أيدي اليونان إلى قبضة اللاتين .

ارتد فشل الحملة الصليبية الثالثة إلى بيزنطة . فقد أصبح واضحاً مدى الصغويات التي تعترض طريق الحفاظ حتى على ماتبقى من الإمارات الصليبية في سوريا وفلسطين ، وراح اللاتين يعيدون النظر ثانية في خططهم ويقلبون وجوههم هنا وهناك واصطبح مفهوم تجريد حملة صليبية ضد الخارجيين عن الإيمان في ذهن العالم المسيحي المعاصر ، بفكرة أن أية دعوة صريحة بالتخلي عن الجهاد لا يمكن أن ترد على بال . ودارت المناقشات البراقة ، ووجدت المادة المناسبة التي تستطيع أن تقدم الدعم للقيام بهجوم على القسطنطينية كخطوة أولى نحو تحقيق تقدم فعال . وكان الغرب قد اعتاد لزمان بعيد أن يعزو فشل الحملات الصليبية إلى العداء المزعوم من جانب البيزنطيين الذين يفترض فيهم الغدر والخيانة .

تزعّم الملك الألماني هنري السادس Henry VI ابن برياروسا ، القيادة الآن ، وكان يعتبر وريثاً للخورمان الصقليين في أكثر من ناحية . فمن طريق الزواج أصبح له حق السيادة على أملاكهم . وقد تمكن في سنة ١١٩٤ من

القضاء على خصومه حيث تم تتويجه في بالرمو . وأظهر ميله الطبيعي والتقليدي لاتباع سياستهم الشرقية التي كانت تأخذ بين يدي الامبراطورية الغربية شكلا أكثر طموحا ، لايقبل بغير السيطرة على العالم المسيحي . وكانت الخطوة الأولى في سبيل ذلك غزو بيزنطة أو بتعبير آخر السيطرة عليها . ورائته الظروف عندما أطيع باسحق الثاني من فوق العرش سنة ١١٩٥ ، وكانت ابنته قد تزوجت من فيليب Philip أخى هنرى فاتخذ من تلك الأحداث تكتة للتدخل في شئونها ، وطالب بجزية ضخمة من الذهب عرفت في بيزنطة بالضريبة « الألمانية » . أما بالنسبة للشرق الأدنى فقد كان هنرى يعد لحملة صليبية جديدة ، وحصل على اعتراف بسيادته من قبرص وأرمينيا الصغرى . غير أن مشروعاته هذه طواها الزمن بموته سنة ١١٩٧ . فحرم ذلك القضية الصليبية من زعيم كان يبدو قادرا على توحيدها وتوجيهها . ولكن هذا أيضا لم ينج القسطنطينية .



# الفصل الرابع

## الصدام بين الشرق والغرب

١٢٠٤ - ١٤٥٣

١ - الغدر اللاتيني والدبلوماسية البيزنطية

(١٢٠٤ - ١٢٦١)

٢ - التنافس المسيحي والحروب الأهلية

البيزنطية (١٢٦١ - ١٣٥٤)

٣ - الغزو التركي وسقوط بيزنطة

(١٣٥٤ - ١٤٥٣)





## الفصل الرابع

### الصدام بين الشرق والغرب

١٢٠٤ - ١٤٥٣

#### ١ - الغر اللاتيني والدبلوماسية البيزنطية :

١٢٠٤ - ١٢٦١

كانت مصر أول أهداف الحملة الصليبية الرابعة ، ولكن وجهتها وليت  
اولا الى زارا Zara المدينة المسيحية الواقعة على الساحل الدناشى ، والتي  
كانت البندقية تعتبر نفسها أحق بالسيادة عليها من المجر التي تنافسها ذلك  
الادعاء . ثم اتجهت بعدئذ الى القسطنطينية بحجة اعادة امبراطورية اسرة  
انجلوس المخلوع الى عرشه (١) ، وليس من العسير تعليل تحويل وجهة هذه

---

(١) اقدم الكسيوس الثالث Alexius III على عزل اخيه اسحق الثانى  
انجلوس فى سنة ١١٩٥ ، بعد ان سمل عينيه ، وزج به وبابنه الذى يسمى  
هو الآخر الكسيوس فى أحد الأديرة ، غير ان الكسيوس الابن تمكن من  
الفرار بعد مضى سنوات قليلة ، الى صهره فيليب السوابى ملك المانيا ،  
يطلب اليه تقديم العون لاستعادة العرش . ولما كان فيليب مشغولا آنذاك  
فى صراع عنيف مع أوتو دوق برنسويك من أجل العرش الألماني فقد أرسل  
سفارة من لدنه الى الصليبيين فى زارا يدعوهم للبحار الى بيزنطة لاعادة  
الكسيوس الصغير وابيه اسحق الثانى الى العرش ، وهم فى طريقهم الى  
الشرق . وفى مقابل ذلك تعهد الكسيوس بتقديم تنازلات فادحة ، حيث وافق  
على ضم الكنيسة الشرقية الى كنيسة روما ، وأن يدفع الى البنادقة ما تبقى  
من دين لهم عند الصليبيين (٢٤٠٠٠ مارك) ، وأن يقدم الأموال والعتاد  
والمؤن وعشرة الاف مقاتل للمساهمة فى قهر سلطان الايوبيين فى مصر  
والقضاء على قوتها العسكرية . وأن يجهز خمسمائة جندي للعمل كحرس  
دائم فى الاراضى المقدسة واذا كان هذا هو السبب المباشر الذى قاد الحملة  
الصليبية الرابعة الى القسطنطينية ، الا انه لم يكن السبب الرئيسى . فقد  
لعبت البندقية ودوجها هنرى داندلو H. Dandolo دورا بارزا فى تغيير  
خط سير الحملة ، وكان لديها من الاسباب الكثير الذى يدفعها الى ذلك .

الحملة الى عاصمة الامبراطورية البيزنطية . ولكن الذى يثير الدهشة أن يتأخر ذلك الى هذا الوقت . فالبنديقية بدافع الحقد والحسد لمنافستها فى الشرق ، كانت ترغب فى تأجيج تجارتها ، بالاضافة الى امتعاضها من المحاولات البيزنطية الأخيرة للحد من إحتيازاتها الواسعة . هذا الى أن القوى الأخرى فى الغرب أبدت استياءها ازاء شعور العداء السائد ضد اللاتين . يضاف الى ذلك ما شاع وتأصل فى نفوس الغربيين من أن البيزنطيين مسئولون مسئولية كاملة عن الاخفاق الذى لازم الحملات الصليبية ، ولم يكن الاستيلاء على القسطنطينية فكرة مستحدثة ، وقد بدت الآن بوجه خاص فكرة تجذب الاهتمام فى حينها . ومنذ البداية كان هناك عامل دنيوى يلعب دورا بارزا فى الحركة الصليبية الغربية ، والآن بات واضحا أن الامبراطورية البيزنطية تقدم لحركة الاستعمار اللاتينى ميدانا أكثر أمنا وأوفر ربحا من فلسطين وسوريا غير أن احتلال القسطنطينية والتقسيم الجزئى للامبراطورية البيزنطية كان يحمل فى طياته على المدى الطويل أثارا بعيدة وخطيرة على القضية الصليبية . فقد حولت الصليبيين الغربيين عن سوريا وفلسطين ، والأهم من ذلك ، أنها وسعت الصدع بين شطرى العالم المسيحى فى الشرق والغرب ، مما أدى بالتالى الى إزدياد الخلاف بين القوى المسيحية التى راجت تزايد ضعفها فى مواجهة عدو ملحد (٢) . أشد خطرا هو الاتراك العثمانيين

استغلت الحملة الصليبية الرابعة بلا هوادة صعاب أباطرة أسسرة

---

للمزيد من التفاصيل عن الحملة الصليبية الرابعة انظر : مذكرات روبرت كلارى . Robert Clari الذى شارك فى هذه الحملة منذ بدايتها . وقد نقلتها الى العربية مع مقدمة وافية الدكتور حسن حبشى تحت عنوان : فتح القسطنطينية ، القاهرة ١٩٦٤ . وانظر كذلك : شارل ديل : البندقيّة جمهورية أرستقراطية ، ترجمة دكتور أحمد عزت عبد الكريم وتوفيق أسكندر ص ٢٩ - ٤٨ ، الدكتور أسحق عبيد : روما وبيزنطة ، ص ٢٠٥ - ٣٥٢ ، ودكتور سعيد عاشور ، الحركة الصليبية . الجزء الثانى ص ٩٢٩ - ٩٤٠ . ارنست باركر : الحروب الصليبية ، ص ١٢٠ - ١٢٤ ، وايضا Runciman, op. cit. III, pp. 107-131

Stephenson, op. cit. pp. 411-415

و ر Thompson & Johnson. op cit. pp. 540-547 المترجم .

(٢) راجع حاشية ١٦ ص ١٤٧ المترجم .

انجلوس الذين كانوا غير قادرين بالمسرة على الوفاء بالتزاماتهم المالية ومساعداتهم العسكرية . فتم الاستيلاء على القسطنطينية عنوة من جانب المسيحيين اللاتين ، وما لبثت أن تعرضت للنهب والسلب بعدئذ ، وأقدم « الصليبيون » على تقسيم العاصمة ، أو بالأحرى ما تبقى من الامبراطورية البيزنطية فيما بينهم ، ثم بدأوا في الغزو المنظم لما منح لهم من أراض جديدة لم يفرضوا عليها سيطرتهم بعد . ونتيجة لذلك فقد ظهر الى الوجود امبراطورية لاتينية وعدد من الامارات اللاتينية . وخلال فترة قصيرة من الزمن تمكن اللاتين من السيطرة على تراقيا وسالونيك والجزء الأكبر من بلاد اليونان وعدد من الجزر في بحر ايجه . وقد قسمت هذه المناطق فيما بينهم جميعا مع ما ظهر لديهم من أهداف متعارضة حول الادعاءات الاقليمية والامتيازات التجارية ، متبعين في ذلك سياسة كانت غالبا ما تختلف تماما في الأيام الأولى على أية حال ، مع الرغبات الأكثر مسالمة لدى الكرسي الرسولي . ولم يستطع هؤلاء اللاتين أن يقدموا بديلا عمليا عن الحكم الأوتوقراطي لامبراطور فرد ، وراحت أراضيهم خلال العصور الوسطى المتأخرة تلتهم تدريجيا بأيدي جيранهم العديدين وبصفة خاصة الصرب والبيزنطيين والاتراك العثمانيين .

ولسكن اللاتين مع ذلك كانوا عاملا مؤثرا في العالم الايجي طيلة ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان . فالمنافسة السياسية الضارية صاحبها الاتصالات الشخصية المثمرة ، والاهتمام المتبادل بالحضارات الخاصة بكل منهما ، والاختلاط الذي لا يمكن تجنبه ، حيث شهد القرن الثالث عشر البلاط الفرنجي في كل من أثينا Athens وطيبة Thebes والبلوبونيز Peloponnese يهنا بحياة متألقة وان كانت قصيرة العمر . وقد حاول السادة الجدد في مجموعهم أن يتعاملوا بحكمة واعتدال مع رعييتهم المقهورة ، فاستمر كثير من كبار ملاك الأراضي اليونان يحتفظون بأمالكهم ، ولكن باعتبارهم أفعالا لسادتهم الغربيين ؛ ذلك أن النظام الاقطاعي ، كما يفهمه الغرب ويمارسه ، انتقل الى بلاد اليونان . وقد راح وليم فيلهاردوان William Villehardouin (توفي عام ١٢٧٨) الحاكم الفرنسي للبلوبونيز ، وقد وقع أسيرا في يد البيزنطيين ، يوضح للامبراطور البيزنطي أنه يستطيع دفع فدية ، ولكن لا يمكنه (م ١٤ - العالم البيزنطي)



التخلي عن أراضيه الفصلية ، حيث يقول ، « سيدى الامبراطور ، هب ابنى أمضيت فى سجنك ألفا من السنين ، فلست بقادر على أن اغير من وضعى شيئاً . لقد تم الاستيلاء على المورة Mores بقوة السلاح . . على يد ابنى وأصحابه والشجعان الآخرين من رجال فرنسا ، وقد تداولوا الحكم فيما بينهم طبقا للقانون ووفقا للتقاليد التى تقضى بأن الأرض يرثها ذرياتهم » (٢) وكانت القلاع التى اضطر ولیم فى النهاية لتسليمها الى ميخائيل الثامن Michael VIII هى تلك التى استولى عليها بنفسه (مثل ميسترا Mistra او مونمفازيا Monemvasia ) ، ورغم أن الامارات اللاتينية الكبيرة لم تعمر طويلا . الا أن اللاتين حافظوا ، أو امتلكوا ، عددا من المواقع الاقتصادية على قدر كبير من الأهمية اما لكونها محطات عبور أو لتنوعية منتجاتها ومن أوضح الأمثلة على ذلك مناجم الشبة الغنية فى فوكايا Phocaea عند مدخل خليج سميرنا Smyrna التى منحت للجنوية سنة ١٢٧٥ ، وأثرى آل جاتلوزى (٤) Gattilusii منها ثراء طائلا . واشتهرت طيبة والمورة

(٢) انظر J. Chronicle of the Morea, Greek Version ed. J. Schmitt (London 1904), Verses 2455 — 4301, French Version ed. J. Longnon (Paris 1911), pp. 116 — 17. English translation by H. E. Lurier Columbia univ. Press 1964).

(٤) شهد القرنان الثالث والرابع عشر نوعا من المنافسة انحومة بين البندقية وجنوه من أجل الاستئثار بالنفوذ الاقتصادى فى القسطنطينية والبحر الأسود ومنطقة المضائق وزاد من حدة هذه المنافسة خروج البندقية فائزة بنصيب الأسد نتيجة للحملة الصليبية الرابعة ، ولهذا سعت جنوة جهدها للحصول على امتيازات مساوية داخل الامبراطورية ، وساعدت الحروب الأهلية التى وقعت بين المتنافسين على عرش القسطنطينية من ضرام هذا الصراع وتمثل ذلك بصورة واضحة فى الصراع الذى قام بين يوحنا الخامس (١٢٤١ — ١٢٩١) ويوحنا السادس كانتا كوزينوس (١٢٤٧ — ١٢٥٤) ، حيث كان لجهود المغامر الجنوى فرانسكو جاتلوزيو Franesco Gattilusio أبعد الأثر فى انتصار يوحنا الخامس ، الذى كافاه على ذلك باعطائه يد أخته وجزيرة لسبوس Lespos صداقا لها . وقد ازداد نفوذ عائلة جابلوزى فى لسبوس حتى أن قسطنطين الجادى عسبر آخر أباطرة بيزنطة أصهر إليها حيث تزوج إحدى بناتها .

انظر : شارل ديل البندقية ، ص ٥٤ و Vasiliev, op. cit. II, p. 589 وأيضا Denys Hay, Europe in the Fourteenth and Fifteenth Centuries, p. 247. المترجم .

بصناعة الحرير وغزله • وسيطرت عائلة سانودى Sanudi من البندقية على ناكسوس Naxos ومدت نفوذها الى الجزر المجاورة وتمهدت بالعناية التامة ، التجارة فى تلك المنطقة •

وهكذا اتجه الغزو اللاتينى الى ترويج النشاط الاقتصادى ، ذلك ان انعاش التجارة كان من أهم اهتمامات الغزاة انفسهم ، كما أن الناحية التجارية فى الحقيقة كانت من أول الدوافع تحريضا للهجوم على الامبراطورية • وغالبا ما حجبت الدسائس الدبلوماسية والصراعات الاسرية الى حد ما تلك الأنشطة السلمية التى كانت تجرى على مر الايام ، والتى اعتمدت فى وجودها الحقيقى على بعض الفهم المتبادل بين اليونان واللاتين •

وبسقوط العاصمة البيزنطية سنة ١٢٠٤ بعد عمر طويل امتد بها ثمانية قرون متواصلة تصدعت الامبراطورية منقسمة الى مملكتين يونانيتين : مملكة ابيروس Epirus فى الشمال الغربى من بلاد اليونان وتضم ابيروس وجزءا من البانيا ، ويعتلى عرشها ثيودور انجلوس Theodor Angelus ، ومملكة نيقية Nicaea فى الشمال الغربى من آسيا الصغرى وتخضع لثيودور لاسكاريس Theodore Lascaris الذى اصهر الى الاسرة الانجليزية • وعلى الشواطىء الجنوبية الشرقية للبحر الأسود كانت تقوم أيضا مملكة طرابيزون Trebizond البيزنائية تحت سيادة أحد فروع أسرة كومنين ، وان كانت هذه المملكة الأخيرة قيد قامت فى الحقيقة بمساعدة جورجيا Georgia قبل غزو القسطنطينية • ورغم أن هذه الممالك جاءت بشكل ما نتيجة الأحداث التى وقعت سنة ١٢٠٤ إلا انها تعكس حقيقة تلك الاتجاهات الانفصالية التى كانت سائدة بين العائلات البيزنطية القوية • وقد راحت المملكة ذات الحكم المطلق فى ابيروس ومملكة نيقية تدعيان حق ميراث العباءة الامبراطورية ، أما المنافس الثالث من حول العرش فكان الملك البلغارى القدير يوحنا الثانى John II Asen (١٢١٨ - ١٢٤١) • واخذ هؤلاء الثلاثة جميعهم يناضلون من أجل تأكيد ادعاءاتهم بتوسيع حدودهم وفرض سيادتهم على القسطنطينية بالحرب تارة والدبلوماسية أخرى •

وسرعان ماخرجت بلغاريا من حلبة السباق بعد موت يوحنا آسن ، على حين عملت الخلافات الأسرية على اضعاف ايروس التي ما لبثت ان غرقت في خلافتها مع جيرانها اللاتين . اما فيقية فكانت لاكثر من سبب صاحبة اليد الطولى ؛ ذلك أنها من الناحية العملية كانت تعتبر مملكة اقوى واشد تماسكا من تلك الامبراطورية المنهارة ، وتمثل ذلك في اسرة لاسكاريس التي اتصف ملوكها بالفطنة والثقافة ، وعملوا بعناية فائقة على تنمية مواردهم الداخلية ، ووجدوا لديهم الفرصة السانحة لتشجيع النواحي الثقافية ، واستغلوا بمهارة اخطاء منافسيهم لتحقيق مصالحهم ، وحظوا على آية حال بالتأييد المحدود من جانب الأتراك السلاجقة في قونية Iconium وحكام طرابيزون اليونان ، وكان كلاهما يدرك تماما الآثار الناجمة عن التحركات المغولية التي كانت آخذة في تغيير الشكل السياسى للشرق الاوسط ، وقد نجحت الاسرة اللاسكارية من قاعدتها القوية بآسيا الصغرى، من تثبيت اقدامها بمهارة فائقة في أوروبا ، مقدونيا وتراقيا وسالونيك . فلما مات ثيودور الثانى لاسكاريس عام ١٢٥٨ ، خلفا وراءه على العرش وريثا قاصرا ، حسمت المسألة على يد انسان « لطيف المعشر ودود » وان كان فى غير دياء ، هو ميخائيل باليولوجوس Michael Palaeologus الذى كان قادرا بكفاءة على ان يجنى ثمار غرس اللاسكاريين . وفى سنة ١٢٥٩ وفى موقعة بلاجونيا (٥) Pelagonia حقق انتصارا حاسما سحق به عصابة ايروس التي كانت تضم فرنجية المورة وما نفرد Manfred ملك صقلية ، وحاول ان يدعم قواه بحلف بحرى ضد البندقية ، المحرض الاساسى والمستفيد الرئيسى من الحملة الصليبية الرابعة ؛ فعقد تحالفا مع الجنوية فى مارس ١٢٦١ منحهم بمقتضاه امتيازات تجارية واسعة لقاء وعدهم اياه بالمساعدة . ولم يلبث ان تحققت له الخطوة الأخيرة فى ٢٥ يولية ١٢٦١ حيث استرد القسطنطينية ثانية ، ودخل ميخائيل الثامن المدينة بعد ايام قلائل فى موكب الخاشعين ، واتجه الى دير ستودايوس ، ومنه الى كنيسة آيا صوفيا . وقد رآسرتة أن تحكم من القسطنطينية الامبراطورية البيزنطية بعد احيائها

---

(٥) فى الطرف الغربى من مقدونيا بالقرب من مدينة كاستوريا Castoria المترجم .

قرباً قرنين من الزمان حتى اتاها الغزو العثماني في القرن الخامس عشر (٦) .

## ٢ - الثقافى المسيحى والحروب الأهلية البيزنطية :

١٢٦١ - ١٣٥٤

تبدلت امبراطورية الباليولوجيين فى امتدادها الاقليمى خلال فترة الوجود القلق والمضطرب التى عاشتها . وفى سنة ١٢٦١ كانت تضم شمالى غرب اسيا الصغرى ومعظم تراقيا ومقدونيا وبعض الجزر وتفرض سيطرتها على ابيروس وكذا أربعة قلاع رئيسية كانت مائزال فى بلاد اليونان الفرنجية . وعلى الرغم من انها جهدت كى توسع رقعة اراضيها بعد سنة ١٢٦١ ، وخاصة فى البلوبونيز ، الا انه لم يكن بمقدورها ان تبعث الى الحياة اى نظام حكومى فعال يتمركز فى القسطنطينية . وكان عليها ان تعود مرة ثانية الى تلك الوسيلة الفعالة التى تتمثل فى نظام الهبات الاقطاعية . ومن ثم فانه بدلا من الاعتماد على الولايات الثغرية Themes التى يتولى ادارتها حكم مسئولون امام السلطة المركزية ، وجد عدد من المقاطعات منحت عادة لأفراد البيت الامبراطورى أو أسرة الامبراطور الشريك . وقد بقيت للقسطنطينية مكانتها المرموقة ، وظلت عاملا يحسب حسابه فى السياسة الدولية ، ولا شك ان الموقع الجغرافى وحده كان يدعم ذلك . واذا كانت الامبراطورية مائزال غنية بثرواتها . الا ان هذه الثروات لم تعد فى ايدى البيت الامبراطورى ، ولكنها اصبحت فى حوزة العائلات القوية والمؤسسات الكنسية الكبيرة ، واصبحت الهبات من الاراضى والتى منحت اصلا تبعا لنظام « الميزة » Pronoia فى مقابل الخدمة العسكرية ، وراثية متحررة من الالتزامات التى كانت تقترن بها . هذا التغيير ترك اثاره الواضحة على الجيش الذى اصبحت الآن يتكون فى معظمه من المرتزقة مما شكل عبئا ثقيلا على الخزانة . وفى الوقت ذاته لم يعد للاستول البيزنطى من الفاحية العملية وجود ، وولت القسطنطينية وجهها شطر الجنوية تعتمد

(٦) انظر دكتور اسحق عبيد : الدولة البيزنطية فى عصر الباليولوجوس

- ١٢٦١ - ١٢٨٢ . المترجم .



عليهم • ولما وجد البحارة البيزنطيون انفسهم بلا عمل ، انضموا للقراصنة الأتراك الذين كانوا سوط عذاب في البحر الايجي خاصة حول الأقاليم الساحلية في آسيا الصغرى • أما الخزانة الامبراطورية فلم تعد تحصل الا على جزء تافه جدا من إيراداتها السابقة ، وانحط المزارعون المحليون والفلاحون في بعض الأحيان الى حد الفاقة بسبب ويلات الحرب ولم يعودوا قادرين على الوفاء بالتزاماتهم ، وغالبا ما كان عظيم الأقليم يقسوم بجمع ما يزيد عن الدخل المحلي • وأصبح المصدر الوفير للدخل ، وهو الضرائب الجمركية والمكوس ، يصب الجزء الأكبر منه الآن في جيوب الايطاليين خاصة الجنوبية داخل الأراضي البيزنطية ، بينما حلت « النقود الجيدة » للجمهوريات الايطالية محل البيزنط Bezant ، العملة الذهبية البيزنطية ، التي كانت تستخدم في التجارة الدولية •

كانت المشكلة التي واجهت الحكومة البيزنطية بعد سنة ١٢٦١ ، النقص الكامل في الموارد المادية ، وقد وجدت أن الدبلوماسية وحدها تعد لغوا لاغناء فيه اذا لم تظاهرها المقدرة العسكرية والبحرية الملائمة ، ولما كانت لا تستطيع أن تفرض سيادتها حتى على أراضيها ، لم يكن أمامها خيار ، ومن ثم كان عليها أن تعاني بل وأن تعتمد في نهاية الأمر على كبار ملاك الأراضي والحكام المحليين المستقلين حقيقة • وتقامت المشاكل الداخلية وازدادت تعقيدا من جراء الحروب الأهلية التي شغلت فترات طويلة من القرن الرابع عشر ، والضغط المستمر من الخارج منذ عام ١٢٦١ فصاعدا خاصة من جانب شارل كونت انجو Charles of Anjoa والعرب وأخيرا الأتراك العثمانيين •

وقد حجب البريق الخادع الذي أحاط يميخائيل الثامن الضعفت الكامن والجوهري للامبراطورية العائدة ولكن لزمّن يسير ، ذلك أنه استطاع بدبلوماسيته الحاذقة أن يكف أذى الأخطار المحدقة بالامبراطورية ، وكان شارل كونت انجو قد نصب نفسه ملكا على مملكة صقلية ، بعد أن أوقع الهزيمة بأسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen سنة ١٢٦٦ (٧) ، وأراد أن

---

(٧) في عام ١٢٥٠ مات الامبراطور الألماني فردريك الثاني ، وكان

يعد سلطانه الى بلاد اليونان والامبراطورية البيزنطية ، فكون تحالفا ضد ميخائيل الثامن ضم البابوية ، وبلدوين الثاني Baldwin II الامبراطور اللاتيني السابق للقسطنطينية ، ووليم فيلهاردوان (الذي كان قد هزم أنفا على يد ميخائيل الثامن في المورة) وكان واضحا ان هذا الحلف يشكل خطورة كبيرة على الامبراطورية . غير ان الامبراطور البيزنطي تمكن بمهارة فائقة من ان يوجه القبيلة الذهبية Golden Horde وهولاكو Hulagu خان المغول ضد بلغاريا وسلاجقة الروم ، والمجر ضد الصرب ، وبهذا الاسلوب جابه أعداءه في آسيا الصغرى والبلقان . ومد يد الصداقة الى اخي شارل ، لويس التاسع Louis IX الذي كان يتدبر امر حملة صليبية (٨) ، وقدم

---

الصراع بين البابوية والامبراطورية قد بلغ المدى ، وصمد البابوات على تحطيم الامبراطورية ، والقضاء على اسرة الهوهنشتاوفن تماما . وكان فردريك قد ترك المانيا لابنه كونراد الرابع ، وعهد بصقلية الى ابنه غير الشرعي مانفرد ، وعلى الفور قام البابا انوسنت الرابع بالتفاوض مع هنري الثالث ملك انجلترا من اجل المنادة بابنه ادموند Edmund ملكا على المملكة النورمانية في صقلية وجنوب ايطاليا بدلا من اسرة الهوهنشتاوفن على ان يصبح فصلا بابويا . ولكن مانفرد تمكن في عام ١٢٥٥ من استعادة سلطانه على صقلية . غير ان البابا اوريان الرابع وخليفته كلمنت الرابع ، نجحا في استمالة شارل كونت أنجو ، وهو اخو لويس التاسع ملك فرنسا ، واقناعه بالقدوم لاعتلاء عرش النورمان في صقلية ، علم ان يكون فصلا تابعا للبابا . ولم يلبث ذلك الامير الفرنسي الطموح ان غزا مملكة مانفرد عام ١٢٦٢ ، ووقع به هزيمة مروعة عند بنفنتو Benevento سنة ١٢٦٦ خر فيها مانفرد صريعا . انظر Thompson & Johnson, op. cit. pp. 428-429 وايضا D. Waley, Later Medieval Europe from St. Louis to Luther, pp. 36-38.

وكذلك W. Ullmann, A short history of the Papacy in the Middle Ages, p. 264.

وراجع ايضا Barry, the Papal Monarchy, pp. 351-368 المترجم .  
 (٨) عن الحملة الصليبية السابعة التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا ، التي مصر في منتصف القرن الثالث عشر ، انظر : مذكرات جوانفيل عن القديس لويس ، ترجمة الدكتور حسن حبشي ، دكتور محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ، دكتور جوزيف

العون الى الصقليين الذين كانوا يضمرون العداء لحاكمهم الانجوى حتى اشتعلت الثورة فى الجزيرة ونجح الثائرون فى نقل التاج الى بطرس صاحب ارغونة Aragon الذى أمكن ليخائيل الثامن أن يصل الى اتفاق معه . وكان الامبراطور يعتقد أن من الصواب اكتساب البابوية ، فسعى الى ذلك بوعده قدمه فى مجمع ليون Lyone (٩) الذى عقد سنة ١٢٧٤ حول اعادة الوحدة الى الكنيسة .

هكذا عصف ميخائيل بمشروعات شارل ، ولكن ذلك كلفه الكثير من النواحي المالية وغيرها ؛ ذلك ان تقريره الى روما لقي معارضة شديدة من جانب جيرانه الارثوذكس ، خاصة بلغاريا التى سادها شعور جارف ضد القسطنطينية ، ولم يكن الاحتجاج فى داخل الامبراطورية بأقل منه خارجها . حقيقة أن الجموع وقد جىء بها فى التاسع من يناير سنة ١٢٧٥ الى الكنيسة الامبراطورية فى القسطنطينية ، راحت تنشئ صلاتها باليونانية واللاتينية ، واحتفل بذكرى جريجورى ، الحبر الأعظم للكنيسة الرسولية والبابا المسكونى ، . ولكن الشعور الذى كان ينتاب الجميع فاهت به اخت الامبراطور التى ورد عنها قولها « خير لامبراطورية أخى أن تندثر على أن تبعد العقيدة الارثوذكسية » . وقد أصبحت محاولة التوحيد هذه بين روما والقسطنطينية ورقة امبراطورية بليت من كثرة المزايدة عليها خلال الحقبة

---

نسيم يوسف : العدوان الصليبي على مصر : هزيمة لويس التاسع فى المنصورة وفارسكور ، دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ، الجزء الثانى، ص ١٠٥١ - ١٠٧٥ ، Runciman, op. cit. III. pp. 255-274 المترجم . (٩) عقد تحت رئاسة البابا جريجورى العاشر ، وحضره خمسمائة اسقف وسبعون من مقدمى الأدير ، وقرابة الألف من رجال الاكليروس على اختلاف مراتبهم ، بالاضافة الى ملك ارغونة ، وتبادل المسائل الخاصة بالتنظيمات الكنسية فى الغرب وشغلت الوحدة بين الكنيستين الشرقية والغربية جانبا من مناقشاته . انظر عن ذلك المجمع .

Ullmann, op. cit. pp. 240 - 241.

Barry, op. cit. pp. 265 - 266

C. M. H. vol. VI, pp. 192 - 3

وراجع كذلك : دكتور اسحق عبيد : الامبراطورية البيزنطية فى عصر باليولوغوس ١١٢ - ١١٦ . ١٢٨ - ١٣٠ . المترجم .



البيولوجية ، غير انه بعد عام ١٢٠٤ كان كثير من البيزنطيين يفضلون الخضوع للملحين على هجران ما كانوا يعتبرونه تقاليد مقدسة لكنيستهم عبر فترة طويلة من الزمن ، فلما امكن رد اعدائهم ، عزا البيزنطيون الفضل كله الى الكنيسة الارثوذكسية التي ازداد سلطانها وعظمت مكانتها .

ولكن المكانة الدولية التي بلغتها الامبراطورية على عهد ميخائيل الثامن لم يقدر لها الاستمرار من بعد ، ولم يكن ذلك راجعا الى ضلّة شأن الأباطرة البيزنطيين الذين كان بعضهم ، مثل يوحنا كانتاكوزينوس John Cantacuzenus او مانويل الثانى Manuel II ، رجالا على قدر كبير من الكفاءة والموهبة ، ولكنه يعود فى الدرجة الاولى الى استحالة اعادة السلطة المركزية القوية فى مواجهة النزعات الانفصالية الاقطاعية ، والعوز الكامل فى الموارد المالية اللازمة لمجابهة العدو الصربى فى البلقان والعثماني فى آسيا الصغرى . ورغم الأزمات الخطيرة التى كانت تتهدد الامبراطورية ازدهر النشاط الثقافى وارتفعت حرارة الجدل الدينى . فقد ظلت بيزنطة على عهدىها دائما تشهد جدلا عقيديا بين مختلف الفرق الكنسية ، والتى غالبا ما كانت تأتلف مع مثيرى الفتن السياسية ، حتى اذا كان القرن الرابع عشر ازدادت التعقيدات حدة بسبب ذلك الاحساس الحقيقى الواضح بالأحوال الاجتماعية والاقتصادية السيئة ، خاصة فى مدينة سالونيك التى ظلت لسنوات عديدة فى منتصف القرن الرابع عشر تحكم (اذا جاز هذا التعبير) بواسطة مجلس من الاهالى . وكان التطاحن يجرى على اعلى المستويات ، فقد اختصم الامبراطور المعوز اندرونيكوس الثانى Andronicus II (١٢٧٢ - ١٢٢٨) مع حفيده ووريثه وسميه اندرونيكوس الثالث الذى رفع السلاح فى وجه جده . فلما قضى الحفيد نحبه سنة ١٣٤١ ، اندلعت الحرب الاهلية مرة اخرى بين الوزير الاول يوحنا كانتا كوزينوس والوصية على العرش . وتم التوصل الى نوع من التعايش السلمى القلق بتتويج كانتا كوزينوس امبراطورا باسم يوحنا السادس John VI على يد بطريرك القسطنطينية فى عام ١٣٤٧ ، وتبع ذلك بالتالى ازدياد نفوذ أسرته وسلطانها . وفى الوقت ذاته كان الحنق يعمد نفس الامبراطور الصغير يوحنا الخامس باليولوجوس وينمو معه حتى تمكن فى النهاية بمساعدة الجنوية من اجبار كانتا كوزينوس على الاعتزال سنة ١٣٥٤ . ولكن على الرغم من أن



الامبراطور يوحنا كانتا كوزينوس سلك درب الرهبانية وعرف باسم يواصف Joasaph وقضى معظم عمره الباقي في الكتابة التاريخية واللاهوتية ، الا انه ظل يتدخل في شئون الكنيسة والدولة حتى توفاه الموت سنة ١٢٨٢ .

وقف التفسخ الداخلي الذي شهدته الامبراطورية البيزنطية حائلا منيعا دون أية محاولة تبذل لرد رقعة اراضيها المتضائلة ، واهتبل الخصوم في الخارج هذه الفرصة لمناصرة فريق ضد آخر . وكان على بيزنطة في القرن الرابع عشر ان ترقب بعين الخوف كلا من الصرب في البلقان والأتراك العثمانيين في اسيا الصغرى ؛ فقد نهلت صربيا الكثير من الحضارة العريقة لجارتها القريبة وبدأت تلعب دورا بارزا وقياديا في السياسة البلغارية زمن ملوكها النمانياويين Nemanici خاصة على عهد ستفن دوشان Stephen Dusan (١٢٢١ - ١٢٥٥) . وقد تمكنت صربيا نتيجة المكانة التي حققتها على يديه من ان تستغل بنجاح تلك الحرب التي دارت بين يوحنا الخامس باليولوجوس ويوحنا كانتا كوزينوس ، وافادت من الهلع الذي انتاب الامبراطورية بسبب المطامع الهنغارية . وبلغت قوة دوشان حدا راودته فيه الأحلام حول امكانية خلع الامبراطور الباليولوجي ، وداعبته الامال في اعادة مجد الامبراطورية الرومانية . وقد امتدت حدوده لتشمل الى جوار الأراضي التي كانت تحتلها اصلا القبائل الصربية ، البانيا وابيروس ، وThessaly ومقدونيا Macedonia (رغم انه لم يحتل مطلقا مدينة سالونيك الهامة) ، بينما اصبحت بلغاريا في الواقع دولة تابعة . ومن ثم فانه عندما كتب الى الدرج سنة ١٢٤٥ راح يسمى نفسه « سيد كل الامبراطورية الرومانية تقريبا » . ولقد تحالف في اوج الأمر مع يوحنا كانتا كوزينوس ، ثم لم يلبث ان عاداه ووقف ضده تخوفا من ازدياد قوته . وفي عام ١٢٥٥ مات ستفن دوشان وهو في اوج عظيمته قبل ان يصبح قادرا على مهاجمة القسطنطينية ، او قيادة حملة صليبية ضد الأتراك ، وليس من المؤكد ان كانت جهوده قادرة على ان تحقق نجاحا مستمرا ، ذلك ان مملكته حتى هذه الاونة لم تكن قد تقدمت بالدرجة الكافية لتحمل اعباء امبراطورية او حماية هذه الأراضي التي اكتسبتها مؤخرا . وهكذا كانت الدول البلقانية في العصور الوسطى المتأخرة قوية الى الحد الذي كان بمقدورها فيه ان

تتجنب الانضواء من جديد تحت لواء الامبراطورية البيزنطية العائدة ، ولكن أحدا منها فى الوقت ذاته لم يكن يملك القوة الكافية لفرض أى نوع من الوحدة على العناصر المسيحية المتنافرة فى البلقان والبحر الايجى .

### ٣ - الغزو التركى وسقوط بيزنطة :

١٣٥٤ - ١٤٥٣

كان الأعداء القدامى للامبراطورية من الاتراك فى آسيا الصغرى يشكلون السلطة السلجوقية فى قونية (أو سلاجقة الروم) و اماره الدانشمنديين، ثم تغيرت هذه الأوضاع فى غضون القرن الثالث عشر نتيجة الزحف المغولى، فاختفت سلطنة قونية ككيان سياسى فعال ونشأ عدد من الامارات الصغيرة فى غربى آسيا الصغرى مستغلة فرصة انشغال الامبراطورية البيزنطية بمصالحها فى أوروبا . وقد قامت معظم هذه الامارات على صفة الجهاد وعمرت بواسطة المرابطين فى العالم الاسلامى وكان جنودها يحاربون من أجل الايمان . وقد هاجموا الأقاليم البيزنطية فى آسيا الصغرى ، وأغار قراصنتها (١٠) على المياه الايجية ، يعززهم البحارة البيزنطيون العاطلون . وفى الشمال الغربى من آسيا الصغرى ، وعلى جزء من بيثينيا Bithynia البيزنطية قديما ، قامت اماره عثمان ، التى احتلت مركزا استراتيجيا يتحكم فى الطرق القادمة من القسطنطينية الى آسيا . ولهذا السبب كان العثمانيون يحتلون موقعا ممتازا افادهم فى غزواتهم القادمة لأوروبا ، كما أنهم كانوا قد أصبحوا على دراية تامة بالنظم الادارية الاسلامية والتقاليد الثقافية ، حتى أن امارتهم لم تبق مجرد رباط بل تطوروا بنظمها لتصبح قاعدة تبنى عليها امبراطورية .

وكانت القوى المسيحية والاسلامية قد اعتادت أن تتحالف فيما بينهما تبعا لمقتضيات الامور ، ويشهد على ذلك أنه فى منتصف القرن الرابع عشر كانت الامارة العثمانية قد ثبتت اقدامها فى آسيا الصغرى ، فاتجه يوحنا

---

(١٠) هذا التعبير يعبر عن رأى المؤلفة ، وقد لجأ الى استخدامه كثير من الباحثين الاوروبيين الذين يتناولون تاريخ العلاقات بين بيزنطة والغرب من ناحية والمسلمين من ناحية اخرى ، دون ادراك كامل لفكرة الجهاد أو الغزو فى الاسلام . المترجم .

السادس كانتا كوزينوس الى اميرها اورخان Orchan يطلب عونه في الحرب الاهلية الناشئة مع يوحنا باليولوجوس ، واعطاء يد ابنته ، فامده اورخان بفرقة قوية من الجحافل العثمانية ساعدته في تراقيا . ويعتبر اشتراك الاتراك العثمانيين في الحروب الاهلية البيزنطية على الارض الأوروبية بداية استقرارهم في أوروبا ، فاحتلوا غاليلولي Gallipoli في سنة ١٣٥٤ ، ومن هذه القاعدة راحوا يباشرون غزوهم المنظم لمنطقة البلقان .

وبعد اعتزال يوحنا السادس عام ١٣٥٤ ، اجبر يوحنا الخامس باليولوجوس ابنه متى كانتا كوزينوس Matthew Cantacuzenus على التخلي عن ادعاءاته في العرش ، ولكنه في الوقت ذاته اظهر تعقله بالاعتراف بابن آخر لكانتاكونوس حاكما على المورة . وكان شغله الشاغل على امتداد هذه الطويل ، فقد مات سنة ١٣٩١ ، كيف يمكن وقف الزحف العثماني في البلقان . يضاف الى هذا ان موارد التاج البيزنطي كانت تعاني النضوب بشكل واضح ، بينما كانت المورة ، اكثر اجزاء الامبراطورية ازدهارا ، تعد في حقيقة الامر امانة مستقلة . من اجل هذا سعى يوحنا للحصول على المساعدة من الغرب ، غير انه لسوء الحظ كانت اول المطالب الملحة الآن ، وكما كانت سابقا ، التوصل الى تفاهم مع البابوية ووحدة كنيسة روما والقسطنطينية . وكان القليلون من ذوي البصيرة يدركون ضرورة تحقيق ذلك ، على حين ظلت الغالبية ، تؤيدها الكنيسة الأرثوذكسية القوية ، على عنادها لمثل هذه السياسة ، ومن ثم لم تثمر مقترحات يوحنا التي عرضها سنة ١٣٥٥ (١١) ، فلم تقدم البابوية على تقديم مساعدة فعالة ،

---

(١١) نتيجة للظروف السياسية والعسكرية السيئة التي كانت تعاني منها الامبراطورية من جراء الضعف الاقتصادي والضغط الخارجي المستمر ، تخلى أباطرة بيزنطة عن كثير مما كان يعد تقليدا ثابتا لا ينفون عنه حولا ، اعنى بذلك المصالحة مع البابوية الى حد الخضوع لها على النحو الذي حدث في مجمع ليون الثاني سنة ١٢٧٤ والذي سبقت الاشارة اليه ، والآن يعيد يوحنا الخامس نفس الدور فيصدر سنة ١٣٥٥ ميثاقا Chrysobull يعلن فيه الطاعة التامة لروما ، ويقترح انشاء قسامة رسولية في القسطنطينية تشرف على التعيينات الاكليروسية ، كما وعيد بارسال ابنه رهينة الى افينيون (حيث كان يوجد البابوات آنذاك تحت سيادة الملك الفرنسي) في

ورفض البيزنطيون النظر في مسألة إعادة الوحدة للكنيسة . وتزايدت شدة الضغط الذي تتعرض له الامبراطورية ، فارتحل يوحنا الخامس متضرعا الى البلاط الهنغارى ولكن الفشل حاله بسبب الخلاف الكنسى . ولما كانت الآمال تداعب يوحنا فى المساعدة الصليبية ، استحثه ابن خالته كونت سافوى Savoy الذى قدم اليه فى عام ١٢٦٦ ، ولم تمض على ذلك ثلاث سنوات حتى كان يوحنا نفسه (الذى كانت أمه تعود الى اصل لاتينى) قد جاء الى روما ، وفى اكتوبر سنة ١٢٦٩ تحول الى العقيدة الكاثوليكية ، بينما راح اسقفه فى الوقت ذاته يحض البيزنطيين والارثوذكس فى البلاد الأخرى ، على أن يقاوموا بثبات مثل هذه الحركة .

وبينما تجرى هذه الأحداث ، كان العثمانيون بزعامه مراد الاول Murad I (١٢٦٢ - ١٢٨٩) يوسعون دائرة أراضيهم الأوروبية على حساب الصرب وبيزنطة . وكان النجاح الذى يحققونه الآن واهدافهم الآتية تتمثل فى نقل السلطان لبلاطه من آسيا الصغرى الى تراقيا ، ومنذ حوالى عام ١٢٦٥ فصاعدا استقر البلاط العثمانى فى أدريا نوبل Adrianople وعلى حين كان يوحنا الخامس يدور حول نفسه فى أوروبا ويودع نفسه رهينة لدى الكنيسة الرومانية ، كان العثمانيون يزحفون داخل مقدونيا . ولما كان الصرب قد انقسموا الى امارات متفرقة ، فقد منوا بهزيمة فادحة سنة ١٢٧١ ، ثم قضى عليهم تماما فى سهول قوصوه Kosovo عام ١٢٨٩ (معركة مروج الشحارير) . حيث أعلنوا بعدها خضوعهم للعثمانيين وكان عليهم أن يدفعوا الجزية وأن يعملوا فى الخدمة العسكرية . ولم يكن أمام بلغاريا من سبيل الا الاعتراف بسيادة الاتراك . وامست بيزنطة من الناحية العملية مرتبطة بالاتراك ولم يكن امبراطورها يعدو مجرد فصل اقطاعى عليه أن يؤدى الالتزامات العسكرية .

ورغم كل ذلك فان الامبراطورية البيزنطية كانت قادرة على المقاومة

---

مقابل تنظيم حملة صليبية يتولى هو قيادتها بنفسه . غير أن ذلك كله لم يجده نفعا : أنظر : دكتور أسد رستم : الروم ، الجزء الثانى ص ٢٤٦ .  
المرجم .



حتى منتصف القرن الخامس عشر ، يؤيد ذلك عاملان : أولهما أن القسطنطينية كانت تعتبر قلعة حصينة ، والآخر أن المد التركي انحسر دون توقع في آسيا الصغرى سنة ١٤٠٢ (١٢) . وقد بدا واضحا خلال هذه الفترة أن بيزنطة قد فقدت مكانتها السابقة في حلبة السياسة الدولية ، فتضاءلت حدودها ولم تعد قادرة حتى على إدارة جزء صغير كان ما يزال باقيا بأيدي اليونان ، ولم تنقطع الخلافات الداخلية التي اكتوت بنيرانها العائلة الامبراطورية ، حيث كان أندرونيكوس الرابع Andronicus IV على خلاف دائم مع أبيه يوحنا ، وشارك في هذا النزاع الجمهوريتان الايطاليتان البندقية وجنوه اللتان كانت لهما مصالحهما الحيوية في الشرق . يضاف الى كل هذا انه كان عليها في الوقت ذاته أن تراعى بحكم الضرورة مطالب سيدها القوى ، السلطان العثماني ، ومن ثم فقد بدا شيئا محيرا أن تحتفظ الامبراطورية لنفسها مع كل ذلك حتى بمجرد وجود شاحب لزمن طويل .

وباستثناء أراضيهما في المورة ، كانت الامبراطورية تتكون فقط من القسطنطينية وعليها كان يحكم مانويل الثاني Manuel II من ١٣٩١ إلى ١٤٢٥ وتبعاً لما يرويهِ المؤرخ البيزنطي دوكاس (١٣) Ducas ، راح السلطان العثماني يخاطب مانويل بقوله : « أغلق عليك أبواب المدينة واحكم داخلها ، فكل ما وراء الأسوار ملك لي » . ولما كان على ثقة مما يعنيه فقد أقدم على جعله حقيقة مؤكدة ، فأصبحت القسطنطينية في الواقع محاصرة ؛ حيث

(١٢) أنظر بعده ص ٢٢٤ .

(١٣) هو المؤرخ البيزنطي ميخائيل دوكاس Michael Ducas ، ولد في آسيا الصغرى ، وعمل معظم حياته في خدمة حكام جزيرة لسبوس من الجنوبية ، وأن كان قد ظل على صلته الوثيقة وتعاطفه مع البيزنطيين ، وأبدى أسفه البالغ - في تاريخه - لهذا التردى الذي هوت اليه الامبراطورية . وقد وضع تاريخاً دقيقاً للفترة الواقعة بين عامي ١٢٤١ - ١٤٦٢ ، أي منذ اعتلاء يوحنا الخامس العرش ، حتى سقوط لسبوس في أيدي الاتراك العثمانيين ، وأن كان قد قدم لتاريخه بمدخل مختصر منذ بدء الخليقة . غير أنه تناول عهود الباليولوجيين الثلاثة الأخيرين بالتفصيل . مما يعد لاغنى عنه لأي باحث في تاريخ هذه الفترة .

Vasiliev, op. cit. pp. 691 - 2.

Baynes & Moss, op.cit. p. 233.

أنظر  
وكذلك

استولى السلطان بايزيد Bayezid على تساليا عام ١٣٩٢ ، وبدأ العثمانيون فى التوغل جنوبا داخل المورة ، أما بلغاريا التى كانت قد اصبحت دولة تابعة ، فقد جرى احتلالها وسقطت عاصمتها ترنوفو Trnovo فى السنة نفسها ، واخذت دوبرجا Dobrudja واصبح الدانوب تحت السيادة التركية . ومع أن التوغل العثمانى داخل بلاد اليونان كانت له آثاره على المصالح الايطالية شأن البيزنطية ، الا انه كان من المحتمل أن تظل أوروبا اللاتينية دون حراك ، ولكن اخضاع بلغاريا والاقتراب من الدانوب كان خطرا يهدد المجر ، وقد نجح ملكها سيجيسموند Sigismund فى حشد حملة صليبية من مختلف البلدان الأوربية ، غير أن هذه القوة المسيحية فرق شملها عند نيقوبوليس Nicopolis فى عام ١٣٩٦ ، واستمر تقدم الأتراك داخل بلاد اليونان .

عند هذا الحد شرع مانويل الثانى ، كما فعل أبوه من قبل فى الطواف حول عروش العالم اللاتينى يطلب العون ، لا من أجل استعادة بيت المقدس ، ولكن لانقاذ المدينة التى ظلت قرونا طويلة حصن الأمان فى الشرق لعالم المسيحية ، وقد أثار المأزق الحرج الذى انتهى اليه مانويل ومركزه الامبراطورى شعور العطف فى كل مكان ، حتى أن آدم Adam حاكم أوسك Usk « تلك الجزر البعيدة فى الغرب » راح ييكى « مجد روما الضائع » ، ولكن شعور العطف ذاك ظل مجرد احساس فقط ، وكان لابد لمانويل أن يدرك تلك اللامبالاة التى اتسم بها حكام الغرب . وسرعان ما جاءت الأنباء تفيد أن السلطان العثمانى بايزيد قد أثار غيظ العاهل المغولى تيمور Timur بطمعه فى المناطق الشرقية الواقعة على الحدود ؛ ذلك أن بايزيد انتقل بعد معركة نيقوبوليس الى الشرق باتجاه الفرات ، متصورا اقامة امبراطورية اسلامية عالمية . وكان مثل هذا الطموح يثير تيمور الذى اعتبر قدوم بايزيد الى الشرق الاسلامى تهديدا لنفوذه ، من أجل هذا شن تيمور هجوما على العثمانيين وأوقع بهم هزيمة حاسمة عند أنقرة Ankars سنة ١٤٠٢ ، ووقع بايزيد نفسه أسيرا ، واندلعت الحرب الأهلية داخل السلطنة العثمانية . ولكن بيزنطة والامارات المسيحية الأخرى كانت على قدر كبير من الضعف والتفرق حتى أنها لم تستطع أن تنتهز هذه الفرصة التى سنحت لها بهزيمة عدوها . وبدلا من أن تأتلف جميعها فى جبهة واحدة ، راحت

كل منها تسعى لتحقيق مصالحها الخاصة بالتدخل في الصراع الأهلى العثماني . فلما تمكن السلطان محمد الأول من القضاء على منافسيه ، كرس جهده لتقوية الجبهة الداخلية ، مما أعطى للامبراطورية البيزنطية فرصة تلتقط فيها أنفاسها ، وأصبح مانويل على وفاق مع عدوه ، وتجاذب الرجلان أطراف الحديث ، وتبادلا المجاملات ، وإن كان كل منهما قد ظل على ظهر يخته في مياه البسفور . وكانت ميسترا Mistra في شبه جزيرة المورة ، معقل كل ما تبقى من الحضارة البيزنطية ، وراح دارسوها ومفكروها يداولون جامدين إبراز قيمة تقاليدهم الهلنينية . ومما هو جدير بالذكر أنهم في ذلك الوقت الذي كان وجودهم فيه مزعزعا ، راح البيزنطيون في المورة يطلقون على أنفسهم « الهلننيين » وليس « الرومان » كما اعتادوا من قبل أن يفعلوا . ولكن كانت هناك قرون عديدة لابد أن تنقضى قبل أن يصبح الشعور القومي اليوناني قادرا على التعبير عن نفسه في كيان سياسى مستقل .

أظهر مراد الثانى خليفة محمد الأول عزمه الواضح منذ البداية على امتلاك القسطنطينية . وقام الامبراطور البيزنطى الآن وللمرة الأخيرة بزيارة ايطاليا ، وحاول بهذه المناسبة أن يغرى بطريك القسطنطينية وبعض رجال الاكليروس اليوناني بصحبته . وفى سنة ١٤٢٩ تم اعلان وحدة الكنيستين باليونانية واللاتينية فى دومو Duomo فى فلورنسا Florence حيث عقد مجمع كنسى عام . وبغض النظر عن ضمان المساعدة العملية ، فإن هذا العمل أثار استياء البيزنطيين ونفوز عناصر الصقالية الأرثوذكس خاصة روسيا . وشهت البلقان الخطوة الأخيرة لهذه الأحداث ، فقد دخلها فى عام ١٤٤٢ ملك المجر وجورج برانكوفتش George Brankovic الصربى ويوحنا الهونيادى John Hunyadi أمير ترانسلفانيا Transylvania مؤيدهم الزعيم الالبانى اسكندر بك Scenderbeg وقد حاول مراد الثانى فى بادئ الأمر أن يوقع الفرقة فى صفوف أعدائه عن طريق عقد معاهدة معهم سنة ١٤٤٤ . غير أن المجر نقضت شروط الهدنة بتحريض من البابوية ، وتقدم ملكها باتجاه البحر الأسود ليلقى هزيمة فادحة فى ورنه Varna .

وفى عام ١٤٤٨ اعتلى العرش قسطنطين الحادى عشر Constantine XI آخر امبراطور بيزنطى ، وبينما حكم أخوه فى المورة كان هو سيد العاصمة .

وقد ظل البيزنطيون ، حتى ومحمد الثانى العثمانى يدق أبواب القسطنطينية ، يمقتون أى تسوية مع روما ، واحتفظ دوكاس فى تاريخه بهذه الكلمات التى تقول انهم يفضلون أن يروا عمائم المسلمين وسط العاصمة على أن يشهدوا قلنسوات اللاتين . ووقف بعض الجنوية يؤيدون حلفاءهم حتى النهاية ، والى جوار الامبراطور الجسور ماتوا وهم يحاربون . ولم يكن لدى البيزنطيين من الأسلحة ما يمكنهم به التصدى للمدفعية التركية الحديثة . وكان على العدو أن يمضى فترة طويلة أمام تحصينات العاصمة ليتمكن من دكها . ولما لم يستطع المسيحيون ترميم الثغرات اعتلت طلائع الانكشارية بنجاح أسوار المدينة فى التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٣ . وكان فى حوزة العثمانيين أربعة أسلحة لم يكن من السهل التغلب عليها ، المهارة العسكرية الفائقة ، والموارد الوفيرة ، والتفسخ الذى أصاب الحكام المسيحيين ، والأوضاع الداخلية فى الامبراطورية البيزنطية .

أما مملكة طرابيزون وما تبقى من أملاك للامبراطورية فى المورة ، فقد قدر لها أن تظل من بعد لسنوات قليلة ، حتى اذا كانت نهاية القرن أصبحت كل الامبراطورية البيزنطية القديمة تقريبا فى أيدي المسلمين . وهكذا قامت للمرة الثانية امبراطورية تمتد من الفرات الى الدانوب . وقد تباينت الآراء فى العالم الاسلامى حول تفسير هذه الأحداث ، حيث بدت للبعض عملا من أعمال الجهاد قام به جنود الايمان ، على حين نظر اليها بعض آخر باعتبارها تحقيقا لما كان يتوق اليه المسلمون الأول . أما بالنسبة للعالم المسيحى ، فإذا كان قد تهدم الكثير ، فإن ما بقى كان يعدله ، فالمدينة التى أعيد بناؤها بشكل فخيم كانت مركزا هاما للمسلمين والمسيحيين على السواء ، وظلت مستقر البطريرك ، وأصبحت الكنيسة الأرثوذكسية الآن الوصى الوحيد على الحياة الثقافية والعقيدية للرعايا الصقالبة واليونان ، وأضحت الابروشيات المحلية الملاذ الوحيد للمسيحيين فى الامبراطورية العثمانية . لقد كان على الكنيسة الآن ، بعد أن ولت أيام العصر البيزنطى ، أن تعمل دون عون الامبراطورية وأن تعتمد على نفسها .



## مراجع عامة

- Ahrweiler. (H.), Byzance et la mere : la marine de guerre, la politique et les institutions maritimes de Byzance aux VIIe XVe siecles (Paris 1966)
- Baynes (N.H.), — The Hellenistic Civilisatin and east Rome, (O. U. P. 1946).
  - The Thought - World of East Rome, (O. U. P. 1947), reprinted in Byzantine studies and other Essays (London 1955).
  - The Byzantine Empire (London 1925).
- ——— and Moss (H. St. L. B.) Byzantium (oxford 1948).
- Brehier (L.), Le Monde Byzantine (3 vols. Paris 1947-50).
- The Cambride Medieval History, vol. IV in two parts, The Byzantine Empire 717 - 1453, pt. 1, Byzantine and her Neighbours 1966) and pt. II, Government, Church and Civilisation (1967).
- Diehl (C.) Byzantium: Greatness and Decline (New Brunswick 1957). is a tranlation of a stimulating essay, Byzance, grandeur et decadence, (1919).
- Dvornik (F.), The Photian Schism (C. U. P. 1948).
- Ostrogorsky (G), History of the Byzantine State (Blackwell, Oxford 1956).
- Runciman (S.), A history of the Crusades, 3, vols. (C. U. P. 1951 — 1954).
- Vasiliev (A. A.), History of the Byzantine Empire (Madison 1952).

# الفصل الخامس

## الكنيسة والدولة

### الحكومة الامبراطورية



## الفصل الخامس

### الكنيسة والدولة

#### الحكومة الامبراطورية

ترتبط الامبراطورية البيزنطية ارتباطا وثيقا بالامبراطورية الرومانية *imperium romanum* في عراقتها المتأخرة ، وورثت تقاليد تحتوي على عناصر ليست فقط رومانية ، بل هلنستية Hellenistic وشرقية ذات فعالية كان قد تم التسليم بها جدلا في العالمين الروماني والبيزنطي . وهذا يبرز لنا كثيرا من مظاهر سياسات الامبراطورية الرومانية الشرقية في العصور الوسطى ، التي اصطلح على وصفها بـ « التمشرق » على ضوء علاقاتها بجيرانها الشرقيين . ولاشك ان بيزنطة قد تأثرت بهؤلاء الجيران عن طريق الاتصال المباشر فيما بينها وبينهم . ولكن بعض الملامح الشرقية البارزة في مفهومها عن السلطة الامبراطورية كان موروثا عن روما ، وان كانت في اصولها قد استمدت من تقاليد ضاربة في القدم تعود الى حضارات العالم القديم ، مثل الهلنستية والفارسية والآشورية والبابلية والعبرية والمصرية . حتى اذا جاء القرن الثالث الميلادي كانت حكومة العالم اليوناني - الروماني قد أصبحت ملكية ، واقترن حكامها تماما بمبدأ الألوهية وادعاء الامبراطورية العالمية . وكانت روما القديمة حقيقة قد ودعت منذ زمن بعيد ايامها الجمهورية ، وغذت العاصمة الرئيسية لامبراطور كان يعتبر راعيا ومنعما ومخلصا لشعبه ، تقدم اليه كل آيات التبجيل والتقديس ، فلما تم الاعتراف بالمسيحية كان لابد ان تطرا بعض التغييرات ، ذلك ان الامبراطورية الرومانية اقدمت في بداية القرن الرابع على التسامح مع المسيحية ، ثم اتخذتها من بعد عقيدة رسمية . وقد ترك هذا الاعتراف بالحقوق المسيحية آثاره واضحة على الحكومة في اتجاهين ، فالمفاهيم الهلنستية عن السلطة الامبراطورية كان لابد ان يعاد النظر فيها وأن توضع من جديد في اطار العقيدة والأفكار المسيحية ، كما ان الكنيسة المسيحية بمتطلباتها الخاصة



وادعاءاتها بالسيادة على كل فرد ، كان لابد من دمجها في إطار أداة الحكم .

أما فيما يتصل بالسلطان الامبراطوري فانه لم يكن من الصعب ملء هذه الهوة . وتعكس مفاهيم العصور الوسطى المبكرة الأساليب الهلنستية والسلفية ، فلم يعد ينظر الى الامبراطور باعتباره الها ، بل أصبح يرى فيه ، وكان هذا هو نفس الشيء تقريبا بالنسبة للأغراض العملية ، انسانا مقدسا اختير من الله ليكون ممثلا له على الأرض . وكما أن الاله واحد ، فلا بد أن يكون هناك امبراطور واحد يصبح له بمرور الزمن سيادة العالم وحكما عالميا . وتفيض الآداب والأعراف البيزنطية بتوضيح هذه الصلة الوثيقة بين الله ونائبه . وخلافا لوجهة نظر القديس أوغسطين (١) St. Augustine عن المدينتين وغربة هذا العالم ، يؤكد تاريخ الامبراطورية البيزنطية على امتداده نظرية القرن الرابع التي أرسى دعائمها يوساب (٢) Eusebius والتي تقول بأن رسالة المسيحية أن تحصل على الأرض مملكة مسكونية . وقد بدا لائقا لأعين البيزنطيين تشبيه المسئوليات الامبراطورية بتلك التي تتعلق بالقديس بطرس ، « فحيث أن الله قد عهد الينا بحكم الامبراطورية ، كما قضت بذلك مشيئته ، فقد أمرنا أيضا ، كما أمر بطرس أمير الرسل ، أن نطعم شعبه المؤمنين » (٣) .

وكان الامبراطور يحاط بمراسم ذات مسحة دينية ، وترتبط بالطقوس الكنيسة ، فقد أهدى الجانب الأيسر من العرش الامبراطوري للمسيح ، وكان يترك شاغرا في المناسبات الكبرى مثل الأعياد أو الاحتفالات الكنسية، ولكن الامبراطور كان يشغله باعتباره ممثل المسيح على الأرض ، عند استقباله للسفراء . ويؤتى بالنور وتوقد النار ويحرق البخور بين يديه في مناسبات معينة . وكان أمرا عاديا أن يبخر هو نفسه في الكنيسة . وفوق هذا وذاك فإن مكانته في الحياتين الدينية والزمنية تتضح من تلك الهتافات التي تطلق من أجله ، وكانت أشبه بالترانيم أو التسابيح الخاشعة (لعل اقرب هتاف

(١) انظر قبله . المترجم .

(٢) انظر قبله . المترجم .

(٣) Ecloga, preface .

لها ما نردده « حفظ الله الملكة » الذي يعد نوعاً من الهتافات . ولقد كانوا يؤكدون باستمرار على مركز الامبراطور باعتباره الممثل المباشر لله ، ومن ثم كان يجري الترحيب به على هذا النحو في كل الاحتفالات التي كانت تقام اما في الهيدروم أو في كنيسة آيا صوفيا . وكانت التسابيح التي يترنم بها عند الاحتفال بأحد العناصر ، وتتكلم عن الروح القدس بحديث متقد ، تنصب على الامبراطور ، كما أن التهليل الذي يجري ليلة عيد الميلاد ، كان يرتبط بالتسابيح والعظات التي خصصت لهذا الوقت من العام ، « ألا فليحفظ المسيح ، واهب كل الحياة ، عهدك وعظمتك ، وليدفع الأمم عبر كل العالم لتسعى اليك تقدم الجزية لسلطانك ، كما قدم المجوس الهدايا اليه [ المسيح ] » هذه الترانيم كان يصدح بها كورس خاص ، بعضه كنسي ، وبعض تدعّمه الاحزاب السياسية القديمة في المدينة ، ويحتوي كتاب المراسم *Book of Ceremonies* الذي صنفه قسطنطين السابع في القرن العاشر ، على مادة وفيرة حول مراسم البلاط الامبراطوري . وتكشف مقدمة الكتاب عن مدى ارتباط الامبراطور البيزنطي بالمسيح ، فهو « المحب للمسيح » ، *Philochristos* صديق المسيح . ويبين بوضوح أن هذه المراسم كان لها قدرها وقيمتها لأنها ترمز الى أن النظام القدير في الامبراطورية الذي يعكس الابداع الالهي ، قد انعم به الخالق على العالم أجمع .

وكان الامبراطور البيزنطي ، الذي يعتبر نفسه خليفة قسطنطين العظيم ، الحوارى الثالث عشر ، يعتلى العرش من الناحية النظرية فقط بالانتخاب ، اما من الناحية العملية فكان اختياره يتم وفقاً لقواعد مختلفة . فهو اما يختار من قبل الامراتور الجالس على العرش في حياته ، أو يتولى زمام الأمور بعد اقضاء أو عزل الامبراطور الحاكم ، أو يدعى السلطة كامبراطور شريك . وكان من المألوف أن يعلن اختياره بواسطة الشعب والسفنانو والجيش ، ومن بين هؤلاء جميعاً كان الجيش أهم هذه العناصر على الإطلاق . اما مسألة نجاحه فكان ينظر اليها على أنها علامة التأييد الالهي ، وقد اعتاد البيزنطيون أن يرتضوا ما حدث . ولكن الاله لحكمة يعلمها قد لا يهب عوناً دوماً للباطرة الخيرين . وهناك فقرة في « الرسائل المنسوبة خطاً الى اثناسيوس *Spuria Athanasiana* يسأل فيها الله كيف يسمع لطاغية مثل فوقاس *Phocas* أن يصبح امبراطوراً في بداية القرن السابع ،

فأجاب « لأنى لم أجد من هو أسوأ » . وهذا بالطبع يعد استثناء ، فالبشر لا يدخلون بصفة مستمرة فى تجربة قاسية كهذه لمعرفة مدى صبرهم وحقيقة إيمانهم . ومنذ القرن السابع أخذ مبدأ الوراثة فى الحكم طريقه الى الاستقرار ، وأصبح أمرا مألوفا أن يتوج واحد أو أكثر من أبناء الامبراطور الجالس على العرش فى حياة أبيهم . ولم يؤد وجود أكثر من امبراطور شريك الى انهيار وحدة الحكم الامبراطورى ، وهذا المبدأ يعود الى أيام المواطن الأول زمن أوغسطس Augustus الذى لم يعقب ذكرا وكانت له ابنة واحدة . وقد حمت عادة المشاركة فى الحكم هذه مسألة الخلافة ، ولعلها استخدمت أيضا لتضع السلطة فى يد حاكم راشد قوى عند وجود قاصر على العرش ، أو لتضمن هيئة الحكومة اذا ما كان الوريث الامبراطورى امرأة أو رجلا يفتقد الموهبة السياسية ، ومن ثم فقد كان هناك أباطرة عديدون فى وقت واحد ، ولكن السلطة كانت تتركز فى يد واحد فقط من بينهم ، هو السيد المطلق ، الذى أصبح يعرف منذ القرن السابع بالملك Basileus ، وبعد تتويج شارل العظيم Charles the Great فى الغرب ، لقب الامبراطور البيزنطى بالملك الرومانى Basileus Romaion « امبراطور الرومان » وقد أكد هذا ادعاءه للسيادة العالمية باعتباره وريث روما . أما لقب أوتوقراطور Autocrator (الذى يعتبر ترجمة للفظه امبراطور Imperator فقد استخدم فقط ليطلق على الامبراطور السيد ، ولم يتمتع الشريك الأول فى الحكم من الأباطرة ، بوصفه مميزا عن الامبراطور الأكبر سنا ، بنفوذ فعلى . الا فى أواخر العصور الوسطى .

ولما كان الامبراطور ممثلا لله ، فقد أصبح من الطبيعى أن تكون له علاقة خاصة مع الكنيسة (٤) فقد جرت العادة منذ منتصف القرن الخامس أن يتم تتويج الامبراطور بيد بطريرك القسطنطينية ، السلطة الكنسية العليا فى الكنيسة البيزنطية ، وقد اختلف الدارسون حول مغزى هذا التتويج ، فرأى بعض أنه يعد شيئا جوهريا وأنه من الناحية العملية يمنح السلطة الامبراطورية . بينما اعتبر آخرون أن السلطة الامبراطورية كانت شيئا مستقلا عن التتويج الذى يتم بيد بطريرك القسطنطينية . ولكن الحقيقة



تتضح على صفحات التاريخ البيزنطى أن هذه المسألة لم تكن شيئاً ثابتاً جامداً ، بل كانت عرضة للتغيير . فالسلطة الامبراطورية رغم الاعتراف لزمن طويل بأنها هبة من الله ، لم يكن ينظر اليها أول الأمر على أنها منحت بيد البطريك ، وإن كان هذا يختار طبيعياً ليكون الشخص الجدير بمنح الأشعرة التى تدل على أن الامبراطور يباشر حكمه بنعمة من الله وفضل . ويبدو أمراً بعيد الاحتمال أن البطريك كان يقوم بهذا العمل بمجرد كونه فقط « رجلاً علمانياً ، المواطن الرومانى الأول » (٥) كما كان يعتقد بيورى J. B. Bury حتى إذا كان القرن التاسع أخذت مراسم التتويج شكلها الثابت ، لتصبح فى القرن العاشر أمراً جوهرياً لا مندوحة عنه . وعبر هذا التاريخ الطويل للامبراطورية لا نجد إلا امبراطوراً واحداً لم يتوج بصفة رسمية لأسباب خاصة ، هو قسطنطين الحادى عشر ، ولم ينظر اليه باعتباره امبراطوراً بينما نرى هذه السلسلة الطويلة من الباطرة ابتداء بليو الأول Leo I (٤٥٧ - ٤٧٤) يعتبرون تتويجهم بيد بطريك القسطنطينية أمراً حيويًا بالنسبة لهم ، فهو بصفته الكليروسية ومركزه فى الحكومة الكنسية يؤدى طقس رسامة الامبراطور كنائب للمسيح . وعند تتويج الامبراطورة أو الابن أو البنت ، يقوم الامبراطور الذى سبق توا تتويجه على يد البطريك ، بتسلم التاج منه ووضعه على رأس أى من هؤلاء . وقد اتخذ هذا كدليل على التصغير من شأن الدور الذى يقوم به البطريك ، ولكن لا يجب أن يخفى علينا أن البطريك هو الذى سلم التاج فى البداية بعد الصلوات المخصصة لهذه المناسبة . وفوق هذا أصبح البطريك بمرور الزمن مسئولاً عن صدق ارثوذكسية الامبراطور ، ثم جرى العرف بعد ما كان من أمر الجدل

---

(٥) ويذكر نورمان بينز أن اختيار الامبراطور كان يمر بأربعة أدوار . الأول ينادى السناتو الرومانى أو الجيش بوضع المرشح فى وضع دستورى يجعله فى مكان الامبراطور المنتظر ، على أن يكون من الجائز بعد ذلك تثبيته أو الغاؤه ، والثانى أن يوافق الطرف الآخر وهو المرشح على ذلك . والثالث التصديق على هذا الاختيار حين يهتف الشعب الرومانى بحياة الامبراطور . أما الرابع فهو تتويجه بالتاج على يد بطريك القسطنطينية ، باعتباره ممثلاً للناخبين لا الكنيسة . وقد جرت العادة بذلك وإن لم يكن شرطاً أساسياً . انظر الامبراطورية البيزنطية ، ص ٨٠ وقارن رنسيمن الحضارة البيزنطية ، ص ٦٨ . المترجم .



اللايقونى على أن يوقع الامبراطور وثيقة ايمان قبل أن تجرى مراسم التتويج (٦) . وقد بسط ذلك فى الكتاب الذى وضع فى القرن العاشر عن الادارة الامبراطورية ، وظهرت نصوصه فى الرسالة التى كتبت فى القرن الرابع عشر عن « الوظائف » On Offices ، والتى تنسب الى كودينوس Codinus ، ويبدأ التقرير باعتراف بقانون الايمان ، يتلوه عهد بالحفاظ على تقاليد الكنيسة خاصة ما يتعلق بالمجامع المسكونية السبعة ، والمجامع المحلية ، « وامتيازات واستحقاقات كنيسة الله العظمى المقدسة » (يعنى كاتدرائية ايا صوفيا ، او كنيسة الحكمة المقدسة فى القسطنطينية) ، وينتهى بذكر واجبات الامبراطور تجاه رعيته وانزال اللعنة على كل الهرطقات . وبحكم الانتقال الوراثى من زمن لآخر ، اعطى الجيش ، او بشكل اقل ، الناس ، تلك القوة الدافعة التى تبلورت فى تقلد السلطة الامبراطورية ، ولكن هذا التقليد كان لابد أن يمهر ويختم كهبة من الاله ، انتقلت الى الامبراطور بواسطة الصفة الكهنوتية للبطريرك .

وقد ادى هذا الى تميز الامبراطور الى حد ما عن اى علمانى آخر ، وفى كل مكان وكل مناسبة يجرى التأكيد على وضعه الفريد او فى الحقيقة مركزه ذى القداسة ، وكان يرسم محاطا بهالة او اكليل ، وكان قصره هو « القصر المقدس » domus divina او (theion palation) وكان هو نفسه يشبه بالحواريين وله مكانه الخاص فى الخدمات الكنسية ، وفى عيد الميلاد يقوم بتبخير المذبح المقدس . وفى يوم الاثنين عند بداية الصوم الكبير يكرز فى الماجنورا Magnaura بين رجال البلاط المواطنين ممثلى الاحياء ليفتح بذلك موسم الغفران . ثم يدخل القدس بتقديمته ويمضى من فوره الى المذبح ليتناول القرىان ، ليس ممزوجا (٧) ، ولكن كلا على حدة من البطريرك . كما يفعل القسارسة ، وفى المجامع الكنسية كان يسلم عليه بالملك - القس (وقد ترجمت فى المضبطة اللاتينية لمجمع خلقيدونية الى pontifex او

(٦) راجع قبله . المترجم .

(٧) عادة مزج عنصرى القرىان ( الخبز والخمر ) تقليد تتبعه الكنائس الشرقية . ويعنى غمس الخبز فى الخمر ، بواسطة ملعقة الافخاريسا ، عند اتمام طقوس تناول . المترجم .

Sacerdos واعترف به كلقب شرعى وضع بواسطة الأباطرة ذوى الايمان القويم وان كانت البابوية قد رفضت خلعه على ليو الايسورى لأنه كان مهرطقا) . غير ان هذا اللقب لم يكن يضاف صفة الكهانة او الاكليروسية على الامبراطور ، ولم يحدث ابدا ان وجد الامبراطور على سبيل المثال يقدس ، لقد كان فى الحقيقة مجرد استمرار لقصة ذلك الامتياز (٨) Privilegium الذى صاحبه بعض القوانين من أجل يوليوس قيصر Julius Caesar وأوكتافيوس Octavius . والتى اعترفت مؤخرا بالوضع الخاص المخول من الله للامبراطور المسيحى .

ويدل المفهوم الدقيق عن الامبراطور الفرد على ان الكنيسة كانت جزءا من نظام الدولة ، كما كانت من جميع الوجوه تحت الاشراف العام للامبراطور ، حتى وان كانت هناك بعض المهام الخاصة التى لا يستطيع هو ان ينجزها بنفسه . ولم يكن التمييز بين ما لقيصر وما لله واضحا تماما فى الامبراطورية المسيحية Imperium Christianum فى روما الشرقية ، كما هو حادث فى عالم الغرب المسيحى ، ولم يكن يطفو على السطح فقط الا عندما يكون الامبراطور هرطوقا . وكان من المسلم به ان الامبراطور يتحمل مسئولية خاصة فى حماية القانون والنظام بين رعاياه ، الكنسيين والعلمانيين على السواء ، وقد فسر ذلك على انه يتضمن ليس فقط سلوكهم كأفراد ، ولكن نظام وتركيب المؤسسات الكنسية (مثل الأديرة) أو الادارة الكنسية (كاعادة تنظيم الابروشيات) ، وتقيض المتجددات Novels الامبراطورية بهذا النوع من التنظيمات . وكان الامبراطور يمارس سلطته هذه أيضا عند اختيار كبار رجال الاكليروس كالبطريك أو الأساقفة . وعندما تقم رسامة البطريك الجديد ، يعلن الامبراطور بنفسه نص المرسوم ، « تم تعيين هذا الرجل أسقفا للقسطنطينية بنعمة الله وبسلطتنا الامبراطورية المستمدة من فضل الله » .

علاوة على ذلك ، فقد كان للامبراطور منذ البداية دور حيوى فى أهم

(٨) للمزيد من التفاصيل عن ذلك . انظر دكتور عبد اللطيف أحمد على : التاريخ الرومانى ، ص ٢١٥ - ٢٢٧ ، Boak, op. cit. pp. 237-238 المترجم .

عنصر من عناصر الحكومة الكنسية وهو المجمع المسكونية • قسطنطين العظيم هو الذى دعا أول المجمع المسكونية للانعقاد فى نيقية • سنة ٣٢٥ وقال انه « اسقف اولئك الذين بالخارج » ربما فى مواجهة جمع الاساقفة المنتظم داخل الامبراطورية • ولقد حظى الامبراطور حقيقة بمركز مسلم به فى المجمع التى لم تكن تشبه تلك التى عقدها الآباء • وهنا ايضا تضاربت القنويات وساد سوء الفهم نتيجة الاخفاق فى ادراك تأثير النظم التى كانت سائدة قبل مجيء المسيحية • ففما يتعلق باجراءات عقد المجمع المسكونى للكنيسة كان يحتذى بما يتبعه السناتو الرومانى ، حيث توجه الدعوة لعقد المجمع من جانب الامبراطور ، وتكون رئاسته للامبراطور او مندوبيه (وهذا يطابق ما كان من حق المواطن الأول او القنصل) بينما كان للبابا او رسله حق التصويت أولا (وهو يطابق هنا رئيس مجلس الشيوخ *Princeps Senatus* وكان لابد ان تحمل المراسيم الصادرة عن المجمع توقيع الامبراطور • والحقيقة ان مساندة الامبراطور فى هذا السبيل كانت تعد شيئا جوهريا • فهو الذى يملك السلطة الكفيلة بوضع هذه المراسيم موضع التنفيذ • وتبرز مجموعات الفريسيك والفسيفساء والمخطوطات المصورة هذه الحقيقة (ونرى شيئا من هذا القبيل ايضا يمارس فى المجمع المحلية بواسطة ملوك بلغاريا او الصرب) اما الى أى حد كان يحصل نفوذ الامبراطور فى ادارة دفة الحوار ، او فرض وجهة نظره على الحضور ، فيتوقف على الظروف السائدة وشخصية الامبراطور نفسه ، ومع ذلك فقد كان حضوره واهتمامه امرا عاديا مسلما به كما تشهد بذلك محاضر الجلسات • وقد أصبح واقعا ان الامبراطور لا يستطيع ان يفرض ارادته على الكنيسة فيما يتعلق بالمسائل العقيدية (٩) • خلاصة القول ان الجميع كانوا يدركون ان اول واجبات

---

(٩) لم يجر الأمر على هذا النحو فى بداية القرن الرابع عندما اعترفت الدولة بالمسيحية ديانة شرعية على يد الامبراطور قسطنطين • ذلك ان قسطنطين فى مجمع نيقية ساق الاساقفة - وهذا هو تعبير المؤرخ الكنسى يوساب القيسارى - الى التوقيع على صيغة الايمان التى تتضمن مصطلح « الهوموسية » *Homousius* (مساواة الابن للاب فى الجوهر) ، وهى الصيغة التى اوحى بها اليه مستشاره للشئون الدينية هوسيوس اسقف

الامبراطور حماية الأرثوذكسية . وقد يقدم الامبراطور على اتخاذ اجراء شخصى اذا ما بلغت الهرطقة مداها ، كما فعل الكسيوس كومنينوس ضد البوجوميليين فى نهاية القرن الحادى عشر ، او يدعو لعقد مجمع عام او محلى ليناقش معه بعض المشاكل ذات الطابع الخاص .

ورغم هذا التسليم الجماعى بطبيعة الاهتمام الامبراطورى بالكنيسة فيما يتعلق بكل شئونها ، الا أن ذلك لم يمتص هكذا دون تحد ، ومع هذا فان المعارضة كانت نادرة على الاقل فى الامبراطورية الرومانية الشرقية . وقد أكد رجال الكنيسة أمثال أمبروز Ambrose قرب نهاية القرن الرابع ، أن مركز الامبراطور داخل الكنيسة وليس فوقها ، ونددوا بعنف بالتدخل الامبراطورى فى مسائل العقيدة . ورفعوا بصفة دائمة ذلك المفهوم ، الذى ربما يعود الى الزمن اليهودى ، الخاص باعتبار الكنيسة أعلى قدرا من الدولة ، وانها ليست جزءا منها (وهى الفكرة الاوغسطينية فى مواجهة وجهة النظر اليوسابية) . وقد ذكر البابا جلازيوس الأول Gelasius منذ ٤٨٩ أن « الامبراطورية وليد الكنيسة وليست سيدها » ، وجلا النظرية الخاصة بالعالمين ، وبين أن الروحى هو الأعلى ، رغم أن الجميع كانوا قد سلموا للامبراطور بأنه « حامى الارثوذكسية » ، defensor orthodoxae وقد اتخذ التطور السياسى فى العصور الوسطى فى عالمى المسيحية اليونانى واللاتينى طريقين متباعدين ، وانعكس هذا الى حد كبير على نظرتهم فيما يتعلق بالكنيسة والدولة . وفى الشرق ، وبعد فترة من امان النظر ومحاولات التوفيق ، تم التسليم بحدود معينة للسلطة الامبراطورية على الكنيسة . ولكن شيئا من هذا لم يحدث فى الغرب مطلقا . وكان يبدو امرا بعيد الاحتمال ، أن يرغب عدد من الرومان الشرقيين فى قبول تلك الصيغة التى اطلقها ثيودور رئيس رهبان دير ستودىوس فى القرن

---

قرطبة . وكانت مقبولة لدى الغرب منذ القرن الثالث على عهد ديونيسيوس أسقف روما ، وقبلها على مفضى سمييه أسقف الاسكندرية المعاصر له . وأضحت هذه الصيغة هى قاعدة الايمان الارثوذكسى من بعد فى الكنيسة . للمزيد من التفاصيل .

انظر للمترجم الدولة والكنيسة . الجزء الثانى ، ص ١٩٢ - ١٩٩ .

المترجم .



التاسع (١٠) بصورة عنيفة كمبدأ عملي ، « أيها الامبراطور ، حذار من أن تحطم استقلال الكنيسة فدعها لأصحابها الاكليروس والرهبان » . ولكن الواقع يكشف بجلاء اهتمام العلمانيين والكنسيين على السواء بالمسائل اللاهوتية ، ومن ثم لم يقتصر الامر بالنسبة للامبراطور على حد التشريع للكنيسة فيما يختص بالنواحي التنظيمية فحسب ، بل دائما ما كان يبدى اهتمامه بالجدل اللاهوتي ، كما حدث فعلا في القرن الحادي عشر عندما ظهرت عقيدة الزهد الصامت hesychast والجدل الذي دار بشأنها حول طبيعة الاله وكيف يكشف عن نفسه (١١) . ويمكن التعبير عن علاقة

(١٠) انظر قبله . المترجم .

(١١) ظهرت حركة الزهد الصامت في النصف الاول من القرن الرابع عشر . وقد أطلق على أصحابها هذه التسمية « الزاهدون الصامتون » أو « أولئك الذين يحيون في صمت » وهدفهم الجوهرى الاتحاد التام بالله . وقد انتشرت هذه الحركة بصفة خاصة في جبل أثوس ، أشهر موطن للرهبنة البيزنطية ، واختلفت آراء الدارسين مثل عالم البيزنطيات الالماني جلتز Gelzer والمؤرخ اليونانى بابا ميخائيل Papamichael وترويزكى Troizky واوسبنسكى Uspensky حول ماهيتها . ويعتبر جريجورى بالماس Gregorius Palamas رئيس أساقفة سالونيك ، أشهر رجالها وواضع قواعدها في القرن الرابع عشر . وساعده على ذلك احترام الامبراطور اندرونكوس الثانى له . وقد أشد أوار الجدل عندما قدم أحد الرهبان اليونان وهو بارلام Parlaam من كالابريا وقدم الى البطريرك تقريرا عن اديرة جبل أثوس وما يدور فيها ، وانبرى بالماس للرد عليه ، مما أدى الى أن تبادر القسطنطينية بالدعوة لعقد مجمع فى ايا صوفيا ، انتهى الى اذانة بارلام واجباره على طلب التوبة والغفران على ما اقترفت يداه ، وقد أدى هذا الانتصار الذى حققه بالماس فى المجمع الى ازدياد نفوذ الرهبان على الدولة والكنيسة معا ، وساعد على ذلك اضطراب الأمور فى الداخل نتيجة للنزاع بين اندرونكوس الجدد وسميه الحفيدة ، ويوحنا باليولوجوس وسميه كانتا كوزنوس ، الى جانب التهديدات المستمرة على حدود الدولة من جانب الترك والصرب .

Encycl. of Religion and Ethics, art. hesychast

انظر

The New Schaft-Herzog encyclopedia of religious knowledge

أيضا

Vasiliev, op. cit. II, pp. 665-670

وكذلك

Baynes & Moss, Byzantium, pp. 114-116

وراجع أيضا

و Ware. The Orthodox Church, pp. 72-89 المترجم .

\_\_\_\_\_

(۱۲) انظر قبله ص ۱۵۰ •

(١٢) هو ملك شاليم (أورشليم) ، وكان معاصرا لابراهيم أبى الأنبياء ، واكتسب شهرة فى زمانه حيث كان يجمع بين الملكية والكهانة . وقد جاء

القرن السادس فى كنيسة القديس فيتالى (١٤) San Vitale ، بل أصبح يقف جنباً الى جانب البطريرك كموسى وهارون . وقد تخلصت الامبراطورية بعد صراع مرير عبر القرون من المشاكل العقيدية الكبرى ، وفقدت الولايات الانفصالية الهرطوقية فى الشرق من الامبراطورية وعلاها لواء الاسلام . ونلاحظ ان الفن الامبراطورى منذ القرن التاسع فصاعداً ، وكذا ادابه ، يؤكدان على ابراز شخص الامبراطور فى مواكب النصر ، بقدر تصويره أمام الرب مسئولاً قبل الجميع عن الحفاظ على الأرثوذكسية ، الايمان القويم .

ولما كان الامبراطور نائباً عن المسيح ، فقد أصبح لذلك مصدر السلطات اوتوقراطية ، بمعنى أنه لم يكن هناك جهاز دستورى له فعاليته ، بحيث يمكن بواسطته مساءلته أو مناقشة سياسته أو حتى تنفيذ سياسة بديلة عنها ، ولم تجد دولة المدينة الاغريقية القديمة ، ولا النظم الغربية فى العصور الوسطى المتأخرة ما يقابلها فى بيزنطة . ولكن الاوتوقراطية والطغيان كانا شيئين متردافين ، وكان الحاكم البيزنطى غارقاً فى المسئوليات التقليدية لمنصبه الامبراطورى . حقيقة لقد سادت الارادة الامبراطورية بصفة عامة من الناحية العملية ، ولكن كانت هناك حدود واضحة لايجوز للامبراطورية تخطيها ، والا كان يلقي بيديه الى التهلكة . ولعله مما يجدر ذكره ان الامبراطور لم يكن مقيداً فقط بيمين التتويج ، بل كان شأن الأبناء من رعيته ، يخضع للحرم الكنسى اذا ما اكتسب اثماً . ومن اوضح الامثلة على ذلك أن امبراطورا قويا مثل يوحنا تزميسكس ايقن تماماً انه من الضرورى النزول على تهديد البطريرك ، ولم يسهه الا أن يعدل سياسته تبعاً لذلك . وحتى فى احلك الساعات التى كانت تمر بها بيزنطة لم يستطع الامبراطور أن يستميل الكنيسة والجموع للموافقة على اعادة الوحدة الكنسية مع روما .

وقد ارتضى الحكام البيزنطيون مبادئ القانون الرومانى التى ورثوها، لقد كان الامبراطور تجسيدا للقانون أو القانون يسعى على الأرض كما كان

---

ذكره فى الكتاب المقدس فى أكثر من موضع . انظر سفر التكوين ، الاصحاح ١٤ ، الآيات ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، مزمو ر داود ٤/١١٠ . المترجم .  
(١٤) انظر بعده . المترجم .



يسمى • وكان فض النزاع وحماية الفرد في المجتمع بالوسائل السلمية ودون اللجوء الى العنف يعد في حد ذاته قيذا على الاوتوقراطية المطلقة • وكحراس على مجتمع داخل اطار حضارى ، عهد الاباطرة الى لجان متخصصة للتحقق من ان مجموعات القوانين قد برئت من التراكمات او ما يكون قد شاب نصوصها ، وانها خالية من التعقيدات التي تجيء بسبب توالى (وغالبا تضارب) التفسيرات المتعلقة بالمواد الرئيسية • كما انهم وضعوا بعض التعديلات او الاضافات حسبما تقتضيها حاجات الامبراطورية • ولم تنحصر اهم هذه الاعمال فقط في مجموعة جوستينيان القانونية ، بل هناك ايضا مقننات اباطرة القرن الثامن وواخر التاسع واول العاشر ، التي ألحقت بمجموعات اخرى غير رسمية وكتيبات صغيرة مثل قانون الفلاح Farmer's law الذي صدر ربما في نهاية القرن السابع ، وكتاب الوالى Book of the prefect الذي صنف طوائف الحرفيين في القسطنطينية في بواكير القرن العاشر • وكذلك القواعد الكنسية التي وضعها فقهاء القانون الكنسى • اما العمل الذي ظهر في مطلع القرن العاشر وسمى « التشريعات الامبراطورية Basilica فقد أصبح مؤخرا الصيغة النهائية لمجموعة القانون الرسمى • وقد صدرت هذه التشريعات باللغة اليونانية ، اللسان السائد في الامبراطورية ، وأشرف عليها كل من باسل الاول وليو السادس ، وقد عملت الأجيال المتعاقبة على استخدامها وازدادة التعليمات والشرح عليها بصفة دائمة •

والى جانب هذا التقدير والاهتمام بالناحية القانونية ، جرى الاهتمام ايضا بالمحاكم حيث تطبق هذه القوانين • وكان الاستئناف العالى يرفع للامبراطور في مجلسه الامبراطورى ، كما كانت الاحكام المتعلقة بقضايا امن الدولة من اختصاصه • وكانت القضايا ترفع وتناقش في المحاكم المحلية علمانية كانت او اكليروسية تبعا لنوعية الخصوم والدعوى • ومع بداية الاعتراف بالمسيحية ، اخذ الامبراطور يبدى اهتمامه بتعريف وتحديد اختصاص كل منها • فاختصت المحاكم الكنسية عادة بالقضايا التي يكون المدعى عليه فيها من رجال الدين ، كما تختص بنظر القضايا المدنية اذا كان طرفا النزاع فيها ايضا من بين الاكليروس • وحولت اليها كذلك (م ١٦ - العالم البيزنطى)



قضايا الأحوال الشخصية ، ويتضح نمو سلطان الكنيسة في ازدياد الدور الذي تلعبه في الناحية القضائية حتى أنه بعد عام ١٢٦١ أصبح الحد الفاصل بين المحاكم الكنسية والمدنية أقل وضوحا ، واعتمدت السلطة الامبراطورية كثيرا على رجال الكنيسة ، مثال ذلك أن العلمانيين ، والاكليروسيين في نهاية العصور الوسطى كانوا يرسلون الى الخارج في دورات قضائية ، كما أقيمت مؤخرا محاكم استئناف محلية في مناطق مختلفة من الامبراطورية المتبصرة لتوفر على المتقاضين ماسوف يضيعونه من وقت ومال اذا ما استأنفوا قضيتهم في العاصمة .

وكان الأوتوقراطور مسئولاً عن سن السياسة وتوجيه الإدارة ، بيده الأمر ، يولى من يشاء ويعزل من يشاء . وكانت الوظيفة تمنح بمرسوم امبراطوري ، وللتدليل على أن الامبراطور هو مصدر هذه السلطات ، فقد كان يرمز لذلك بخلعة تشريفية ، غالبا في عيد الفصح ، بالاضافة الى لقب تشريفي يدل على المنصب الذي سوف يشغله هذا الشخص في مراسم البلاط . مثل هذه الألقاب التشريفية كان لابد أن تمنح من قبل الامبراطور شخصيا ، فلقب كبير الموظفين *magisater* على سبيل المثال ، كان يحمل معه لفاغا أو عباءة مطرزة بالذهب ، ورداء تم نسجه بخيوط بيضاء مذهب ، وحزاما مرصعا بالجواهر . ولابد أن مراسم هذا شأنها كانت تساعد على زيادة اعتماد كبار الموظفين على الامبراطور ، الذي كان يقوم في الحقيقة أيضا بدفع مرتباتهم في أحد الآلام *Passion Sunday* كما لاحظ المبعوث الايطالي ليوتبراند *Liutprand* أسقف كريمونا *Cremona* في القرن العاشر .

أما السناتو كركن أساسي في الحياة السياسية فقد توقف عن أن يصبح عاملا له أهميته في الحكم . ومع أنه أثبت في بعض الأحيان قدرته على امتلاك زمام المبادرة ، كما حدث عند وفاة الامبراطور ليو السادس عام ٩١٢ وخلال السنوات الأولى من عهد ابنه القاصر قسطنطين ، إلا أن ذلك كان أمرا خارجا عن المألوف . جملة القول أن السناتو كان يتكون من أعضاء يتميزون فقط بالألقاب التشريفية دون أن تكون لهم مهام حقيقية ، أما مستشارو الامبراطور فلم تكن لهم الصفة الرسمية المألوفة ، ذلك أنهم

كانوا يشكلون مجموعة صغيرة من الرجال الذين ارتبطت مراكزهم بالاختيار الامبراطورى ، ويمكن الاستغناء عنهم حسب ارادة الامبراطور ، على حين كان هناك بعض القدر من الدوام فى الفروع الدنيا من الادارة المدنية والمحاكم . اما نظام جباية الضرائب فقد ازداد رسوخا بمرور الايام (كما يعلم الجميع) ومن المحتمل ان يكون قد تعرض لبعض التعديلات اما بالاستحان الامبراطورى او الوسائل الامبراطورية . وقد تمت الاغارة على سلطة الحكومة المركزية ومواردها عن طريق منح الكثير من الاعفاءات *exkousseiai* لكبار الملاك من العلمانيين ورجال الاكليروس ، واتخذ هذا الاسلوب اشكالا شتى ، فقد كان على المالك ان يتولى بنفسه مسئولية جمع الضرائب من مستأجره ، وان يرسل بها مباشرة الى خزانة الدولة المركزية ، وبهذا يمكنه تجنب الاستقبال المقيت لجباية الضرائب عند قدومهم الى ضيعته ، او ربما يعفى من كل او بعض الالتزامات الضريبية ، كما كان يتمتع فى بعض الاحيان باختصاصات قضائية تجاه مستأجره . ومع نهاية القرن الحادى عشر عملت الهبة المعروفة بنظام « الميرة » *Pronoia* على اضعاف الادارة الامبراطورية الى اقصى حد (١٥) .

وقد بلغت الادارة المدنية البيزنطية حدا بالغاً من التعقيد ، ولكنها كانت ، على عكس الاعتقاد الشائع ، تتميز بالكفاءة والمرونة . فقد كان نظام الادارة يخضع بصفة مستمرة للمتابعة الامبراطورية ، وتعرض لتغييرات جوهرية خلال التاريخ البيزنطى الطويل . وكان هذا النظام يتركز فى القسطنطينية حيث توجد هيئة كبار الموظفين المدنيين الذين يتلقون اوامرهم من الامبراطور ، وبينما كان البعض مثل محافظ العاصمة يتمتع بمركز ممتاز ويؤدى واجبات واضحة محددة ، كان البعض الآخر يشغل مناصب تتصل مباشرة بالبیب الامبراطورى . مثل كبير الأمناء *Grand Chamberlain* الذى كان بسبب ملازمته لشخص الامبراطور يتحمل تبعات ضخمة وغالبا ما يحظى فى الوقت ذاته بنفوذ كبير . وكانت هناك الوظائف المدنية العادية كذلك التى تتصل بالقضاء والمالية وما يتعلق بها من اقسام عديدة ، فقد كان

يوجد مثلا قسم مالى خاص مهمته توفير المعدات للجيش ، ولهذا كانت له سلطة على المصانع فى الدولة ، وكانت منطقة اشرافه الرئيسى هى حقول تربية الجياد فى اسيا الصغرى .

وتختلف الادارة المدنية فى القرن العاشر عنها فى اوائل القرن الرابع فيما يتعلق بالتفاصيل ، وجملة القول ان التغيرات كانت ترى فى كيفية توجيه هذه الخلايا الكثيرة من الوظائف الهامة . وهكذا كنا نجد تمايزا فى الوظائف مع الاعتماد المتزايد على الامبراطور ، بحيث أصبحت السلطة المركزية أكثر دقة ، وأضحى كبار الموظفين أقل استقلالا ، وتلاشت اللامركزية التى كانت السمة الواضحة زمن النواب البرايتوريين *Pretorian Prefects* وان كان التهديد الكامن فى كبار القادة العسكريين ، أو كبار الأعيان ما يزال ماثلا .

وشملت التغيرات أيضا تنظيم الولايات ، فقد اقتضت الأحوال العسكرية فى القرن السابع ان تأخذ الأسرة الهرقلية على عاتقها مهمة الإصلاح الأولى ، واستمر هذا الإصلاح من بعد على عهد خلفائها (١٦) ، فتغير التصنيف الإقليمى للولايات الجديدة التى عرفت بالثيمات *themes* تحت إدارة حاكم ، كان يسمى عادة « القائد » ، *strategos* جمع فى يديه السلطتين العسكرية والمدنية . وقد تعرضت هذه الثيمات للتقسيم بصفة مستمرة ، و أيضا الإضافة ، كلما ضمت أرض جديدة ، أو الإشراف على الولايات التى فقدت وأعيدت ثانية ، على يد القادة البارزين فى الحقبة البيزنطية الوسيطة . فلما انهارت الامبراطورية سنة ١٢٠٤ كان لابد ان تطرأ تعديلات اشد عمقا وانتقلت الأقاليم فى الحقيقة من يد إلى أخرى بصورة متكررة حتى ان التنظيمات الادارية فى الولايات كانت تتجه الى ان تصبح مجرد حبر على ورق . ومع ذلك فان نواة النظام الادارى ظلت باقية ، وهى التى مكنت أسرة باليولوجوس من ان تبقى فى الحكم ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان بعد التقسيم اللاتينى الذى تعرضت له الامبراطورية . وقد لعبت البيروقراطية اليونانية السائدة دورا بارزا فى تجميع الأجناس المختلفة التى كانت تحتويها بيزنطة ، سواء زمن مجدها

وازدهارها ، أو حتى عندما كان قدرها الى زوال . هذا التنظيم الإدارى هو الذى مكن الامبراطورية من الدفاع عن حدودها أو توسيع دائرة هذه الحدود .

وكانت السياسة الخارجية تتركز كلها فى يد الامبراطور الذى كان يعتبر وزيرا للخارجية بارعا ، ويتضح هذا بصورة تثير الدهشة فى الكتاب الذى وضع « عن الادارة الامبراطورية De Administrando Imperio » وتناول بالتفصيل المبادئ الأساسية فى الشؤون الخارجية . وقد صنف هذا الكتاب فى منتصف القرن العاشر ليخصص لابن الامبراطور قسطنطين السابع ، وليس هناك شك فى أنه قد استخدم أيضا من جانب كبار موظفى ادارة الخارجية . وكان واضحا أنه لم يوضع للاستعمال العام ، ومن ثم لم يكتب منه الا عدد قليل جدا من النسخ الخطية . ولا شك أن الاهتمامات الامبراطورية . والخلفية العريضة كان لها تأثيرها بطبيعة الحال على مبادئ السياسة الخارجية ، من ذلك مثلا أن الامبراطور تقف فوق فؤاد الذى ينتمى لأسرة ثرية فى آسيا الصغرى ، كان يبدى اهتماما زائدا باكتساب اراض جديدة على الجبهة الشرقية أكثر من اهتمامه بالدفاع عن الدانوب . بينما حرص قسطنطين التاسع ، وهو رجل يكره الحرب ويعشق الدعة ، على أن يعيش بكل الوسائل حياة مترفة فى القسطنطينية . وغالبا ما كانت نواحي القصور عند امبراطور خامل ، أو وريث للعرش قاصر تعوض بكفاية على يد امبراطور شريك مقتدر حتى نهاية القرن العاشر بصفة خاصة .

وكيفما كانت وجهات النظر الشخصية لدى الأباطرة ، فإن الحدود الطويلة والتهديدات المستمرة من جانب الأعداء المجاورين ، لم تكن تسمح لادارة الخارجية البيزنطية الا بوقت قليل تسترد فيه أنفاسها اللاهثة ، فقد كانت الدبلوماسية سلاحها التقليدى المحبب اليها . وقد جرب هذا السلاح فى مناسبات عديدة ، تناول كتاب « عن الادارة الامبراطورية » ، De Administrando Imperio الكثير منها بالشرح والتوضيح . وفى القسطنطينية نفسها لم تترك فرصة واحدة تمر دون استغلالها فى التأثير على الزائرين والرسول . لقد كان الزائر يقف مشدوها أمام روعة مبانيها وقوة



تحصينتها وثراء تجارها وحركة أسطولها ، ثم لا يلبث الزائر أن يفقد ليه امام هذا الاستقبال الامبراطورى الرائع ، الذى لا يكاد يفيق منه حتى يفجأة الامبراطور بهدية ثمينة ولقب تشريفى عظيم . وكان هذا كله يمول من حصيلة المدفوعات السنوية ، أو المنح الخاصة من أجل الحفاظ على العلاقات الودية القائمة ، أو إثارة عدو ضد آخر ، كما حدث من تحريض البشناق ضد البلغار ، أو هؤلاء ضد الروس . وكان الثائرون واللاجئون السياسيون يجدون الترحيب الحار فى القسطنطينية لأسباب لاتخفى على أحد . وبعد الحملة الصليبية الأولى ارتفع عدد الزيجات السياسية بين البيت الامبراطورى فى بيزنطة والعائلات الملكية الصقلية أو الغربية ، على خلاف ما كان سائدا فى القرون الأولى للامبراطورية حسبما جاء فى كتاب « عن الادارة الامبراطورية » من التركيز على انه لا يليق بمن ولدت فى الأرجوان أن تقتزن بغير بيزنطى . (وان كان هذا قد حدث بطبيعة الحال عند الاقتضاء) . وهكذا ، على الرغم من أن المبادئ الأساسية للدبلوماسية البيزنطية بقيت دون تغير ، إلا انها كانت تتسم بالمرونة عند تطبيقها ، ووضعت السياسية بحيث تتماشى مع الظروف المتغيرة .

وكانت مسئولية تكوين الجيش وبناء الأسطول تقع هى الأخرى على عاتق الامبراطور ، فهو الذى يختار القادة العسكريين ، وأمراء البحر الذين يتولون قيادة الحملات العسكرية فى البر والبحر ، وان كان غالبا ما يتولى ، شأن باسل الثانى وميخائيل الرابع ، أمر القيادة بنفسه . وكان الجيش يعتبر حجر الزاوية فى امبراطورية يحيط بها الأعداء من كل جانب ، لقد كان موضعه من الدولة « موضع الرأس من الجسد » . وقبل القرن الحادى عشر كان تجنيد القوات كلما أمكن ذلك من العناصر المحلية خاصة الأرمن والايثوريين الذين اثبتوا كفاءتهم القتالية ، وابتداء من القرن السابع كان الجنود يحصلون على أجرهم فى شكل هبة وهى عبارة عن قطعة من الأرض يحوزها الجندى وراثيا مقابل الخدمة العسكرية ، ويتسلم الى جوارها مبلغا معيناً من المال عن كل سنة أمضاها فى الخدمة العسكرية بحسب أقصى اثنى عشر عاما . وقد بذلت جهود امبراطورية كبيرة لحماية هؤلاء الجنود المزارعين ، غير انه فى القرن الحادى عشر بدا واضحا أن أعدادهم أخذت تتناقص ويعود ذلك فى الدرجة الأولى الى شراء كبار الاعيان لأراضيهم

دفعة واحدة ، أو نتيجة للاغارات التركية المستمرة . ومنذ القرن الثانى عشر أخذت الناحية العسكرية شكلا أكثر أرسقراطية ، وربما أكثر اقطاعية ، مع ازدياد استخدام نظام « الميرة » Pronoia . وكانت هذه الهيئات تعد شيئا ثابتا أو محبوسا لا يمكن التصرف فيه ، حيث تمنح الى كبار الاعيان فى مقابل الخدمة العسكرية (١٧) . وقد عم ذلك أيضا بالنسبة للجند المحترفين ، الوطنيين منهم والاجانب . ولقد كان هذا أمرا باهظ التكاليف ، ونتيجة لنضوب الموارد المالية كان الضباط فى بعض الأحيان يتقاضون هبات تخولهم الحق فى تحصيل الضرائب الامبراطورية من اقاليم أو ضياع معينة . ولكن هذه الوسيلة كانت مقيته لدى المواطنين حيث انها أدت الى الاستنزاف الكامل لتلك المناطق .

وقبل أن تأخذ الامبراطورية طريقها الى التدهار ، كانت جيوش الولايات تتركز فى الثيمات ، واتخذت احتياطات خاصة من أجل مناطق الحدود ، التى كان يقوم بحمايتها والسيادة عليها سلسلة من سادة البر . ولدينا صورة عن الحياة فى هذه المناطق الشرقية فى القرن العاشر مبسطة فى قصة ديجنيس أكريتاس ، بامه المسيحية وأبيه الذى ارتد عن الاسلام ، والذي تتضح أعماله الخارقة ومغامراته فى ملحمة شعرية تتغنى بسير الأبطال . وفى القسطنطينية ، كان حراس القصر ، الفرسان والمشاة ، يعسكرون شأنهم شأن الحرس الامبراطورى الخاص . وكان هذا الأخير يتكون من عدد كبير من المرتزقة الاجانب . أما فى القرن الحادى عشر فقد ذاع صيت الحرس الخاص الذى عرف بالورنك (١٨) Varangian وضم مجندين من اقطار بعيدة ، وإن كان يتشكل فى أساسه من الجنود الروس والاسكندنافيين ، حتى اذا كانت نهاية القرن غدا جله أنجلوسكسونيا .

ونقف على التفاصيل التى تتعلق بالجيش ، فرسانه والمشاة ، أمتعته

---

(١٧) انظر : P. Lemerle, Recherches sur le regime agraire a Byzance La terre militaire a l'époque des Comniénes, in Cahiers de Civilisation  
Pronoia قيد الدراسة (1959) Medievale 2 والبحث .  
(١٨) راجع ص ١٥٢ المترجم .

وتجهيزاته ، مدفعية الميدان المتحركة وآلات القتال ، من المصادر التي بين أيدينا خاصة تلك المؤلفات العسكرية المتعددة ، وبلغ فن القتال درجة عالية من الدقة والاتقان ، وأعطى اهتمام خاص للنواحي الدفاعية ، وبذلت الجهود للمحافظة على الموارد بتجنب البدء بالجهوم ، ودرست بعناية فائقة خطط العدو استعدادا للقتال في حالة عدم امكانية تجنب المواجهة السافرة . ولاشك ان تفوق الجيش البيزنطي كان من بين الأسباب التي جعلت بيزنطة قادرة لفترة طويلة على الاحتفاظ بحدودها مصونة من عبث جيرانها . وكان جنوده يملأهم الحماس ليس فقط لاعتقادهم بأنهم يؤدون ما عليهم من واجبات ، ولكن لايمانهم بأنهم يحاربون من أجل القضية المسيحية ضد الكافرين ، وسوف يجدون سعادتهم في مملكة الله الآتية . وكان يرافقهم في حملاتهم العسكرية منشدون Cantatores يثيرون حماسهم ، الى جانب جماعة من الاكليروس ، وكانوا يستقبلون يومهم بالصلاة وبها يودعونه ، صيحتهم في المعركة « فلينتصر الصليب » ، يندفعون الى القتال بروح صليبية ، متطلعين لمقدم جند السماء خاصة اولئك القديسين المجاهدين مثل القديس جورج St. George أو القديس ثيودور St. Theodore الذين يحاربون في كنفهم وتحت رعايتهم .

والى جوار هذه القوة الحربية التي لا تقهر ، يحتل الاسطول البيزنطي مكانه . حقيقة انه لم يلق نفس القدر من الرعاية التي نالها الجيش ، ولكنه كان على أية حال يستطيع ادعاء القيام بدوره الملقى عليه في التصدي لموجات الهجوم الاسلامي . وعلى غرار الثيمات العسكرية كانت هناك ثيمات بحرية في البحر الايجي والمناطق الساحلية في جنوب وجنوب شرق اسيا الصغرى ، ثم اضيف اليها بعد ذلك الولايات الثغرية في بلاد اليونان ، وكانت مهمتها تزويد الاسطول بالمجندين البحريين ومعداتهم . وقد قام الاسطول البيزنطي بدور حاسم في انحسار المد البحري العربي وحماية العاصمة في القرنين السابع والثامن ، وفي استعادة بعض السيادة على منطقة بحر ايجة زمن الاسرة المقدونية . وقد كان الامبراطور نقفور الثاني صادقا تماما في الحقيقة عندما اكد في عام ٩٦٨ لرسول اوتو الاول ، الاسقف المتهور ليو تيراند اسقف كريمونا ، انه هو وحده الذي احرز التفوق البحري . وتعتبر النار الاغريقية السلاح الفتاك لدى الاسطول البيزنطي ،

وهى عبارة عن مادة ملتهبة يبدو أنها تتكون من عناصر مختلفة ، مثل الكبريت ونترات البوتاسيوم وتقتذف من عرادة باتجاه سفن الاعداء .

غير أن القدر السيء الذى صاحب بيزنطة ابتداء من القرن الحادى عشر ترك بصماته على قوتها البحرية بدرجة لا تقل عما حدث للجيش . فقد افتقرت الدولة الى المواد الاساسية اللازمة لصيانة الاسطول ، ولم تستطع ان تدخل ميدان المنافسة مع القوى البحرية الممثلة فى المدن الايطالية خاصة البندقية وجنوه . ولما لزمّت سفن الاسطول الساحل ولم تعد تمخر العباب ، انتقل بحارتها للخدمة فى الاسطول التركى او اشتغلوا بالقرصنة ، وقد حدث هذا بصفة خاصة بعد عام ١٢٠٤ عندما أصبحت بيزنطة دولة صغيرة . ولكن هذا لا يمحو مطلقا ذلك الدور الفعال الذى لعبه الجيش والاسطول على السواء ، طوال ما لا يقل عن اربعة قرون ، منذ زمن الاسرة الهرقلية حتى عهد باسل الثانى ، فى مساندة الدبلوماسية البيزنطية والتصدي للكافرين .





# الفصل لستّادس

الكنيسة الأرثوذكسية

الحياة المسيحية والعلمانيون



## الفصل السادس

### الكنيسة الأرثوذكسية

### الحياة المسيحية والعلمانيون

( ١ )

لم يستطع الاعتراف بالمسيحية من جانب قسطنطين العظيم في بواكير القرن الرابع أن يمس الحقائق الجوهرية في المسيحية أو يبذل من طبيعة التكوين الكنسي المقدس ، وإن كان في الوقت ذاته قد أحدث بعض التغييرات . فالامبراطورية الرومانية القديمة بعقائدها الدينية العديدة المتباينة قد حل محلها الآن امبراطورية رومانية مسيحية . وقد تعرضت الوحدة الامبراطورية في الغرب في أوائل العصور الوسطى الى التصدع ، ولكن على الرغم من الاختلافات السياسية واللغوية الا أنه أمكن قيام مجتمع يتبنى نمطا من الوحدة تقوم على أساس الايمان المسيحي المشترك . هذا هو مجتمع العصور الوسطى المسيحي الذي ضم أولا دويلات الغرب اللاتينية والامبراطورية البيزنطية في حوض البحر المتوسط الشرقي وعالم اليونان ، ثم اضيف اليه بعد ذلك الشعوب الصقلية بعد تحولها الى المسيحية . والى جوار ذلك كان هناك بعض البلدان المسيحية مثل ارمينيا واثيوبيا ، وأقليات مسيحية تقيم وسط مجتمعات أخرى لاتدين بالمسيحية مثل الامبراطورية الفارسية والدولة الاسلامية فيما بعد .

وكانت الكنيسة المسيحية ، حتى قبل أن يسمح لشعبها بحرية العبادة في سلام ، قد مكنت لنفسها في الأرض عمقا واتساعا ، خاصة في روما وانطاكية والاسكندرية ثم نظمت على عجل خلال القرنين الرابع والخامس متخذة من الحكومة الزمنية نموذجا يحتذى ، فانقسمت الى عدد من الأسقفيات تحت رعاية المطارنة ، وعلى رأسها جميعا أسقفيات روما وانطاكية والاسكندرية ، الكراسى الرسولية القديمة والتي كانت روما من بينها تحتل المرتبة الأولى . ولم تلبث اورشليم والقسطنطينية أن أخذت تفسح لنفسها



مكانا بين هذه الكراسى ابان تلك الفترة . وهكذا أصبح ماثلا للعيان خمس بطريكرات كبرى هى التى انقسم اليها العالم المسيحى فى العصور الوسطى . وكان لدى اورشليم دعاوى خاصة لهذه المرتبة العالية ، اما كنيسة القسطنطينية فلم تكن تستمد اهميتها فقط من وجودها الرسولى (١) او موقفها البارز ابان فترات المقاومة التى مرت بها الكنيسة الاولى ، بل من اعتبارها مستقر الأباطرة ومقامهم والعاصمة الجديدة . وقد تقرر هذا الوضع فى المجتمع المسكونى الذى عقد فى القسطنطينية عام ٢٨١ وكان من بين قوانينه الاعتراف بأن اسقف القسطنطينية يحتل المرتبة التالية مباشرة لأسقف روما ، وله نفس التقسمة فى الكرامة ، لأن القسطنطينية هى روما الجديدة . وفى ختام مجمع خلقيدونية Chalecedon الذى عقد سنة ٤٥١ ، وفى غيبة مندوبى روما ، أعيد تأكيد هذا القرار فى جلسة خاصة فيما يدعى قانون خلقيدونية الثامن والعشرين ، ورغم أن البابوية قد رفضت هذا القانون فى حينه ، الا أن الكنيسة الأرثوذكسية نظرت اليه باعتباره سنداً قانونياً لحقوقها . كما أنه قوبل أيضا بالاستنكار من جانب الاسكندرية وانطاكية ، ولكن الفتوحات الاسلامية ابتداء من القرن السابع جردت هاتين المدينتين من كثير من نفوذهما ، فقدّر للقسطنطينية بذلك أن تصبح أهم المراكز الأسقفية فى الشرق المسيحى ، وأن يكون لها أيضا تأثيرها الفعال على الأقاليم الصقلبية فى الشمال .

ومنذ القرن الرابع أخذت المشاكل الخاصة بالتنظيم الكنسى والعقيدة تناقش عن طريق الاجتماعات الكنسية التى يتمثل أعلاها فى المجمع المسكونية . وكان أول هذه المجمع هو ذلك الذى دعا اليه قسطنطين العظيم وعقد فى مدينة نيقية سنة ٣٢٥ . وكانت الدعوة توجه الى كل الأساقفة (أو من ينوبون عنهم اذا لم يتيسر حضورهم شخصياً) ، وتصبح مناقشات هذه المجمع ملزمة للكنيسة كلها وتتم هذه الاجراءات جميعها تحت الرعاية الامبراطورية ، وهى تصور التعاون الكامل بين الكنيسة والدولة . وتختتم الجلسات بالابتهالات من أجل الحكام الأرثوذكس الذين كان لابد من توقيعهم

على قوانين هذه المجامع ، وهذا الاجراء الأخير فى حد ذاته يعنى أن هذه القوانين سوف تحصل على تأييد السلطة الزمنية .

وقد اعترفت كل الأسقفيات بالمجامع المسكونية السبعة الأولى . أما بعد القرن التاسع فلم تظهر الحاجة لعقد مثل هذه الاجتماعات العامة ، فقد انقضت تلك الفترة التى كان يتعين فيها البحث عن تعريف واضح ومحدد للايمان ، كما أن المشاكل المتعلقة بالتنظيم الكنسى أمكن علاجها على أسس اقليمية . ومع منتصف القرن الحادى عشر ظهرت هناك عقبة فى طريق مثل هذه المجامع التى تتسم بروح الأخوة ، ممثلة فى اتساع الشقاق بين الغرب اللاتينى والامبراطورية البيزنطية ، زاد من عمقه ما انتهى اليه امر الحملة الصليبية الرابعة سنة ١٢٠٤ . فلما كانت العصور الوسطى المتأخرة أمست المشاكل التى تواجه الكنيسة ذات طابع مختلف تماما ، وإن كانت النقطة الرئيسية فى أى مجمع عام هى أن كانت القسطنطينية ستجعل المناقشات « المسكونية » ممكنة بالموافقة على إعادة الوحدة الكنسية مع روما .

ولاشك أن بزوغ نجم القسطنطينية كعاصمة للامبراطورية الرومانية فى الشرق ، وأقول نجمى منافستها أنطاكية والاسكندرية نتيجة وقوعها فى أيدي الكافرين (٢) . قد دعم دون ريب أهمية مركز بطريرك القسطنطينية . رأس الكنيسة البيزنطية ، الذى أقدم على اتخاذ لقب « مسكونى Oecumenical » وإن كان هذا فى الحقيقة ليعنى السيادة على الكنيسة بعامه (٣) ، وقد ازداد

(٢) انظر قبله حاشية ١٦ ص ١٤٧ . المترجم .

(٣) كان يوحنا الرابع الصوام John the Faster بطريرك القسطنطينية (٥٨٢ - ٥٩٥) قد أقدم على اتخاذ لقب مسكونى Ecumenical حسبما جرى به التقليد منذ عهد سلفه الأسبق أكايوس (٤٧٢ - ٤٨٨) ولم يحتل البابا فى روما هذا الاجراء . وكان عندئذ جريجورى الأول العظيم (٥٩٠ - ٦٠٤) الذى اتصف بالكبرياء والاعتزاز بنفسه وسلطان الكرسي الرومانى فوق سائر الكراسى الرسولية . ومن ثم كتب الى الامبراطور موريس ساخرا يقول : « من الأعماق أصرخ . . واحسرتاه على الزمان بالضبيعة الأخلاق ، هذى أوروبا وقد طواها البرابرة ، وبادت المدائن وهوت الحصون واقفرت الأرض من ساكنيها ، وهجر الفلاحون الزروع ، والمشركون يعيشون فى الأرض فساد ، يهلكون الحشر والنسل . رجال الرب الذين عليهم أن يخروا سجدا وبكيا ، راحوا يبحثون لأنفسهم فى أسماء زائفة

سلطانه على حساب روما عندما أقدم الامبراطور ليو الثالث في سنة ٧٢٢ على نقل الاشراف على كنائس جنوب ايطاليا واليونان وأجزاء من البلقان الى بطريك القسطنطينية . ولم تلبث العلاقات مع روما أن ازدادت توترا من جراء التحالف البابوي مع الحكام في الغرب ، وما تبع ذلك من المبادرة البابوية بايجاد امبراطور في الغرب سنة ٨٠٠ . وقد أصبح البطريك البيزنطي على اتصال وثيق بالامبراطور ، فهو الذي يتلقى منه وثيقة ايمانه ، ويقوم بتتويجه ، ويقدم اليه النصيحة ، بل كان بمقدوره أن يوجه اليه اللوم والتحذير اذا دعت الضرورة . ولكن الأوتوقراطور كان الشخصية الأقوى ، فغالبا ما كان مسئولاً عن اختيار البطريك وقادراً على تدبير أمر استقالته أو عزله ، ومع ذلك فقد كان للبطريك مكانته الخاصة في دائرة هذا الترابط الوثيق بين الكنيسة والدولة ، وقد أخذ على عاتقه بعد سنة ١٢٠٤ مقاومة محاولات الأباطرة لاعادة الوحدة مع روما ، يشد من أزره في ذلك العلمانيون والرهبان ورجال الكليروس . وكان يعد مسئولاً بصفة خاصة ، الى جانب مهامه الكهنوتية ، عن رعاية وحفظ التعاليم والتنظيمات المسيحية داخل

---

عن خيلاء وغرور . . . لن يفلت من العاقبة ذاك الذي بغي وأساء الى الكنيسة المقدسة الجامعة ، ذاك الذي خلع على نفسه لقباً يستعلي به على مجد امبراطوريتك » . غير أن الامبراطور موريس لم يلق بالا لهذه الرسالة ، فلما قتل موريس وخلفه فوقاس كتب اليه جريجوري قائلاً « الحمد لله في الأعلى . . . فلتفرح السماوات ، ولتزدد الأرض حبوراً ، ولتشرح صدور الناس لما قمت به من جليل الأعمال !! ولتعد آخر الأمر حرية كل انسان الى صاحبها في كنف الامبراطورية التقية الورعة . اليس ثمة فرق بين ملوك سائر الأمم وبين أباطرة الرومان . ان الملوك ليسوا الا سادة العبيد ، أما أباطرة الدولة الرومانية فانهم سادة الأحرار » . والمتأمل لهذه الرسالة يرى أن البابا قد أضفى على الامبراطور فوقاس صفات والفاظاً لا تتناسب مطلقاً مع ما عرف عن هذا الامبراطور : وقد عد فوقاس خطاب البابا تكريماً لشخصه فمنع بطريك القسطنطينية من اتخاذ لقب « مسكوني » واعتبر الكرسي الرسولي في روما رأس جميع الكنائس .

Nicene and post-Nicene Fathers, XII, 171, XIII,

أنظر

Vasiliev, op. cit. 1, pp. 173-174

و

وكذلك دكتور أسد رستم : كنيسة انطاكية ، الجزء الأول ص ٤٣١ -

٤٢٣ . المترجم .



الكنيسة ، وراح يباشر عمله أساسا من خلال المجمع الدائم فى القسطنطينية (Synodos endemousa) وذلك بعد أن هذا الجدل العقيدى الساخن الذى شهدته المجمع المسكونية ، وكان هذا المجمع الدائم يتكون أساسا من الأساقفة المقيمين فى العاصمة ، ولكن ابتداء من القرن العاشر كان يحضره المطارنة وكبار رؤساء الأساقفة . وفى هذا المجمع تم اقرار المشاكل الخاصة بالطقوس الكنسية ، وربما وجدت أعياد جديدة ، وبحثت نقاط الجدل كمسألة الطقوس الخاصة على سبيل المثال ، وهل يسمح باقامتها أم لا . وأقيم الحد على الخطاة من رجال الكنيسة ، ذلك أن المجمع كان يتصرف كمحكمة للعدالة وكهيئة تشريعية سواء بسواء .

وعلى امتداد عمر الكنيسة الأرثوذكسية الوسيطة عملت السلطتان الزمنية والكنسية معا ، كل منهما تكمل الأخرى ، كما يتضح ذلك تماما من الاطلاع على المثل البيزنطى للقانون الكنسى المعروف فى الغرب . وتعرف أهم أجزائه الخاصة بالتنظيم الكنسى بـ « القوانين الكنسية تحت أربعة عشر عنوانا » وتتكون من تشريع صادر من الامبراطور والكنيسة ، وكذلك بعض المسائل الأخرى التى كانت لها أهمية خاصة . وينطبق الأربعة عشر عنوانا حقيقة على الجزء الأول الذى أعطى القواعد القانونية لموضوعات بوبت ما بين الايمان الأرثوذكسى الى ادارة الاملاك الكنسية ، واتبعت بنصوص وردت كاملة شأن ما يسمى بالقوانين الخمسة والثمانين للرسائل وبعض الفقرات الخاصة بأباء الكنيسة ، واختتمت بالقوانين الزمنية . وكانت هذه فى الأصل المجموعة الخاصة بيوحنا الأنطاكى الققيه Scholasticus الذى أصبح اسقفا للقسطنطينية . وعلى أسس هذا العمل وضعت « القوانين الكنسية تحت أربعة عشر عنوانا » فى القرن السابع ، وتمت الموافقة عليها فى المجمع الذى عقد بقاعة القبة Trullo ( سنة ٦٩١ ) (٤) والمجمع المتأخرة . وكانت ابان فترة العصور الوسطى تظهر دائما فى صورة متجددة

---

(٤) انظر قبله . المترجم .



من وقت لآخر ، وتم اخراجها أربع مرات كان آخرها على يد بالسامون (٥) Balsamon القانونى قرب نهاية القرن الثانى عشر .

وكان البطريرك يتربع على قمة السلطة فى الكنيسة البيزنطية ، يليه المطارنة الذين يشرفون على المطرانيات الكنسية ، التى انقسم كل منها الى عدد من الاسقفيات ، وكان الأساقفة الذين لا يخضعون لأحد المطارنة يسمون كبار autacephalous رؤساء الأساقفة . وفى البداية كان اختيار المطران يتم على يد البطريرك من بين ثلاثة مرشحين ، ثم أصبح هذا الاختيار من اختصاص المجمع الدائم فى القسطنطينية فيما بعد . أما الاسقف فيختاره المطران من بين ثلاثة أشخاص يرشحهم مجمع المطرانية . وكان الادعاء الامبراطورى بالتصديق على هذا الاختيار يلقى المقاومة . ولكنهم مع ذلك استطاعوا الاحتفاظ بالحق فى الترقية أو تخفيض الرتبة ، وذلك بتغيير وضع أحد كبار رجال الاكليروس ، وهكذا ربما وجد الاسقف نفسه مطرانا أو كبيرا لرؤساء الأساقفة ، دون اقامة أى اعتبار فى الغالب للنتائج العملية . وكان المطران يتمتع بحق الاشراف الكامل على مطرانيته ، ورغم انه كان يستطيع معاقبة الأساقفة الذين صنعوا الشر فى عين الرب ، الا انه كان حريصا على عدم الانتقاص من حقوقهم داخل أسقفياتهم . ويشترط فيمن

---

(٥) يعتبر ثيودور بالسامون أشهر أساقفة كنيسة انطاكية فى أواخر القرن الثانى عشر ( ١١٨٥ - ١١٩٩ ) ، على الرغم من بقاءه فى القسطنطينية طيلة هذه الفترة ، وهو أحد رجال القانون أيضا فى ذلك الزمان ، درس القوانين المدنية والكنسية وعمل على تجميعها وترتيبها منذ « التشريعات الامبراطورية » التى صدرت على عهد ليو السادس حتى زمانه ، وانتهى الى اصدار « دليل القانون Exegesis Canonum الذى حاول فيه التوفيق بين القوانين المدنية والكنسية . ومن أشهر أقواله : « يجب أن ينظر الى الاباطرة والبطاركة بعين التقدير باعتبارهم معلمى الكنيسة حيث تم مسحهم بالزيت المقدس . ولهذا فان الاباطرة قويمى الايمان بمقدورهم أن يعطوا رعية المسيح ، وأن يقوموا ، شأن القسيسين باحراق البخور كطقس من عبادة الله ، « أن سلطان الاباطرة ونشاطهم يغذى الجسد والروح . أما سلطان البطريرك ونشاطه فانه يغذى الروح وحدها » .

أنظر Vasiliev, op. cit. II, p. 470

وايضا دكتور اسد رستم ، كنيسة انطاكية ، الجزء الثانى ٢٧١ - ٢٧٧ .  
المرجع .

يشغل مرتبة الأسقفية ألا تقل سنه عن خمسة وثلاثين عاما ، وأن يكون على قدر من الثقافة ، يحفظ المزامير عن ظهر قلب ، وإذا كان قد تزوج فعليه أن ينفصل لتوه عن زوجته . وقد جرت العادة أخيرا أن يكون الأساقفة من بين الرهبان ، وكذلك الحال أيضا بالنسبة للبطريرك ، على خلاف ما كان يحدث من قبل ، عندما كان يجوز اختيار رجل علماني يتمتع بثقافة عالية لمنصب البطريرك شأن فوطيوس ، وكان الأسقف مسئولاً خلال فترة أسقفيته عن جميع المسائل الكنسية ، مثل النظام الأساسي لأكليروسه ، أو ذلك الذي يختص بالأديرة ، إلى جانب الرعاية الروحية وتبصير العلمانيين . وله بعض الاختصاصات القضائية إذا ما تورط اكليروسه في أمر ما ، وربما دعى أيضا للتوسط بين العامة .

ويعاون الأسقف في أبروشيته اكليروس يضم مختلف المراتب الكهنوتية ، أكثرهم أهمية يشغل وظائف خاصة تتعلق بعمل الأبروشية أو أمورها الإدارية ، وتوجد نفس هذه التنظيمات ، وإن كان بشكل أكثر دقة ، في الكنائس المطرانية . فقد كان لدى كنيسة آيا صوفيا • Hagia Sophia في القسطنطينية ، « الكنيسة العظمى » ، كما كانت تسمى ، جهاز اكليروسي ضخم ، يحدد من وقت لآخر بجهود البطريرك والسلطة الامبراطورية ، وليس أدل على ذلك من أنه في عام ٦١٢ قام البطريرك ، بمساندة التأييد الامبراطوري ، بتخفيض جهازها الاكليروسي الى ثمانين قسيسا ، ومائة وخمسين شماسا ، وأربعين شماسا ، وسبعين من مساعدي الشمامسة ، ومائة وستين قارئاً ، وخمسة وعشرين مرتلاً للقداست ، وخمسة وسبعين حاجيا ، هذا بالإضافة الى عدد معين يسمح بزيادته . وكان ( رفيق القلاية ) Syncellus (٦) يعتبر خليل البطريرك وموضع سره ، حيث كان البطريرك

(٦) كان هناك عدد من الوظائف يطلق عليها « وظائف خاصة » لم تكن لها أهمية ذات بال في الإدارة العامة ، من بينها وظيفة رفيق القلاية Syncellus هذا ، الذي كان يعد من كبار رجال الأكليروس ، وغالبا ما خلف البطريرك في منصبه ، ويعين بمرسوم من الامبراطور بالاتفاق مع البطريرك . وكان له الاشراف على كل الوظائف العادية في الحكومة الكنسية ، ولعله يمكن اعتباره ضابط اتصال بين الامبراطور والبطريرك .  
أنظر Baynes & Moss, Byzantium, p. 290

وأيضا رنسيومان : الحضارة البيزنطية ، ص ١٠٣ ، ١٢٩ . المترجم :

يمثل الأب الروحي له ، وهو يحظى بنفس المكانة أيضا لدى الامبراطور .  
 وكثر عدد كبار الموظفين الذين يتقاسمون فيما بينهم ليس فقط الأعمال التي  
 تخص كنيسة ايا صوفيا ، بل تلك التي تتعلق بالادارة البطريركية عامة ، ومن  
 بينهم رئيس ديوان المحفوظات Chartophylax الذي يشرف على الارشيف  
 الأسقفى ، حتى غدا يجمع بين اختصاصات أمين المكتبة والسكرتير والقاضى ،  
 ذلك أن عمله اتمتع ليشمل الاشراف على الاكليروس ، والرسامة ،  
 والانتخابات الأسقفية ، وسيادة كاملة على القضاء البطريركى ، وتتضح  
 أهميته من موضعه فى القداس الكبير حيث كان يقف الى جوار الباب  
 المقدس ، حتى اذا حانت لحظة تناول راح يدعو رجال الاكليروس بقوله  
 « لا ايها القسيسون والشمامسة اقدموا وتناولوا ميلكم وربكم » وقد وجدت  
 هذه المجموعة من كبار الموظفين نظيرا لها فى مجالس المطارنة والاساقفة  
 داخل الكنيسة الارثوذكسية . وهم منا يقابلون الاربعة الكبار  
 quattuor personae فى الكنيسة الانجليزية فى العصور الوسطى ، فقد  
 كانت التنظيمات الكنسية تتسم بتشابه معين على مختلف المستويات وفى  
 مختلف اجزاء العالم المسيحى .

وكان مسموحا بالزواج للغالبية العظمى من اكليروس الكنيسة  
 الارثوذكسية ، فيما هم دون مرتبة الأسقفية ، ويشترط أن يكون ذلك قد تم  
 قبل أن يرسم أحدهم مساعد شماس Sub-deacon . ومن الواضح  
 أنهم عملوا فى ميادين التجارة حتى حرم القانون الكنسى ذلك : ولكن ليس  
 من الانصاف بطبيعة الحال أن نستنتج من احكام المجالس الكنسية أن أغلب  
 رجال الاكليروس كان يغشسون الحانات أو يرتادون العروض المسرحية أو  
 نوادى المراهنات . ولكن غالبا ما كانت اوضاعهم على قدر كبير من السوء ،  
 وقد مارس عدد كبير منهم العمل الزراعى فى الحقول شأن آباء الكنيسة فى  
 الريف اليونانى فى أيامنا هذه . وعفوا تباع الأرض فانهم ينتقلون مع  
 الضيعة مثل « المستأجرين التابعين » Paroikoi فى القرية . ولعل هذه  
 الطبقة من رجال الاكليروس كانت تعمل فى نوعين مختلفين من الكنيسة ،  
 الابروشييه أو « العامة » Catholicon أو بمعنى آخر الكنيسة التى تخضع  
 لرعاية اسقف له حق تعيين هيئتها الكهنوتية ، والكنيسة الصغيرة التى قد  
 تكون ملحقة بالدير . أو ربما تتبع شخصا معينا أو مجموعة من الأفراد

تكاثفت من أجل اقامتها • وفى بعض الأحيان كان القرويون يقومون بمساعدة النواة الصغيرة لمجتمع جديد فى بناء كنيسة الدير ، كما يتمثل ذلك فى تجربة القديس دروثيوس St. Dorotheus فى آسيا الصغرى ابان القرن الحادى عشر • ويتضح من سير القديسين المختلفة والمصادر الأخرى أن احتياجات الريف والمدينة على السواء ، غالبا ما كان يحسب حسابها بوجه خاص فى المؤسسات الديرانية أو الخاصة التى فاق عددها الكنائس العامة •

ولم تكن الكنيسة تعانى الفاقة ، وقد حرصت التشريعات الامبراطورية على أن توفر فيما يتعلق بالنواحى التنظيمية ، الادارة الخاصة بالاشراف على املاك الكنيسة • وكانت الادارة البطريركية تتمركز فى ايدى وزير للمالية Oeconomus • ويقوم الأساقفة فى داخل ابروشياتهم تعيين مسئول للمالية مهمته الاشراف على الاملاك التابعة للكنائس والمؤسسات الكنسية الخاصة ، او الموجودة فى عهد رجال الاكليروس للاشراف عليها • وفى بعض الأحيان كانت الاراضى الزراعية التابعة للكنيسة تمنح عن طريق الايجار ، وان كان الواقع يدل على أن الكنيسة غالبا ما تعرضت للخسارة من وراء هذا الأسلوب • ولم يكن يجوز نقل املاك الكنيسة او تحويلها الى جهة أخرى حتى للاحتياجات الامبراطورية • وقد يلجأ البابا فى بعض الأحيان الى تعيين العلمانيين مشرفين على احدى المؤسسات الديرانية حيث يسمح لهم بالمشاركة فى املاكها بشرط أن يوفر للرهبان ما يكفى لمعيشتهم ، وهو نظام كان يحمل فى طياته بذور سوء الاستغلال •

والى جانب الهبات والوصايا التى يمنحها أن يتركها المؤمنون ، كان الأسقف يتسلم ضريبة Canonicon حددت وأصبحت الزامية فى القرن الحادى عشر ، وكان على القرويين أن يدفعوا جزءا منها نقدا ، والآخر عينا ، تبعا لعدد العائلات الموجودة فى القرية ، أما القس فيدفع قطعة ذهبية واحدة Nomisma فى السنة ، وكان على الأديرة هي الأخرى أن تقدم الضريبة ، اذا لم تبعث بها رأسا الى البطريرك ، حيث أنها وجدت على يديه وتخضع لسلطانه المباشر (٧) هذا بالإضافة الى بعض الضرائب الأخرى التى

(٧) مثل الأديرة التى كانت تصرف بـ « الأديرة الصليانية ،

Stauropegial . انظر بعده •



كانت تقدم فى مناسبات معينة مثل رسوم الزواج ، وعند الرسامة ، وان لم تكن من أجل الرسامة ذاتها ، كما ان بعض الهبات كانت قد أصبحت امرا واقعا بحكم العادة او المراسيم الامبراطورية ، وادينت السيمونية بشدة ( حتى ان أحد رجال الدين الكارهين للكنيسة اليونانية الكاردينال ، همبرت (٨) . Humbert وجد شيئا يمتدحه فى الكنيسة الارثوذكسية ) وكان على الاسقف ان يقوم بالاتفاق من دخله على وجال اكليروسه ، على عكس النظام الغربى الذى يقوم على الرواتب الكنسية المنفصلة . كما انه كان مسئولاً عن الكنائس التى ليس لديها املاك موقوفة . وفى العصور الوسطى المتأخرة كانت هذه الكنائس العامة تمول احيانا من دخول هبة معينة تؤجر لمن يقومون برعاية هذه الكنيسة .

### ( ب )

داخل هذا الاطار عاشت الكنيسة الارثوذكسية حياتها اليومية ، محتفظة بتقاليدها دون ان تتنظم حتى زماننا هذا . ولقد اظهرت الكنيسة نفسها منذ البداية تقريبا فى صورة وريثة التقاليد اليونانية - الرومانية ، وتقاليد حوض البحر المتوسط الشرقى ، ومن ثم فقد حددت تعاليمها وفصلت قانون ايمانها ، وان كان ذلك غالبا ما جاء فى جو اتسم بالعنف والجدل الطويل . وهكذا ارسيت منذ الايام الاولى للكنيسة ، والامبراطورية البيزنطية

---

(٨) الكاردينال همبرت أحد الرهبان الكلونيين ، يعد من أشد الكرادلة تحمسا لحركة الإصلاح الكنسي التى دفع عجلتها البابا جريجورى السابع . وقد نشر رسالة شهيرة ضد السيمونيين *Three Books against the Simoniacs* طالب فيها بأن لاتخضع املاك الكنيسة او تستغل من جانب العلمانيين . وقد جاء همبرت الى القسطنطينية مبعوثا من البابا ليو التاسع فى عام ١٠٥٤ ، على رأس وفد للالتقاء ببطريك القسطنطينية آنذاك ميخائيل كريلوبوس . إلا ان سلوك الوفد وتصرفه العدائى وعلى رأسه همبرت ، تجاه البطريك كان عاملا هاما من عوامل حدوث الشقاق الاعظم بين الكنيستين سنة ١٠٥٤ .

انظر عن ذلك Z. N. Brooks, A history of Europe, p. 159  
وايضا Ullmann, op. cit. p. 132 و C.M.H. vol. V, pp. 28-29  
و Thompson & Johnson, op. cit. p. 369 المترجم

المبكرة ، القواعد اللاهوتية المسيحية ، حتى اذا اقبل القرن التاسع كانت أشد الأخطار سوءا ، خاصة ذلك الجدل حول طبيعة الثالوث والمسيح ، قد انتهت ، وظهرت « كنيسة الجامع المسكونية السبعة » التي اقتنعت تماما برسالتها المقدسة في حفظ ونشر الايمان الحق . وبالإشتراك مع بقية مناطق العالم المسيحي ، ثم الحفاظ على التراث اللاهوتي للكنيسة الأرثوذكسية في كتابات الآباء وقوانين الجامع المسكونية التي تفسر الكتاب المقدس وأصول الطقوس الكنسية . وكانت أعمال الآباء اليونان ، خاصة في القرن الرابع . منارة تضيء بصفة مستمرة ، تهدي رجال الكنيسة الحائرين وسط متاهات التحديات على امتداد أربعة قرون وبنيف . ومنذ بدأ الجدل اللايكوني وحتى انتهى في القرن التاسع ، تم تلخيص التعاليم الأرثوذكسية ، وأعيد ذكرها كما كانت ، على يد آخر الآباء اليونان يوحنا الدمشقي (John of Damascus) في مؤلفه « ينبوع المعرفة » Fount of Knowledge اكتمل بعرض للعقيدة عرف باسم « عن الايمان القويم De fide orthodoxa » واستخدم في ترجمة لاتينية في الغرب ابتداء من القرن الثاني عشر . وغالبا ما يقال عن الكنيسة الأرثوذكسية ، شأن الامبراطورية البيزنطية ، أنها « محافظة » أكثر منها تقدمية . ولكن ذلك بعيد عن الصواب . فالتقاليد ، كي تبقى ، لابد أن تتطور وهي تنتقل من جيل الى آخر . وكانت بيزنطة امبراطورية مسيحية بكل معاني الكلمة ، فاهتمامها الزائد بالنقاش اللاهوتي لم يتوقف دفعة واحدة بعودة تقديس الصور وتواري الجدل اللاهوتي الحاد خلف أسوارها . وليس هناك فترة من الفترات يمكن أن يقال فيها أن المسيحية لم تكن مسألة حية ، وكان الاهتمام البيزنطي بها مصحوبا بقدر كبير من النشاط الأدبي . وتركت التعقيدات الأرثوذكسية مجالا فسيحا للنقاش والتطور والجدال على حد سواء . وقد استخدم الكنسيون والعلمانيون نظرتهم الانسانية ومعارفهم الكلاسيكية في تفسير الكتاب المقدس وكتابات الآباء ، واهتمت الأجيال المتعاقبة بنصيب وافر من التعليقات والرسائل التي تدور حول نقاط معينة ، والعظات التي تتضمن موضوعات مختلفة ، فقد كانت الاهتمامات اللاهوتية البيزنطية متعددة . وفي القرن الحادي عشر ، وعلى

يد اللاهوتى الجديد سيمون Symeon ظهرت علامة على التطور فى ذلك النمط من الروحانية الذى بلغ أوج ازدهاره فى حركة الزاهدين الصامتين (١٠) hesychast التى شاعت فى القرن الرابع عشر . وقد اثار « الزهد الصامت » hesychasm هذا جدلا لاهوتيا كبيرا ، ووضعت نسبيا وجهة نظر اعداء هذه الحركة وانصارها وجها لوجه فى كتابات كل من نيقفور جريجور (١١) Nicephoras Gregoras ويوحنا كانتا كوزينوس John Cantacuzenus وأصبح الرجلان ، وقد كانا فى يوم ما صديقين ، متنافرين تماما الى الحد الذى لم يكن أحدهما يحتفل بالتحديث الى صاحبه . وكان هناك كثير من التيارات المتضاربة ، حتى انه كان يصعب فى بعض الأحيان التفريق بين الفرق اللاهوتية والاحزاب السياسية ، ولكن الحركة رغم انها فتحت الباب لسوء الفهم ، الا انها كانت فى الحقيقة جزءا مكملًا للروحانية الارثوذكسية . ولاشك ان هذا التطور المثمر يرتبط تماما بجيل اثوس Mt. Athos ، وهو دليل على المدى الذى وجدت به غاية بيزنطة النابضة بالحياة فى كنيستها وليس فى نظمها السياسية .

(١٠) انظر قبله حاشية ١١ ص ٢٣٨ . المترجم .

(١١) يعتبر من أشهر الدارسين والكتاب فى القرن الرابع عشر ، او خلال القرنين الاخيرين من عمر الامبراطورية ، تلقى ثقافة عالية ، ونهل من الآداب الكلاسيكية ، وكان متحمسا لدراسة الفلك ، حتى انه اقترح على الامبراطور اصلاح التقويم ، شارك بنصيب كبير فى الجدل الذى دار حول حركة الزهد الصامت ، بدأ أولا خصما عنيدا للراهب الكالابرى بارلام ثم تحول فيما بعد الى جانبه ، مما جر عليه استياء الكثيرين واضطهاد السلطان التى زجت به فى السجن ، لينتهى حياته العاصفة هذه حوالى عام ١٣٦٠ . وقد ترك نيقفور جريجور مؤلفات عديدة فى موضوعات متداينة ، مما يدل على سعة اطلاعه وغزارة معرفته ، فكتب فى اللاهوت والفلسفة والفلك والتاريخ والبيان والنحو . على ان اهم اعماله على الاطلاق هو كتابه الكبير فى التاريخ الرومانى الذى يتناول الفترة الواقعة بين عامى ١٢٠٤ ، ١٢٥٩ ، وهى الفترة التى شهدت امبراطورية نيقية البيزنطية والامبراطورية اللاتينية فى القسطنطينية ، وعهود ال باليولوجوس الأربعة الأوائل ، وعهد يوحنا كانتا كوزينوس

Vasiliev, op. cit. II, p. 690

انظر

Baynes & Moss, op. cit. pp. 210, 218, 225, 364

وكذلك راجع

ودكتور أسد رستم : الروم ، الجزء الثانى ص ٢٦٧ . المترجم .



وهناك مظهر آخر من مظاهر الحذر اللاهوتي للكنيسة الارثوذكسية ،  
فالتقاليد المسيحية فى كل جوانبها كانت ترتبط بالايمان . ولتأكيد ذلك بصفة  
مستمرة ، كان لابد من تعهدا بالرعاية حتى لا تتسلل اليها الهرطقة . وكان  
على الكنيسة البيزنطية ، شأن الكنيسة الغربية ، ان تتعامل مع افراد ضلوا  
عن الطريق القويم ، غالبا عن غير عمد ، او حركات شعبية كان من الصعب  
تماما القضاء عليها بعد ان اتسعت دائرتها لأسباب متعددة . ولم تحرم  
الكنيسة بالتاكيد استخدام مؤلفات الكتاب الوثنيين ، ولكنها اذاعت ان هذه  
الأعمال يجب ان تقرأ بروية وحذر ، فقد كان من السهل على أى عقل نزق أو  
مرتاب ان يتخطى الحدود الفاصلة بين الفكرين ويجدها آراء مبسطة لا تتفق  
مع التعاليم المسيحية ، حتى ان فوطيوس صرح فى لحظة شيطانية انه قد  
يطرح قضايا غير أرثوذكسية ليرى ان كان يستطيع الكشف عن أسقف  
يتظاهر بالعمل دون استعداد ثقافى ، بينما استعاض آخرون بصورة تلفيقية  
عن طريق اعتراف سطحي بالأرثوذكسية ، ومن هؤلاء ميخائيل بسللوس فى  
منتصف القرن الحادى عشر . اما يوحنا الايطالى John Italus ،  
الذى كان تلميذا مخلصا لأفلاطون وأرسطو ، والذى خلف بسللوس فى  
وظيفة أستاذ الفلسفة بجامعة القسطنطينية ، فلم يكن على قدر كبير من  
الذكاء . وقد جرت قصة ادانته بسبب آرائه الهرطوقية واستنكاره العلنى من  
فوق منبر أيا صوفيا ، على قلم أناكومننا ، ومع شئ من الرضى الاختيالى  
عن الصورة الأخرى التى ترسمها لرعاية إبيها للأرثوذكسية . وتم لعنة  
خطايا الايطالى فى « الجمعيات » Synodicon ( وهى قائمة تضم الهرطقات  
التي يجب لعنها ) التى تليت فى الصوم الكبير يوم الأحد الأرثوذكسى  
Orthodoxy Sunday وقد تملكه اليأس لأنه فشل فى ادراك ان الأدب  
الكلاسيكى يعطى منهاجا ثقافيا ، ولكنه ليس ذلك المنهاج المسيحى الحق .  
وظلت بيزنطة حتى آخر أيامها تلقى العنت من مثقفها ، الى زمن جمستوس  
بلثون (١٢) Gemisthus Plethon الذى عاد القهقرى الى الافلاطونية .

---

(١٢) يعتبر الممثل الحقيقى للفلسفة فى عصر آل باليولوجوس . تلقى  
تعليمه الأول فى القسطنطينية ثم قضى الجزء الأكبر من حياته فى ميسترا  
التي كانت تمثل المركز الثقافى فى المودة ، وصحب الامبراطور يوحنا الثامن



غير أن الخطر الخبيث يكمن في هرطقة لقيت رواجاً كبيراً وهددت بتقويض مركز الكنيسة في مناطق معينة . وكانت هذه الحركة ذات طبيعة ثنوية ، ولعلها ظهرت أصلاً في آسيا الصغرى التي كانت لزمن طويل موطناً لمثل هذه الهرطقات كالبيالصة Paulicians . وفي القرن العاشر تسرب أحد أشكال هذه الهرطقة الثنوية إلى البلقان ، واشتقت اسمها من زعيمها الأب ( القسيس ) بوجوميل Bogomil وحوالي ذلك الوقت كانت بلغاريا في طريقها إلى الفناء داخل الامبراطورية البيزنطية ، وعندما تم الاستيلاء عليها نهائياً زمن باسل الثاني أوائل القرن الحادى عشر ، زحفت هذه الهرطقة ذات المظهر الخداع إلى أقوى قلاع الأرثوذكسية . وقد كان خطرهما مزدوجاً ، فهو لا يقتصر فقط على مهاجمة العقيدة المسيحية والتنظيمات الكنسية ، بل كانت له جوانبه الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وتحالفت في بلغاريا على أية حال مع الشعور العدائى لبيزنطة ووجهت ضد ثروات ملاك الأراضى من العلمانيين والاكليروسيين على السواء . غير أنها لقيت تحدياً عنيفاً من جانب اباطرة اسرة كومنن الذين عملوا بالتعاون التام مع الكنيسة . ولكن جذوتها لم تخدم تماماً في البلقان ، وظل البوجوميليون موجودين حتى الغزو التركى وبعده ، وماتزال قبورهم التى تجمع بين القبح والغرابة ترى

---

الى مجمع فيراراً - فلورنسة وأدركته الوفاة فى ميسترا حوالى عام ١٤٥٠ ، قبل أن يشهد سقوط القسطنطينية الأخير . وقد نقل رفاة سنة ١٤٦٥ الى ريمينى Rimini (Ariminum) فى إيطاليا ، بعد أن استطاع أحد الزعماء العسكريين المحبين للاداب من عائلة مالاتستا Malatseta الاستيلاء على اسبرطة من ايدى الأتراك العثمانيين . ولما كان بلثون من أشد الدارسين اعجاباً بأفلاطون ، فقد سعى جاهداً من خلال أعماله لتبيان أهمية الفاسفة الأفلاطونية بالمقارنة الى الفلسفة الأرسطية ، وكانت العمسور الوسطى ، وفى بيزنطة بصفة خاصة طوال عهدها وإبان حركة الزهد الصامت بالذات قد شهدت صراعاً فكرياً محتدماً بين الأرسطيين والأفلاطونيين وفى فلورنسة كتب بلثون رسالته عن « الاختلاف بين أرسطو وأفلاطون » حاول فيها قدر طاقته أن يظهر فضل فيلسوفة المحب أفلاطون على أرسطو . ولعل مكث بلثون فى فلورنسة يعد من أهم الأحداث فى تاريخ نقل جذور التعليم اليونانى الكلاسيكى الى إيطاليا ، خاصة احياء الفلسفة الأفلاطونية فى الغرب .

في البوسنة • Bosnia وقد يقال إن هذه الهرطقة قد تركت بصماتها على جبل آثوس نفسه في القرن الرابع عشر ، ولكن هذا الاتهام ربما كان جزءا من الحملة التي يشنها أعداء الزهد الصامت على هذا الجبل المقدس •

وبالإضافة إلى ما كان يقوم به رجال الكنيسة الأرثوذكسية من تعهد الحياة الدينية لشعبهم بالرعاية ، كانوا يدركون تماما مسئولياتهم تجاه أصحاب العقائد الأخرى • فقد وضع يويثيموس زيجابنوس (١٣) Enthyimius Zigabenus بناء على رغبة الامبراطور الكسيوس كومنتوس ، كتيباً يفتد فيه المغالطات الدينية التي تحتوى عليها الهرطقات الكبرى ، متضمنا اليهود والمسلمين • أما يوحنا الدمشقي فينظر إلى الاسلام باعتباره هرطقة مسيحية ، وكانت لديه القدرة على كتابة رسالة ضده ، خاصة وأنه يعرف العربية بما يتيح له أن يستخدم القرآن مباشرة في تدعيم حججه • وكانت الناحية الجدالية ضد كل شكل من أشكال الهرطقة توضع في أيدي اللاهوتيين الأريبيين من العلمانيين ورجال الاكليروس ، وظلت قائمة بصفة مستمرة حتى الأيام الأخيرة في عمر الامبراطورية ، واتخذت خطوات ربما أكثر ايجابية فيما يتعلق بالمحاورات الشخصية التي حدثت بين الاساقفة وحاخامات اليهود ، بين المسلمين والمسيحيين ، أو الارمن والارثوذكس ومع انتشار الاسلام اقتسم الطرفان الساحة ، فقد كان لكل منهما اتباعه • وعندما وقع الاسقف جريجورى بالماس (١٤) Gregory Palamas أسيراً في أيدي العثمانيين في منتصف القرن الرابع عشر ، ودخل في مناظرة مع المسلمين ، اعتقد أن الاسلام يتباهى بالاعداد الهائلة التي اعتنقته في آسيا الصغرى • ويعتبر الانجاز الكبير للكنيسة الارثوذكسية في المجال التبشيري،

---

(١٣) أحد رهبان القسطنطينية على عهد الامبراطور الكسيوس كومنتوس ، الذين اشتهروا بدراسة اللاهوت ، وكان يعد من النجاة المعروفين ومن أشهر اساقفة البيان ، والمعلقين على كتب العهد الجديد ورسائل القديس بولس • وقد أبدى له الامبراطور رغبته في أن يقدم له عرضاً وافياً عن كل الهرطقات التي مازالت باقية ، خاصة معتقد البوجوميليين ، مفنداً غوايتهم على أساس خروجهم عن تعاليم آباء الكنيسة • واستجابة لذلك كتب زيجابنوس رسالة عن « العدة العقائدية للايمان القويم » قدم فيها كل البراهين المناسبة الدالة على خطأ الأفكار الهرطوقية • المترجم •

(١٤) انظر قبله حاشية ١١ ص ٢٣٨ • المترجم •

هو الذى تم فى عهدهما الأولى بين جيرانها الوثنيين ، أو بشكل آخر عندما بذل رجال الكنيسة الذين لاحصر لهم جهودا جسارة فى تحويل الصقالبة والخزر الى المسيحية ، وماتزال سمعة بعض الأفراد مثل كيراس Cyril أو مثنوديوس Methodius تتردد أصدائها فى العالم المسيحى لما قاموا به ، وإن ظل كثيرون منهم جنودا مجهولين ، أو مثل عم يوحنا رئيس أساقفة يوخايتا (١٥) John of Euchaita الذى عمل فى البلقان ، واكتشف أمره فقط بطريق الصدفة عن طريق ايماءة اليه موجودة فى عظة أو مرثية . وفى عمل تبشيري من هذا النوع وجدت الكنيسة أرضا بكرًا تختلف تماما عن الحال عندما تكون العقائد المنافسة قد مكنت لنفسها فى اطار حضارة قديمة ، أو ربما أحد الفروع الهرطوقية للكيان المسيحى نفسه مثل الكنائس النسطورية والمونوفيزية .

وقد حرصت الكنيسة الارثوذكسية على أن تظل متيقظة داخل الامبراطورية وأن لاتضيع أية فرصة تمنح لها لتحقيق غاياتها ، بالمناظرات العامة ، أو الدعاية الواسعة ، أو الحرب ضد المشركين وإن كان هذا لا يحول دون اللجوء الى الوسائل الدبلوماسية ، أو حتى الاعتراف بأسلوب مغاير للحياة خاصة مع القوى الشرقية ، وكانت القسطنطينية تنظر بعين الاعتبار الى فارس والعرب كقوى يحسب حسابها ، وقد كتب بطريرك القسطنطينية فى أوائل القرن العاشر الى أحد حكام المسلمين يقول « كما يسطع الكوكبان الدريان فى القبة الزرقاء ، كذا يعيش المسلمون والرومان ، ولذا يتعين أن تؤلف بيننا الصداقة رغم اختلافنا فى طرائق الحياة والدين (١٦) ولكن هذا النوع من الاحاسيس لم يمنع قيام الحروب ، وإن كانت الترتيبات تبيح للزائرين والتجار والمرتزقة من اتباع المعتقد الآخر ممارسة طقوس عبادتهم . وهكذا كان للعناصر اللاتينية كنائسها ، خاصة البنادقة والجنوية الذين

(١٥) انظر بعذه .

Migne, Patrologia Graeca; vol. cxi. col. 28 B.

(١٦) انظر

المؤلفة . وقد وردت هذه العبارات ضمن الرسالة التى بعث بها نيقولا الصومى Nicholas Mystic بطريرك القسطنطينية الى أمير كريت « العظيم ، المحبوب ، كما يصفه البطريرك ، المترجم .



تكاثرت أعدادهم ابتداء من القرن الثانى عشر ، وحصلوا على أحياء خاصة بهم داخل المدينة أو عبر القرن الذهبى . وحتى الانجليز ( الذين كان عدد منهم يعمل فى الحرم الامبراطورى ) استطاعوا أن يجدوا شيئاً خاصاً لانفسهم فى الكنيسة التى اقيمت فى القسطنطينية على نفقة أحد أثرياتهم فى نهاية القرن الحادى عشر ، حيث تضاء المصابيح أمام أيقونات حاميتها القديس نيقولا Nicholas والقديس أوغسطين St. Augustine رئيس أساقفة كانتربرى Canterbury

وهكذا نجد أن التسامح كان موجوداً من الناحية العملية ، وإن كان غالباً ما يختفى وراء العلاقات والاتجاهات الرسمية . ولعل من أوضح الأمثلة على ذلك الشعور العميق الحار الذى يظهر فى الملاحظة التى أبداهما اثنان من نبلاء العاصمة فى تلك القصة التى تحكى عن العثور على رداء العذراء وانتقاله الى القسطنطينية . وتوارثته العذارى عبر الاجيال داخل نطاق عائلة يهودية . وقد امتدى الرحالة الى البيت الذى تقطن فيه هذه الأسرة فى قرية صغيرة بمنطقة الجليل ، وتضرعوا الى تلك العائلة أن تخبرهم عن السر الحقيقى وراء القوة الالهية التى تظل هذه الدار ، قائلين « لأن الهنا والهكم واحد وهو نفس الرب (١٧) » . ولاشك أن كلمات على هذا النحو تعد دليلاً قاطعاً على أن البيزنطيين لم يكونوا متعصبين البتة . والحقيقة أن أى مظهر من مظاهر التسامح كان أمراً مسلماً به ، ولكن هذا لم ينقص أبداً من حماسهم للأرثوذكسية .

### ( ج )

كان طبيعياً أن لا يشتغل الفلاح أو رجل المدينة ، أو ربة البيت أو الطفل بالمسائل الجدلية أو العقيدية ، رغم أن الحفاظ على الايمان الحق كان يثير اهتمامهم الى درجة كبيرة لا تقل عنها عند اللاهوتيين أو رجال السياسة . وكان العلماتيون ، المثقفون منهم والحرفيون ، يشكلون - شأن الرهبان ورجال الاكثيروس - جزءاً من الكل المؤمن ، الذى تحزم الكنيسة فى أهم خصائصها على أن ترعى حياتهم الروحية . وكانت احتياجاتهم الخاصة



داخل النطاق الأسقفى ، وغالبا ما تقوم الأديرة ، والنسك باقتمام عمل رجال الدين وان كان نشاطهم لا يعتبر جزءا من المهام الملقاة على عاتق الابروشية تجاه رعاياها ، وعلى العلمانيين ، الذين سبقوا الى الايمان بالمسيحية والذين ولجوها حديثا ، أن يلقنوا تعاليم دينهم على يد القسيسين ثم الأساقفة منذ حداثة أعمارهم ، ويتضح من القواعد الجمعية وبعض الشواهد الأخرى أن رجال الكليروس كانوا يقومون بتعليم الصغار الكتاب المقدس والمعارف الأخرى ، فاذا ما وجدوا منهم الرغبة فى إثارة المتاعب كان من حقهم استخدام الضرب اذا أرادوا ذلك . أما مسئولية الأسقف فقد كانت مضاعفة تجمع بين وعظ الكليروسه وهداية شعبه . وقد أقر المجمع الذى عقد فى قاعة القبة Trullo سنة ٦٩١ أن يتم ذلك فى يوم الأحد من كل اسبوع وعلى امتداد الأسبوع كله اذا كان ذلك ممكنا . وقد أخذ هذا الالتزام مأخذا الجدا . ويعتبر البيزنطيون اعظم كتاب العظات انتاجا ، وما زال لدينا الكثير مما خلفوه فى هذا المجال ، وفيها يقوم « الراعى والأب » بتفسير معنى أجزاء مختلفة من الكتاب المقدس ، وغالبا ما يتناول بالشرح والتوضيح تفاسير الآباء لفقرات معينة ، أو يتحدث عن الطقوس والأسرار المقدسة ، أو الأهمية الخاصة لعيد أحد القديسين . هذه المهام يشترك جميع الكليروس فى الأضطلاع بها ، ابتداء من الكاهن الصغير ، الذى يمثل أول درجات السلم الكهنوتى الى البطريرك نفسه . وقد شارك الأباطرة بصورة عملية فى كتابة العظات التى تلقى فى الموظفين الكنسيين أو الامبراطوريين فى مناسبات معينة ، كما يحدث مثلا عند بداية الصوم الكبير .

ويظهر الفهم العميق للايمان والحياة التعبدية الكاملة فى كثير من العظات والكتابات الصوفية ، ولا نعرف على وجه التحديد كيف اكتسب معظم الرجال والنساء خبرة بعيدة فى هذا المجال ، ولكنهم كانوا جميعا يعيشون حياة أخوية من خلال الأسرار المقدسة ، وكان المسيح الأرثوذكسى يتلقى المعمودية بالكنيسة ، ويزداد توثيقا بسر الروح القدس ، ويظهر اذا دعت الضرورة ، عن طريق الكفارة . ويستطيع أن يتبين من خلال بعض الطقوس المعنى الكامل للحياة المسيحية ، اذا شارك فى الطقس الرئيسى لهذه العبادة وهو الافخاريسا والقربان المقدس ، أو كما اعتاد البيزنطيون أن يدعوه « الطقس الالهى » . وراح الفن واللاهوت والموسيقى والشعر يتكاملون فى

تمجيد هذا الطقس ، فعبر الفنانون البيزنطيون عن ادراكهم للعالم الفوقى بتصوير المسيح والهيراركية العلوية بالفيسفساء او الصور الجصية على قباب وجدران كنائسهم حيث تبدو أجسام السماوات وكواكبها فوق رؤوس العابدين فى قلب ذلك المبنى . بينما كانت الموسيقى البيزنطية ترتبط تماما بكلمات ذلك الطقس ، وقد أثريت هذه الموسيقى الكنسية بما اضيف اليها من ترانيم وتسابيح ، على حين ازداد شعر الطقوس بمختلف طبقاته جودة وانتقانا (١٨) ، وغالبا ما كان يوزع ترتيليا بين مقدم مرتلى القداس والشعب وتضم فى نسيجها عظات ومزامير الخدمة او الاجزاء المختلفة لذلك القداس .

والقداس المستخدم فى الكنيسة اليونانية هو الذى كان موجودا فى كنيسة القسطنطينية ، اعنى أنه كان قائما على قداس القديس باسل و قداس القديس يوحنا ذهبى الفم St. John Chrysostom . ويبدأ القداس بالموعوظين Catechumens عندما يجرى « الدخول الأول Little Entrance مع انشاد التقديسات الثلاثة Thrice-Holy تتبعه الدروس والعظة . ثم يأتى بعد ذلك قداس الايمان مع الصلوات و « الدخول الكبير » Great Entrance قانون الايمان واحياء ذكرى الاحياء والأموات . ويعقب هذا المشهد الأخير وهو القربان المقدس . ويبدو واضحا ان القداس كان يجرى بصفة مستمرة . وقد كتب بالسامون Balsaman يقول انه كان عنى هؤلاء الذين يرغبون فى ان يحيوا حياة نقية طاهرة مداومة التناول ، سواء كانوا من الاكليروس أو العلمانيين ، رغم ان ذلك لم يكن قاعدة مألوفة .

لقد تمكنت الكنيسة من حياة الناس تماما ، فبركاتنا كانت ترتجى لمختلف الأعمال . وكانت هناك طقوس خاصة لمباركة أسطول الصيد أو الحصاد ، والماشية والدور ، كما كان للمدن والمزارات حمايتها من بين القديسين ، ابتداء من « أم الاله » حامية العاصمة الى اصغر ملاك حارس

---

(١٨) تمكن أحد البحوث الأخيرة من تفسير الاشكال المختلفة للعلامات الموسيقية Notation البيزنطية الوسيطة . ويمكننا أن نسمع شيئا من هذا التقليد الباقي فى بلاد اليونان أو محفوظا فى دير جروتافراتا Grottaferrata بالقرب من روما .

وهو الذى خصه يوحنا اليوخييتاوى باحدى قصائده . هذه الرغبة ، شأن الاحترام البيزنطى للزاهد ، ذلك الرجل المطهر ، كانت متصلة فى الايمان بقوة الشفاعة ومفهوم الارتباط التام بين عالمى الظاهر والباطن . وهكذا فان اشد مظاهر الحياة الانسانية بساطة كانت تكرر لتستخدم بطريقة صديحة . وكان على العلمانيين ، بدرجة لا تقل مطلقا عن الرهبان او رجال الاكليروس ، ان ينالوا العضوية الكاملة فى الكنيسة التى كانت التجسيد الرمزي للمسيح . ولعل اروع صورة لهذا المعنى تلك التى رسمها نيقولا كابسيلاس (١٩) Nicholas Cabasilas فى القرن الرابع عشر فيما كتبه « عن الحياة فى المسيح » ، On life in Christ حيث يقول ، « ليس من الضرورى ان تغدو الى البيداء لتجد هذه الحياة ، فقد غرسها العماد داخل كل مسيحى وغذتها الاسرار المقدسة وفى مقدمتها الطقوس الالهى » .

---

(١٩) من اشهر رجال اللاهوت والكتاب البيزنطيين فى القرن الرابع عشر ، ومن ابرز المتصوفين فى الكنيسة الشرقية ، لم يلق بعد حفظه من الدراسة وما تزال معظم اعماله لم تر النور بعد . المترجم .

# الفصل السابع

## عالم الرهينة

### مناداة الروح

(م ١٨ - العالم البيزنطي)





## الفصل السابع

### عالم الرهبنة

#### مناداة الروح

ظهرت الرهبنة المسيحية أول أمرها في مصر في أخريات القرن الثالث وأوائل الرابع ، وهي أسلوب حياة ينتهج تطوعا من جانب نفر آخر أن يتبع تماما فرائض الانجيل وأن يكبح شهواته وغرائزه ، حتى يغدو مهيتا لمعرفة الله في هذا العالم وليصبح رفيقا له في الحياة الأبدية . وقهر التجسد لخلاص النفس على هذا النحو عرف منذ زمن بعيد ، ولكن الرهبانية ابتداء من القرن الرابع كانت ارتقاء خاصا لهذه الناحية داخل إطار الكنيسة المسيحية ، لعل أبرز ملامحها انسحاب الانسان من الحياة اليومية العادية في المحيط الأسرى ، ولا تهدأ الحرب أبدا ضد الشياطين الذين يحاولون غواية المسيحي الذي قطع على نفسه عهدا أن يسلك هذا الدرب متوحدا أو وسط جماعة .

وكان القديس أنطونيوس St. Antony أول الرهبان (١) يشاركه في ذلك

---

(١) ولد أنطونيوس عام ٢٥١ لأسرة مصرية ثرية في بلدة « قمن العروس » من أعمال محافظة بنى سويف ، فلما بلغ العشرين من عمره بعد وفاة والديه ، تخلص عن أمواله وممتلكاته ووزعها على الفقراء ، وأثر حياة الاعتزال ، فأتجه إلى الصحراء وهو في الخامسة والثلاثين من عمره ، وكان قد أمضى هذه الأعوام الخمسة عشر معتزلا ولكن بالقرب من المدينة . أما الآن فقد سلك سبيل البيداء إلى جبل العربة على البحر الأحمر . غير أنه توقف عند قلعة قديمة في صعيد الصحراء عند منطقة بسبير ( مكان دير اليمون الآن في منتصف المسافة بين أطيح وبنى سويف ) وقد تكاثر مريدوه من حوله ، ولكنه ظل في عزلة عنهم طيلة عشرين عاما ، حتى إذا كان عام ٣٠٥ فتح لهم بابا وصدره وكان ذلك بداية لنشأة الرهبانية بمفهومها المعروف في مصر ، وقبيل خلد

آباء الصحراء فى مصر الذين خلفوا وراءهم ديارهم وارتحلوا الى البيد متوحدين ، فذاع صيتهم واجتذبوا اليهم عددا كبيرا من المريدين ، حتى أن « توحدهم » لم يكن دائما على النحو الذى تخيلوه ورغبوا فيه . وقد تبلورت هذه الحركة فى مصر فى اتجاهين رئيسيين ، التوحد والديرية . وانتشر بشكل واسع نموذج حياة التوحد النسكية التى عاشها القديس أنطونيوس ، وإن كان من الضرورى أن نتذكر أن المتوحدين لم يعيشوا دائما فى وحدة كاملة ، فغالبا ما كان لهم تلاميذهم الذين يتحلقون من حولهم ، وتجىء البداية عادة عندما يلزم المريد ناسكا يصبح بمثابة الأب الروحى له . وكانت السيق (٢) Lavra هى النمط المعدل للحياة التوحدية ، وهى عبارة عن مجموعة

القديس اثناسيوس أسقف الاسكندرية ( ٢٢٨ - ٣٧٣ ) ذكر أنطونيوس بكتابة تاريخ حياته Vita S. Antoni الذى كان له أكبر الأثر فى انتشار الرهبنة خارج مصر فى اسيا الصغرى وأوروبا .

ATHANAS. Vita S. Antoni in (Nicene and post-Nicene Fathers, IV, 195-221).

RUFIN, historia Monachorum (P.L. XXI, 391-426)

Artz, The mind of the Middle Ages, pp. 30-116

Waddell, The desert Fathers, p. 2. sqq.

Kidd, A history of the Church, pp. 103-106

Hardy, op. cit. pp. 37, 59, 74

Budge, Stories of the Holy Fathers, pp. 51, 57

Stanley, Lectures on the history of the Eastern Church, pp. 229 - 230.

HIER, Vita Pauli "N.P.N.F. VI 299-303"

SOZOM. hist. eccl. I, 13, II, 14

PALLAD. hist. Lusiaca, 32, 34 sqq.

O'Leary, The Coptic Church and Egyptian monasticism, pp. 319 - 327.

وراجع كذلك للاب متى المسكين : الرهبنة القبطية فى عصر القديس أنبا مقار ، ص ٤٣ - ٤٤ وللمترجم : الدولة والكنيسة ، الجزء الثالث : الفصل الخامس ، أيضا ، ملاح الشخصيات المصرية فى العصر المسيحى ، ص ٢٣ - ٦٢ . المترجم .

(٢) وهى من الكلمة اليونانية Laura بمعنى زقاق أو عطفة .  
انظر D.J. Chitty, The Desert a City, p. 15 ( المؤلف ) وكان

من المريدين تقيم الى جوار راهب من اكثر الرهبان تجربة . ويلتقى هؤلاء  
النساك فى مناسبات معينة مثل قداسات يومى السبت والاحد . ويمثل هذا  
المظهر منتصف الطريق بين الناسك المتوحد والراهب الذى يعيش حياة  
« مشتركة » .

وقد ظهر الكينوبيون (٢) Coenobium أو الدير حسب المفهوم الغربى ،  
فى مصر أيضا فى نفس الوقت مع الحياة النسكية . ومؤسس هذا النظام  
مصرى هو باخوم (٤) Pachomius وهو جندى وثنى اعتنق المسيحية ، تؤكد

التجمع الرهبانى فى صورته الاولى البسيطة ، على النحو الذى عرف به على  
عهد القديس أنطونيوس ، يسمى لافرا ، وهى تأتى فى المخطوطات القديمة  
باسم السيق وجمعها الأسياق . انظر الآب متى المكين : الرهبنة القبطية  
فى عمر القديس أنبا مقار . ص ٤٥ . المترجم .

(٣) معناها الحرفى « حياة مشتركة » Koinos bios ( المؤلف ) وهى  
من مقطعين Koinos أى مشترك و bios بمعنى حياة . وتعنى مؤسسة  
أو مكان به قلاى كثيرة أصحابها متحدون فى نظام الحياة ، وهى تترادف فى  
المعنى الوصفى تماما كلمة Monastyrion المشتقة من كلمة Monaxein  
أى يعيش بمفرده أو يحيا وحيدا . ومن ثم كانت كلمة موناستيريون تعنى  
مكانا يحيا فيه الناس حياة منفردة . وقد تطور معنى هذه الكلمة بحيث  
أصبحت تحمل معنى مغايرا يدل على الدير بوصفه الحالى ، أى جماعة  
يعيشون معا حياة مشتركة غير توحدية على الاطلاق . انظر الآب متى  
المكين ، الرهبنة القبطية . ص ٤٤ - ٤٥ . المترجم .

(٤) اذا كان القديس أنطونيوس يعد رائد الرهبانية فى مصر ومؤسسها  
الحقيقى ، فان باخوم ( ٢٩٢ - ٣٤٦ ) يعتبر واضع أسس النظام الديرانى ،  
فقد استطاع أن يضع لهذه الحياة الرهبانية نظامها وطرائقها فى صورتها  
الجماعية ، وقد أورد المؤرخ الكنسى سوزومين تفصيلا كاملا للأسس التى  
كانت تقوم عليها العلاقات بين أفراد الدير الباخومى فى طبانسين Tabennesi  
( قرب اخميم Panopolis ) ويذكر أن باخوم قد قسم جماعته التى تحيط  
به والتى يبلغ عددها نحو ألف وثلاثمائة الى أربع وعشرين مجموعة ، ميز  
كلا منها بحرف من الأبجدية اليونانية ، وقد تكاثر عدد الرهبان الطبانسين  
بعد ذلك حتى بلغ الآلاف السبعة . ومن حديث سوزومين نتبين أن النظام  
الباخومى كان يشبه الى حد كبير التشكيلات العسكرية فى وقتها وانضباطها ،



لديه بعد تجربة حيه عاشها من خلال التوحد ، أن هذا النسق يتطلب التزامات معينة تفوق احتمال الكثيرين ، ومن ثم عول على إقامة نظام لحياة نسكية مشتركة في طبانسين Tabennisi على النيل في أوائل القرن الرابع . وسرعان ما نمت هذه الحركة حتى أن باخوم عند وفاته كان لديه عدد من الريدن يكونون إحدى عشرة خلية (اثنان منهم للنساء ) . وكان باخوم رأس هذه الجماعة والمشرّف العام على تلك الخلايا . وتتلخص المظاهر الرئيسية للحياة اليومية هنا في أداء الصلاة والقداست في جماعة ، والتفكير والتعبّد في توحد ، والاكتفاء بأقل القليل من الطعام ( وعادة ما كانوا يجتمعون تتناول الطعام سويا في قاعة خصصت لذلك ) ، والعمل اليدوي وإنجاز الواجبات الادارية الضرورية . غير أنه كان هناك تباين داخل هذا الإطار إبان الفترة التجريبية وفي وقت لاحق . ففي مصر ، خلال القرن الرابع ، لم يكن التطور الكامل للساعات القداسية ( الدورة اليومية للخدمة الرهبانية ) قد عُرف ، على حين كان التناول يجري في أيام السبوت والآحاد . ومع ذلك فإن نوااميس الحياة الروحية في هذه الرهبانية المبكرة ، وقواعد السلوك الخارجى التى تميز الحركة الديرائية المتأخرة فى الكنيسة الأرثوذكسية ، كان يمكن التعرف عليها آنذاك . ولأمراء فى أن الروحانية الماثلة فى الرهبنة فى الشرق والغرب على السواء تستمد أصولها من كتابات الآباء المصريين مثل « إقوال الآباء » Apophthegmata Patrum أو حياة القديس أنطونيوس the life of St. Antony. وهما نموذج لما كتب بعد ذلك عن حياة القديسين .

وكانت الصفة المميزة لحياة الكينوبيون تتمثل فى الأداء اليومي والكامل للقداس الالهى من جانب جماعة تقدم الطاعة التامة لزعيمها الروحى . ومع نهاية القرن الرابع كانت هذه الصفة قد استقرت فى كل مكان من العالم المسيحى ، خاصة حوض البحر المتوسط الشرقى . وامتلأت القلالي والأسياق

---

ويعلق على ذلك بقوله « لقد كان جميع رهبان مصر ينظرون الى مجتمع طبانسين باعتباره الأم » .  
 أنظر PALLAD. hist. Laua. 32-34, SOZOM. hist. eccl. III, 14  
 المترجم .

والكينوبيونات رجال يتتغون خادمة الاله على هذا النحو . ولا شك أن  
الديرانية والكنيسة تدين بصفة خاصة الى القديس باسل العظيم (٥)  
St. Basil the Great أسقف قيسارية Caesarea في آسيا الصغرى ،  
واب الكنيسة في القرن الرابع ، الذي أعطى للحياة الديرانية الجديدة  
نظامها ورسم لها طريقها . فقد كان باسل ، على العكس من باخوم أو  
أنطونيوس ، رجلا متعلما قادرا على أن يفصل بوضوح آراءه عن الزهينة ،  
رغم أنه لم يترك قانونا يمكن مقارنته بذلك الذي وضعه في الغرب القديس  
بندكت (٦) St. Benedict النورسي Nursia ، أما ما يسمى « قانون »  
باسل فليس الا مجموعة من الاجابات على عدد من الاسئلة التي اثيرت حول

(٥) أسقف قيسارية كبادوكيا ( ٢٧٠ - ٢٧٩ ) ، واحد الكبادوكيين  
الثلاثة الاشهار آباء اللاهوت . يمثل الجيل الثاني المعتدل للنيقية ، بعد  
جيلها الاول المحافظ المتمثل في اثناسيوس أسقف الاسكندرية ويوستاتيوس  
أسقف انطاكية . كان صديقا حميما للأسقف السكندري ، رغم اختلاف  
وجهتي نظرهما ، ودارت بينهما مراسلات عديدة ، وكان كل منهما يحمل  
للآخر التقدير والاعجاب . وكان لباسل مواقف مشهودة مع الامبراطور  
فالنز الذي كان يدين بالمسيحية الأريوسية . كما أن باسل كان رائدا للزهينة  
في آسيا الصغرى . انظر عن ذلك التقديم الرائع الذي كتبه B. Jackson  
عن حياة باسل وأعماله في Nicene and post-Nicene Fathers, VIII  
وايضا رسائل باسل الى اثناسيوس في نفس المجلد .

(Epp. LXI, LXVII, LXIX, LXXX, LXXXII)

SOCRAT. hist. eccl. VI, 16

وكذلك

و SOZOM. hist. eccl. VI, 16 المترجم .

(٦) ولد لأسرة ثرية أرستقراطية حوالي عام ٤٨٠ ، وجيء به الى  
روما ليتلقى تعليمه ، غير أن المجون الذي وجدته بالمدينة جعله ينفر منها ،  
فهجرا ، ثم استقر به المقام في النهاية عند كاسينو Cassino "Monte Cassino"  
في منتصف المسافة بين روما ونابلي ، بحيث أقام هناك ديرا على اطلال  
معبد قديم للاله أبوللو . وكانت الديرانية الغربية في القرن الخامس تعاني  
الانحلال ، من جراء الفضل الذي لحق محاولاتها الذهاب الى أبعد مما كانت  
عليه الرهبانية الشرقية ومن ثم عمل القديس بندكت على أن يضع نظاما  
ديرانيا يبعد به عن التطرف ، حتى أصبحت الديرية البندكتية في القرن  
السادس نواة سابقة لقريناتها الكلونية في القرن العاشر ، فيما يتعلق بحركة  
الاصلاح الكنسي .

حياة الرهبنة • وربما كان اعظم ما يقرره فى هذا المجال قوله بأن حياة الكينوبيون تفضل حياة التوحد • ذلك انه كان يعتبر أن الانسان بمقدوره وسط الاخوة أن ينفذ الوصية الالهية بحبه لأخيه كحبه لنفسه (٧) • ومن الممكن أن تكون مبادئه قد داخلها شيء من المبالغة بفعل كتابات المتأخرين ، فقد كتب عنه صديقه القديس جريجورى النازيانزى (٨) *Gregory of Nazianzus* مبينا أنه تمكن ببراعة من التوفيق بين التوحد والحياة المشتركة ، وأقام القللى للنسك الزاهدين بالقرب من التجمعات الكينوبية (٩) ومع هذا ، وسواء كان القديس باسل قد عزم على تحقيق ذلك أو لم يدر بخلده ، فهناك حقيقة واضحة لا سبيل الى انكارها تؤكد استمرار ازدهار الحياة النسكية

Thompson & Johnson, op. cit. pp. 203 sqq.

انظر

Stephenson, op. cit. pp. 73 - 76

وأبضا

Strayer & Munro, op. cit. pp. 62 - 67

وكذلك

Davis, op. cit. pp. 74, 79

و

(٧) انظر Longer Rule 7 • من الضرورى اسرة الرب أن تعيش بين

من يتشابهون وإياك ، أما التوحد فأمر عسير وخطير •

(٨) أسقف نازيانزا *Nazianzus* فى آسيا الصغرى ، ( وهى التى أطلق

عليها الرومان *Diocaesarea* ) ، ( ٣٦١ - ٣٨٩ ) ، وهو شأن معاصرة باسل

أسقف قيسارية فلسطين ، أحد الكبادوكيين الثلاثة آباء اللاهوت • وقد خلع

عليه بالمجمع المسكونى الذى عقد فى افسوس سنة ٤٣١ لقب « العظيم » ،

تلقى تعليمه فى الاسكندرية واثينا ، وكان صديقا لجوليان الذى أصبح

امبراطورا فيما بعد ( ٣٦١ - ٣٦٣ ) • ولكنه وضع خطبتين قدما فيه عندما

أعلن الامبراطور جوليان اعتناقه للوثنية • وكان جريجورى كارها للمناصب

الكنسية ، ومن ثم كثيرا ماتوارى هربا الى دير صديقه القديس باسل • غير

أنه فى عام ٣٨٩ دعاه الامبراطور ثيودسيوس الاول ليتولى كرسى أسقفية

القسطنطينية ، بعد أن ظل خاضعا للسيادة الأريوسية قرابة أربعين سنة •

غير أنه لم يمكث فى هذا المنصب سوى عامين فقط ، ثم انسحب من العاصمة

الى بلده أبان انعقاد المجمع المسكونى الثانى فى القسطنطينية • انظر

المقدمة القيمة التى كتبها *Browne & Swallow* عن جريجورى وأعماله

فى *Nicene and post-Nicene Fathers, vol. VII, pp. 187 - 203*

وراجع أعماله فى نفس المجلد وفى *P.G. XXXV, 531-720* المتوجم •

(٩) انظر *Greg. Naz. or. 43, 62 "on Basil"*



والسبب في الامبراطورية الرومانية في الشرق جنبا الى جانب ، بل وفي بعض الأحيان كجزء من المؤسسات الكينوبيونية .

وعلى أرض فلسطين وسوريا نمت كل انواع الحياة الديرانية ، فقد مدت هذه الحركة الجديدة جذورها الى زمن بعيد ، وانتشرت بشكل سريع حتى توقفت نتيجة الفتح العربي في القرن السابع . وكانت فلسطين بوجه خاص تربة خصبة بسبب ارتباطها الوثيق بالحياة الجسدية للمسيح ، وما هي الآن تضيف الى ذلك ، بازدياد القلالي والأسياق والأديرة فيها ، عامل جذب للحجيج ، لما تزخر به من رهبان مطهرين قادرين على منح البركات الخاصة والوصايا الروحية وكيف لا وقد صفت نفوسهم وشفقت . وعلى الرغم من وجود نمطى « الحياة المشتركة » Coenobia و « التوحد » anchorites إلا أن نظام السبب كان سائدا ومع أن هذا النظام كان يسمح بالمسئولية الفردية في حدود معينة ، إلا أنه في الوقت ذاته كانت له ، شأن الكينوبيون ، قوائمه التي تتضمن الطاعة للزعيم الروحي . وقد ترك رهبان فلسطين ، مثلهم كمثل الرهبان المصريين ، مجموعة من الكتابات تكشف عن التنوع الوفير في حياتهم الرهبانية ، والنجاح الذي تحقق في تبيان النظام الملائم للمؤسسات المختلفة والمتوحدين . وكشفت العزائم الرهبانية عن نفسها في الأعمال الرائعة المتعددة لكتاب القرنين السادس وواائل السابع ، مثل السير التي خلفها كيرلس البيسانى (١٠) Cyril of Scythopolis والذكرات المختلفة التي وضعها يوحنا المدك (١١) John Moschus عن الحياة الروحية في كتابه « مرج الروح » Pratum Spirituale أو « مرقاة الفردوس » Scala Paradisi ليوحنا السلمى (١٢) John Climacus . وقد ترجمت هذه المؤلفات

- 
- (١٠) هو من أشهر كتاب الهاجيوجرافيا ( سير القديسين ) في القرن السادس ، قضى أخريات حياته في سبب القديس ساباس Sabas في فلسطين وما تزال معظم كتاباته باقية الى الآن . المترجم .
- (١١) فلسطينى المولد ، عاش في نهاية القرن السادس وواائل القرن السابع . قام برحلات عديدة زار فيها سكنى الرهبان في فلسطين ومصر وسوريا وآسيا الصغرى وجزر البحر المتوسط وبحر ايجة . المترجم .
- (١٢) عاش فترة طويلة من الزمن متوحدا على جبل سيناء ، ووضع كتابه « مرقاة الفردوس » قسمة الى ثلاثين فصلا هي المراقى التي يعاين فيها



اليونانية الى الصقلية ، وبهذه الصورة انتقل ذلك التقليد الى البلقان وروسيا ، واستخدمت أيضا في دوائر الرهبنة الأرثوذكسية بعد أن ضاعت فلسطين من الامبراطورية .

وكانت آسيا الصغرى ، وبلاد اليونان ومنطقة الجزر وأجزاء من البلقان تعتبر القاب النابض للامبراطورية البيزنطية في عصرها الوسيط ، وهنا لم يكن يخل اقليم واحد من الرهبان . كما أن بيزنطة كان لها نفوذها الكبير على أديرة صقلية وجنوب ايطاليا حتى نهاية القرن الحادى عشر عندما استوطن النورمان هذه المنطقة . ويعتبر القديس ثيودور الاستودى أبرز آباء الديرانية فى الفترة البيزنطية الوسيطة ، فقد كان يعرف تماما حقيقة الشعور البيزنطى التقليدى ، ومن ثم عاد جهارا الى ما خلفه الأقدمون خاصة تلك الكتابات النسكية التى وضعها القديس باسل القيسارى ، وراح يقرأها ويعيد قراءتها ، حتى دفعه ذلك الى القول بأن المسيح تحدث من خلال القديس باسل . ولما كان ثيودور قد ولد فى منتصف القرن الثامن ، فقد عاش وعانى ذلك الزمن الذى شهد الصراع من حول الأيقونات . وقد أوى الى أحسد الأديرة فى بيتينيا بآسيا الصغرى ثم انتقل بعد ذلك الى دير ستودىوس فى القسطنطينية حيث أصبح مقدا للدير فى بواكير القرن التاسع . ووقف يدافع ورهبانه باخلاص باعتباره زعيما روحيا ومصلحا ديرانيا ، فقد خلف عددا من الخطب التى عن القديس التقليدى للأيقونات . على أن أهم ما يعنينا هنا عمله وجهها الى رهبانه وعظمت تكشف بجلاء عن شخصية هاد ملهم لأجل « معاينة الاله » Visio Dei . وتبين وصيته ورسائله ، بل وتعاليمه النسكية ، مدى اهتمامه بنظام الحياة الديرانية ، والقسواعد الصحيحة للقداسات ، وسمو التعقيدات . وعلى هدى باسل ، نهج ثيودور سبيل الاعتدال فى ممارسة الرهبانية ، وأكد بدوره الالتزام الكامل بالحياة المشتركة ، موضحا مسئوليات مقدم الدير فى الناحيتين الادارية والروحية .

---

المراء روحيا الى الكمال المطلق ، ولقى هذا الكتاب نبوعا بين رهبان بيزنطة ، وترجم الى السريانية واللاتينية واليونانية الحديثة والايطالية والاسبانية والفرنسية والصقلية . المترجم .

وهكذا أضحي الدير الاستودي ، في الركن الجنوبي الغربي من القسطنطينية ، تحت رعاية ثيودور ، واحدا من أهم الأديرة في الامبراطورية ، قوة و ثراء ، اليه يسعى أبناء البيت الامبراطوري ليتلقوا فيه تربيتهم الأولى ، ويقدم الهدى والرشد للمؤسسات الصغرى في كييف بروسيا (١٢) .

وعند وفاة ثيودور الاستودي في منتصف القرن التاسع ، كانت المبادئ الأساسية لحياة الكينوبيون البيزنطي قد اتضحت تماما . وقد يبدو شيئا محيرا في بعض الأحيان بالنسبة للمؤرخين الغربيين . عدم عثورهم في الكنيسة الشرقية على ذلك « النظم » التي تقسم بها الديرانية اللاتينية . ومع ذلك فان العالم الأرثوذكسي كان يحتوى على النموذج الذي يجمع بين المرونة والتنظيم ، رغم أن الحماسة للحياة الديرانية لم ترتبط أبدا مع الشعور بالحاجة الى تحديد قانوني كما هو حادث في الغرب . و اذا ما فحصنا القواعد الكنسية ، والقوانين الامبراطورية ، ومواثيق تأسيس الأديرة ، وتعليقات رجال القانون الكنسي ، والمصادر الأدبية وبصفة خاصة سير القديسين ، لاتضح لنا نوع المؤسسة الكينوبية في الشرق ،

(١٣) أقيم دير ستودايوس في القسطنطينية حوالي عام ٤٦٣ على يد أحد البطارقة الرومان ويدعى Studius ، الذي أثر الابتعاد عن روما وهي تعاني دوان الضعف وتفتقر السقوط في أيدي الجرمان ، واتجه الى القسطنطينية ، حيث أقام بها كنيسة ليوحنا المعمدان ، وبنى الى جوارها ديورا ضخما حمل اسمه . وقد اشتهر رهبان هذا الدير بـ « الساهرون » Akoimetoι لأنهم كانوا يواصلون أداء الخدمة الكنسية والقداسات بالليل والنهار دون انقطاع ، بحيث كانوا يقسمون الى جماعات تتناوب ممارسة الطقوس تباعا بصفة دائمة . وقد احتل دير ستودايوس ورهبانه مكانة مرموقة في العاصمة والامبراطورية على السواء . وكان على الامبراطور أن يسعى سنويا لزيارة الدير في التاسع والعشرين من أغسطس ، أحد أيام عيد يوحنا المعمدان . والى هذا الدير أوى كل من الامبراطور اسحق كومنينوس عام ١٠٥٩ والامبراطور ميخائيل السابع سنة ١٠٧٨ . وكان كثير من الروس يقومون بزيارة الدير ، بل أن بعضهم فضل الإقامة في هذا الدير ، وتدل شواهد أحد قبور القرن الرابع عشر على ذلك . يضاف الى هذا أن شرف الدفن في جبانة دير ستودايوس كان يمنح لبعض العلمانيين الذين أدوا خدمات معينة للدولة ، ومن بين هؤلاء البطريق بونوس Bonus ، الذي أبلى بلاء ناصبا في

والتجربة الروحية الغنية بنوعيتها التوحدي والجماعي ، وكيف اقتبس  
العالمان اللاتيني والصقلي منها سواء عن طريق الترجمة أو الاتصال  
الشخصي .

ومنذ البداية ، فإن الرهبانية بوجودها داخل الاطار الكنسي على يد  
آباء للكنيسة حكماء مثل القديس أثناسيوس والقديس باسل ، قد نظمت  
حسب مقتضى الضرورة عن طريق المراسيم الصادرة عن المجامع المسكونية  
أو المحلية ، والتشريعات الامبراطورية والقواعد الخاصة . وكان من الامور  
الجوهرية الحفاظ على السلطة الأبروشية ، وفي الوقت ذاته امتلاك ناصية  
هذه الطاقة الهائلة الكامنة في قوة تلك البيوتات الروحية ، لتصبح طوع أمر  
الكنيسة . وقد أظهر الرهبان خلال حنى الجدل الهرطوقي ، خاصة منذ  
القرن الرابع حتى السابع ، أنهم يشكلون قوة تثير الفلاقل داخل المجامع ،  
وأن يصبحوا مراكز مقاومة عنيفة في اقاليمهم (١٤) . وتحاول كثير من

الدفاع عن القسطنطينية عام ٦٢٧ عندما تعرضت للحصار المزدوج من جانب  
الفرس والآفار ، بينما كان الامبراطور هرقل خارج العاصمة لمحاربة الفرس  
في ديارهم .

أنظر Millingen, Constantinople, pp. 151 - 155 المترجم .

(١٤) لعب الرهبان المصريون دورا كبيرا في القرنين الرابع والخامس  
لتأييد كنيسة الاسكندرية ضد القسطنطينية ، كنيسة وحكومة . ففي القرن  
الرابع ظهر دورهم واضحا في مناصرة أنطونيوس لأثناسيوس في بداية  
النزاع الأريوسي ، ثم قام الرهبان بحماية أثناسيوس أثناء هروبه المتتابع ،  
والذى بلغ ثلاث مرات ، ابان عهد الأباطرة قسطنطيوس وجوليان وفالنتز ،  
وكان لهم الأثر في صمود الأسقف السكندري وعناده وتحديه لأباطرة  
الأريوسية . وليس أدل على ذلك من أول عمل أقدم عليه الامبراطور فالنتز  
عقب وفاة أثناسيوس عام ٣٧٣ هو مهاجمة الأديرة المنتشرة من قم النيل  
الى طيبة ، معتبرا اياهم حماة النيقية . وقد حرص أسقفا الاسكندرية في  
النصف الأول من القرن الخامس ، كيرلس وديوسقورس على اصطحاب أعداد  
كبيرة معهم من الرهبان في مجع افسسوس الأول والثاني ثم في مجمع  
خلقيدونية ( ٤٣١ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ ) . لتأييد وجهة نظرهم . راجع للمترجم  
« الدولة والكنيسة - الجزء الثالث - والجزء الخامس »

وأنظر PALLAD. hist. Lausiaca. وأيضا Budge, op. cit. p. 57

المراسيم التنظيمية التي صدرت عن المجامع الكنسية الأولى القضاء أو التخفيف من غلواء هذه الناحية ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك القانون الرابع من قوانين مجمع خلقيدونية Chalcedon ( سنة ٤٥١ ) الذي بسط بوضوح أبعاد هذه المشكلة واقترح العلاج الملائم لها .

« هناك من يسلكون درب حياة رهبانية طاهرة نقية ، فلهم الاحترام اللائق والتقدير . وهناك أيضا بعض يتخذ من الرهبانية ذريعة لاثارة القلاقل والاضطرابات في الشئون الكنسية والمسائل السياسية ، ويتحلقون من حول المدائن هائمين بلا هدف ، بل وشرعوا في اقامة أديرة لأنفسهم ، لهذا فقد تقرر أن لا يسمح لأحد بتأسيس دير أو هيكل الا بعد مرافقة أسقف المدينة . كما تقرر أيضا أن يخضع الرهبان في كل ناحية ، سواء في المدن أو الاقاليم ، لسلطان الأسقف ، وأن يكرسوا أنفسهم لصمت تعبدى ، منصرفين بكليتهم الى الصوم والصلاة داخل تلك البقاع التي طلقوا من أجلها الدنيا . » .

ومضى القانون بعد ذلك الى بيان أنه اذا دعت الضرورة الى قيام الراهب بعمل خارج ديره فليكن ذلك بتصريح أسقفى . وقد أكدت التشريعات ، الكنسية والامبراطورية ، والتي صدرت فيما بعد ، مسئولية الأسقف الكاملة .

وكانت هناك مشكلة أخرى ملحة تتركز في ضمان استمرارية بقاء كل من هذه المؤسسات الرهبانية . فأعاد التشريع ثانية مسألة الوقف المناسب ، بل وفي بعض الأحيان كان يضيق الخناق على اقامة أديرة جديدة . ولا ريب في أن اللايقونيين كانوا يمثلون عداء كاملا للأديرة . حتى اذا منيت الحركة اللايقونية بالهزيمة ، جاء رد الفعل عنيفا الى الحسد الذي كان فيه على

وكذلك Hardy, op. cit. p. 37, 74 و O'Leary, op. cit. p. 327  
و Stanley, op. cit. p. 329-30  
و Kidd, A history of the Church, II, pp. 105-6  
و Jones, Later Roman Empire, I, pp. 214-216  
ودكتور أسد رستم : كنيسة أنطاكية ، ج ١ ص ٢١٥  
وأنظر ATHANAS. ep. ad Dracontium المترجم .



مجمع القسطنطينية الذي عقد سنة ٨٦١ أن يحرم على الأساقفة إقامة الأديرة من دخول أبرشياتهم حتى لا يترقب على ذلك انزال الضرر بكراسيهم الأسقفية . بينما كان بعض الافراد ينظرون الى الدير كعمل من أعمال البر ، ومن ثم كانوا ينفقون بسخاء . وفي بعض الاحيان كان بعض مؤسسي الأديرة يتعاملون مع المؤسسة الرهبانية كما لو كانت ملكا خاصا لهم ، فيبيعون جهرة أو يستخدمون ما كان قد خصص لاستخدامها ، ويعينون مرشحهم مقدما للدير . وهنا كان لابد أيضا من اتخاذ خطوات معينة في محاولة لتجنب ما قد يصل بهذه الأديار الى مؤسسات دنيوية من الناحية العملية . فأعيد التأكيد من جديد على ابراز سلطة الأسقف في هذا المجال ، وضرورة الاحتفاظ بترخيص التأسيس في الأرشييف الأسقفي ، وعدم ترشيح مؤسس الدير لنفسه أو غيره كمقدم للدير دون موافقة الأسقف .

ولم يحدث أن انتقص من حجم وقف الأديار ، وبعد انقضاء الحقبة اللايقونية وحتى نهاية الامبراطورية ، أصبح واضحا أنه من المستحيل ، حتى مع التحريم الامبراطوري ، التحكم في استمرار هبة الاراضى أو وقفها من أجل ذلك الغرض . وان كان الامبراطور نقفور الثانى فى القرن العاشر ، قد منع إقامة مؤسسات ديرانية جديدة وحرم وقف الاراضى على الأديار الا فى اضيق الحدود ، رغم أنه كان تقيا من الزاهدين ، راوديه نفسه ذات مرة الاعتكاف فى احدى صوامع الناسكين على جبل أثوس . وأشار الى أن جوهر الرهبنة لا يمكن فى إقامة الابنية الرائعة واقتناء الضياع الواسعة ، بل فى محاولة الاقتداء بأباء الرهبانية الأوائل فى تقشفهم المقدس . وقد لقيت وجهة نظر نقفور التأييد من جانب بعض الأباطرة الذين جاءوا من بعد ونفر من رجال الاكليروس . ولكن الملكية الديرانية تعرضت لهزة عنيفة من جراء الفتح العثمانى .

وقد تمخض عن إدارة الأمور الزمنية للحياة الرهبانية العديد من المشاكل ، يعود بعضها الى الرغبة فى ايجاد نظام معين يحظى بالاحترام على أوسع نطاق ، وبعض ثان الى أن الأديرة نفسها قد هوت من عليائها ، ذلك أنه على الرغم من الصيحات التى أطلقها دعاة الإصلاح ، العلمانيون منهم والكنسيون ، الا أن عددا كبيرا من الأديرة ظل يعمل على زيادة ملكيته ،

وربما كانت هذه الممتلكات من الاراضى مبعثرة ومتباعدة . وفى بعض الحالات كان يعين قيم Epitropus للإشراف على ادارة مثل هذه الامور . ثم ابتدع الامبراطور ورجال الكنيسة شيئا آخر ، هو أن يمنح الدير بكل ممتلكاته كهبة Charisticum وكان هذا يعنى أن يعهد بالدير وممتلكاته الى حام Charisticarius يضطلع بادارة اراضية بما يحقق كفاية الجماعة من احتياجاتها اليومية والحفاظ على كيانها . وقد ترك ذلك بصماته - قدر المستطاع - على مجال التطور الاقتصادى للضياع الديرانية ، ولكن هذا النظام فى حد ذاته كان بابا ولجت منه الفوضى ، مما عرضه بالتالى للنقد من جانب رجال الدين . وان كان هذا النظام لم يحل دون رفض بعض مؤسسى الأديار ، بنوع خاص باصرار أن تمنح أديرتهم الى أى انسان أو تحت أى ظروف ، كما فعلت الامبراطورة ايرين سنة ١١١٨ . وعلى العموم فقد لقيت هذه التجربة القبول ، على أساس أن يبقى للدير سماته الرهبانية .

وليس ببعيد أن ينتمى مؤسسو الأديرة ، من العلمانيين أو الأكليروسيين ، الى طبقات متباينة ، وقد شهد القرن الحادى عشر القديس دروثيوس Dorotheus يقيم ديريه فى آسيا الصغرى بمساعدة اثنين فقط أو ثلاثة من أصدقائه والقرويين ، ثم مالبت أن حصل بعد ذلك على التأييد والدعم الامبراطورى . وغالبا ما كان للدير حماة العديدون والمحسنون ، ومن الممكن أن تنتقل حقوق المؤسس الى آخرين عن طريق الارث أو الاتفاق أو البيع أو التوكيل . ويضمم الدير على الأقل ثلاثة رهبان ( وربما عمد المؤسس الى تحديد العدد ) ، وتدون الهبات الخاصة به فى وثيقة تسمى « المختصر » brevion (١٥) وتودع فى دار المحفوظات الأسقفية . ويعتبر « المختصر » هذا جزءا من ميثاق التأسيس ، الذى يحتوى بالاضافة الى ذلك على رغبات المؤسس فيما يتعلق بالالتزامات الطقسية ( كالصلاة من أجله واسرته ، وقواعد الصيام والاحتفالات الدينية بصفة خاصة ) ، ويحدد الواجبات الخاصة التى يجب أن تلتزم بها الجماعة .

---

(١٥) مشتقة من breve . وكانت اللاتينية هى لغة الإدارة فى الامبراطورية الرومانية الشرقية فى أيامها الأولى .

وهناك أنواع عديدة من المؤسسات الديرانية مثل الدير الاسقفى eparchial (١٦) الذى يخضع مباشرة لاشراف الأسقف . وقد حظيت بعض الأديار بامتياز خضوعها للسيادة الأسقفية المباشرة ، أو تحت السيادة الكنسية العليا فى حالة كنيسة مستقلة (١٧) ، وكانت أذيرة الامبراطورية « أديار امبراطوريتى » مستثناة من الخضوع للسلطة المدنية أو الكنسية وغيرها عدا الامبراطور أو من يمثله (١٨) ، وقد حصلت مثل هذه الأديار ، سواء الامبراطورية منها أو التى اقامها آخرون ، على ذلك الامتياز من الامبراطور نفسه . وهكذا فان تلك الأذيرة المستقلة استقلالا ذاتيا Outodespotai قد حظيت ، بمقتضى شروط تأسيسها ، بالتححر من السيادة الامبراطورية أو البطريركية أو الأسقفية ، أو حتى سلطان أفراد معينين . وان كانت هناك بعض المظاهر الرسمية التى تتعلق باقامة الدير ، يأتى فى مقدمتها موافقة الأسقف ، ثم التدشين الأسقفى الذى يجرى فى احتفال يليق بهذه المناسبة ، ويتبع ذلك تثبيت الصليب (١٩) عادة فى الموضع الذى سوف يقام فيه المذبح ، حتى اذا انقضت سنوات ثلاث اقيم احتفال مهيب وأعلن فيه الترتيبات التى أعدها المؤسس من أجل الحفاظ على الدير .

وقد أدت ضرورة اختبار النوايا ، والتخلص من الدوافع غير الحقيقية، وتأمين حقوق الآخرين ، الى أن تجعل من تنظيم الانخراط فى سلك الحياة الرهبانية مسألة جوهرية . ذلك انه كان لابد من تحديد وضع العبيد ، فلم يكن من المسموح به اغراؤهم لهجران سادتهم ، أما الفأرون فيمكن استردادهم خلال الأعوام الثلاثة الأولى التى تعتبر فترة اختبار (تبعاً لما جاء فى النوفلا الخامسة من متجددات جوستينيان ) ، أو حتى يعد ذلك حسبما ورد عند ليو

(١٦) مشتقة من eparch أو diocese

(١٧) كما فى قبرص حيث كان يوجد رئيس للأساقفة .

(١٨) قارن بما حدث على عهد الامبراطور نقفور الثانى فوقاس الذى تحدث عن « السيق Lavra الجديدة فى امبراطوريتى » ، فى ميثاق تأسيسه للسيق الكبير على جبل أثوس ( ورغم أنه سعى بالسيق ، الا انه كان كينوبينا ) .

(١٩) من هنا جاء مصطلح « صلبانية » Stauropegial رغم انه ينطبق أساساً على دير يخضع للسلطة البطريركية المباشرة .

السادس ( نوفلا ١٠ ) . ولم يكن بمقدور طرف واحد أن يفض زواجا ، أو يفسخ خطبة . أما في حالة دخول الزوجين درب الرهبنة ، فانه كان يتحتم ضمان اعادة ذويهم كالأطفال أو الآباء . وحسب قوانين المجمع الذي عقد في قاعة القبة (٢٠) Trullo ( ٦٩١ ) تم السماح للعذارى بدخول الدير في سن العاشرة ، رغم أن القديس باسل الكبير كان قد اقترح سن السادسة عشرة أو السابعة عشرة ، وذكر ليو السادس ( نوفلا ٦ ) انهن اذا دخلن الدير في العاشرة من عمرهن بات عسيرا عليهن التخلص من ممتلكاتهن حتى سن متأخرة . وبمقتضى بعض التعهدات كان للدير الحق والارث الشرعى شأن الهبة غير المشروطة . أما ما كان قد اعطى للدير على سبيل الهبة ، سواء من الراشدين أو الآباء من أجل اطفالهم ، كان لابد أن يبقى حتى بعد أن يترك هؤلاء الأفراد الدير (٢١) . الا في حالة واحدة وهي اذا كان الارتحال بسبب شكاية مقبولة ضد رئيس الدير .

وكانت المشكلة المزدوجة التي تواجه الدير في ملكيته ونظامه ، تنشأ عندما ينتقل أحد الرهبان من دير الى آخر ، وقد قرر جوستنيان أن تبقى الملكية من حق الدير الأول الذي ينتمى اليه الراهب . وفي الوقت ذاته فان مقدمى الأديرة كانوا يتعرضون للتوبيخ لسماعهم بحدوث ذلك العمل الذى يستوجب الادانة باعتباره مخالفا لنهج الحياة الرهبانية . وكان على الديارانية الشرقية ان تكابد أحيانا ذلك اللوم الناتج عن حالة التنقل هذه بعكس الاستقرار المكانى *Stabilitas loci* الذى ركز عليه باصرار القديس بندكت *Benedict* من نورسيا *Nursia* ( رغم ما ذكره من انه كان يضع فقط القاعدة الأولية للمبتدئين ، مشيرا الى أن المسألة لا تحتاج بالضرورة الى وثاق يمسك بخلق الراهب المتمرس ) ، ولكن الشيء الذى لامرأ فيه أن هيئة التجوال لم يكن يحظى بالقبول من جانب السلطات الكنسية البيزنطية أو مؤسسى الأديرة العلمانيين . وقد كشفت القوانين الجمعية والقواعد

(٢٠) انظر قبله . المترجم .

(٢١) المجمع المسكونى السابع ( ٧٨٧ ) القانون رقم ١٩ .



الأسقفية والتعليقات التي وضعها فقيه القرن الثاني عشر بالسسامون (٢٢) Balsamon انه يمكن فقط ، بعد مراعاة التحفظات الضرورية ، انتقال راهب من دير الى آخر ، وفي هذه الحالة كان عليه أن يحصل على موافقة رئيسه واسقف الناحية ، ولأسباب وجيهة وصريحة . وكانت سيق جبل آثوس في القرن العاشر تسمح لرهبانها بالذهاب الى اديرة أخرى أكثر قدرا ، وذلك بموافقة رؤسائهم السابقين ، اذا ما كان ذلك رغبة منهم في السمو الروحي . وقد أعطى مجمع سنة ٨٦١ ( القانون رقم ٤ ) للأسقف الحق في نقل أى راهب من دير الى آخر اذا ما استشعر أن رغبته في ذلك صادقة .

ومنذ الأيام الاولى للرهبة المصرية ، كانت هناك مرحلة لابد أن يجتازها أولئك الذين نذروا أنفسهم للحياة الرهبانية ، ورغم أن القديس باسل لم يحدد فترة زمنية محددة لهذه التجربة ، الا أنه كان يعتبرها مسألة جوهرية (٢٢) بينما حدد جوستنيان ثلاث سنوات للعبيد ومجهولي الهوية ، على حين جعل من حق مقدم الدير قبول الآخرين لحظة اقتناعه أنهم قد أصبحوا لائقين ، ( نوفمبر ١٢٢ ) وقد سمح هذا التشريع بكل تأكيد بالانخراط على الفور في سلك الرهبة . أما مجمع القسطنطينية المنعقد في سنة ٨٦١ ، فقد جعلها ( في القانون رقم ٥ ) ثلاثة أعوام للجميع على السواء ، وإن كان قد استثنى من ذلك أولئك الذين كانوا يحيون وسط هذا العالم حياة القديسين الأطهار ( وكانت ستة أشهر فقط كافية لهؤلاء ) ، والمبتدئين ( أو الآخرين ) الذين كانوا يعانون ادواء المرض ويجب لذلك قبولهم دون إبطاء في درب الرهبة . وبغض النظر عن هذه الاستثناءات ، فإن الواقع العملي فيما بعد لم يكن يلتزم غالبا بهذه السنوات الثلاث ، أما بناء على توجيهات مقدم الدير في بعض الأحيان ، أو تبعاً لميثاق التأسيس في أحياء أخرى . وطبقاً لنمط typicon القديس اثناسيوس الذي وضع لسيق جبل آثوس ، كانت فترة الاختبار عاماً واحداً . يحتوي كتاب الصلوات Euchologion على نظام كموة الراهب أو الراهبة ، وتاريخ تصنيف هذا الكتاب غير معروف ، ولكن

(٢٢) انظر قبله . المترجم .

(٢٢) Longer rule 10

الطقسين البيزنطيين للرداء (٢٢) « الكبير » و « الصغير » ، وجدا في مخطوطات سابقة تعود الى القرنين الثامن والتاسع ، وبينما ترتدى الكسوة الكبيرة من جانب الراهب القديم المجرب ، كانت الكسوة الصغيرة تدل على ابتداء الانخراط في سلك الحياة الرهبانية . ويتم استقبال المبتدئ اذا كان قسيسا من جانب رئيسه ، فاذا كان دون ذلك جرت مراسم الاستقبال على يد القسيس في حضرة الرئيس الذي يخضع له ذلك المبتدئ (٢٤) .

وعلى رأس الكينوبيون يأتي المقدم ( ويدعى غالبا الرئيس hegoumenos أو الرئيس العام Kathegoumenos ) ، وتختلف طرائق اختياره ، فربما عين بواسطة مؤسس الدير ، أو أسقف الناحية أو البطريرك . وفي بعض الاحيان كان يختار على يد الاخوة من بين عدد من المرشحين ، وغالبا ما كانت تفاصيل هذه الاجراءات تدون في ميثاق التأسيس ، ككيفية الاقتراع . هل يجرى علانية أو في سرية ، أو من له حق صوت التغليب اذا دعت الحاجة الى ذلك . وكان من الضروري ان تحصل عملية الاختيار على تأييد أسقف الاقليم أو البطريرك في حالة الدير الصلياني Stauropegial . وعادة ما كان مقدم الدير يحتفظ بمنصبه مدى الحياة ، ولكنه ربما يعتزل أو يعزل لدواع معينة . وهو بحكم وظيفته مسئول عن الأمور الروحية والزمنية للدير . فهو الذي يعين الرهبان الاحداث سنا تحت رعاية أب روحى وهو اكبر الرجال الذي يتولى مهمة تعليمهم وسماع اعترافاتهم ، وبمقدوره فقط ان يمنح الغفران اذا كان البطريرك أو العادة تسمح له بذلك . وفي بعض الاحيان ، كان رهبان العصور الوسطى يدعون ذلك اذا لزم الأمر بحكم فضيلة النعمة

---

(٢٢) وكان هذا الملبس Schema هو اللباس الأسود المميز للراهب والرمز الواضح للحالة الرهبانية . ولهذا فان مصطلح schematologion ( حفلة القليس ) يرد في الجزء الخاص بالاحتفالات الديرانية في كتاب الصلوات Euchologion وكانت كلمة Schema تستخدم في بعض الاحيان للدلالة على « الأسلوب الرهباني للحياة » . للحصول على ترجمة فرنسية لهذه المراسم .

E. Amand de Mendieta, La presqu'île des Caloyers  
île mont-Athos "Burgess 1955" pp. 324 ff.

(٢٤) مجمع القسطنطينية سنة ٨٦١ ( القانون رقم ٢ ) .

الالهية Charisma وكان يعهد بالمهام القداسية الى مجموعة من الموظفين كل فى اختصاصه ، فهم يوقظون الاخوة فى وقت مناسب ويتأكدون من ان احدا لا يغط فى نومه ، يثرثر اثناء القداسات ، ويشرقون على الطقوس والقرانيم ، ويعنون بكتب الصلوات .

وفيما يتعلق بالادارة الداخلية ، كان الأويكونوموس يتولى الاشراف العام على ميزانية الدير ، ويتابع بمساعدة أعوانه كل ما يتصل بالنواحي المالية ، والأردية ، والطعام والشراب . ويخصص الدخل للانفاق على المكتبة ونسخ الكتب وتطبيب المرضى ورعاية الغرباء والأخذ بيد ذوى الفاقة . هذا الى جانب مسئوليات اضافية تقع على كاهل الجماعة نتيجة تكليف خاص ينص عليه ميثاق التأسيس ، كالانفاق على مستشفى أو دار لليتام ، أو توزيع الصدقات فى مناسبات معينة . ويراعى بصورة دقيقة عند تحديد الاختصاصات ان يشارك الجميع فى الأعمال النمطية اليومية . وقد أعطى ثيودور الاستودى صورة حية عن الواجبات العديدة انتمى خصصها لرهبانه فى المصانع أو الحقول أو الدير نفسه ، وحدد معالم التعليم ونسخ الكتب . وكانت القدرة على التفكير الواضح بالنسبة له ، كما عند القديس يوحنا الدمشقى St. John of Damascus ، تعنى الفهم العميق للكتاب المقدس وآباء الكنيسة والقوة الكبرى فى مواجهة الهرطقة .

وليس من الصعب استعادة تصور الحياة اليومية داخل أحد الأديرة الكبيرة والشهيرة. مثل الدير الاستودى ، أو دير القديس ماماس Mamas بالقسطنطينية تحت رعاية سسيمون Symeon . حتى أدق التفاصيل عن قائمة الطعام الاستودية ، والواجبات المعتادة لتسعة من الرهبان بقلنسواتهم حول كل مائدة ، وخزانة ثيابهم وأرديتهم التى يغيرونها مرة كل أسبوع . وفوق هذا وذاك فإن الحياة المشتركة كانت متركز أساسا فى الخدمة ، تلك القداسات التى تؤدى فى كنيسة الدير فى أوقات متفرقة من الليل والنهار ، كانت تعرف بالساعات القداسية (٢٥) ، وهى تشتمل أساسا على الصلوات ،

---

(٢٥) صلوات منتصف الليل ، الفجر Orthros ، الساعة الأولى Prime ، الساعة الثالثة Terce ، الساعة السادسة Sext ، الساعة

والمزامير ، ودروس عن الكتاب المقدس ، والترانيم والأناشيد وكانت تتنوع تبعا للاوقات والفصول ، وعلى سبيل المثال فقد كان لعيد الفصح طقوسه الرائعة وترانيمه ، بينما يتم على مدار السنة من يوم الى آخر ، احياء ذكرى اناس ضمنوا بطهارتهم مكانا فى التقويم القداسى للكنيسة الشرقية شأن القديسين المحليين الذين حظوا بالاجلال فى اقاليمهم . ويعتبر القداس الالهى عصب هذه العبادة المشتركة . فاذا ماتساءلنا عما يمكن أن تعنيه هذه العبادة للراهب ، فان ذلك يتضح فى نوعية التعليم الموجه الى حياته الروحية، والذي يتم بصورة منتظمة داخل الجماعة الديرانية . وفى هذه التقارير التى تتناول التجارب الشخصية لأولئك الذين قطعوا شوطا بعيدا فى طريق الروح مثل ثيودور الاستودى وسيمون اللاهوتى الجديد .

وكان آباء الرهبانية الأرثوذكس فى العصور الوسطى ، شأن أسلافهم فى بواكير المسيحية ، يعتبرون الكينويون بداية لمعظم الرجال ، فى الوقت الذى يذهب فيه قليلون الى أبعد من اعتباره الطريق القصير . وقد تعرض الهيكل الديرانى للكنيسة الشرقية لتغيير هائل خلال العصور الوسطى وما بعدها : ولعل جماعات النساك قد اختلفت تحت رعاية أب بطريق الاختيار، غالبا ما كان يعرف بالمقدم Protos . وفى القرن السادس كان هناك فى فلسطين رئيس واحد لجميع الكينويويات وآخر للاسياق . وكان لاديار جبل أثوس وجبل لاتروس Latros ، او جماعات متبورا Meteora فى تساليا Thessaly مقدموها . وفى بعض الاحيان كان يعهد الى أحد الاديار بالاشراف على اديرة أخرى باعتبارها توابع له ، وغالبا ما كانت مجموعات الغالتي Scetes او صوامع المتوحدين تخضع لواحد من الكينويويات .

التاسعة None ، الغروب Vespers ، صلاة قبل النوم Compline ( انتهاء العشاء - Apodeipnon ) .

انظر E. Wellesz, Byzantine Music ويتضمن مختصرا عن القداس البيزنطى ومحتوياته ( مع البيبليوجرافيا ) . وكان بعض الرهبان يتخلفون عن صلوات الثالثة والسادسة والتاسعة فى بعض أيام الأسبوع ، كما أن القائمين بنسخ الكتب فى دير ثيودور الاستودى كانوا يعفون من ساعات معينة .



ولم يؤد وجود الكينوبيون الى القضاء على السيق ، بل ظلت قائمة .  
ومع العصور الوسطى المتأخرة تطور النظام الرهبانى الفريد idiorhythmic  
وماتزال بعض اديرة جبل اثوس تسير على نفس نهجه الى اليوم . ويؤكد  
البعض ان هذا النظام يعود الى جبل اثوس نتيجة لما اعتري الحياة المشتركة  
من فساد وبنوع خاص بسبب الاضطرابات التى اجتاحت هذه المنطقة ابان  
الحرب الصليبية الرابعة او اغارات « المغاور » (٢٦) Catalan وربما كان

(٢٦) هم جماعات من المرتزقة الاسبان ، داع صيتهم فى النصف  
الآخر من العصور الوسطى ، وعرفوا بالجماعات القطلونية على الرغم من  
انهم يضمون عناصر مختلفة الى جانب القطلونيين من ارغونة ونافار ،  
وجدوا انفسهم ولا عمل لهم بعد ان انتهت الحرب بين ارغونة وشارل الثانى  
كونت انجو فى اواخر القرن الثالث عشر . فاختاروا من بينهم روجر دى فلور  
Roger de Flor زعيما لهم ، وهو ينتمى لأصل لمانى ، وكان اسم عائلته  
Blum أى الزهرة Flower فنقلت الى الاسبانية على هذا النحو Flor .  
وكان روجر فى اول الأمر جنديا فى فرسان الداوية ، ولكنه طرد لاختلاسه  
ولما كان الامبراطور البيزنطى اندرونيكوس الثانى يعانى من هجمات الاتراك  
العثمانيين ، فقد استنجد بروجر وجماعته ، فلبى روجر دعوته شريطة ان  
يحصل على لقب « الدوق الأعظم » Megadukas ويتزوج ابنة أخ الامبراطور  
ويتقاضى جماعته ضعف ما يتقاضاه المرتزقة العاديون : وهكذا أتى روجر  
وجماعته التى يبلغ عددها قرابة العشرة الاف الى القسطنطينية فى سنة  
١٢٠٢ ، ودخلوا على الفور فى نزاع مع الجنوية الذين أحسوا بضياع  
امتيازاتهم ، ومن ثم عمل الامبراطور على نقلهم الى اسيا الصغرى حيث  
ألقوا فى التصدى للعثمانيين وفك الحصار عن فيلادلفيا Philadelphia الى  
الشرق من سميرنا Smyrna غير انهم عاثوا فى اسيا الصغرى فسادا  
فاستدعى الامبراطور روجر الى العاصمة ، فاحتل فى طريقه غاليبولى ،  
وحصل من الامبراطور على لقب القيصر ، ولكنه لم يلبث ان قتل مع عدد =  
كبير من جماعته فى ادرنة على يد ميخائيل التاسع ابن الامبراطور الذى  
كان مقيما هناك ، فانتقلت قلوبه المتمركزة فى غاليبولى الى أوروبا وخربوا  
تراقيا ومقدونيا وحطموا اديرة جبل اثوس ، وبعد ان مكثوا قليلا فى تساليا ،  
استقر بهم المقام فى دوقية أثينا وطيبة . التى كانت خاضعة للحكم الفرنسى  
منذ الحملة الصليبية الرابعة ، وظلت لهم السيادة هناك حتى عام ١٢٧٩  
عندما قضى عليها الغزو النافارى .

هذا عاملا مساعدا ، ولكن بذور الرهبانية الفريدة idiorrhhythmic كانت كامنة في القلاى والأسياق الأولى . وكان الرهبان داخل هذا الدير الفريد idiorrhhythmic يتجمعون في « أسر » صغيرة ، كل منها تحت رعاية راع ، وللدير نوع من الملكية المشتركة تدار بواسطة اثنين أو ثلاثة يختارون سنويا كقيمين opitropi وكان يسمح للأفراد في هذا النظام بحق التملك الخاص ، ويعيشون داخل « أسرهم » عدا الوجبات المشتركة في عيد الميلاد وعيد الفصح أو الاحتفال الخاص بالقدّيس الذي ينتمون إليه ، ولكن القدّاس كان يتلى في الكنيسة المشتركة .

ولقد أبانت المصادر الديرانية عن مدى المرونة التي كانت عليها التنظيمات الأساسية . كما أوضحت أيضا مظاهر التعاون المشترك في الحياة الديرانية والنسكية . ولم يكن على الراهب البيزنطى عادة أن يفاضل بين طريقة وأخرى . فغالبا ما كان الرجال يتوقون الى سلوك رب حياة توحيدية « بعيدا على الجبال أو في الكهوف » قبل أن يتوفر الاستعداد لمثل هذه التجربة . ولدينا من القرن الحادى عشر القصة الشهيرة لذلك الأسقف اللاتينى الذى اتهم بارتكاب حادثة قتل غير عمدى ، وجاء بناء على ذلك ليكفر عن هذا الاثم في الكنيسة الشرقية ، ولكنه نصح في القسطنطينية بأن يعيش « متوحدا » داخل أحد الكينوبيوات ، حيث سيفيد كثيرا من قهر ارادته (٢٧) . وكانت الحياة المشتركة هي البداية الطبيعية ، ثم يمضى الراهب بعد ذلك مع استحسان رئيسه ، الى ممارسة حياة نسكية أشد صعوبة يمكن بها حقا بلوغ أعلى مراتب السمو الروحى . وهكذا وجدنا أن كثيرا من الكينوبيوات كان يسمح لها بالانسحاب من الجماعة لهذا السبب ، وفي بعض الأحيان لتعود في وقت لاحق . وقد تخلى سيمون اللاهوتى الجديد عن

Vasiliev, op. cit. II, pp. 604-608

D. Waley, Later Medieval Europe, pp. 199-200

وكذلك دكتور أسد رستم : الروم ، الجزء الثانى . ص ٢٢٣ - ٢٢٥ .

المترجم .

Nicetas Stethatus, vie de Synleon le Nouveau

(٢٧)

Theologien, ch. 52-54 (ed. and trans. I. Hausherr, Orientalis.

Christiana VII, Rome 1928, pp. 68 ff.).

منصبه كمقدم للدير كى يعيش حياة توحيدية . وهناك بالطبع أمثلة لرجال ونساء أصبحوا نساكاً دفعة واحدة . وانتهج بعض من هؤلاء طرائق خاصة وأنماطا رهبانية تثير الدهشة ، منهم أولئك الذين عرفوا بالعموديين وهم الذين أمضوا حياتهم فوق الأعمدة . ولم يكن ذلك يشكل خطورة بالغة على حياة الراهب كما قد ينصرف الذهن غالباً ، حيث لم يبد أن أحداً منهم قد تعرض للسقوط ، فقد كان هناك فى بعض الأحيان إطار يحيط بقمة العمود ، أو حتى مجرد مأوى جزئى (٢٨) ، ويمكن بلوغ قمة العمود عن طريق سلم . هذا بينما عاش بعض آخر فى الأشجار ، ولذا ذاع صيتهم باسم الشجريين ، بحيث وصف أحدهم بأنه كمن يسكن « فى شجرة نوز كطائر مفرد » . وكانت خشونة الطبع من هذا النوع ، كما بين ذلك يوحنا السلمى John Climacus وآخرون ، وراء معظم هؤلاء الرجال . كما أن كثيراً من التشريعات الديرانية كانت توجه الى التحكم فى الفردية المفرطة ، التى يجب أن تكون مجرد عطايا للغفران الذاتى وتيه النفس . ومن ناحية أخرى فإن أولئك الذين كابدوا مثل هذه المشقات حتى وافقتهم آجالهم ، غدوا موضع الاحترام العميق ، ونالوا فى حياتهم نعماً جعلتهم ذوى مقدرة خارقة للطبيعة (Charismata) أهلتهم لآتيان المعجزات والشفاعة لآخواتهم المسيحيين .

وعلى امتداد العصور الوسطى ، بقيت الرهبانية ، عنصراً مكملاً للحياة البيزنطية . ورغم أن كثيراً من الأديرة والمتوحدين لم يعد لهم ذكر سوى إشارة مختصرة فى الزمونات أو الأدب ، فإن عدداً أيضاً من المراكز القديمة والأديرة مازال معلوماً تماماً ، وغالباً فى المدن الكبيرة مثل القسطنطينية أو سالونيك وضواحيهما . فهناك فى آسيا الصغرى ، ليس بعيداً عن بحر مرمرة ، كان جبل أوليمبوس Mt Olympus بالقرب من بروسا Brusa ، مألوفاً منذ أزمنة مبكرة ، تنتشر على منحدراته وإلى جواره الصيوانع والأسياق والأديرة . وظل لفترة طويلة بعد قدهور هذه المؤسسات تحت الحكم التركى ، يعرف بـ « جبل الرهبان » . وتمتلىء آسيا الصغرى بكثير من هذه المراكز ، مثل جبل لاتروس Mt Latros فى أقصى الجنوب ، أو أديرة

(٢٨) H. Delehaye, Les Saintes Stylites, p. CLVI كمثال مصغر

فى تقويم Menologion باسل الثانى .



وصوامع كبادوكيا الشهيرة الآن بكنائسها المبنية من الصخر والمزينة بالفريسك . وكان لمنطقة جنوب ايطاليا وصقلية ايضا دورها في الحركة الديرانية ، وقد ظلت بعض الأديرة في صقلية قائمة بعد الفتح العربى ، كما أنها لقيت التشجيع لفترة قصيرة من جانب النورمان . وقد ازدهرت الديرانية في جنوب ايطاليا بصفة خاصة ، واضحت ملاذا للصقليين الذين هربوا اليها فرارا من العرب . ويأتى « الجبل المقدس » الكالابرى بين الجبال يعلو روسانو Rossano حيث ماتزال الى اليوم كنيسة صغيرة . وقد عاش القديس نيلوس St Nilus في هذا الاقليم قبل أن يتجه الى الشمال ليؤسس دير جروتلافراتا Grottaferrata اليونانى قرب روما سنة ١٠٠٤ .

أما الجبل المقدس بلا منازع فقد كان جبل أثوس Mt Athos ، وهو عبارة عن شبه جزيرة ناتئة داخل البحر الايجى بالقرب من سالونيك . وكان به جماعة من الناسكين في القرن التاسع ، وفي عام ٩٦٣ اقام القديس اثناسيوس ، الأب الروحى وصديق الامبراطور نقفور فوقاس ، أول وأهم كينوبيون مستعينا في ذلك بالعسّون الامبراطورى . حتى اذا كان منتصف القرن الحادى عشر راح يزخر بكل اشكال الحياة الرهبانية ، وإن كان في الحقيقة يعوزه النظام . واخذ جبل أثوس يسير قدما نحو ائتلاف الأديرة والاسياق والمتوحدين تحت رعاية آباء مختارين هم المقسمون . وقد حظيت المنطقة بالحماية الامبراطورية واصبحت محل التوقير العميق والتقدير ، واجتذب الجبل اليه الرهبان من كل انحاء العالم الارثوذكسى ، وكذا من الغرب . وقد ارتبطت بعض أديرته ارتباطا خاصا بعدد من الاقطار ، فقد كان افيرون Ivion مؤسسة جورجياوية ( ابيرية ) ، وخیلاندارى Chilandari صربيا ، وبانتليمون Panteleimon روسيا ( حتى انه كان يسمى أحيانا الروسى ) ، وفاتوبدى Vatopedi أرمينيا ، ولبعض الوقت كان هناك ديرسانت مارى الامالفى . ولا يعنى هذا أن الجبل المقدس لم يتعرض لفترات من الانحلال في هذه المؤسسات الديرانية ، ولكنه في الوقت ذاته كان قادرا على أن يترك بصمات مثله الرهبانية واضحة على أولئك الرجال الذين ارتحلوا الى مناطق يقيمون فيها أديرة أخرى مثل دير الكهوف الموجود في كييف من القرن الحادى عشر باسم القديس انطونيوس ، أو الدير الصربى في القرن الرابع عشر . والحقيقة أن الانحلال السياسى الذى عانته بيزنطة ،



صحيته قوة متزايدة للجبل المقدس ، ذلك انه منذ القرن الثالث عشر وماتلاه شهدت المنطقة حركة روحية نشطة بعيدة المدى ، تركزت في حياة مفكرية ومتأملية الذين عرفوا بالزاهدين الصامتين hesychasts . وكان بعض من هؤلاء لاهوتيا ، كما أن بعضهم مارس أحيانا بعض الوظائف الكنسية ، تخص بالذكر منهم القديس جريجورى بالاماس (٢٩) St. Gregory Palamas الذى يعد من أشهر زعماء الزهد الصامت ، والذى أصبح رئيسا لأساقفة سالونيك ، وكذلك يوحنا السادس John VI الذى اعتزل العرش سنة ١٢٥٤ وغدا راهبا ، تسلط عليه التفكير فى الذهاب الى دير فاتويى على الجبل المقدس ( رغم أن قصده هذا لم يترجم الى واقع ) . وقد كتب يقول ان رهبان جبل اثوس يشبهون « أطلس » لأنهم يحملون العالم كله على ظهورهم و « يتشفعون له عند الله » (٣٠) .

ولا شك أن الرهبانية قد أسدت الى الدولة فى العصور الوسطى خدمات عدة فى مجالات شتى . ولم يكن عليها أن تزود الناحية الثقافية بنفس القدر الذى فعلته الديرانية فى الغرب ، ولكنها كانت حليفا هاما فى الميدان الاقتصادى . فقد ساهم الرهبان والأديرة فى رعاية وإدارة ملاجئ الأيتام والمستشفيات ، وأقاموا جمعيات للأمور الجنازية ، وهياوا أماكن الدفن تكريما للامبراطور أو مؤسسها أو لمواراة جثمان أحد الفقراء ، كما انها كانت ملجأ يهرع اليه من لحقهم الفشل السياسى ، ويلوّن به الآثمون . وقد تضمن كتاب الصلوات Euchologion صلوات خاصة تؤدى عند تلبيس التائبين السذين يؤتى بهم الى الدير ليكفروا عن آثامهم . ومن بين هؤلاء الأخيرين أشارت تشريعات جوستينيان والقانون الكنسى المتأخر الى زانيات ، وشماسات شغلن بأعمال دنيوية معيبة ، ورهبان هاربين ، واكليروسيين ، ابتداء من الأسقف الى من هم دونه مرتبة ، يرتادون نوادى القمار أو يفشون المسارح ( ويزج بهؤلاء فى أحد الأديرة طيلة ثلاث سنوات مع فقدان وظائفهم

(٢٩) انظر قبله حاشية ١١ ص ٢٢٨ المترجم .

(٣٠) John Cantacuzenus. Hist. IV, 24 (vol. III, pp. 175-176, Bonn 1832).

الكهنوتية ( ٣١ ) • وتزدحم المزمّنات بأمثلة كثيرة لأناس قشلوا فى حياتهم السياسية ، وأباطرة معزولين ، وملكات أمهات غير مرغوب فيهن ، وقد دخل هؤلاء جميعا الأديرة ليكثروا فيها فقط حتى تهدا وليرتحلوا عنها عندما تواتيهم الريح ، وأن كان أغلبهم قد جاءه ليختفى فيه عن العالم طيلة محياه • وكان الأباطرة الذين يدركون أن ساعة وداعهم للدنيا قد دنت ، يخلعون باتضاع عباةتهم الامبراطورية ، ويتجهون الى أحد الأديرة ، فزحدين برحلتهم عن هذا العالم وهم يقدثرون بذاك الرداء الرهبانى البسيط •

غير أن الرهبانية لم تخل من النقائص ، ذلك أن انتشارها الواسع كان يعنى أن عليها أن تناضل من أجل الحفاظ على مستواها داخل أديرتها • يشهد على ذلك الفضال الذى أبداه القديس سيمون اللاهوتى الجديده • فهو يقول مخاطبا رهبانه • انظروا •• أن هراطقة زماننا هذا هم أولئك الذين يعيشون الآن بيننا ولا يستطيعون الوصول الى ما كان عليه الآباء المقدسون •

• خبرونى •• لماذا يعد ذلك ضربا من المستحيل ؟ وبأى السبل اذن أضاء أولئك القديسون الأرض وغدوا مشاعل اشراق فى العالم كله ؟ لو كان ذلك مستحيلا ، لما استطاعوا اذن اليه سبيلا • لقد كانوا رجالا كما نحن ، ولم يكن لديهم أكثر مما نملك ، اللهم اذا استثنينا عزمهم من أجل الخير ، والغيرة ، والتواضع ، وحب الله • فهلا نلتهم ذلك لأنفسكم ، عندها سوف تغدو ارواحكم ، التى هى الآن كالحجارة أو أشد قسوة ، ينبوع الدموع • وحتى اذا كنتم راغبين عن سلوك أصعب الدروب وأضييقها ، فلا أقل من أن تكفوا عن القول بأن ذلك يبدو مستحيلا • ( ٣٢ ) •

وإذا ما أخذ النقد والهجاء من ناحية القيمة الظاهرية فقط ، فإن ذلك لن يؤدى الى توضيح القوة الحقيقية للرهبانية • وقد كتب يوستاتيوس Eustathius رئيس أساقفة سالونيك فى القرن الثانى عشر نقدا لاذعا للرهبانية ، وغالبا ما يحتج بها البعض وكأنها تشير الى حالة عامة فى هذا

( ٣١ ) Nov. 123 and 134; Nomocanon VIII, 14 " G. A. Rhallés and M. Potles, Syntagma. vol. I, p. 161, Athens 1858" .

( ٣٢ ) B. Krivocheine اقتباس Catechesis 29, 164-73 • أشد

المتحمسين تعصبا • • Ostkirch, Studien, IV "1955", pp. 122-3. •

الشان . ففي بعض الأحيان قد يختار مقدمو الأديرة أناسا لا يستطيعون الحديث الا عن المسائل الزراعية ، ولكن هناك أكثر من دليل على مراتب السمو التي يمكن أن يرتقى اليها رؤساء الأديرة وها هي عظات الاب سيمون وكتابات الرمزية التي توالى تداولها منذ زمانه حتى أيامنا هذه ، وظلت دائما ينبوعا يستشهد به ويقتبس منه في دواوين الشعر ، وليست العظات الزراعية التي انتقدتها رئيس الأساقفة يوستاتيوس . لقد كانت الروحانية واحدة من أهم القنوات التي جرت فيها التجارب الخلاقة البيزنطية . ولامراء في أن ما كتبه رجال مثل جريجورى النيساوى Gregory of Nyssa وايفاجريوس البونطى Evagrius of Pontus ويوحنا السلمى John Climacus وثيودور الاستودى Theodore the Studite وكذلك سيمون اللاهوتى الجديد ، والزاهدون الصامتون في العصور الوسطى المتأخرة ، وغير هؤلاء كثيرون ، لامراء في أن أعمالهم تعد شاهدا حيا على النضال الدائب والكامن وراء تجربتهم الروحية . لقد كانت حياة هؤلاء الرجال لأطهار حريا مستعرة ، وحياة أول الرهبان أنطونيوس ترسم هذا السبيل . وهذا الضيق وذاك الكرب اللذان تنضح بهما كتابات سيمون ، وإدراكه الحاد لتقصيره ، ليتناسب تماما مع تلك المرتبة السامية التي ارتقاها بنعمة من الله وفضل . ولم يكن هناك شيء يتسم بالسلبية حول هذا الصمت المقدس عند أولاء المتأملين العظام ، ولم يحدث أن فشل أحدهم في تحقيق احتياجات الآخرين سواء بالصلوات متضرعا أو القدوة الحسنة أو التدخل المباشر . ولقد كان من أقل ما ناء به كاهل سيمون « حديه الكامل ورعايته لكل الأخوة » الذين معه . كما ترك جريجورى بالاماس ديريه في جبل أثوس ليدافع علانية عن التجارب الروحية التي يمارسها الزاهدون الصامتون ، بينما أيد يوحنا الدمشقى John of Damascus وثيودور الاستودى صراحة تقديس الايقونات وتحديا الأباطرة ، فلقد كانت الايقونية والزهد الصامت من الأمور التي ارتبطت ارتباطا عميقا بجذور الأرثوذكسية ، وتركزت الحياة الروحية لهؤلاء جميعا في الحفاظ على الايمان القويم . وهكذا لاغربة اذا عرف الرهبان بأنهم عمود العالم البيزنطى . فهم انموذج العلمانيين ، والرحماء ساعة القحط ، والطيبون عند الطاعون ، والمخفقون لتاعب الانسان . لقد كان الفلاحون وأهالى المدن على السواء يتجهون بفطرتهم الى ذلك

الرجل المطهر « خليل الله » الذي نال بفضل ورعه وتقواه طيلة محياه نعماء  
 الآله ، ، وكتب يوحنا اليوخايتاوى (٣٣) John of Euchaita في السيرة التي  
 وضعها عن أحد مقدمات الأديرة في آسيا الصغرى في القرن الحادى عشر  
 « ان للقديس من القوة ما يمكنه من أن يفي بكل ما الناس اليه في عوزه » (٣٤) .  
 لعل هذا هو الذى يعطى هذه المكانة الفريدة للرهبانية في مجتمع الشرق  
 الرومانى .

---

(٣٣) انظر قبله .

(٣٤) Migne, Patrologia Graeca, 120 col. 1073, Life of st Dorotheus.



## مراجع خاصة بالكنيسة والحياة الديرانية

- Cambridge Medieval History. vol. IV pt. 2. Cambridge 1967.
- Cavarnos (C.), Anchored in God. Athens 1959.
- Dawes (E.) — Baynes (N. H.), Three Byzantine Saints. Blakwell, Oxford 1948.
- Every (G.), The Byzantine Patriarchate 451 — 1204 (2nd ed.) London 1962.
- Fliche (A.) — Martin (V.), Histoire de L. Eglise, 21 tomes. Paris 1936 sqq.
- French (R.M.), The Eastern Orthodox Church. London 1951.
- Gill (J.), The Council of Florence (C.U.P. 1959).
- Hammond (P.), The Waters of Marah. the Present State of the Greek Church. London. 1956.
- Hussey (J.M.), Church and Learning in the Byzantine Empire 867—1185 (O.U.P. repr. 1963).
- Monasticism and Spirituality (C.M.H. col. IV pt. 2.).
- Kadloubovsky (E.) — Palmer (G.E.H.), Early Fathers from the Philokalia and Writings from the Philokalia. London 1954.
- Lossky (V.), The Mystical Theology of the Eastern Church London 1957.
- de Meester (P.), De. Monachico Stato Iuxta Disciplinam Byzantinam. Vatican 1942.
- de Mendieta (E.A.), La presqu'île des Caloyers : Le Mont-Athos. Bruges 1955.
- Nicholas Cabasilas, The Divine Liturgy, trans. by J. M. Hussey and P. A. McNulty. (S.P.C.K. 1960).
- Nicene and post—Nicene Fathers of the Christian Church, vol. IX, St. John of Damascus, Exposition of the Orthodox Faith (London 1899), vol. XIV. The Seven Ecumenical Councils of the Undivided Church (London 1900).

- Nicol (D.M.). *Meteora, the Rock Monasteries of Thessaly* London 1963.
- *Orthodox Spirituality*. by a Monk of the Eastern Church (S.P.C.K. 1945).
- Runciman (S.), *The Eastern Schism*. Oxford 1956.
- Slaville (S.), *An Introduction to the Study of Eastern Liturgis*, trans. by J. M.T. Barton, London 1938.
- *Sources Chretiennes*, series (e.g. *Maximus the Confessor*, *symeon the New Theologian*). ed. par Lubac (S.J.) Danielou (S.)
- Ware (T.), *The Orthodox Church*. Pelican 1963.
- Wellesz (E.), *A history of Byzantine Music and Hymnography* (2nd ed., Oxford 1964).
- Zernov (N.), *Eastern Christendom*. London 1961.



# الفصل الثامن

## الحياة اليومية

(م ٢٠ - العالم البيزنطي)





## الفصل الثامن

### الحياة اليومية

ان التاريخ الاجتماعى والاقتصادى الدقيق للامبراطورية البيزنطية فى حاجة لمن يتعرض لبحثه (١) . حقيقة هناك مادة وفيرة ربما بنى عليها روستوفتسف Rostovtzeft يوما ما تاريخه ، ولكن بغض النظر عن الكتابات اللاهوتية الخالصة والأعمال البلاغية ، فان معظم المصادر لا تمدنا بالكثير . اما التفاصيل فقد نستطيع التقاطها من بين بعض الخطابات ضمن برديات الحقبة المبكرة ، أو من سير القديسين ، أو النقوش والمزمنات ، أما فيما يتعلق بالفترة المتأخرة فنستقيها من موائيق تأسيس الأديرة وامتيازاتها وسجلاتها ، وكتيبات مثل «كتيب الطوبجى» Gunner's Manual أو التعليمات الخاصة بالتجارة فى الكتب التى تتناول الارشادات البحرية ووصف الموانئ . غير أن أهم البيانات وأكثرها قيمة نجدها فى مجموعات القوانين العامة والخاصة ، فهى بطبيعتها غالبا ما تتضمن حالات الجور وخرق القانون ، ولكنها فى الوقت ذاته تحتوى على الكثير من التفاصيل الشيقة التى تتناول مشاكل الحياة الاجتماعية والاقتصادية لكل عصر ، والتعويضات التى تناسب ونوعية الضرر وفقدان العمل والعلاج الطبى الحر والتنظيمات المعمارية الدقيقة خاصة الاضاءة ، وقنوات تصريف الأمطار والميازيب ، وصيانة وسائل الترفيه العامة والخاصة . وكان لأصحاب الاملاك الخاصة الحق فى

---

١ - بذل كل من L. Brehier و P. Kukules جهودا كبيرة لكسر الجمود حول دراسة مثل هذا الميدان ، رغم أن الوقت ربما لم يحن بعد لوضع كتاب فى مثل هذه الموضوعات حيث ماتزال المادة الضرورية المتعلقة بذلك ( مثل الوثائق والمسكوكات والأختام ، تمر بمرحلة التجميع . ومع أنها تعتبر ناقصة بالنسبة للحقبة المبكرة . لكن العمل الثائى والتمحيص الدقيق لدارسين مثل Ostrogorsky و Dolger قد كشف عما يمكن أن تلقى المصادر المتأخرة من ضوء على المشاكل الاجتماعية والاقتصادية .

أن ينشئوا دورهم مطلة على البحر والحدائق أو الآثار العامة ، رغم أنه كان على الشخص الذي يدعى حق حيازة مثل هذه الآثار التاريخية ، مثل تمثال اخيل Achilles أو أجاكس Ajax أن يبرهن أولا على مقدرة ثقافية كافية لتقدير قيمة هذه الآثار (٢) . وعلى نفس النحو يواجهنا النقص في التفاصيل الخاصة بالنواحي الاقتصادية والإدارية التي يجب أن تتوهر في بعض المصادر الانجليزية مثل كتاب الروك (٢) Domesday Book أو حوار عن الخزانة Dialogue of the Exchequer أو التنظيمات المحلية المتعلقة بالتجارة أو الصناعة في بعض المدن مثل بريستول Bristol أو سوثهامبتون Southampton ولكن لو افترضنا أن التغيرات البيزنطية في ملكية الأراضي والبناء الاجتماعي على أسس أقليمية لفترة طويلة ، لا يمكن استعادته الآن بصورة مقبولة . إلا أنه من الممكن على الأقل الإشارة على نحو ما إلى الحياة اليومية بمختلف مستوياتها .

---

(٢) A Provincial Manual of Later Roman Law : the Calabrian Procheiron, rendered into English by E.H. Freshfield "Cambridge 1941", pp. 78 - 79.

(٣) حرص وليم الفاتح النورمانى بعد تثبيت أقدامه في إنجلترا ، بعد خمس سنوات من موقعة هاستنجز (١٠٦٦) ، أن يقوم بأعداد مسح شامل لمملكته الإنجليزية الجديدة ، وجسرى ذلك في السنوات الأخيرة من حكمه . فقد أرسل مبعوثيه إلى مجالس المائة في كل مزرعة وضيعة حيث يلتقون هناك بشيوخ هذه المناطق ، الذين وجهت لهم الأوامر بتسهيل مهمة هؤلاء المبعوثين وأعطى هؤلاء أيما الصدق في كل المعلومات التي سوف يقدمونها . وعلى هذا النحو استطاع وليم أن يقف على اسم مالك الضيعة على عهد الملك إدوارد ، والمالك لها الآن ، وعدد الحيوانات ، وأعداد المحاريث الخاصة بالأراضي الملكية وتلك التي يمتلكها الأهالي ، وعدد الفلاحين أنصاف الأحرار ، وأولئك الذين يقيمون في الأكواخ ، والأقنان والأحرار والمساكين ، ومساحة الغابات والمراعى ، وعدد الطواحين ، وأحواض السمك ، وإن كانت قد نمت أو توقفت . هذه المعلومات ضمنها مبعوثو وليم في مجلدين ، كتبنا على رقائق من الجلد ، وعرف هذا الكتاب باسم « الروك » .

. Domesday Book

Douglas, William the Conqueror, pp. 309-313-347-354

أنظر

F. Barlow, The Feudal Kingdom of England 1042-1216,

وكذلك

pp. 98-99, 120-121 وأيضا C.M.H. vol. V, pp. 506-507 المترجم .

كانت الأسرة هي محور الحياة العلمانية في العصور الوسطى ، سواء بالنسبة للامبراطورية في الشرق أو الامبراطورية الرومانية الغربية . وينطبق هذا على مختلف المستويات من أكثرها غنى إلى أشدها فاقة ، من البيت الامبراطوري إلى أحياء الدور في القرية . وقد استخدم الأثرياء العبيد والخصيان ، ورغم أن الكنيسة كانت تقاوم الرق إلا أنه ظل موجودا حتى فترة متأخرة جدا من الامبراطورية ، هذا على حين استطاع الخصيان الوصول إلى مناصب مرموقة في الوظائف الامبراطورية ، وكانت هناك مراكز معينة مقصورة عليهم . وقد حظى الزواج بالمرتبة الأولى في التشريعات البيزنطية ، وركزت القوانين الكنسية والامبراطورية دائما على قدسيته . بينما قبل الزواج للمرة الثانية بالامتناع : حقيقة فقد سمح بالزيجة الثانية ، أما الثالثة فكانت تقع تحت طائلة العقاب ، على حين كانت الرابعة تجلب اللعنة . ولهذا كانت الصعوبات التي واجهت الامبراطور ليو السادس Leo VI ، الذي استطاع فقط أن يكون له وريث من حظيته التي جعل منها لذلك زوجته الرابعة ، رغم المعارضة الشديدة التي أبدتها الدوائر الكنسية . أما الطلاق فيمكن الحصول عليه لأسباب وجيهة ، وقد بدا من محاكم Peira في القرن الحادي عشر ، ( وهي مجموعة من الأحكام والمناقشات حول قضايا متباينة أجراها القاضي يوستاتيوس الروماني Eustathius Romaius وجمعها مؤلف مجهول ) ، أنه وإن كان الطلاق شائعا ، وأنه يتم حتى بالتراضى بين الطرفين ، إلا أنه كان عندئذ عملا غير شرعي ، وكان للمرأة وضعها اللائق في القانون البيزنطي ، فقد حفظ لها القانون حياها في الصداق فإذا مات زوجها ، أصبحت هي الوصية الشرعية على أولادها مادامت لم تتزوج ثانية . ونصت الاكلوجا على أن تباشر الأرملة السيادة على كل كل أملاك زوجها المتوفى ، باعتبارها رأس الأسرة وأهل الدار ، وإذا ما وقع الاختيار على الزوج ليرسم أسقفا ، فإنه يستطيع تلقى هذه الرسامة فقط إذا وافقت زوجته بكامل إرادتها وحريتها على أن تهجره إلى أحد أديرة الراهبات والا كان عليه أن يتخلو عن هذه الوظيفة الكهنوتية الجديدة (٤) .

(٤) نوفلا إسحق الثاني أنجيلوس Isaac II Angelus سنة ١١٨٧ .



ولا ينبغي أن يؤخذ التأكيد المستمر على انتهاج السلوك اللائق في العلن باعتباره دليلاً على أن حياة المرأة البيزنطية كانت بالضرورة من وراء حجاب ، فقد كان لسيدات البيت الامبراطوري مراكزهن المرموقة في مراسم البلاط ، وادوارهن البارزة في المسائل السياسية . فلقن راحته زوجة الامبراطور جوستينيان العظيم تنافح في هواة عن المنافسة ، واعيد الاحترام الأرثوذكسي للائقونات في المرة الأولى على يد الامبراطورة ايرين ، وفي عام ٨٤٣ بمشيئة الامبراطورة ثيودورا ، وروت لنا انا كومتنا كيف ان جدتها كانت تصرف الأمور كنائب على الامبراطور اثناء غيابه عن العاصمة ، وكيف ان زوجته ايرين كانت تصحبه في حملاته العسكرية . أما نساء الطبقات الدنيا من المجتمع فكان يظهرن اتفاقاً في المصادر المعاصرة . وكانت ام بسلانوس في القرن الحادي عشر هي عماد أسرته ، وإلى جهودها يعزو هو فضل تثقيفه . وعن الحياة في القرن السابع لا يتحدث مؤلف سيرة ثيودور السيكيوني<sup>(٥)</sup> Theodore of Sykeon عن والد القديس ، بل عن النساء في ذلك البيت . والدته التي تملكها الغضب لأن ابنها لم يعد من المدرسة كي يتناول وجبة الظهر ، وجدته التي كانت تتعاطف مع ميوله النسكية ، وتتسلل خفية الى الكنيسة الصغيرة التي يابى اليها لتقدم له قليلاً من الفاكهة ليتبلغ بها ، أو شيئاً من سلطة الخضار ، وان كان هذا يحدث فقط في أيام السبوت والأحد ، (٦) .

وبمقدورنا أن نتصور غالباً ما كان يفعله الناس ، وكيف كانوا يعيشون ، ابتداء من الامبراطور حتى نهاية السلم الاجتماعي . فقد كانت السبحة الجوهرية واحدة عند الجميع - العماد ، وازمان التوبة ، واحتفالات

---

(٥) نسبة الى قرية سيكيون sykeon في جالاتيا Galatia ( غلاطية ) باسيا الصغرى ، وهو ابن غير شرعى لابنة أحد اصحاب الحانات ، سلك درب الرهبنة وذاع صيته في أواخر القرن السادس وأوائل السابع . لما شاع حوله من اتيانه المعجزات وخاصة تصديداً للأرواح الشريرة التي تصيب فلاحى المنطقة بالأوبئة والطواعين .

انظر Jones, The decline of the Ancient World, p. 4 المترجم .

E. Dawes and N.H. Baynes, Three Byzantine Saints, (٦)

القداسات السنوية ، والصوم الكبير ، وذبيحة الفصح ، والحج سواء كان الى مدن معينة بعيدة ومقدسة كاورشليم ، او سياحة يوم من القرية الى ضاحية جبلية حيث مزار احد القديسين المحليين ، وربما من ستيريس *stiris* عبر طريق البغال *mule-track* الى دير موسيوس نوتا *Hosios Lukas* ثم تجيء بعد ذلك الدعوة الحتمية لكل انسان من ملك الملوك ورب الارباب ، فالارتحال عن هذا العالم ، وما يصحب ذلك من طقوس الوداع • على أن افخم المهرجانات هي التي كانت تتعلق بأسرة الامبراطور ، عندما تبدو العاصمة في ثوب قشيب احتفالا بتناول احد افراد البيت الامبراطوري سر المعمودية • او عندما يلقيها الحزن وينتخب اهلها موت واحد من العائلة الملكية • ويصف مرقس الشمس طقس العماد الذي جرى في اوليات القرن الخامس لولى عهد اركاديوس *Arcadius* ، الطفل ثيودوسيوس (٧) *Theodosius* حيث ازدانت القسطنطينية بأبهى التماثيل من الديباج وكل انواع الذهب والزخارف ، وازدحمت الطرقات بالاهالي وقد ارتسمت على وجوههم علامات البشر والسرور ، وارتنى الموكب الى الكنيسة في القصر الامبراطوري اردية بيضاء لاشية فيها ، وكانت الثلوج قد غطت بنقائها وجه المكان ، يقود الجمع البطارقة وعلية القوم يتبعهم الحرس الامبراطوري ، والكل يحمل يمينه شموعا مضاءة ، فامست وكان النجوم قد اخذت تتلالا فوق سطح البسيطة • واذا بالطفل قد اقبل يتهادى ، يحمله بين ذراعيه نبيل ، والى جواره يخب ابوه في خطو زاده تألقا عباة الارجوانية ، ونفس تطلق بهجة وكبرياء •

ولم تكن انعام الفرخ ورنات الاسى تختلف في الاوساط العليا عنها في الطبقات الدنيا ، فقد راحت انا كومننا تبكى اباهما ، ويسلئوس اخته • ولكن الحزن الذي جمع بينهما كان واحدا • ويعطينا بسللوس صورة حية عن حزنه العميق عندما اوى الى بيته ثانيا ليجد اقاربه واصدقائه ما يزالون عند قبر اخته التي توفاهما الموت ، وحيث يعاودون البكاء ثانيا في اليوم السابع للوفاة حسب التقليد الوثني ، تذكرة لدى تأصيل تلك العبادة • والحقيقة ان الانسان

حتى أيامنا هذه يستطيع في تجواله حول منطقة البلقان وبلاد اليونان أن يلمح شيئاً من عالم العصور الوسطى ، فها هو خروف الفصح يحمل من السوق إلى البيت . معلقاً حول العنق ، ويشوى على الفحم النباتى ، والشموع تومض « كأنها النجوم » فوق رابية ليكابيتوس Lycabettus بينما جموع المصلين تغادر الكنيسة بعد أن باركها المسيح الحى فى الساعات الأولى من نهار يوم الفصح . أو فى جنوبى صربيا حيث ما يزال الطعام والشراب يؤتى بهما إلى الكنيسة ، بينما تقام الصلوات من أجل موتى كل عائلة عشية صلاة كل الأرواح . وفى صبيحة اليوم التالى يخرج نساء القرية وبناتها فى موكب كبير يحملن سلالهن وأطباقهن وزجاجاتهن من الكنيسة إلى الجبانة عند التل وهناك يتناولن بعضاً مما معهن ويتركن البعض الآخر على القبور . وهكذا نجد ذلك التقليد مازال باقياً .

وكانت هيئة المجتمع البيزنطى قد تحددت بصورة واضحة ، ولكن هذا التحديد لم يكن مانعاً بحيث لا يقبل الخروج عليه ، فقد كان يسيرا على ابن الفلاح أن يصبح إمبراطور ، واستطاعت ابنة حارس الخان أن تقفز إلى العرش بالزواج من ولى العهد . كما أنه بمقدور أى صبي ماهر أن يشق طريقه إلى أعلى المناصب . وكانت العاصمة تمثل مركز الحياة الاجتماعية والإمبراطورية خلال العصر الزاهر لبيزنطة ، « فالتى يمتلك القسطنطينية يسود الإمبراطورية » . أما بعد عام ١٢٠٤ فقد أصبحت هناك مناطق أخرى تنافسها المكانة وتجذب إليها الانتباه مثل سالونيك Thessalonica وطرابيزون Trebizond ومسترا Mistra بنفس القدر الذى سئحت به الفرصة لبلاط أمراء البلقان أو الأمراء اللاتين فى بلاد اليونان ومنطقة بحر إيجه ، أو حتى الدوائر العثمانية . وقد زوى تنفيذ المراسم الإمبراطورية بدقة بالغه وإبداع فى البلاط البيزنطى خلال العصر الذهبى للأسرة المقدونية فى القرن العاشر ، وبذت بعيدة الأثر بشكل واضح ، رغم الصورة الباهتة والمتعسبة التى رسمها ليوتبراند Liutprand فى سفارته الثانية فى القسطنطينية . ويعتبر « كتاب المراسم » Book of cermonies وصفاً دقيقاً لما كان عليه البلاط البيزنطى ، وقد أكد قسطنطين فى مقدمته أن تلك المراسم تعد المظهر الخارجى والتجسيد المرنى للتقاعم والانسجام فى الداخل ، ونظاماً للطقوس العامة يرفع من قدر العظمة الإمبراطورية . وهذا



في حد ذاته دليل على ما كان يعتبر لائقاً ومناصباً بحيث تشارك الرعية فيه  
امبراطورها . وتذكر الرواية التي تتحدث عن استشهاده اثنين وأربعين  
سنة في عمورية (٨) *Amorium* كيف أن الجلال الأثويي تقدم شاهراً  
سيفه ، وراح الضباط يقدمون أنفسهم كل حسب رتبته كما لو كان الأمر  
احتفالاً يجري في البلاط الامبراطوري .

وتكشف المصادر الكثير من الجانب الشخصي في حياة البلاط ، فقد  
كان للأباطرة أوقاتهم الخاصة التي يميلون فيها للاسترخاء ، « فهذان  
الزوجان الوردان » ، الكسيوس كومنتوس وزوجته يفضلان قراءة الأعمال  
اللاهوتية أثناء تناولهما وجبة الافطار ، وهذا العائس الفظ ، باسل الثاني  
كان يحمل بين جوانحه في الوقت ذاته رقة ودعة تجاه زوى *Zoe* ابنة  
أخيه . وكانت المتطلبات الإنسانية تترجم في الواقع العملي بصورة دقيقة  
في قاعات للصلاة صغيرة خاصة في كنيسة أياصوفيا ، حيث تقدم  
للإمبراطور والامبراطورة كل على حدة الخدمة الكنسية مع بعض المنعشات  
بعد القداس الذي يجري في الكاتدرائية ، وقبل الوداع الرسمي . ثم تأخذ

---

(٨) ورثت الدولة الإسلامية العداء التقليدي الذي كان قائماً بين الفرس  
والرومان، وذلك بعد زوال دولة فارس بيد المسلمين ، ولم تنقطع الحروب  
بين المسلمين والبيزنطيين . وفي عهد الامبراطور ثيوفيلوس قام الجيش  
البيزنطي بالتوغل في آسيا الصغرى وتدمير زبطرة واحراقها . وقام الخليفة  
العباسي المعتصم بالرد على ذلك في عام ٨٢٨ فزحف الى داخل آسيا  
الصغرى ، واستطاع الاستيلاء على قلعة عمورية الحصينة ، وفعل بالمدينة  
ما فعله ثيوفيلوس من قبل بزبطرة . وكانت عمورية هي مسقط رأس الأسرة  
الحاكمة في القسطنطينية التي ينحدر منها الامبراطور ثيوفيلوس . وكان  
المعتصم ينوي الزحف بعد ذلك الى القسطنطينية ، غير أنه ما لبث أن عاد مسرعاً  
عندما علم بوجود مؤامرة للإطاحة به . وتربط الحوايات اليونانية بن حصار  
عمورية والرواية التي شاعت عن اثنين وأربعين ضابطاً من جيش ثيوفيلوس ،  
كانوا من بين الأسرى ورفضوا الدخول في الاسلام ، فسيقوا الى نهر دجلة حيث  
قتلوا جميعاً وألقيت جثثهم في النهر . وتضيف الأسطورة أن المياه حملت  
هذه الجثث ولم يبتلعها النهر ، وظلت طافية هكذا حتى انتشلها بعض  
المسيحيين ودفنوها في جنازة مهيبة ، وقد خلد الشاعر العربي أبو تمام  
انتصار المعتصم في عمورية ببائيتة الشهيرة . المترجم .



الامبراطورة ووصيفاتها طريقهن الى غرفهن ، على حين يصطحب البطريك  
الامبراطور الى الباب المؤدى الى البئر المقدسة (٩) . وهنا يقوم الامبراطور  
بتقديم اكياس الذهب الى رجال الاكليروس ، ويقوم البطريك بوضع التاج  
على رأسه ، وهو الذى كان قد خلعه عند دخوله الكنيسة . وكان للبطريك  
ايضا قاعاته الخاصة فى الكاتدرائية ، وفى مكان اقامته المجاورة حيث يقدم  
الافطار ، وكان الامبراطور يشاركه هذه الوجبة فى بعض الأحيان .

وكان الطعام الذى تقبل عليه احسن الاسر حالا تتعدد اصنافه ، وكانت  
الأطباق الرئيسية على المائدة تتكون من الدجاج واللحوم . وقد كتب أحد  
المصريين فى زمن مبكر الى خولى ضيعته يقول « وقبل كل شيء ، فلتعد لنا  
خنزيرا سمينا ، وتأكد بنفسك أن كذلك وليس أعجفًا هزيلًا كالسرة  
الماضية » (١٠) . وفى الاسكندرية كانت المائدة البطركية فى بواكير القرن  
السابع تحتوى على الحساء والخضروات والسمك والخمر والزيت (١١) .  
وكانت والددة القديس ثيودور السيكيونى تدير حانا ، يتولى امر الطعام  
فيه طباطخ ماهر ذاع صيته بأطباقه الشهية ، ولما حاولت أن تفرى ابنها  
ليقبل على الطعام قدمت اليه انواعا مختلفة من الطيور المسلوقة والمشوية  
وارغفة من الخبز الأبيض (١٢) اما أشد الناس فقرا فقد كانوا يعيشون  
بشكل غاية فى البساطة . وقد اقام اطلالياتس Attaliates أحد رجال  
القانون فى القرن الحادى عشر عددا من الأديرة ، حملها بواجبات معينة  
من بينها اطعام « اخوتى فى يسوع المسيح ، ذوى الفاقة » . وكان الطعام  
الذى يوزع على الأراامل والمسنين وذوى العاهات يتكون من الخبز والخمر .  
وفى كل يوم يتناول ستة من الفقراء وجبة فى الدير ، حيث يقدم لهم الخبز  
والخضروات المطهية طازجة او يابسة ، واللحوم او الاسماك ، وكل مايمكن  
تقديمه ، الى جانب اربع قطع نقدية نحاسية . وكانت قائمة الطعام الرئيسية  
فى الأديرة تتكون من الاسماك والخضروات ، وإن كان هناك استثناء

(٩) هذا الأثر هو حافة البئر حيث التقى المسيح بالمرأة السامرية .

(١٠) F.I.Bell, Egypt from Alexander the Great to the Arab

Conquest "Oxford 1948", p. 97.

(١١) E. Dawes and N.H. Baynes, Three Byzantine Saints,

p. 230.

أيضا من هذه القاعدة • فقد أبيع بصفة خاصة تقنين اللحوم للتخفيف عن بنات قسطنطين السابع اللاتي دفعت بهن الى دير للراهبات قسرا امرأة اخيهن المقيمة عقب وفاة والدهن ، وقد شارك سيمون اللاهوتي الجديد في أكل حماسة بدلا من أن يسبب الحيرة والارتباك لزائر يشكو من اضطراب في معدته •

وفي امبراطورية كهذه يغلب عليها الطابع الزراعى ، كان لابد أن تشكل الحاصلات الغذائية معظم الانتاج المحلى بحيث تختلف في أنواعها من إقليم الى آخر • وحيثما كان من السهل الحصول عليه ، فإن الجبن الذى يقوم باعداده الرعاة الولاشيون Vlachs كان شائعا • ولم يكن تزويد المدن الكبيرة القليلة ، خاصة القسطنطينية ، بحاجياتها الأساسية ، مسألة سهلة في جميع الأحوال ، ومن ثم فإن الاهتمام الامبراطورى كان موجها بصفة أساسية الى توفير الغلال للعاصمة ويتضمن كتاب الوالى Book of the prefect في القرن العاشر وصفا كاملا لواجبات مختلف الطوائف الحرفية في القسطنطينية (١٢) ، وفي مقدمتها تلك التى يتصل عملها بالمسائل التموينية مثل البدالين ، والخبازين ، والقصابين (بما فيها من لحم الخنزير) وقصايى الخنازير ، والسماكين • ويتم ضبط الأسعار بصورة دقيقة على يد الوالى (أو المحافظ Eparch) وكانت عملية البيع والشراء تجرى في صورة منظمة ، من ذلك مثلا أنه كان على السماكين أن يبتاعوا من على شاطئ البحر أو رصيف الميناء من مراكب صيد الاسماك عند المرسى ويحظر عليهم تخفيض سعر السوق عن طريق الحصول على الاسماك رخيصة من القوارب في عرض البحر • وكان يسمح للبدالين باقامة محلاتهم في الميادين العامة وشوارع المدينة ، اذا ما ظلوا ملتزمين ببيع الحاجيات الأساسية التى تتضمن اللحم ، والاسماك المملحة ، والدقيق والجبن ، والعسل ، وزيت الزيتون ، وجميع أنواع الخضروات والزبد ، أما الحانات فكانت تباع الخمور والماكولات ، على أن لاتفتح ابوابها قبل الثامنة صباحا في أيام الآحاد والأعياد الكبرى ، وعليها أن تغلقها في الثامنة مساء ، وأن

Ibid. p. 97.

(١٢)

(١٢) قام بترجمة هذا الكتاب E.H. Freshfield (Cambridge 1938)

تطفئ كل نيرانها ، بينما يختص الخبازون بتحذيرات جادة لتفادي الحرائق وكان من الأمور الجوهرية بالنسبة للمدينة أن هؤلاء جميعا ومعهم ديواناتهم لم يكونوا عرضة للاستدعاء لأداء أى نوع من الخدمات العامة .

وليس لدينا ما يمكننا على وجه اليقين من معرفة كيف كانت هذه التنظيمات تطبق فى القسطنطينية ، سواء فى بواكير القرن العاشر أو فى أى وقت آخر ، ولكن هناك من الأدلة مايؤكد أن الدولة كانت تتحكم حتى القرن الثانى عشر فى الأسعار والأرباح . وكانت هذه الناحية تأتى فى مقدمة اهتمامات الخزانة الامبراطورية أكثر من استهلاك نفسه . وقد تعرض نقفور الثانى للوم عنيف نتيجة اثرائه بسبب احتكار القمح زمن المجاعة . وكان للمحاولات التى جرت فى اخريات القرن الحادى عشر للاستفادة من احتكار الدولة للحنطة ، اثارها الخطيرة ، وماحدث فى المدن الكبيرة الاخرى ، رغم أن بعض هذه المدن ، خاصة الاسكندرية وانطاكية ، انتقلت من تحت السيادة الامبراطورية الى ايدى العرب فى منتصف القرن السابع . فى اوائل هذا القرن اعترض اسقف الاسكندرية يوحنا على البطريرك نيقيتاس Nicetas الذى اراد « تنظيم السوق بما يكفل تحقيق الربح للدولة ، حيث أن الاسقف لن يتساح مع ذلك مطلقا لانه اخذ على عاتقه توفير السعادة للفقراء » (١٤) .

ولم يعد هناك فى الواقع شئ من القصور أو الأبنية الخاصة من العصر البيزنطى ، عدا ذلك الهيكل الذى يعود الى القرون الرابع عشر والموجود فى ميتمرا على مرتفعات تايجتوس Taygetus ، وبعض أطلال القصر الامبراطورى فى القسطنطينية ، ومن الممكن استكمال هذا النقص بالرجوع الى الفسيفساء والفريسك والمصادر الادبية . فالقصر المقدس فى العاصمة كان بناء فسيحا بالغ التعقيد ليجيء مناسبا للحاشية الامبراطورية ، وكان متصلا بكاتدرائية اياصوفيا . ثم تأتى بعد ذلك قصور العائلات الثرية على نمط مصغر ، بكنائسها الصغيرة وحدائقها ونسقياتها . وتزدان من

الداخل بدوائر من الفسيفساء أو الفريسك • وقد ذاعت شهرة ما بقى من هذه من القصر الكبير لثباتها وواقعيتها (١٥) • أما الذين يلونهم مرتبة من الأثرياء فكانوا يقيمون فى شقق أو منازل • بل أن ميخائيل أطيالياتس Michael Attaliates أحد أثرياء القرن الحادى عشر كان يمتلك عقارا استغله فى هذا السبيل • وكان من الطبيعى أن يكون لدى سرة القوم الشئ الكثير من الملابس ، وليس أدل على ذلك مما يحكيه ثيودور متوخيتس (١٦) Theodore Metochites فى القرن الرابع عشر عن دولاب زوجته وقد غص بالثبات • وكان ارتداء اللفاح الولاشى يعتبر أمرا مألوفا وشائعا فى القرن الثالث عشر • وخلال العصور الوسطى المتأخرة ، أصبحت الطرز الأجنبية ، خاصة الإيطالية والتركية ، هى الشائعة • فالعمامة التى تبرزها فسيفساء القرن الرابع عشر والخاصة بثيودور متوخيتس والموجودة فى الكنيسة التى جدها ثانية ، تعد تذكارا لذلك • وقد تملك الحزن جماعة المحافظين من أمثال معاصره الأصغر نيقفور جريجور (١٧) Nicephoras Gregoras لأن مختلف الطرز كانت أشبه شئ بمسبحة الدراويش ، بحيث كان يبدو مستحيلا التعرف على البيزنطى وسط ذلك الخليط الأجنبى المتسلاطم فى العاصمة • أما الشئون المنزلية الأخرى كالغزل والنسيج ، وأدوات

(١٥) Illustrated London News, 12 March 1955.

(١٦) يرتبط ذكره فى الآداب البيزنطية بالدراسات الفيلولوجية ، غير أن ثقافته الواسعة ونشاطاته المتعددة ، تتعدى هذا المجال • كان شديد الإعجاب برجال العصر القديم مثل بلوقارخ وأرسطو وبصفة خاصة أفلاطون • وقد عمل وزيرا للإمبراطور أندرونيكوس الثانى فقد كان سياسيا موهوبا ، ترك بصماته الواضحة على شئون الدولة • وخلال الثورة التى أطاحت بأندرونيكوس الثانى من على العرش فقد ثيودور منصبه وأدخل السجن ، ثم سمح له بعد ذلك - نظرا لسوء حالته الصحية - بالذهاب الى دير ضاحية القسطنطينية • وكان قد قام بإعادة بناء هذا الدير والكنيسة الملحقة به ، عندما كان ما يزال له نفوذه ، وأمده بمكتبة وزينه بالفسيفساء التى مازالت قائمة حتى الآن ، حتى أن الكنيسة تغرف اليوم بجامع الفسيفساء • وقد مات ثيودور فى هذا الدير سنة ١٢٢٢ •

أنظر Millingen, Constantinople, p. 149

وكذلك Vasiliev, op. cit. II, pp. 702-703 المترجم •

(١٧) أنظر قبله حاشية ١١ ص ٢٦٤ • المترجم •



المطبخ (١٨) والأطباق والقصور والمقالات فتظهر بوضوح في الفريسيك ، وبصفة خاصة تلك التي توجد في الكنائس البلقانية . وفي بعض الأحيان تفرج الحفائر عن بعض دقاتها ، كما حدث مثلاً في مكان السوق في أثينا ، حيث عثر على أطباق تصور تصميمات بعض منها ما شاع عن تجوال روبين هود Robin Hood ، وديجنيس أكريتاس Digenis Akritas للبيزنطيين ، على حين يبدو البعض الآخر وقد ازدان بأشياء أكثر بساطة كأرانب منزلية صغيرة ، أو صبية يلعبون الكرة .

وكان المجتمع البيزنطي يضم بين جنبه الطرفين المتناقضين - الثراء البالغ والفقر المدقع : وعند الدرك الأسفل من السلم الاجتماعي تسمى الحياة بنيسة مهلكة . وكان علاج ذلك الوضع يفوق طاقة المؤسسات الخيرية رغم أنها كثيرة كثرة هؤلاء القوم . وتتضمن حياة القديس يوحنا المعطاء St. John the Almsgiver صورة اليمة عن حال الفقراء في الاسكندرية عند بداية القرن السابع . وقد رفض الأسقف السكندري يوحنا أن يلتحف بغطاء فاخر منحه إياه أحد كبار الملاك ، كان قد ترامى الى سمعه أن الأسقف ينام تحت « لحاف ممزق بال » . وإن كان قد قبل ، نتيجة الانحاح الشديد ، أن يضع هذه الهدية على فراشه لليلة واحدة فقط ، وهو ينتحب لأجل نفسه .

« ترى . . من ذا الذي سوف يقول أن يوحنا المتضع ،

كان يرقد تحت لحاف بلغت تكاليفه ٢٦ نوميزما Nomismata ، بينما تتجمد من البرد أطراف أخوة المسيح ؟ كم منهم تراه هناك تصطك في تلك اللحظات أسنانهم ؟ وكم منهم لا يملك إلا بثارا واحداً بالياً ، يفتersh نصفه ويلتحف بنصفه الآخر ، يبيت يرتعد وقد انطوى على نفسه وكأنه كرة من خيط ؟ كم منهم ينام في

---

(١٨) لعل من أطرف ما يمكن ذكره في هذا المجال ، ويوضح في الوقت نفسه مدى التفاوت الحضاري بين الامبراطورية البيزنطية والغرب الأوروبي . هو أن استخدام الشوكة في المجتمع الاقطاعي في الغرب . قد انتقل من القسطنطينية في القرن الحادي عشر الى البندقية . وانتشر منها الى بقية انحاء ايطاليا ثم تدريجياً عبر أوروبا الغربية ثم انجلترا . ولكنه ظل لفترة طويلة في الغرب أمراً يدعو الى الاحتقار كنوع من التهذيب الصارم !! أنظر Thompson & Johnson, op. cit. p. 315. المترجم .

العراء عند الجبال بلا غذاء ولا ضياء ، وقد تكالبت عليه كرب  
 الدهر من الجوع والزمهرير ؟ كم منهم تتوق نفسه الى ان يقتات  
 بتلك الوريقات اليابسة للخضروات والتي تلقى من نافذة  
 مطبخى ؟ كم منهم يشتهي أن يغمس كسرة الخبز التي بيده فى  
 الحساء الذى يسكبه طبأخى خلف مطبخى ؟ كم منهم يتمنى أن  
 يشتم رائحة الخمر التى تصب فى زق خمرى ؟ كم من الغرباء  
 كانوا هناك فى تلك الساعة يهيئون على وجوههم هى المدينة  
 بلا مأوى ، بل ويرقدون فى ساحة السوق ، حيث تهطل الامطار  
 فتفرق منهم الرؤوس والاجساد ؟ (١٩) .

وقد بيع هذا الغطاء الثمين واشترى بثمنه مائة وأربعة وأربعون ديناراً  
 خشنا وزعت على المعدمين .

وكانت رعاية الفقراء واجبا مسيحيالقى على كواهل الجميع ، هذا  
 الى جانب كونه التزاما خاصا بعالم الرهبنة . فقد تضمن ميثاق تأسيس  
 الدير الذى أقامه اطالياتس ، النص على أن يلتزم كل راهب بتقديم جزء ،  
 حتى ولو كان صغيرا ، من وجبته الرئيسية الى أحد الفقراء ، والحقيقة  
 أن الرهبان كانوا غالبا وراء خيرية العلمانيين . فالتقى من بين هؤلاء  
 الآخرين ، والذى يقيم ديرا ، كان فى العادة يخصص بعض مؤنثته من أجل  
 ذوى الحاجة والفقراء والمرضى والمسافرين والحجاج ، على حين كانت  
 المؤسسات الديرانية الثرية تنشئ ملاجئ اليتامى ، والمستشفيات  
 والمضاييف . ولاشك أن أعظم الهبات فى هذا الميدان هى تلك التى منحها يوحنا  
 كومنتوس John Comnenus فى القرن الثانى عشر ؛ فقد قدم لاحد الأديرة  
 كنيسةتين ، وجعل تحت رعايته ليس فقط دار استشفاء للرجال والنساء بل  
 دور للمسنين والمصابين بالصرع ، واللقطاء واليتامى ، وأخرى  
 للمجنومين . وقد أبان ميثاق تأسيسه عن مراميه ، حيث كان عدد الاسرة  
 فى المستشفى خمسين سريرا ، قسمت الى خمسة أجنحة هى الجراحة ،  
 العلاج الطبى امراض النساء ، واثنان للحالات المرضية البسيطة . ويشرف

على ذلك هيئة من الأطباء تتميز بالكفاءة والاعتدال (من بينهم طبية واحدة) . أما الغذاء الذى يقدم للمرضى فقد كان نباتيا ولكن بصورة معتدلة . يضاف الى هذا عيادة طبية وصيدلية للعلاج الخارجى . ولأبناء هيئة الأطباء مدرستهم الخاصة التى يتعلمون فيها أصول الطب ومبادئه الاولى . وكانت هذه المؤسسة بكل هذا الذى تحتويه تخضع لاشراف رئيس الدير ، رغم انه قد عهد بالكثير من هذه المسئوليات الى احد الاخوة فى الدير . والتفاصيل التى وردت فى ميثاق تأسيس هذا الدير جديرة بالاعجاب حتى ان من يطالعها تبدو له وكأنها من بنات القرن العشرين أكثر مما عهدناه فى القرن الثانى عشر . وكانت مثل هذه المؤسسات الديرانية الكبيرة والثرية تقام فى داخل العاصمة أو قريبا منها ، وعلى أهالى المناطق القسبية أن يعتمدوا على مساعدات أقل من التى تقدمها تلك الأديرة الضخمة ، خصصت حسبما تسمح به الظروف والامكانيات فى المناطق المجاورة . ومن الواضح انه كانت هناك مساعدة طبية سريعة ومتاحة فى مختلف الأقاليم ، فقد اعتاد القديس ثيودور السيكيونى أن يوصى بالأطباء والجراحين فى الحالات المستعصية التى لم يكن بمقدوره أن يتولى علاجها بنفسه .

وكانت المدن الكبيرة مثل القسطنطينية وسالونيك وطرابيزون تعتبر مراكز صناعية وتجارية هامة . فقد كان للقسطنطينية صناعاتها الخاصة وبالذات الصناعات الحريرية والتطريز والعديد من المنتجات الكمالية الأخرى مثل الجواهرات أو العاج أو الخزف التى ذاعت شهرتها . وكانت انفس الخامات وأدق الألوان الأرجوانية تخصص فقط للاستخدام الامبراطورى ، سواء للثياب الرسمية الخاصة ، أو ترسل كهدايا ، وهو أمر نادر الحدوث ، الى بلاط احد الدول الأجنبية . وقد احتل تنظيم صناعة الحرير وتسويق خاماته مكانة بارزة فى كتاب الوالى ، *Book of the Prefect* ، ولم يكن الحظر المفروض على التصدير مجرد مسألة شكلية ، فقد اكتشف ليوتبراند مبعوث أوتو الأول جدية الأمر . عندما تم تفتيش حقيقته بواسطة موظفى الجمارك وصودرت بعض مشترياته . وكانت هناك بعض المصانع الامبراطورية الخاصة فى القسطنطينية ، تقوم بتصنيع الأقمشة الحريرية لأسرة الامبراطور والبلاط وكبار رجال الدولة والكنيسة . ولما استطاعت الامبراطورية أن تحصل على دودة القز على عهد جوستنيان ، وأمكن

استخلاص الحرير الطبيعي ، لم تعد الامبراطورية تعتمد على استيراده من الصين . وقد تم انتاج الكتان كذلك وبيع للمصانع في القسطنطينية ، شأن بعض انواع الطيب والعطور ، رغم ان بعض هذه المنتجات كان يتم استيراده من الخارج .

وكان الكروم والزيتون يفيان حاجة الاستهلاك المحلي في الريف والمدينة على السواء . وفي اجزاء من بلاد اليونان ، ونجود آسيا الصغرى كانت تربي قطعان الماشية والأغنام التي تمثل مصدرا كبيرا للثروة . وهناك الخيول والجمال والمعز التي تمتاز بشعرها الطويل متيجة تجوالها الدائم عبر مروج ووهاد تلك الضياع الواسعة التي تعتبر ثرواتها احدى الدعامات الأساسية للدولة ، مادامت تخضع لسيادة حكومة امبراطورية قوية . اما الحياة الريفية في اخط مراتبها اتضاعا ، فبرسحها بوضوح ذلك التشريع الذي عرف بـ « قانون الفلاح » (٢٠) *The Farmer's Law* الذي يصور مجتمع قرية تتكون من صغار الملاك الأحرار ، وهم الطبقة التي قوى مركزها نتيجة السياسة التي برجت عليها الامبراطورية منذ القرن السابع ، والتي قامت على اساس منح الأراضي مقابل الخدمة العسكرية ، بحيث تنتقل الربة من الاب الى اكبر الأبناء . وعلى الرغم من ان « قانون الفلاح » جاء مطابقا لهذا النمط من المجتمعات ، الا ان الكثير من التفاصيل حول الحياة الرعوية والزراعية لم تكن تعبر عن اوضاع المزارعين . وفي هذا القانون يبدو الفلاح مشغولا ، يساعد احيانا احد العبيد او عمال اليومية (٢١) ، في اعداد مزارع الكروم والتين وحقول القمح ، وتربية ماشيته ، واغنامه وختازيره ، وقد تضمن القانون العقوبات والقواعد لمواجهة كل الأمور التي تطرأ ، كان

---

Translated by W. Ashburner, *Journal of Hellenic Studies*, 32 (1912) pp. 78 ff., and by E. H. Freshfield, *Manual of Later Roman Law* (Cambridge 1927).

(٢١) على الرغم من ان القديس فيلارنس *St. Philaretos* في القرن الثامن قد اضطر الى التخلي عما في حوزته ، بحيث لم يبق له الا زوج من الثيران وحصان وحصار وبقرة وعجل ، الا انه ظل يحتفظ بعبد واحد وخادم واحد *Byzantion*, 9 "1934", p. 115



يبيع أحد الرعاة خفية أحد الحيوانات ، أو الهجوم المباغت العرضى الذى تشنه الحيوانات المفترسة ، أو التصرفات الهوجاء لكلب الرعاة أو قطع الخنازير ، الا ان هناك أخطارا كانت تفوق كل ذلك ، كان تتعرض المحاصيل للتلغف ، أو تهلك الماشية أو تطارد ، وبصفة خاصة على الحدود الشرقية لآسيا الصغرى حيث كانت غزوات الفرس والعرب والترك على التوالي (والمسيحيون فى بعض الأحيان) تمثل تهديدا خطيرا ومستمرا . وقد سقطت بصورة حتمية كثير من الحصون الصغيرة الموجودة على الحدود فى أيدي أعداء الامبراطورية ، ومع التقلص الذى اعترى هذه الجبهات كان من الطبيعى ان تضيق هذه الأبنية بشكل دائم . وفى اوقات الجفاف أو السيول ، أو اغارات الجراد ، أو أية آفات أخرى قد تلتهم المحصول ، كان من الصعب على الفلاح ان يفي بالتزامه تجاه جباة الضرائب . ومن ثم فان الفلاحين كانوا يلجأون فى بعض الأحيان الى أحد الرجال المطهرين اذا كان يقيم على مقربة منهم . وقد أدت صلوات القديس ثيودور السيكيونى الى صرف الكارثة التى كان يمكن ان تحيق بالمحاصيل والتين ، بسبب الخنافس والجراد والدود والفئران النوامة (زغبة dormouse) ، كما أبرأ الثيران والحيوانات الأليفة الأخرى . لقد كان الفلاح يعيش على هامش الحياة ، قلقا . وكان القتال عن حريته مقابل التدنى الى وضع المزارع المقيد بالأرض ، المكبل بالتزامات المعينة تجاه ضيعة ما سواء كانت علمانية أو ديرانية ، يبدو غالبا الحل الوحيد لهذا الفلاح البسيط . ولكن الحال كان بخلاف ذلك فى الأراضى الأكبر حجما ، حيث كان هناك بقية من الأرض يعول عليها عند الحاجة . ولقد ظلت الأرض الزراعية واحدة من احسن الاستثمارات اثري بها الكثير من الاعيان الى اقصى حد .

وكان للامبراطورية سواحلها الطويلة ، وجزرها القبيدة ، مما دفع الكثيرين من البيزنطيين الى اكتساب ارزاقهم عن طريق البحر ، فعمل بعضهم بالصيد ، وآخرون بحارة فى البحرية التجارية ، أو الاسطول الامبراطورى الى ان اخذت فى الظهور الجمهوريات البحرية الايطالية منذ القرن الثانى عشر فصاعدا . ويعتبر القانون البحرى الرودىسى Rhodian Maritime law مجموعة من النظم التى وضعت من أجل سفن صغار التجار ، تصف الترتيبات الخاصة بالبحارة والمسافرين . فقد كان مسموحا ، على

سبيل المثال ، لكل راكب بمساحة معينة (فالمسافر المذكور له ثلاثة أضعاف ما تحتله المرأة من مكان) وكانت الاخطار التي يجب ان توضع في الاعتبار كثيرة - كاشعال النيران ، أو الوقوع في أيدي القراصنة ، أو غرق السفينة . ولهذا كان محظورا على المسافرين قطع الاخشاب ، أو « قلى السمك على ظهر السفينة » ، ولن يسمح القبطان بشيء من ذلك « (٢٢) » ، وعلى ذلك فقد كان مسموحا لكل منهم بقدر من الماء ، كما أنه كان باستطاعتهم الحصول على الطعام من الطباخ المشرف على المقصف الصغير ، وللقبطان الحق في أن ينزل المسافرين الى البر ، اذا كان من الضروري الاقلاع الى عرض البحر ، حتى يتفادى التعرض للقرصنة . وفي بعض الأحيان كانت كل حمولة السفينة أو بعضها تطرح اذا ما اقتضى الأمر ذلك . وكان من أهم سمات القانون البحري الرودوسي نظامه الخاص بالتعويض المتبادل والتأمين ، وهو يتضمن بعض مبادئ التأمين البحري في العصر الحديث (٢٣) ولما كانت التجارة تعنى غالبا رحلة بحرية الى بعض الأماكن ، وحركة التجارة البحرية تعد من الأنشطة المحددة ، فقد سمح بذلك لرهبان جبل اثوس . ولاولئك الذين يعملون على أسطول بطريك الاسكندرية ، الذي جلب القصدير من « الجزر البريطانية » في القرن السابع أو لتاجر بالارتحال الى مكان قصى كالهند أو الصين ، كما كشفت عنه الوثائق اليهودية الباقية (٢٤) .

ولقد كان للبيزنطيين لهوهم ومسلياتهم ، قصورهم الأدمى ووهنهم . وكانت الحمامات العامة تكاد تعادل الأندية ، حيث يلتقون ويتسامرون

(٢٢) قام E.T. Freshfield بترجمة القانون البحري الرودوسي في A Manual of Later Roman Law "Cambridge 1927" p. 206.

E.H. Freshfield, op. cit. p. 60

(٢٣) انظر

(٢٤) انظر المقالة الرائعة التي كتبها S.D. Goitein تحت عنوان « من البحر المتوسط الى الهند » وثائق عن التجارة الى الهند وجنوب شبه الجزيرة العربية وشرق أفريقيا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر في Speculum 29 "1954" pp. 181 ff. ورغم أنها تتناول في الدرجة

الأولى التجارة اليهودية من القاهرة ، إلا أن هذه الوثائق تكشف عن « مظهر دولي » وتلقى ضوءا على تجارة العصور الوسطى مع الشرق الأقصى بصفة عامة .

على امتداد يومهم • وغالبا ما كانوا يجمعون بين عملهم ومسراتهم في أسفارهم أو أسواقهم الكبرى • ويحرص البائعون باستمرار على التردد على مزارات القديسين المحبوبين ، ويتم الاتفاق على تفاصيل العمل في هذه الدور ، وفي بعض الأحيان ينسل الناس الى خارج الكنيسة قبل أن ينتهي القداس لاستكمال المباحثات في الخارج (وفي إحدى انترات كان هناك كثير من التشويش والبلبل ، مما حدا بالبطريرك أيضا الى الخروج ، قائلا انه باعتبارهم راعيهم فان مكانه بينهم) • وكانت الخرافات والخرعبلات تجد رواجا واسعا في المدن والقرى على السواء • وانتشرت الرقى والتعائم لدفع الأذى والشفاء من المرض ، بما فيها الوفائيات المسيحية لنفس الغرض • وقد كتب يوحنا الايطالي الى عميد كلية الطب في القسطنطينية يقول • انه لن تكون به حاجة الى العلاج العادي ، أو المطهرات ، أو تغيير الهواء أو ما شابه ذلك ، إذا ما لبس فقط وسام قسطنطين الذي أرسله اليه • وكان للقرى امراتها الحكيمة أو الساحرة • أما في انجتمعات الأكثر رقى فكانت تعقد حلقات اشبه ما تكون بالمشاهد التمثيلية ، وكانت هناك تعليمات لتفادي أي ارتباك قد يحدث إذا ما تضرع الوسيط الى اله الشر أو روح خبيثة ، أو عندما تأتي الاجابة غير صحيحة • وعلى هذا النحو اقتفت بيزنطة أثر العالم القديم المتأخر في الإيمان بالسحر وممارسته • وكان واضحا ان هناك اهتماما كبيرا بالأنشطة الروحانية في الأوساط الرومانية الشرقية • وتظهر تجارب العصور الوسطى مدى ما فيها من سمات مشتركة كثيرة مع الأبحاث الروحانية الحديثة (٢٥) وكانت الكنيسة تبدي باستمرار استياءها لمثل هذه الأنشطة ، بما فيها التنجيم • وقد هاجم يوحنا الديرشلي بقوة في مؤلفه « ينبوع المعرفة » ادعاءات المنجمين ، وأكد ان النجوم أو الأحوال الجوية ليست بقادرة على تحديد طبائع الانسان أو ادارة شئوننا •

---

(٢٥) المادة العلمية الخاصة بالعالمين اليوناني الروماني والبيزنطي ، لم يكتشف الا البعض منها ، ولعل من أحسن المداخل الى هذا الموضوع المقالة التي كتبها E. R. Dodds تحت عنوان « السحر وعلاقته بالاقلاطونية الحديثة » • Theurgy and its relationship to neoplatonism • Journ. Rom., stud. 37 "1947". pp. 55 ff. في



« لقد خلقنا الله أحرارا ، سادة أفعالنا » (٢٦) .

وقد حرم المجمع الخامس والسادس (٢٧) Quini-Sextum Concil المنعقد في سنة ٦٩١ ، الاحتفالات الوثنية التي كانت تقام بمناسبة عيد أول مايو ، وعند حصاد الكروم ، وممارسة المنظر والشعوذة ، وإن كان نجاح هذه الإجراءات أمرا ليس مؤكدا . ولعل الاحتجاجات الجمعية والكنيسة المتكررة تظهر المقاومة العنيدة التي بذلتها الفزعيلات والتقاليد المورثة في القدم ، من أجل البقاء . . . ولقد كان هذا واضحا بصفة خاصة في الجزر ، التي حافظت باصرار على تقاليدها . وفولكلورها حتى أيامنا هذه تقريبا .

وكانت أوقات البذر والحصاد لا تسمح إلا بوقت قليل للراحة . وفي الريف ، ترتبط مسرات أهله بالفصول المختلفة ، كزمن حصاد العنب ، ويكتمل هذا بأنواع التسلية الأخرى القادمة من خارج القرية كقرق الأكروبات التي تنتقل على الجمال ، أو الحواة ، وربما أيضا مع المقلدين والمهرجين . أما المدن الكبيرة فقد كانت تفتقر إلى أي شيء يمكن أن يقف على قدم المساواة مع الدراما الإغريقية القديمة أو حتى دراما الأزمنة الحديثة . ولكن هناك عروض موسيقية محلية واستعراضات راقصة (وهي التي يفترض فيها أن الدوائر الكنسية لن تحضرها) . وقد حاول أحد بطاركة القسطنطينية في القرن الثالث عشر (وهو الذي كان يتصف بطلعة تنحسية - كما حاول غيره ممن سبقوه ، التأكيد بأن التمثيل في يومى السبت والأحد مجلبة الشقاء . وكانت وسائل اللهو المفضلة ، ومباريات الكؤوس - في العصور الوسطى ، تتمثل في سباقات الهيدروم في القسطنطينية تحت رعاية البيت الإمبراطوري . وهنا كانت الفرق المتنافسة تتلقى التأييد من مشجعيها وأنصارها ، وعندما ينتصر المتسابق فإن ذلك يفسر على أنه

(٢٦) John of Damascus, De fide orthodoxa, c. 7 transl.

Nicene and post Nicene Fathers "1899", p. 24.

(٢٧) عرف المجمع بهذه التسمية لأن قوانينه كانت تعتبر تقمة للمجمعين المسكونيين الخامس والسادس . (المؤلفة) ، راجع قبله .  
المترجم .



انتصار للامبراطور الذى لا يقهر ، والذى غالبا ما كان يشرف على السباق من المقصورة الامبراطورية .

وكما هو الحال فى اى زمان ، كانت الحياة اليومية البيزنطية تمتلئ بالكثير من الخزعبلات والسخافات والمنغصات . ولكن الصورة العامة والبارزة ، كانت شيئا بعيدا عن الانحطاط او القنوط . لقد كان الناس يسخرون من اطبائهم ورجال القانون فيهم والاكليروس ، ولكن سخريتهم اللاذعة هذه تفصح عن مدى احساسهم بالاطمئنان على تراثهم اكثر مما تشير الى عكس ذلك . ولقد توفرت لديهم حتى القرن الثالث عشر افضل الخدمات الاجتماعية ، سواء تلك التى تقدمها الدولة او التطوعية ، كما بنعت الطبقتان العليا والوسطى بأرقى مستوى من الحياة لم يتوفر لاحد فى اى مكان آخر من العالم المسيحى آنذاك . اما حالات الفاقة فقد كان يتم الخلاص منها بادراك الاهداف الالهية والسعى الى تحقيقها ، يشهد على ذلك الاقتناع الكامل لدى اهل القرى فى وساطة احد القديسين ، ورغم ضراوة النزال الا ان المحن والبلايا كانت تعتبر تجربة صحية مفيدة . وقد كتب نقفور جريجور فى القرن الرابع عشر ، عندما كانت الامبراطورية تبلى بما يفوق احتمالها ، « من النادر ان يبتسم الحظ لنا ، وحتى اذا جاءنا فانه سرعان ما يولى كما تذبل الزهور . ولكنها ارادة الله التى توقع بنا القصاص العادل ، والا ربما غرتنا انفسنا ونسينا اننا الى الفناء سائرون » (٢٨) .

**مراجع خاصة بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية  
والحياة اليومية**

- Cambridge Economic History.  
(vol. 1, 2nd ed. 1966), Agrarian Conditions by G. Ostrogorsky.
- Cambridge Medieval History.  
(vol. IV, pt. II) ch. 22, Social Life by R. J. H. Jenkins.  
————— ch. 28, Byzantine Science by K. Vogel.
- Diehl (C.), La Societe Byzantine a L'epoque des Comnenes (Paris 1929).
- Jeanselme (E.), et L. OEconomos, Les OEuvres d'Assiatance et Les Hopitaux Byzantins au Siecle des Comnenes, Communication faite au 1er. Congres de L'Histoire de L'Art de Guerir, Anvers 1920 (Anvers 1921).
- Ostragorsky (G.), Pour la L'histoire de la feodalite byzantine. Paris 1954.  
Quelques problemes d'histoire paystnnerie byzantie. Brussels 1956.
- Rhodian Law, Farmer's Law, Book of the Prefect, and other legal Codes. by E.H. Frehfield. Cambridge 1927-31.
- Runciman (S.), Byzantine Civiliation, London 1933.



# الفصل التاسع

## التعليم والأدب

أوجه التراث البيزنطي





## الفصل التاسع

### التعليم والأدب

#### أوجه التراث البيزنطى

يعتبر المجتمع البيزنطى من المجتمعات المثقفة ، على الأقل فى مستوياته الوسطى والعليا . وهنا أيضا ، كما جرى بذلك التقليد السياسى والادارى ، لم يحدث انقطاع عن العالم اليونانى - الرومانى . ولقد ذهب كل من القديس باسل St. Basil والقديس جريجورى النازيانزى St. Gregory Nazianzus ، وهما من أهم عمد الكنيسة المسيحية . الى جامعة اثينا ، جنبا الى جانب معاصريهم الوثنى جوليان المرتد Julian the Apostate وحوالى ذلك الوقت كان القديس يوحنا ذهبى الفم John Chrysostom يزمر مبينا للأباء التربية السليمة للأطفال المسيحيين ، ولكن مهما كانت الحيلة التى اتخذها ليحول بكل جهده دون تدنيسهم بالعادات والسلوك غير المسيحيين ، الا انه لم يوص أبدا ان يظل أبناء المسيحية بعيدين عن الثقافة ( الوثنية ) . وهكذا فان الدولة البيزنطية فى عصرها الأول كانت وريثا واعيا للأدب والفكر ووسائل التعليم فى الامبراطورية الرومانية المتأخرة ، ومن ثم لم يكن عليها ان تبني من جديد كما فعلت بعض الممالك الغربية الصغرى . وفوق هذا فانه فى القرن السادس عندما لم يكن لدى انجلترا وفرنسا الا القليل الذى يمكن ان تقدماته ، ولم يكن لدى الكنيسة فيها شئ على الاطلاق ، كان الامبراطور البيزنطى يشكل لجانا من المشرعين ، كان لعملها اثره الكبير على مختلف المستويات فى كل البلاد الأوروبية تقريبا ، وينظم الأمور المتعلقة بطلاب مدارس القانون بأساليب تكاد تطابق الحياة الجامعية الحديثة . وقد كتب بروكوبيوس Procopius الذى كان سكرتيرا عسكريا خاصا لبليزاريوس Belisarius قائد جوستينيان ، مؤلفات كثيرة وضيعة عن الحرب والسلام ، ولعله أراد فى الوقت ذاته ان يخفف عن نفسه هذا العناء ، فوضع تقريرا خاصا عن معاصريه

( وفى مقدمتهم الامبراطور ) لا نقول انه كان بعيدا عن الفطنة بقدر ما كان مملا تشهيريا ، بحيث لم ينشر الا بعد وفاته • ونظم رومانوس الملحن (١) Romanus the Melodus ، بما عرف فيما بعد بالنظم الجديد ، ترانيم كورالية ما زالت تستخدم الى اليوم ، لا يدانيها مثيل فى جمال النص والمحتوى • وكان بولس الصامت Paul the Silentiary يكتب باحدى بحور العالم القديم قصائده الوصفية التى نظمها فى الكاتدرائية التى بنيت حديثا فى القسطنطينية ، كنيسة الحكمة المقدسة ، اياصوفيا •

وعلى امتداد العصور الوسطى البيزنطية ، كما هو الحال فى العالم القديم ، كانت التربية لذوى اليسار امرا مسلما به ، ويستحث الكثيرون على الكتابة بطريقة جيدة وكذا الحديث ، وكان البنات شان البنين يتلقون التعليم ، حقيقة لم يكن عادة يذهبن الى الجامعات ، ولكنهن يحصلن على مستوى عال من الثقافة ، خاصة فى العائلات التى كان بمقدورها ان تقدم لبناتها معلمين خصوصيين • وكانت سكرتارية الامبراطور قسطنطين السابع تضم بناته المتعلمات ، وزوج المؤرخ والجندي نيقفور بريانيوس (٢)

(١) ولد فى سوريا ، واختلف الدارسون حول انتمائه للقرن السادس او القرن الثامن وان كان الراى قد استقر اخيرا على ذبوع صيته فى القرن السادس ، بناء على ما امكن استنتاجه من اشاراته فى مؤلفاته الى الامبراطور انسطاسيوس الاول (٤٩١ - ٥١٨) • وقد انتقل من سوريا الى القسطنطينية وهو مازال شماسا ، وتفتحت عبقريته فى نظم الشعر الدينى والترانيم المسيحية ، حتى ان بعض الدارسين يعتبره اعظم الشعراء البيزنطيين قاطبة • ويطلقون عليه « بشار الشعر الايقاعى » و « دانتى الهلينيين المحدثين » •

Baynes & Moss, op. cit. pp. 240-241

Vasiliev, op. cit. I, pp. 122-123.

انظر فى ذلك

وكذلك

وايضا دكتور اسد رستم : الروم ، الجزء الاول ص ١٥٩ • المترجم •  
(٢) عمل فى خدمة الكسيوس كومنتوس وابنه يوحنا ، ولعب دورا بارزا فى ادارة امور الدولة على عهدها ، وتزوج من اناكومنا ابنة الكسيوس ، وكان نيقفور ينتوى كتابة تاريخ عن الامبراطور الكسيوس غير ان الموت عاجله فحال بينه وبين بغيته ، غير انه ترك تقريرا وافيا عن امرة كومنين وكيف تم لالكسيوس اعتلاء العرش ، وهو يتناول الفترة بين عامى

Nicephoros Bryennius الى مؤلفة مثقفة هي الاميرة انا كومنينا Anna Comnena وكانت ايرين Irene ابنة ثيودور متوخيتس ذات ذكاء حاد وبصيرة نافذة ، حتى ان معاصريها من الرجال شهدوا بان احاديثها كانت تعود بهم الى افلاطون وفيثاغورس . ولم تكن الثقافة قاصرة فقط على بنات الطبقة الراقية ، فقد كان هناك على سبيل المثال نساء مثققات ، مثل ام ميخائيل بسللوس في القرن الحادي عشر ، وتلك الطبيبة التي جاء ذكرها مرتبطا بمستشفى يوحنا كومننوس في القرن الثاني عشر .

وكان التعليم الابتدائي يتلقى في المدن ، واحيانا في مدارس القرى ، كما حدث في القرن السابع عندما ذهب القديس ثيودور السيكيوني الى ريف جالاتيا في اسيا الصغرى . وكان ابناء العائلات الثرية يتعلمون على ايدي معلمين خصوصيين . اما المستوى الراقى من التعليم فقد كان متاحا من مصادر مختلفة . وفي القرن التاسع الميلادي ، نجد ان ليو Leo هالم الرياضيات ، بعد ان انتهى مرحلة التعليم الاولى في القسطنطينية ، ارتحل الى جزيرة اندروس Andros ليكمل تعليمه على يد مدرس للفلسفة والرياضيات ، حتى اذا عاد جعل من نفسه معلما خاصا في القسطنطينية . ولقد كان من السهل غالبا العثور على معلم خصوصي من اجل دراسة متقدمة رغم ان مثل هذه الدراسة لم تكن ذات سمعة طيبة . وقد قام يوحنا موروبوس John Mauropous في اوائل القرن الحادي عشر بتعليم مجموعة متفرقة من الشباب ، شغلوا بعد ذلك مناصب مرموقة ، وكان يعلم حبا في مهنته ، ولم يطلب اجرا من اولئك الذين لم يكن باستطاعتهم تقديمه ، وجرى بذلك قلمه في قصيدة تثير العواطف حول سنى عمره الاولى في القسطنطينية . وفي بعض الاحيان كانت البداية تأتي في بيوت من يهتمون بعملية التعليم ، وغالبا ما كان هؤلاء من الدارسين ذاتى الصيت .

---

١٠٧٠ - ١٠٧٩ ، وهو الى جانب ذلك يعد مصدرا هاما لهذه الفترة ، بهذا الضوء الذي يلقيه على سياسة البلاط الداخلية ، والسياسة الخارجية للدولة ، وخاصة ذلك الخطر المتزايد للاتراك السلاجقة وتهديدهم لبيزنطة .  
الترجم .



وتأتى بعد ذلك الاكاديميات الشهيرة ذات السمعة الدولية ، وقد استمرت المدارس الكبرى فى العصر الكلاسيكى تؤدى دورها فى الفترة البيزنطية المبكرة ، وفى مقدمتها مدارس أثينا والاسكندرية وبيروت ، وان كانت القسطنطينية التى تأسست مؤخرا ، قد أخذت تزاحمها . وقد عمل قسطنطين على تشجيع التعليم فى عاصمته الجديدة . بحيث أصبح هناك مركز للدراسات العليا خلال النصف الثانى من القرن الرابع ، ومالبثت الجامعة أن افتتحت رسميا عام ٤٢٥ على يد ثيودوسيوس الثانى . وقد أقيمت فى القاعة الكبرى على صرح الكابيتول ، وأصبحت على هذا النحو تحت الاشراف الامبراطورى . وخصص للغة اللاتينية ثلاثة خطباء وعشرة من النحويين ، ومثل هؤلاء الأخيرين وخمسة سوفسطائيين يعلمون باللغة اليونانية ، هذا بالإضافة الى أستاذ للفلسفة « واثنين لفقہ القانون والشرية » . وقد أغلقت جامعة أثينا على عهد الامبراطور جوستينيان ، وأن كان هذا لايعنى توقف حركة التعليم هناك ، على حين انتقلت الاسكندرية وانطاكية وبيروت الى ايدى المسلمين . ولكن أعرفهم حملتها القسطنطينية التى بقيت أشهر مركز للدراسات اليونانية فى العصور الوسطى ، على الأقل حتى عام ١٢٠٤ . وبمرور الزمن تناقص عدد الكراسى الخاصة بالدراسات اللاتينية ، حتى اختفت تماما فى النهاية عندما أهمل استعمال اللغة اللاتينية ، وتم فقدان النصف الغربى من الامبراطورية نهائيا . وكانت الجامعة فى ميدان التدريب على الوظائف المدنية والادارية ، وعادة ما كانت تتلقى الدعم المادى من الدولة ومن جهات أخرى كذلك ، وليس من اليسير أن نضع تصورا عاما لتاريخها بسبب قلة المصادر ، ولكن الواضح أنها ازدهرت فى القرنين الخامس والسادس بصفة خاصة ، ثم عادت الى الانتعاش ثانية منذ منتصف القرن التاسع حتى نهاية القرن الثانى عشر ، وكان من أهم الوثائق التى وصلتنا كاملة ، لائحة كلية الحقوق التى وضعت فى سنة ١٠٥٤ . عندما أعيد تنظيم الجامعة على يد قسطنطين التاسع ، استجابة لرغبة مجموعة من الأساتذة الغيورين وذوى النفوذ . وبعد عام ١٢٠٤ انتقل الاهتمام بها الى حد ما ، أولا الى نيقية ، ثم الى البلوبونيز بعد ذلك حيث نجح علماء الدراسات الانسانية البيزنطيون فى اجتذاب وتعليم صغار الدارسين . وكان هناك أيضا ثمة مراكز أخرى مثل سالونيك أو

طرابيزون حافظت على انشطتها الثقافية . ومع ذلك ، فقد تمكنت القسطنطينية من أن تستعيد شيئاً من تألقها السالف ، وذلك على عهدى أندرونيكوس الثانى وكائتاكورزينوس . حيث تم انجاز عدد من الأعمال التى لا بأس بها ، وخاصة فى بعض العلوم ، بينما عكست المحاورات الدائرة والجدال وقع اللاهوت الغربى والديالكتيكية هناك على التقاليد الحماسية المحافظة للروحية الأرثوذكسية .

وعلى امتداد تاريخها الطويل ، حرصت بيزنطة على تكريم مدرسيها ، الخاص منهم والعام على السواء ، معتبرة التعليم شيئاً سامياً ، ليس فقط للامراء الذين كان بالنسبة لهم أمراً جوهرياً ، « بل لكل الآخرين » . جموع الرعية ، (٣) وكانت أنا كومننا تظهر احتقارها الشديد لأولئك الذين أخفقوا ، أو لم يستجيبوا ، لبرامج التدريب على فن المحادثة أو الكتابة . وراحت تتساءل ، عندما سقط ليو إسقف خلقيدونية فى الهرطقة وسط دهمشة الجميع ، « لقد كان عاجزاً عن أن يضع تفسيرات أو شروحا دقيقة ، أو حتى اقناع الآخرين بها ، وما ذلك الا لأنه لم يتدرب مطلقاً على العلوم العقلية » (٤) . ولقد ظل البيزنطيون حتى النهاية ، يحتفظون بأدراكهم الحيوى لقيمة التعليم ، حتى أن امبراطور نيقية فى القرن الثالث عشر ، ثيودور الثانى ، كان يقول لبان تلك الحيرة الحالكة التى وقعت فيها الامبراطورية بعد الحملة الصليبية الرابعة « مهما تكن متطلبات الحرب والدفاع ، فانه من الأمور الجوهرية أن نجد الوقت لنفكرس بذور بستان العلم » .

ولقد تم الرضى بالتعليم البيزنطى عن أصوله الكلاسيكية ، فالتعليم الابتدائى كان يشمل على القراءة والكتابة ودراسة للأدب اليونانى القديم . وكان الاقتباس من هوميروس والاستشهاد به أمراً بدهياً عند البيزنطيين كشأننا اليوم مع شكسبير . أما أساسيات الدراسة الابتدائية فكانت مقدمة لتدريب خاص فى الخطابة ، يتبعها دراسة للقانون أو الفلسفة على المستوى الجامعى ، بالإضافة الى مواد أخرى كالطب والحساب والهندسة والفلك

Constantine VII, De Administrando Imperio (ed. G. Moravcsik and trans. R.J.H. Jenkins), p. 49. (٣)

Anna Comnena, Alexiad. V, 2 trans, E.A.S. Dawes, p. 119. (٤)

والموسيقى . ولم تكن الدراسات اللاهوتية المتقدمة من بين برامج جامعة القسطنطينية ، فقد كان هناك عدد من المدارس الكنسية ومن بينها الاكاديمية البطريركية في العاصمة ، بفروعها الملحقه بالكنائس المختلفة هناك . وفي احدى هذه المدارس ، وهي الموجودة بكنيسة الرسل ، كان كيرلس رسول الصقالبة ، يعلم في ايام فوطيوس Photius ورغم انه لم تكن هناك كراس للدراسة اللاهوتية في الجامعة ، الا ان الاساتذة العلمانيين كانوا لاهوتيين اكفاء ، منهم فوطيوس نفسه وتلميذه ومعاصره ليو السادس ، او مانويل الثاني Manuel II في اوائل القرن الخامس عشر ، ذلك ان الحد الفاصل بين مجالى الاهتمامات العلمانية والكنسية ، لم يكن له وجود .

ومن السهل ان نجد أى نوع من النشاط الثقافى او الادبى فى أى فترة من فترات التاريخ البيزنطى ، وان كان الكثير من هذه الأعمال ما يزال غير مطبوع أو مكتشف ، وليس ادل على ذلك من ان وضع تاريخ دقيق للعلوم البيزنطية ، والتعليم والتطور التكنولوجى والمهنى ، لم يتم بعد ، والتعليق على تقدم الدراسات البيزنطية فى ميادين بعينها يعتبر شيئا فوق طاقة كاتبة هذه السطور . ربما كان هناك تطور فى الطب والجراحة ، حيث توحى كتابات اسكندر الترانى Alexander of Tralles فى القرن السادس ، وبولس الايجى Paul of Aegina فى اوائل القرن السابع ، ان بيزنطة كانت حلقة الاتصال بين مدرسة جالنوس Galen والتقدم الاخير فى ايطاليا والعالم الاسلامى . ولكن الذى لاشك فيه انه كان هناك نشاط فى الرياضيات والفلك ، تدل عليه اعمال ليو عالم الرياضيات فى القرن التاسع ، او اعادة الاهتمام ثانية فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر عندما استخدم النظام البشرى الهندى ( وقد ظهر ذلك للمرة الاولى فى بيزنطة فى مدرسة القرن الثانى عشر القائمة على اعمال اقليدس (٥) Euclid ) . ولقد كان الاهتمام قويا بالفلك بصفة خاصة ، وشجع على ذلك ايضا باعث آخر نبع من طرابيزون ، على اعتبار انها كانت على صلة بايران فى اخريات القرن الثالث عشر . وهناك فروع من الرياضيات كانت ترتبط تماما بالدراسات الفلسفية ،

---

(٥) للمزيد من المعرفة عن العلوم فى بيزنطة يفضل الرجوع الى الفصل الذى كتبه K. Vogel فى الطبعة المنقحة من Cambridge Medieval History, IV, pt. II



وقد نظر بعض الدارسين في الحقيقة ، مثل ميخائيل بسللوس ، الى الرياضيات باعتبارها انموذجا رفيعا لأنها تمثل حلقة اتصال بين الموضوعات المادية والتفكير المجرد . وكان احياء الدراسة المتقدمة للرياضيات في القرن الرابع عشر من بين ما يشكو من اهماله العلامة والسياسي تيودور متوخيتس ، ذلك أنه لم يجد سوى أجزاء فقط من أعمال اقليدس ونيقوماخوس Nicomachus هي التي تدرس ، وهي التي كانت ذات صلة بالفلسفة .

وكانت الفلسفة هي الأخرى ترتبط ارتباطا وثيقا باللاهوت ، ويعود ذلك بعض الشيء الى أن آباء الكنيسة الأوائل كانوا متضلعين من فكر العالم القديم . وعلى هذا النحو كان الجزء الأول من « ينبوع المعرفة » Fount to Knowledge الذي وضعه يوحنا الدمشقي في القرن الثامن ، وهو كتيب في التعاليم المسيحية ، يتحدث بصفة خاصة عن المنطق والميتافيزيقا عند أرسطو . وقد تنوعت الاهتمامات بالدراسات الفلسفية . وكان من الأمور المسلم بها أنها تتطلب المزيد من حصانة الرأي ، كما أعلن ذلك أحد المتحمسين لها مثل يوحنا الايطالي الذي كلفه ذلك الشيء الكثير . ولقد كان ينظر الى الفلسفة عموما على أنها رياضة فكرية يجب أن تدور في فلك العقيدة المسيحية ، ولكن المناهج والمحاورات الفلسفية كانت شيئا فائق القيمة ، خاصة ذلك الجدل اللاهوتي الذي شهنته الفترة المبكرة حتى أيام يوحنا الدمشقي . وهكذا حفظت البداىء والمؤلفات الأساسية لتنتقل الى الغرب . وكان التأكيد على احياء العلم في القسطنطينية منذ منتصف القرن التاسع والقرون التالية انسانيا وأدبيا أكثر منه فلسفيا ، حتى منتصف القرن الحادى عشر عندما قفز أرسطو وأفلاطون ، وبصفة خاصة الأفلاطونيون المحدثون الى المقدمة ، ليدرسوا بنهم وعزيمة على يد ميخائيل بسللوس ، الذي شغل لفترة معينة رئاسة كلية الفلسفة في الجامعة بعد أن أعيد تنظيمها . ورغم أن صديقه القديم يوحنا أكسيفيلينوس John Xiphilinus قد قال في نعمة تحمل طابع التوبيخ أنه متعلق بأفلاطونه ذاك الى حد كبير جدا ، إلا أن بسللوس كان على استعداد للاعتراف بأن الفلسفة ، التاج الذي يزين مفرق الدراسات العلمانية ، لا يمكن أن تكون شيئا ذا قيمة في حد ذاتها ، ولكنها مجرد اعداد لللاهوت . وقد اى هذا الاتجاه في بعض (م ٢٢ - العالم البيزنطى)



الاحيان الى احباط التفكير الفلسفى . وسواء تمخض هذا الاتجاه عن جديد ام لا ، فانه ما يزال من الصعب الحديث فى هذا الموضوع . وقد حفظ لنا الزمان العديد من الشروح والتعليقات على أعمال افلاطون وأرسطو أو بروكلوس Proclus فى أواخر القرن الخامس . ومن الممكن أن تبرهن هذه الأسفار الضخمة المتراكمة من القرون الوسطى على مدى قيمتها فى تتبع تطور الفكر الفلسفى فى الغرب . فمن المعروف أن توماس الأكوينى (٦) Thomas Aquinas قد اعتمد على شروح يوحنا غيلوبونوس John Philoponus لأعمال أرسطو ، ولكن الكثير لم يعرف طريقه الى انطباعة بعد ، وما تزال الفلسفة والعلوم البيزنطية تحتاج الى المزيد من البحث .

وكان الاهتمام بالأدب اليونانى القديم يعنى أن وقتا كبيرا كان مخصصا للأعمال الفيلولوجية والنصوص ، وكان معظم الجهد المبذول منصرفا الى

---

(٦) ولد فى أوائل سنة ١٢٢٥ ، فى مدينة Roccasecca بالقرب من نابولى ، وهو ينتمى لأسرة نبيلة ، والتحق فى صباه بدير جبل كاسينو البندكتى ، ثم جامعة نابولى ، ثم اتبع أسلوب الرهبنة الدومنيكانية ، واكمل تعليمه فى جامعة باريس ليحصل على اجازة اللاهوت سنة ١٢٥٦ ، وبعد ثلاث سنوات عاد الى ايطاليا واستمر يدرس فى جامعاتها حتى أدركته الوفاة سنة ١٢٧٦ . ويعتبر توماس الأكوينى أشهر آباء الفلسفة المدرسية المسيحية ، حيث جعل من الفلسفة الارسطية محور عمله ليطوعها لخدمة العقيدة المسيحية ، حتى أضحت كتاباته بعد ذلك سلاحا قويا شهرته الكنيسة فى القرون التالية ضد الخارجين عليهما ، ابان رد الفعل العنيف الذى تعرضت له الكنيسة فى عصر النهضة . عن القديس توماس الأكوينى وفلسفته ومؤلفاته .

Gordon Leff, Medieval Thought (1958) أنظر

Maurice de Wulf, Philosophy and Civilisation in the middle Ages (1953). و

H. Slessor, The middle Ages in the West. pp. 212-239 وكذلك  
Knowles, op. cit. pp. 255-268

وراجع كذلك . يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصور الوسطى ، ص ١٤٤ - ١٧٧ ، دكتور عبيد الرحمن بدوى : فلسفة العصور الوسطى . ص ١٢١ - ١٦١ ، عبده فراج : معالم الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى ، ص ٢١١ - ٢٢٧ ، دكتور حسن هتقى حسنين : نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط ، ص ٢٠٩ - ٢٨٢ . المترجم .

أعمال الاسناد ، والمعاجم ، والأجروميات ، ودوائر المعارف ، والشروح والتفسير ، ودواوين الشعر ، التي تحوى كنوز المعرفة ، والأعمال التاريخية والأدبية واللغوية . وما تزال شروح يوستاتيوس السائونيكي Eustathius of Thessalonica التي وضعها لهوميروس فى القرن الثانى عشر تستخدم حتى اليوم من جانب المختصين بالدراسات الكلاسيكية . وتضم « مكتبة » فوطيوس ، الى جانب تعليقاته الذكية كلها بلا استثناء ، اقتباسات من كتب كان قد قراها ، ولم يعد لها وجود . ولم تكن مثل هذه الكتابات ابداعا ادبيا ، ولكنها كانت الوسائل الجوهرية والقطوف الدينية لشعب متعلم .

ولقد ورثت بيزنطة ايضا عن اسلافها اهتماما كاملا بالبيان الذى صبح كل نظمها التعليمية وأعمالها الأدبية . ولا يخفى على احد ان البيان هو الذى يهىء الكاتب أو الخطيب لتقديم عمله فى صورة لائقة ومتناغمة ، ولاشك ان جذوره ، الاولى قد نبتت فى السفسة الوثنية ابان الحقبة الهلنستية . وكان هناك تيار متدفق من الأدب ، والكتابات القرىظية ، والنصائح التهذيبية (منها مثلا انموذج الأمراء) والكتابات العرضية والخطب باختلاف موضوعاتها . ولم يجد الكتاب الذين يفتقدون أصول البيان ، الا الاستياء ومن ثم جاءت اول ترجمة لحياة القديس يوحانىكيوس St Joannicius فى القرن التاسع ، مخيبة لأمال المعاصرين لأنها كتبت بأسلوب ركيك يفتقد الاتسجام .

والحقيقة التى لامراء فيها أن هناك فارقا كبيرا بين اللغة المكتوبة ولغة الحديث ، فقد شهدت القرون الاولى للميلاد اندماج اللهجات العديدة التى كانت سائدة فى العالم القديم فى لغة مشتركة Koine وهى التى كانت تستخدم فى العالم الهلنستى ، وهى تتميز بخصائصها الأتيكية ، وقد تعرضت لكثير من التغيير بما ادخل عليها ابان العصور الوسطى ، لتشكل من بعد اصول اللغة اليونانية الحديثة . ولم تكن الاوساط التعليمية البيزنطية تستخدم هذه اللغة النحىة ، رغم كونها وطنية المولد . وعادت هذه الاوساط القهقرى الى اتيكا محاولة الكتابة بلغة ثوكيديدس Thucydides أو بعض الكتاب الآخرين فى العصر الكلاسيكى . ولاريب ان هذه الناحية كانت تمثل جزءا من كبرياتهم واعتزازهم بانفسهم ، باعتبارهم حماة بل وأصحاب

الثقافة اليونانية القديمة ، وان كان ذلك قد أدى إلى نتائج سيئة ، فغالبا ما كانت كتاباتهم تمتلئ بالتعبيرات والمصطلحات القديمة ، هذا بالإضافة إلى الأخطاء النحوية التي يقعون فيها عندما يخلطون دون عمد بين الاستعمالين القديم و « الجديد » للغة . أما الكنيسة فلم تستخدم هذه اللغة الدارجة ، وان كان معظم أدبها قد كتب بأسلوب مبسط من هذه اللغة المشتركة Kione كشيء متميز عن الاتيكية القديمة ، واستطاعت أن تطور لنفسها نسقا معيناً ، وخاصة في شعرها القداسي وأعمالها الرمزية . والحقيقة أنها لجأت في بعض الأحيان إلى استعمال الشعر الكمي الإيقاعي الجديد . هذا على حين مالت أنواع الأدب الأخرى تلقائية إلى اللغة وطنية المولد ، حتى في فترة مبكرة ، كما يتضح في المزمّنات ، بينما كانت حياة القديسين تكتب أحيانا بلغة أكثر بساطة ، وخاصة في النسخ الأصلية قبل أن تصاغ ثانية في صورة أدبية واضحة ، وربما أيضا دبجت بعبارات أو فقرات مقتبسة من هوميروس أو بعض الكتاب العظام الآخرين . هذه الأعمال في الحقيقة تقف على قدم المساواة مع قصصنا خاصة تلك التي تعود إلى بواكير العصور الوسطى ، كما أنها أمدتنا بمجموعة كبيرة من الروايات التهذيبية ، وقد اختلطت مع التفاصيل البسيطة والليالي العربية الأسطورية ، وبنوع خاص في الحكايات التي دارت حول الرجال الأطهار في أقاصي المشرق الذين ارتادوا أقطارا قصية حتى بلغوا شواطئ الكنج . ومنذ القرن الثاني عشر أخذت لغة الحديث تستخدم في القصائد العلمية والشعر الرومانسي . أما في الولايات والجزر ، وبعيدا عن الدوائر الإمبراطورية ، وجسد الخيال اليوناني وحب القصة المروية متنفسا له في المواويل الشعبية والشعر العامي ، وهو ما أبقى عليه الزمان ، ومع أن العلمية لم تستطع أن تزحزح الفصحى عن مكانها أبدا في العصور الوسطى ، فقد كانت لغة الحياة اليومية لليونان ، واستطاعت بعد مقاومة عنيدة أن تصبح في النهاية لغة اليونان الحديثة .

وقد تعرض الأدب البيزنطي للنقد العنيف ، على أساس أنه يشتمل على أعمال بلاغية لفظية ، كتبت في صورة تحاكي دون إبداع اليونانية الاتيكية . حقيقة أن معظم الأدب البيزنطي قد وقف عند المستوى العادي وجاء مخيبا للأمال ، سواء ما كان منه بالفصحى أو العامية ، ولكن ذلك ليس شيئا خاصا



بيزنطة • فلاشك أن النقاد وهم يكونون آراءهم هذه ، لم تذهب من ذاكرتهم تلك الفترة الزاهرة للأدب الكلاسيكى ، ومن ثم كانوا يتصورون أن تخرج لهم بيزنطة عظماء ، على غرار سوفوكليس Sophocles وأرسطوفانيس Aristophanes ولكن لم يبد أن بيزنطة اظهرت اهتماما خاصا بالدراما الواقعية الدنيوية أو الدينية ، فقد اتجهت إحاسيسها فى هذا الناحية الى التمثيل التقليدى الصامت والملاهى • أما انتاجها الأدبى فيتمثل فى نواح أخرى • فى ميدان الشعر ، وبغض النظر عن القصائد العامية ، نجد عملا أو اثنين من الأعمال التصويرية الطويلة ، كقصيدة المدح التى نظمها جورج البيسىدى George of Pisidia فى هرقل فى القرن السابع ، كما نستطيع أن نجد فى كل جيل تقريبا قصائد قصيرة من الوزن القديم ، تتناول الرثاء ، والنواحي التصويرية ، والشعر الغنائى ، وقصائد الحب • وقد انسجت هذه « المقاطع الشعرية (٧) » بالذكاء والملاحة فى صورها ومحتواها ، وهى غالبا ما تشبه تماما اشعار القرن السابع عشر • وربما عرفت قصائد الفروسية طريقها الى دواوين الشعر اليونانى ، ولعل أبرزها ملحمة ديجنيس اكريتاس Digenis Akritas الشهيرة ، والتى تعبر عن الحياة العنيفة والاستقلال التام والشاق لسيادة البر ، وقد ولدت ونمت فى بوتقة الثقافة « الممتزجة » عند الحدود الشرقية ، والهبث خيال الأجيال القالية ، ودفعت عجلة المواويل الشعبية عند الصقالبة واليونان على السواء ، حتى اذا كانت العصور الوسطى المتأخرة ، ظهرت القصائد الرومانسية الطويلة فى اللغة الوطنية متأثرة بالفروسية الافرنجية والتواتر الملحمى اليونانى (٨) •

ولامراء فى أن بيزنطة قد برعت حقيقة فى ميدانين مختلفين تماما • التاريخ ، والكتابات التى تتصل بالعقيد المسيحية بصفة خاصة • فالبيزنطيون كانوا بصفة دائمة على دراية تامة بماضيهم ، واصطبغ تفكيرهم بهذه المعرفة عن الاستمرار التاريخى • وقد شغف مؤرخو العصور

---

(٧) هكذا كانت تسمى فى العادة وان كانت الكلمة خادعة ، وقد استخدمت لتشمل مجالات واسعة من الشعر  
(٨) الشعر البيزنطى شأن الهلنستى ، يحتاج الى أمثال F.J.E. Rany  
او Helen Waddell



الوسطى اليونان بمنهج واسلوب أسلافهم وعلى رأسهم هرودوت Herodotus وثوكيديدس Thucydides ، وتأثروا فى الفترة المتأخرة بأسلافهم المباشرين مثل مؤرخ القرن السادس اجاثياس Agathias ولم يكن التاريخ الذى يعتبر « اعظم ابداع للاغريق » (٩) مجرد خبر يروى ، ولكنه ، كما كتب نيقفور جريجور ، « يهتم بالماضى والحاضر . وفعال بنى البشر ، ووجهات نظر المثقفين تجاه طبائع الأشياء ، وخطا وصواب هذه الآراء (١٠) . ولقد تعددت كيفية تدوين التاريخ البيزنطى ، حقيقة لم يستطع كتابها ان يحاكوا تماما مؤلفات ثوكيديدس أو اكسنوفون Xenophon ، ولكنهم فى الوقت ذاته قدموا عددا من الأعمال يرقى الى الدرجة الاولى . فهناك مؤلفون مثل ليو الشماس (١١) Leo the Deacen وأنا كومننا فى الفترة الوسيطة ، ونيقفور جريجور ويوحنا كانتا كوزنوس فى القرن الرابع عشر ، قدموا تواريخ ذاتية دقيقة واضحة ، لاتخرج فقط الا عن مجتمع بلغ مرتبة عالية من الثقافة . والى جانب هذا التواريخ بمعناها الحقيقى ، هناك المزمّنات التى كتبت من أجل المحافظ الشعبية . وتسجل هذه المزمّنات أهم الأحداث فى تتابع زمنى ، مع اضافات كثيرة عن أهوال تثير العواطف ، وموضوعات أخرى

Nicetas Hhoniates, History (Bonn 1835), p. 768. (٩)

Nicephorus Gregoras, Roman History, I, I (Vol. I, (١٠)  
p. 4, Bonn 1823). cf. T.A. Hart, Nicephorus Gregoras : historian  
of the hesychast controversy, Journ. Eccles. History 2 (1951).

(١١) من أشهر المؤرخين الذين حفلت بهم الأسرة المقدونية ، كان معاصرا لباسل الثانى ، وضع تاريخا تناول فيه الأحداث بين عامى ٩٥٩ - ٩٧٥ ، ويعتبر شاهد عيان للحرب البلغارية ، بالاضافة الى بعض المعلومات عن هجمات العرب والروس على الامبراطورية . وتعود أهمية «التاريخ» الذى وضعه ليو الشماس الى أنه يعد المصدر اليونانى الوحيد المعاصر للفترة الزاهرة على عهدى نيقفور فوقاس ويوحنا تزيمنسكس ، وقد بدأ ميخائيل بسللوس تاريخه من حيث انتهى ليو الشماس وذكر ذلك فى أول سطور تاريخه ، .

Psellus, Chronographia, vol. I, I  
Baynes, & Moss, op. cit. pp. 231-232  
Vasiliev, op. cit. I, p 364

أنظر  
وأيضا  
وكذلك

وراجع دكتور أسد رستم : الروم ، الجزء الثانى ، ص ١٠٠ .  
الترجم .

حول أحداث محببة الى الجموع • واذا كانت هذه المزمّنات تعتبر انعكاسا للمزاج والعقلية المعاصرة الا انها ليست عملا ابداعيا كالتواريخ •

وكان الولاء الكامل للايمان المسيحى بمثابة الالهام للفرع الآخر من الأدب الذى ارتقى فيه البيزنطيون الدرجات العليا • ويقسم عملهم فى هذا الميدان الى مجالين مختلفين ، الكتابات اللاهوتية ، والكتابات القداسية ، وفى هذا المجال الأخير نجد اهتماما جديدا ، يظهر أحيانا عند محاولة تطويع الصيغ الأدبية اليونانية للمتطلبات الخاصة للكنيسة •

ولا شك ان أعظم عمل لاهوتى على الإطلاق هو ذلك الذى خلفه آباء الكنيسة الأول • وقد وجد هؤلاء الرواد عوناً هائلاً من المرونة التى تتسم بها اللغة اليونانية ، ومن ذلك الماضى العريق فى الفكر الفلسفى ، فاستخدموا ما يروقه عند أفلاطون وأرسطو والرواقيين والأفلاطونيين الحديثين ، فى محاولة لتصوير قدر الانسان فى الزمان والمكان بالنسبة للتجسد ، ولتحديد الطبيعة الالهية • واعتمادا على الأسس التى وضعها آباء الكنيسة الأول ، بنى اللاهوتيون البيزنطيون فيما بعد بشكل مستمر ، ما أصبح صرحاً شامخاً ، وإن كان يوحنا الدمشقى يستطيع ان يقف على قدم سواء مع اثنا سيوس وجريجورى أسقف نيسا ، اذا اتخذنا سلاسة الأسلوب والعمق • معياراً •

وفى عصر الآباء الأول ، قرب نهاية القرن الخامس ، كتبت المجموعة الديونيسية Corpus Dionysiacum على يد ما يسمى زيفاً ديونيسيوس الأريوباغى (١٢) Pseudo — Dionysius the Areopagite • وهى وإن كانت

---

(١٢) مؤلف مجهول عاش فى القرن السادس ، وخبغ على نفسه اسم ديونيسيوس الأريوباغى تلميذ القديس بولس وأول أساقفة أثينا • وقد ولد فى سوريا الشمالية • واتخذ الأفلاطونية الحديثة منهاجاً لفكره ، فلما تحول الى المسيحية حاول ان يمزج بين معتقده الفلسفى والعقيدة المسيحية وقد تبعه نفر كثير ، وظلت آراؤه مثارة للجدل والنقاش ما يقرب من عشرة قرون • انظر دكتور أسد رستم : كنيسة انطاكية ، الجزء الأول ص ٤١٧ —

٤١٨ •

تدين شأن الآباء لمصادر غير مسيحية ، إلا أنها مدينة بالشئ الكثير  
للافلاطونيين المحدثين وبصفة خاصة أفلوطين Plotinus ومع ذلك فقد لقيت  
القبول باعتبارها عملاً لديونيسيوس الأريوباغي ، التابع الأمين للقديس  
بولس . وقد قام ماكسيموس المترف (١٣) Maximus the Confessor  
فى القرن السابع بوضع تعليق وتفسير شامل لها ، بحيث أصبح لها تأثيرها  
الهام على الروحية الأرثوذكسية المتأخرة ، رغم أنها ليست الأثر الوحيد  
على الإطلاق ، وكان القلق يساور الرهبان البيزنطيين دائماً من أجل الاهتمام  
الى تفسيرات وشروح لذلك التيه الذى اتسمت به العقيدة المسيحية ،  
تجاه الالهية . ويعتبر سيمون اللاهوتى الجديد ، فى أوائل القرن الحادى  
عشر ، واحداً من أعظم الشخصيات الحيوية ، التى تركت بصماتها واضحة  
على معاصريه من العلمانيين ورجال الدين على السواء ، ويكشف عن ذلك  
بوضوح كتاباته . ولقد كانوا كذلك ذوى اهتمامات لغوية ، فقد استخدم  
سيمون فى مؤلفه « حب الترانيم الالهية » Loves of the Divine Hymns  
حين يصف تجاربه الروحية الصادقة ويستخدم أسلوب الخمسة عشر مقطعاً  
الخاص بالشعر السياسى الحديث ، ولم يلجأ الى استخدام البحر الكمى

Bury, op. cit. II, pp. 381-3.

Chadwick, op. cit. pp. 207-210.

Ware, op. cit. pp. 27 sqq. المترجم .

(١٣) حرص الامبراطور هرقل ، بعد استعادة الاراضى التى استولى  
عليها الفرس ، على أن يحقق وحدة العقيدة داخل الامبراطورية ، فأنهى  
بتأييد البطريرك سرجيوس الى اعلان مرسوم ايمان جديد يتضمن القول  
بالمونوثلية Monotheletism (المشيئة الواحدة أو الارادة الواحدة) فى  
المسيح مع وجود الطبيعتين . غير أن هذا المعتقد الجديد لقي المعارضة  
الشديدة خاصة فى مصر والشام . وحتى فى القسطنطينية على يد ماكسيموس  
المترف ، وكان يعمل أمين سر لهرقل ، ثم ترك عمله لذلك والتحق بدير  
خريسوبوليس (اسكى دار) ، وأصبح رئيساً له . وهو يعد من أشهر رجال  
اللاهوت فى القرن السابع ، حيث كتب الكثير للرد على مذهب « المشيئة  
الواحدة » . وقد تعرض للاضطهاد فى عهد قنسطانز الثانى فقطع لسانه  
ويده اليمنى ونفى الى لازقة فى القوقاز حيث مات هناك عام ٦٦٢ .  
المترجم .



- القديم • وقد بلغت بعض كتاباته درجة رفيعة جدا في نصها وموضوعها •
- وتكشف ترانيمه وعظاته عن الطبيعة الخلافة في الفكر الدينى البيزنطى •
- والحقيقة ان كتابات على هذا النحو تبين في وضوح مدى الاحساس الوجدانى الفياض ، الذى كان يغبر عنه أيضا أحيان أخرى فى أسلوب علمانى •

هذه الكيفية بعينها نجدها فى الطقوس الدينية ، سواء كان النص يستخدم فى صلاة عامة أو فى أجزاء متفرقة من القداس • وفى سبيل التركيز على أحكام العبادة ، فإن الدين الأدبى أحيانا ما تضرب صفحا عن ذكره ، ذلك ان أجزاء كثيرة من القداس كتبت قبل العصر الوسيط مثل المزامير ويمكن القول بصفة خاصة ، ان ذلك التنوع الجمالى للترانيم التى كان يجرى اضافتها بصورة مستمرة ، على الأقل حتى نهاية القرن الحادى عشر ، يعتبر شاهد عدل على مدى ثراء اللغة اليونانية • وكشأن بعض الكتابات النسكية ، فإن النظم القداسى لم تستخدم فى كتابته البحور الكمية الكلاسيكية الشائعة ، ولكن الأوزان الحركية والايقاعية ، وتأرجحت هذه الاشعار ما بين الشعر البسيط أو الترنيم القصيرة ، الى العظات الترنيمية الروائية الطويلة *Kontakia* التى استقيت من المصادر السيريانية وقدمها رومانوس الملاحن فى القرن السادس ، حتى وصلت فى النهاية الى مرتبة سامية ضمن الترانيم التسع • وبغض النظر عن تلك الترانيم التى ضمتها كتب القداسات ، وما تزال تستخدم حتى اليوم (غالبا فى شكل مقتضب) ، وهناك مجموعات استخدمت ككتب تكمينية غير رسمية للترانيم فى الأوساط الديرانية • وهذه ترنيمة الميلاد التى كتبها رومانوس « اليوم ( تلد ) العذراء » ، *Today the Virgin* ، والتى تقول الأسطورة ان أم المسيح قد أوحت بها اليه على منبر اياصوفيا فى ليلة أحد اعياد الميلاد • أو الترنيم *Akathistos* لتكريم العذراء ، حامية القسطنطينية التى من المحتمل ان يكون رومانوس أيضا هو الذى كتبها ، تكشف عن ذلك التوتر الدرامى للرواية ، والسمة الإنشادية الوجدانية للمديح ، مما وضع الترنيم الروائية الطويلة *Kontakia* فى القام الأول بين شعر العصور الوسطى •



وهكذا كان لبيزنطة روائعها الأدبية ، التي لم تكن تقل عن قريناتها في الغرب . وعلى شاكله الاقطار الغربية ، فقد كان لها أيضا لغة للتعليم ولغة للعامة . وقد وجه هذا الازدواج اللغوي في العصور الوسطى بموجة من النقد المفتعل ، على أساس أنه كان عائقا في سبيل التطور الأدبي الحديث ، ولكن الحقيقة ، أن هذا ربما يعود بصورة مباشرة الى تلك الظروف السياسية السيئة التي مر بها اليونان بعد عام ١٤٥٢ ، وزاد الطين بلة تلك المقاومة الحديثة المشنومة ، التي قامت في وجه استخدام اللغة بكل تضميناتها السياسية . ولكن عددا قليلا من النقاد تصدى لهذه المقاومة بشدة محاجين بأن بيده (١٤) Bede لم يكتب باللغة الأنجلوسكونية ، ولا كتب الاكوينى Aquinas بالاطالية ، كما أنه من غير المقبول أن نبدي ذلك الاستياء لأن يوحنا الدمشقي أو يوحنا كانتا كوزينوس لم يكتبوا بالعامية . ولا شك أن مرتبة الفخار التي خلعتها بيزنطة على التراث الكلاسيكي ، في التربية والتعليم على السواء ، تأكدت بصورة واضحة من استخدامهم

(١٤) يعد آخر الدارسين والمؤرخين والشعراء الذين ينتمون الى العصر القديم . وإذا كانت قائمة هؤلاء تفتح بالفيلسوف الروماني بونثيوس ، وتتضمن ازيدور الأشبيلي وجريجورى التورى ، فانها تنتهى بالانجلو سكسونى بيده ، أمضى معظم حياته في صومعته داخل دير جارو Jarrow البندكتى ، وكان شعاره كما حدث عن نفسه « التعلم أو التعليم أو الكتابة » ، ولم يحد عن ذلك مطلقا خلال عمره الطويل (٦٧٢ - ٧٣٥) . وقد ذاعت شهرته بفضل تعليقاته الرائعة التي كتبها على الكتاب المقدس ، وحاسته التاريخية الفريدة ومنهاجه العلمى الذى اتبعه في الكتاب الذى وضعه عن التاريخ الكنسى لانجلترا Ecclesiastical History of England والذى اعتمد فيه اعتمادا كاملا على مصادر تاريخية قديمة فقدت فيما بعد ، أو على المشاهدة والتمحيص كما يتمثل في الفترة التي تحدث فيها عن وصول القديس أوغسطين الى انجلترا حتى سنة ٧٣١ .

W.P.Ker, The Dark Ages, pp. 95-98.

أنظر

Laisaner, Thought and Letters in Western Europe.

وكذلك

pp. 156-166

C.M.H.I, pp 302 sqq, 11, p 574.

وأيضا

Thompson & Johnson, op. cit. pp. 219, 226-7.

و

Stephenson, op. cit. pp. 143-144.

و

وراجع دكتور نظير سعداوى : تاريخ انجلترا وحضارتها في العصور

القديمة والوسطى ص ٤٣ . المترجم .

للمكتبات في كل أنحاء الامبراطورية ، في الاكاديميات والمدارس ، في الكنائس والأديرة وبيوت الطبقة الراقية . وهكذا فان تراث العالم القديم بفروعه المختلفة في المعرفة النظرية والتطبيقية ، كان متاحا ويمثل أهمية خاصة للشرق الروماني ، وإلى حد ما جيرانه . ولم يكن لدى المسلمين أي مانع يحول دون الاستفادة من هذا التراث وان كانوا قد اعتمدوا في ذلك على مصادر غير صادقة . وكان على الصقالبة حتما مقضيا ان يتصلوا اتصالا وثيقا بالحضارة اليونانية . أما اللاتين ، فانهم تمكنوا من خلال ترجمات الرواد الأوائل ، ثم عن طريق صقلية وإيطاليا وإسبانيا بعد ذلك ، وأخيرا منطقة بحر إيجه نفسها ، من تكوين معارفهم عن التراث اليوناني حتى اذا ما وقعت بيزنطة فيما بعد في أيدي المسلمين ، قام الغرب يؤدي دورها .

## مراجع خاصة بالأدب

- Anna Comnena, *Alexiad*, trans. E. A. S. Dawes (London repr. 1967).
- Brehier (L.), *Le Monde Byzantin*, vol. III, *La Civilisation*.
- *Cambridge Medieval History* IV, pt. 11, ch. 27 (F. Dolger on Byzantine Literature).
- Dawkins (R. M.), *The Greek Language in the Byzantine Period*, (in *Byzantium*, ed. by N.H. Baynes and H. St. L. B. Moss).
- Digenes Akrites, trans. J. Mavrogordato (O. U. P. 1956).
- Michael Psellus, *Chronographia*, trans. E.R.A. Sewter (London 1955 and Penguin 1966 under the title : *Fourteen Byzantine Rulers*).
- Wellesz (E.), *Le Monde Byzantin*, vol. III, *La Civilisation*.

# المفصل العاشر

## الفن البيزنطي





## الفصل العاشر

### الفن البيزنطى

تمتد جذور الفن البيزنطى ، شأن التاريخ البيزنطى أيضا ، الى العالم اليونانى - الرومانى ، المتمركز فى حوض البحر المتوسط الشرقى . وقد حددت أهم سمات هذا الفن بعاملين رئيسيين ، المسيحية والتقاليد الامبراطورية ، وان كانت تفاصيله الدقيقة وخصائصه المميزة لأساليبه ، تعود فى الغالب الى ما وراء الأفكار والمناهج بين بيزنطة وجيرانها الشرقيين القريبين ، وتمثل ذلك بصورة واضحة فى مجال الفن عنه فى ميدانى الأدب أو الادارة .

ولقد عانى الفن البيزنطى بصفة خاصة آنفا من سوء التقدير الذى لقيه تاريخ بيزنطة وحضارتها . ومازال هناك الى اليوم عائقان يحولان دون فهم ما أصبح مسلما به على واحد من أعظم منجزات بيزنطة فى العصور الوسطى . وتقدير قيمة الفن البيزنطى ليس مجرد مسألة شخصية فحسب ، بل انه يتضمن معرفة بالتقاليد المختلفة والمصطلحات الفنية ، والاطار التاريخى الذى تطور فيه هذا الفن . وفوق هذا وذاك ، فان المعرفة المصدريه بمعظم الآثار مازالت بعيدة عن متناول الكثيرين . ويستطيع القارئ المتخصص أن يحصل على كثير من التفاصيل التى لا بأس بها من قراءته لتاريخ بسللوس ، حتى من الترجمة . ولكن الصور التى تطابق الأصل لايمكنها أن تنقل بدقة كاملة توزيع الضوء على سطح فسيفسائى منح ، وقليلون هم الذين يستطيعون أن يقيموا فى ظلال كنيسة المارتورونا Martorona فى بالرمو Palermo أو كنيسة دافنى Daphni قرب اثينا ، يدرسون فسيفساءها التى تتغير من ساعة لأخرى بتغير الضوء (١) .

---

(١) من المتيسر معرفة تفاصيل كثيرة عن النواحي الفنية التى تضمنها هذا الفصل ، والنتائج التى تم استخلاصها من الكتب التى صدرت مؤخرا

وأكثر من هذا كله ، أن هذه الآثار الباقية على قلعتها وندرتها ، تكشف عن ذلك الانتاج الفنى الضخم عبر فتسرة طويلة من الزمن ، حتى على الرغم من ان الاكتشافات الاثرية المثيرة مايزال يجرى العمل فيها ، مثل الفسيفساء التى تم اكتشافها فى كنيسة اياصوفيا فى القسطنطينية ، أو الرسوم الحائطية الموجودة فى كنيسة صغيرة على التلال المقدونية (٢) .

ولاشك أن التباين الواضح بين فن المعمار فى البارتنون Parthenon على الاكروبول Acropolis ادينى ، وكاتدرائية اياصوفيا فى القسطنطينية ، أو بين الصورة القديمة المنحوتة لأبوللو ، وفسيفساء المسيح ضابط الكل فى قبة احدى الكنائس البيزنطية ، كذلك التى توجد فى دافنى Daphni ، يعكس اختلاف الاسلوب والاقتضاء عند كل من العالم القديم والامبراطورية البيزنطية . وقد وقع هذا التحول خلال الزمن الذى شغلته الامبراطورية الرومانية المتأخرة . وقبل ان يغدو قسطنطين العظيم ، فى وقت ما ، مسيحيا ، كان هناك عاملان على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للفن البيزنطى ، قد اتضحا بالفعل ؛ فالصور الفنية كانت تستخدم على نطاق واسع لتبجيل الامبراطور . ويتأرجح هذا ما بين روعة الرواية المنسابة على عمود (٣)

حول هذا الموضوع ، وهى موجودة فى قائمة المراجع وتعطى صورة لكل شئ تقريبا جاء ذكره فى هذا الفصل .

(٢) أدبى بهذه المعلومة لـ Dr Kosic of Skopje

(٣) اقيم عمود تراجان بين مكتبتى الدراسات اليونانية واللاتينية ، فى الطرف الشمالى من السوق فى روما ، ويرتكز على قاعدة ضخمة زينت ثلاثة من اوجها بتماثيل منحوتة ، أما الوجه الرابع فكان يوصل الى سلم مكون من ١٨٥ درجة رخامية . على حين نجد طول قطر جذع العمود من أسفل اثنتى عشرة قدما وارتفاعه سبعا وتسعين ، ويقوم فى أعلاه تماثل لتراجان يمسك بيده كرة أرضية ، وقد زينت الكتل قبل تثبيتها فى مواضعها بنقوش بارزة تمثل حروب تراجان فى داكيا Dacia . وتعد هذه النقوش أروع ما وصلت اليه الواقعية وفن النحت التاريخى فى العالم القديم فلم يهدف من ورائها الى الجمال أو انماط فن النحت اليونانى ، بل الى ان ينقل للرائى صورة واضحة للأفراد الأحياء وسط مناظر الحرب وضوضائها . بحيث يمكن ان تتبع فى الألفى صورة المنقوشة على المائة والأربع والعشرين

تراجان ، الذى مايزال قائما فى روما ، الى الأساطير والوجوه المنقوشة على العملة والمداليات التى صممت لتصل الى أكبر عدد من المواطنين . ولما لم يعد الناس يبتهجون لاقتدارهم وابتداعهم ، بل يتحركون اما بدافع التشاؤم المميت أحيانا ، أو تحت تأثير الحب العميق للوطن من اجل حياة متجددة خارقة للطبيعة أحياء أخرى ، سواء تحقق ذلك بأساليب وثنية أو مسيحية ، فانهم كانوا على استعداد لأن يروا فى الفن وسيطا ، لا بد أن تتمثل فيه القيم الأساسية لعالم خيالى رائع .

استمر الاستخدام اليونانى - الرومانى للفن ، نعى الفن فى خدمة الحاكم ، سائدا خلال الفترة البيزنطية الوسيطة ، فقوس النصر الذى أقيم من اجل الامبراطور قسطنطين فى روما ، واللوحة الفسيفسائية لجوستنيان فى كنيسة سان فيتالى San Vitale فى رافنا Ravenna ، تمجد الاوتوقراطور Autocrator (الحاكم المطلق) نائب المسيح ، والعظمة الفاتكة للبانثوقراطور Pantocrator (المقتدر) ، الذى احتلت فسيفساؤه أبرز مكان فى قباب الكنائس البيزنطية ، لتذكر الناس دائما بالمكانة السامية لمثل المسيح على الأرض .

وقد ازدانت جدران القصر الامبراطورى بالفسيفساء ، التى تسجل الانتصارات الامبراطورية ( رغم اننا نتعرف عليها الآن من المصادر الأدبية فقط ) ، وشاركتها فى ذلك التحف العاجية والعملة وحتى المنسوجات .

---

لوحة ، فتوح داكيا خطوة خطوة ، كخروج الكتائب الرومانية وعبرها نهر الدانوب واقامتها للمعسكرات ، ثم المعركة مع العدو واختلاط الحراب والسهم والمناجل والحجارة ، واشعال النيران فى احصى قرى داكيا ، ومايتعرض له الأسرى من الجانبين من معاملة ، وغير ذلك مما يتصل بهذه الجوادث وتحقيق نفس التأثيرات التى تنتظرها اليوم من عرض أحد الأفلام السينمائية . ورغم أن هذا الأسلوب الفوتوغرافى فى الفن لم يكن يلقي قبولا فى البداية ، إلا أنه كان تبشيرا بظهور الأسلوب الملحمى وهو أسلوب الفن المسيحى والغربى . انظر : ول ديورنت : قصة الحضارة ، المجلد الثالث ، الجزء الثانى : ص ٢٩٨ - ٤٠٠ . ارنولد هاويز : الفن والمجتمع عبر التاريخ ، الجزء الأول ص ١٣٢ . المترجم .

(م ٢٢ - العالم البيزنطى)



واستمرت بعض الملامح والموضوعات الوثنية تتمثل في مشاهد أسطورية ترسم على القبور ، أو العلب المصنوعة من العاج ، أو حتى في الكنائس ، ومن أوضح الأمثلة على ذلك رب نهر الأردن ، الذى رافق يوحنا المعمدان John the Baptist ، كما تبرزها الصور الفسيفسائية من القرنين الخامس والسادس في الأماكن التى يتم فيها تلقى سر المعمودية في رافنا • ولاشك ان كثيرا من سمات وطرز ووسائل الفن في الامبراطورية المتأخرة ، قد جاءت بالفعل من الشرق الى العالم اليونانى - الرومانى • وهكذا فان بيزنطة ، بغض النظر عن الاتصال المباشر بجيرانها ، قد ورثت من روما فنا يحتوى على العناصر الشرقية واليونانية معا •

وكانت هناك في العالم الهلنستى ، انماط ومدارس فنية مختلفة ، كالمدرسة السكندرية بتأكيدها على الواقعية والابعاد الثلاثة ، او مدرسة اسيا الصغرى وسوريا وتركيزهما على صورة البعدين الرمزية المعلقة كما لو كانت في هيئة سرمدية Sub specie aeternitatis •

هذان النمطان من التعبير يمكن تبينهما في فسيفساء القرنين الرابع والخامس في ايطاليا • ففي كنيسة العذراء الكبرى (٤) Maria Maggiore في روما ، توجد في فناء الكنيسة فسيفساء تعود الى اواخر القرن الرابع ، وتتكون من صورة صغيرة تحكى قصصا من العهد القديم ، كقصص موسى ويوشع ، وابراهيم ويوسف • ولما كانت قد نقلت عن الصورة الموجودة في خطية الترجمة السبعينية Septuagint ( الترجمة اليونانية للعهد القديم في صورته العبرية ) ، فانها لم تهيا بالدرجة الكافية للاستخدام على الآثار كما انها جاءت صغيرة جدا حتى اصبح من الصعب رؤيتها بسهولة • ويستطيع

---

(٤) سميت بالكبرى لأنها تعد أكبر الكنائس التى شيدت من أجل العذراء ، وتعرف أيضا بالبازيليكا الليبرية Liberiana نسبة الى ماتذكره الاسطورة من ان العذراء تجلت للبابا لييريوس في الضامس من أغسطس عام ٣٥٢ ومع البطريق الرومانى يوحنا ، وأمرتهما ببناء كنيسة في الموضع الذى سوف تتساقط فيه الثلوج في اليوم التالى • غير ان الابحاث التاريخية تشير الى ان هذه الكنيسة أنشئت على يد البابا سكستوس Sixtus III الثالث حوالي عام ٤٣١ • المترجم •

المنظار المزدوج فقط أو استخدام السقالات أن يكشف عن الاستعمال الرقيق للألوان ، الذى يعتبر صالحا جدا لكتاب أكثر منه لجدران كنيسة . وقد صورت المناظر بدقة فى أسلوب طبيعي ، روعى فيه البعد والعمق ، وعلى العكس من ذلك نجد فناء كنيسة القديس أبوللينار S. Apollinare Nuovo فى رافنا والتي تعود الى القرن السادس ، قد ازدانت جوانبه بالقديسين والشهداء ، ولايجىء ذلك مقسما فى مناظر طويلة ، بل يظهر فى أقسام ذلك الموكب الطويل ، وقسمات الوجوه ، التفضيل الآسيوى المتباين للتصوير ذى البعدين والأقل طبيعية . ويمكن ملاحظة هذين الاتجاهين فى الفن البيزنطى على امتداد عمر الامبراطورية الطويل (٥) .

وبالمقارنة الى ما سبق فإن ما نعلمه قليل عن الأبنية العامة البيزنطية ، ومابقى منها ليس كثيرا ، بغض النظر عن الخزانات الجوفية ، والأطلال مثل برج سراى تفكور Tefkour Serai فى القسطنطينية (وهو الذى تختلف الآراء فى تحديد تاريخه ، ويميل جرابار Graber الى القول بأنه يعود الى الفترة الباليولوجية) ، أو القصر الامبراطورى الذى بنى فى القرن الرابع عشر على منحدرات ميسترا Mistra فى البلوبونيز . وقد كشفت أعمال التنقيب التى جرت فى القسطنطينية ، عن جزء من القصر الكبير ، يحتوى

---

(٥) لعله مما يجب تنبيه القراء اليه ، أنه ليس من السهل دائما ادراك المعنى الخفى للتصوير البيزنطى (والرومانى المتأخر) بل وحتى الأخصائيون والخبراء قد يصبحون فى حيرة من أمرهم . ومن أوضح الأمثلة على ذلك الفسيفساء الأرضية الموجودة فى إحدى كنائس نيقوبوليس Nncopolis فى بلاد اليونان ، والتي تعود الى القرن السادس ، وتصور منظرا دلويا ومشاهد من الحياة الريفية ، مثل صيد الأسماك أو الطيور أو القنص . وفى واحدة من هذه الفسيفساء توجد صورتان كبيرتان بنوع خاص لصيادين . وهناك نقش واحد يمكن للبعض أن يرى فيه خريطة للأرض والمحيط ، بينما قد يرى فيه المتخصصون تصويرا للجنة ، أما ما يظهر على أنه منظر صيد فيدتمل أنه يمثل الفردوس ، بينما يمكن تفسير الصيادين على أنهما يمثلان أخنوخ Enoch واليشع Eligah بما يرمز الى ذلك الصراع الأبدى بين الفضيلة والرديلة ، قارن E. Kitzinger, "Studies on Late Antique and Early Byzantine Floor Mosaics", Dumbarton Oaks Studies 6 (Cambridge, Mass. 1951).

على فسيفساء أرضية ، ربما يرجع تاريخه الى منتصف القرن الخامس ، مع صور طريفة عن الحياة اليومية ، منها صورة صبي يوشك أن يوقع في الفخ أحد الأرانب البرية ، الذى يقضم بغير حذر عنقودا من العنب ، أو صورة لبفل جامع ، يقذف بكل العنف الى الأرض براكبه وحزمتين من العصي .

أما الآثار التى ماتزال باقية على نطاق واسع فهى الكنائس ، التى أقيمت لتبقى ، مابقى الايمان الذى بنيت من أجله . وقد تبع الاعتراف بالمسيحية فى القرن الرابع ، وما تبعه من انتشار لها وارتقاء فى الامبراطورية ، اعادة بناء عدد كبير جدا من الكنائس والأديرة . وادى ذلك الى فرض التزامات معينة على المهندسين المعماريين والفنانين ، وبالأحرى لأن الكنيسة المسيحية لقيت عونا سخيا من الجميع على السواء ، ابتداء بالامبراطور الذى يستطيع اقامة وزخرفة كاتدرائية ، وانتهاء بذلك القروى البسيط الذى يشارك فى تأسيس دير جديد ، أو كنيسة صغيرة قريبا منه . وإلى جانب التطور الذى شهدته خدمة القديس الكنسى ، والطقوس الدينية ، سار أيضا ليس فقط النشاط المعماري ، بل انتاج المنسوجات وصناعة الميناء والتحف العاجية والمعدنية . والحقيقة أن اهتماما كبيرا قد وجه الى كل الفنون التى تستخدم اما فى تزيين الكنائس من الداخل ، أو لاضفاء الصفة انجمالية على الأدوات اللازمة لاتمام القديس ، كملابس الاكليروس الرسمية أو الاوانى المقدسة . ولكن الشيء الذى يفوق هذا كله ، هو استخدام الدخلات الحائطية لاغراض الشرح والتفسير كشيء متميز عن مجرد التزيين . ومن هذه الناحية فان فن الكنيسة الغربية فى العصور الوسطى يفاير فن كنيسة بيزنطة فى نفس الفترة ؛ احدهما قصد به اثارة مشاعر الرائيين ، والاخر جاء ليكون تفسيراً للايمان المسيحى . بل ان من الممكن أن نذهب الى أبعد من ذلك لنؤكد أن الفن البيزنطى يعد جزءا من عمل شعب الكنيسة فيما يتصل بالعبادة .

وتعتبر الفترة الممتدة من القرن الرابع الى السادس هى فترة تشكيل فن العمارة البيزنطى . فالأبنية التى كانت قائمة ، مثل البازيليكا الهلنستية ، أعدت لتلائم الاستخدام المسيحى ، فقد كانت البازيليكا المسيحية تحتوى على فناء atrium وجناح narthex ثم البلاطة المركزية ، وهى الجزء الرئيسى

فى الكنيسة الذى تدفنه الاعمدة بحيث تصنع ممرين جانبيين ، وينتهى عند الجهة الشرقية بحدنية توضع حولها مقاعد مخصصة لرجال الاكليروس ، وامامها يوجد المذبح الذى يقام فوق ماخلفه الشهداء . ويقوم فى البلاطة المركزية منبر للوعظ يرتقيه الكامن بصعود عدة درجات ، اما السقف فكان مسطحا . وتعتبر كنيسة العذراء الكبرى S. Maria Maggiore نموذجا لهذا النوع من الكنائس . او بقايا كنيسة العذراء القديمة S. Maria Antiqua او كنيسة سان كلمنت (١) San Clemente العليا ، التى تحمل بعض سمات الكنيسة الاولى التى بنيت مكانها ، اشبه شئ بخيمة العرش . ونجد هذا الطراز من الكنائس المسيحية الاولى موجودا ايضا فى بلاد اليونان (ممثلا فى كنيسة القديس ديمتريوس St. Demetrius فى سالونيك ، وقد اعيد بناؤها بعد ان تناولتها يد التدمير فى الحربين العالميتين) ، وكذلك فى منطقة البلقان والمناطق الساحلية لآسيا الصغرى . وقد شيدت بعض الكنائس الاولى على مسقط دائرى ، وحولت فى بعض الاحيان الى اضرحة ومزارات ، مثل كنيسة سانتا قسطانزا S. Costanza فى روما . والتى تعود الى القرن الرابع ، والتى ربما اعدت كى تصلح لاجراء طقس العماد المسيحى .

اما الفن المعمارى المميز لبيزنطة بصفة خاصة ، فهو بناء القباب والعقود على مسقط مربع . وكانت القباب شائعة فى فارس وارض الجزيرة ، حيث تندر الاخشاب ، ويصبح الحجر هو الوسيلة الطبيعية فى البناء . وقد اقيمت على مساحة مربعة بواسطة حنيات معقودة او حنيات ركنية . واستخدم البيزنطيون هذا النمط من الابنية ، ولكنهم اضافوا اليها ابتداعهم الخاص باقامة قبة فوق هذا المربع . وهى عبارة عن نتوء او سطح منحرف فوق الزوايا الاربع للمربع . وقد خلعت هذه القباب والعقود على البناء هيئة صليب

---

(٦) تحمل هذه الكنيسة اسم البابا كلمنت الذى يأتى ترتيبه الثالث على كرسي القديس بطرس فى روما . وهى تعد من اروع الكنائس الرومانية فى العصر الوسيط . بنيت فى القرن الخامس ، ثم دمرها النورمان عندما اقتحموا روما عام ١٠٨٤ بناء على دعوة البابا جريجورى السابع ابان نزاعه مع الامبراطور هنرى الرابع ، ثم اعيد بناؤها بعد ذلك سنة ١١٠٨ على عهد البابا باسكال الثانى على نفس الالفة التى كان يقوم عليها البناء القديم .

المترجم .



يوناني ، (أعنى صليبا ذا اذرع متساوية) ، من الخارج ، على الرغم من أن المسقط الأفقى كان مريعا . ومن ثم فقد أطلق على هذا الطراز من البناء اسم « القبة المصلية » وعند نهاية الطرف الشرقى ، تقوم الحنية الرئيسية ، بحيث يتأخمها من كل جانب اثنان أصغر منها ، ويطلق على الحجرتين اللتين شكلتا نتيجة هذا البناء ، غرفتا الأواني المقدسة وملابس الكهنة (Sacristy) diaconicon والمائدة المقدسة Prothesis (وهى التى تستخدم فى الجزء الأول من الصلاة الجماعية ) . أما فى نهاية الناحية الغربية فيوجد عادة جناح ولكن دون فناء . وقد خلت حوائط الكنائس البيزنطية من الخارج ، من التزيين الفياض بالصور المنحوتة والزخارف التى وجدت فى كنائس الغرب . وكانت الكنائس البيزنطية تبنى فى الغالب من الآجر الكالح دون طلاء ، ونوافذها صغيرة . وفى بعض الأحيان كان الآجر المصقول يستخدم فى الزخرفة ، وربما نجد مثالا لذلك فى الكنائس التى ماتزال باقية فى جنوب إيطاليا أو شمالى بلاد اليونان . وان كنا نجد أحيانا أن هذه الحوائط قد ازدانت من الخارج بالفريسك ، كجenny الكنائس الموجودة فى كاستوريا Castoria أو القرية منها . ولكن زخرفة هذا النوع من الكنائس ، كانت تستبقى كالعادة للداخل ، حيث يكون لها أهمية خاصة .

وكان النحت نادرا ، وقد أصبح واضحا بعد الجدل الذى دار من حول الأيقونات ، أنه لم يعد يستخدم للأعمال التذكارية . ويعتبر التقليد الشرقى الذى جرى باستخدام النحت فى بروز بسيط ، موروثة عن الامبراطورية الرومانية ، حيث كان يستخدم لزمن بعيد فى أغراض مختلفة ، مثل التصوير الروائى على الأعمدة وأقواس النصر . وتظهر المنحوتات والملاح البارزة ، التى تجمع بين العناصر الهلنستية والشرقية ، بشكل واضح فى كل من الفنين ، العلمانى والمسيحى ، فى الامبراطورية البيزنطية . وقد وجدت على التوابيت Sarcophagi والعاجيات . وقد استخدم النحت بكثرة لتزيين الكنائس من الداخل . على الأعمدة أو المنبر . أو جوانب المحراب أو جدار الرواق . وتوضح تيجان الأعمدة كيف أن هذا النوع من الزخرفة قد أخذ يتجه الى الشكل المسطح بدلا من البارز ، وخير الأمثلة على ذلك أن سمات أوراق الأقتنا Acanthus (شركة اليهود) لم تعد بارزة ، بل أصبحت أكثر فى طبيعة التصميم الزخرفى . وقد استخدم أسلوب الكشط Champleve

الخاص بعمل التجايف فى الرخام ، وملئها بمادة سوداء مختلفة عنه كما تظهر فى دافنى وميستر . ويمكن أن نجد شيئا من هذا النوع أيضا فى الرواق المجاور لكاتدرائية مونريالى Munreale حيث طعمت الأعمدة الرشيقة بأعمال فسيفسائية ، جنبا إلى جانب أعمدة أخرى زينت بمناظر منحوتة .

وقد بلغ الفن البيزنطى أعظم مراتب ارتقائه فى الزخرفة الداخلية ، حيث كانت الفسيفساء أو الفريسك هو الوسائل المستخدمة ، وقد اعتمد فنانون الفسيفساء على مكعبات صغيرة من الزجاج أو الرخام لتصوير المشاهد والصور ، وكانت فى العادة مغايرة للأرضية المذهبة . وقد تنوعت أحجام هذه المكعبات التى تحشى القاعدة الجصية ، تبعا للتأثير المطلوب ، وهى توجد تقريبا فى كل ما تدركه الحواس ، فى المواد على اختلاف أنواعها ، بما فيها الخزف والذهب والفضة . ولاشك أن هذا الأسلوب كان صالحا بصفة خاصة للسقوف المنحنية فى العمارة البيزنطية . وقد عرف الفنانون والصناع كيف يحصلون فعلا على الإحساس الصادق من جانب العابد ، إذا مارح يتأمل هذه الفسيفساء على مسافة معينة فى وسط الكنيسة . ويمكن أن نقف على درجة اللون والشكل والصناعة من الصور التفصيلية الدقيقة التى أخرجت لبعض الفسيفساء ، مثل صور جوستينيان وثيودورا فى كنيسة سان فيتالى فى رافنا (٧) ، أو الصور الإمبراطورية التى تعود إلى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، والموجودة فى أيا صوفيا بالقسطنطينية (٨) ولكن التأثير الذى يبتغيه الفنان من موقع الصورة الفسيفسائية على النفس ، لا يتحقق إلا بالوقوف فى الكنيسة وتأمل الفسيفساء ، فى درجات الضوء المتباينة ، أو عندما توقد الشموع من أجل القداس . أما الأسلوب الآخر للزخرفة الحائطية فهو الفريسك (الرسم على حائط من الجص) . وكان هذا النوع أقل تكلفة من الفسيفساء ، ومن ثم استخدم على نطاق واسع فى العصور الوسطى المتأخرة ، عندما تقلصت مساحة الإمبراطورية ، وانخفضت بالتالى مواردها المالية . ولكن هذا لايعنى أنه لم يوجد فى فترة مبكرة ، وإن كان

A. Grabar, Byzantine Painting (Skira series), or the relevant Batsford Iris Colour Books. (٧)

T. Wittemore, The Mosaics of Haghia Sophia at Istanbul, vol. III (O.U.P. 1942). (٨)

فى صورة بدائية ، كما يتمثل فى الفن الشائع فى كنائس كبادوكيا Cappadocia واسيا الصغرى Asia Minor كما نجد فى روما أيضا نماذج ماتزال باقية ، وتعود الى فترات تاريخية مختلفة ، توضح أسلوبى التصوير اللاتينى واليونانى ( اعنى فى الكنيسة الاولى للقديس كلمنت او كنيسة العذراء القديمة فى السوق الرومانى Forum Romanum ) .

ولم يبق فى الامبراطورية البيزنطية الا القليل نسبيا من اثار القرون من السابع الى التاسع . ويعود ذلك جزئيا الى الغزوات الاسلامية ، ولكن السبب الرئيسى فى ذلك كان الجدل الذى دار من حول الايقونات فى القرنين الثامن والتاسع . وقد اقترنت اللعنة التى حلت باى تصوير للأشخاص فى الكنيسة ، بتحطيم او تشويه الفن الكنسى الذى خرج على القاعدة الأساسية . وبانتصار الايقونات والعودة الى تقديسها ، وانتهاء الجدل اللاهوتى العميق ، دخلت بيزنطة فترة من المد المظفر فى النواحي المادية والثقافية على السواء . ولم يكن الفن استثناء من ذلك هو الآخر . وتشير المصادر الأدبية الى التطور الجديد للايقونوجرافيا Iconography ، كالوصف الخاص بأبنية باسل الاول . واذا كانت الآثار الخاصة بالحقبة المقدونية لم يعد لها وجود ، فان الزخرفة الفسيفسائية ، التى تعد واحدة من أعظم منجزات الفن البيزنطى يمكن رؤيتها فى أبهى صورها فى كنائس القرن الحادى عشر ، خاصة كنائس هوسىوس لوقا Hosios Lokas ودافنى فى بلاد اليونان ، والكنيسة الجديدة Nea Moni فى جزيرة خيوس Chios . وقد اتبع الفنانون والصناع المنهج الايقونوجرافى المتفق عليه ، وكان هدفه الأساسى لاهوتيا ، حيث يهتم بعقيدة التثليث ، وخلص العالم بواسطة الاله الابن ، وكان للشخصيات الرئيسية أماكنها الخاصة فى الكنيسة ، فالمسيح ، ضابط السكل يحتل القبة ، بينما تقوم العذراء فى العقد الرئيسى . وهناك فى القبة امام العقد بصور عرش خال ، والعرش المهيا للتجلى Hetimasia ، ويضم الأدوات التى استخدمت فى عذاب المسيح ، ويرمز الى مجيء المسيح الاول ورجعته ، اما فى المحراب . فيرى المسيح والملائكة وهم يباركون القديس ، على حين يختص الفقهاء بالاحتفالات او الاعياد الكنسية الكبرى ، مثل الميلاد ، والصلب ثم رقاد ( او موت ) العذراء . بينما يحتوى الجناح عنى مشاهد من حياة العذراء ، وما تبقى بعد ذلك من فراغات على الجدران وفى القبة ، فيحتلها

الرسل والشهداء والأنبياء والقديسون ، فى ترتيب هيراركى • وقد يحدث فى بعض الأحيان خروج على هذا الالتزام ، بناء على المتطلبات المحلية • وكان القديسون المحاربون يوضعون فى مكان بارز فى المناطق الفاصلة المتنازع عليها ، فهذان هما القديسان ثيودور St. Theodores وديمترىوس St. Demetrius مازالا يقفان موقفهما فى الفريسك الموجودة فى الكنائس المقدونية • ولسبب يسهل ادراكه ، يحتل أحد رجالات القرن العاشر ، القديس لوقا الاستيرى St. Luke Stiriotes ، وضعا هاما نسبيا فى كنيسة الدير المقام بين الجبال التى تشرف على قريته استريس Stiris فى فوكيس Phocis .

هكذا نجد الكنيسة البيزنطية من الداخل تستحضر العالم ، الكون • بقبة هى السماء ، بنطاقها الأعلى حيث المقتدر • والفردوس فى الاوسط ، والأرض نطاقها الدانى • ولاشك أن رقة الاخراج عند فنانى الفسيفساء كانت شيئا رائعا : فقد استطاعوا ببعد نظرهم ، وتطويعهم للمادة التى بين أيديهم ، وحسن استخدامهم للأسطح المنحنية ، أن يجسدوا شخصيات الهيراركية السماوية حتى يشعر العابد ، وقد رفع رأسه الى أعلى يتأملها فى الكنيسة ، أنها حقا على قيد الحياة ، « ففى بيزنطة ، لايقف الرأى على مسافة معينة من الصورة ، بل ينغمر فى عبير قدسيته ، وتقبل الصورة بدورها تشاركه المكان اثنى خطا » (٩) •

أما فى الايقونوجرافيا فان هذا الاسلوب يتغير قليلا ، وان كان هناك اختلاف كبير فى التصميم والتنفيذ ، فمشهد الصلب فى دافنى (١١٠٠) بكل ما فيه من قمع وكرامة ، يكاد يشبه النحت الملون ، ويعكس التأثير الكلاسيكى ، ويبدو قائد المائة فى مشهد الصلب الموحد فى خيوس (١٠٥٠) شخصية « شرقية » فظة عصبية ، فى ألوان زاهية ، بعيدة كل البعد عن تقاليد الفن المألوف الموجودة فى بعض الأعمال التصويرية الديرانية • وجملة القول ، ان دافنى كانت تتميز باتجاه انسانى ساد فى القرن الثانى

---

(٩) Otto Demus, Byzantine Mosaic Decoration, p. 4 وهو الذى

أعين له بالكثير •



عشر ، وان كنا نجد بعضا من أعظم الاعمال فى الفسيفساء والفريسك موجودة خارج الاراضى البيزنطية ، مثل مملكة النورمان فى صقلية ، ومنطقة البلقان . ولعل العصر الزاهر للفن البيزنطى يتمثل تماما فى فريسك نيرزى Nerezi (١١٦٤) المقدونية ، وهى الآن احدى القرى الاسلامية ذات الأهمية ، تبعد حوالى أربعة أميال عن سكوبجى Skopje . وتعتبر صورة العذراء وهى تحتضن جسد المسيح المسجى Pieta ، الموجودة بها ، لا يفوقها أى من قريناتها .

ويتمثل الفن البيزنطى فى الفترة الواقعة ما بين نهاية القرن التاسع ، واحتلال القسطنطينية سنة ١٢٠٤ ، ليس فقط فى الأعمال التذكارية ، بل فى نواح عديدة وصغيرة ، ثم انجازها فى الغالب من أجل الخبراء والمختصين فى داخل الامبراطورية أو خارجها ، مثل الكتب المصورة ، وعلب الحلى العاجية ، أو الأعمال الخزفية أو المنسوجات .

وكانت دار النسخ Scriptoria هى مركز المطبوعات البيزنطية ، حيث يتم نسخ المخطوطات باليد ، ومن بين أقدم الخطيات نجد الكتب « الأرجوانية » التى يتأرجح تاريخها ما بين نهاية القرن الخامس الى السادس ، وتحتوى على أجزاء من الكتاب المقدس كتبت بالفضة على جند أرجوانى . ومن المحتمل أن تكون هذه المخطوطات المصورة الدقيقة المتقنة ، قد أنجزت تحت رعاية أحد النبلاء أو الاثرياء . ولم يكن النص فقط ، بل الصور أيضا ، يتم نسخها ، وهكذا نجد أن نسخة القرن التاسع الخاصة برحلات قوزماس ملاح الهند (١٠) Cosmas Indicopleustes تكرر ثانية الصور المصغرة للنسخة

---

(١٠) ولد قوزماس فى مصر ، وعلى الأرجح فى الاسكندرية ، واشتغل بالتجارة ، فارتحل الى شواطئ البحر الأحمر وشبه جزيرة سيناء والحبشة وربما سيلان أيضا . ثم سلك فى نهاية الأمر درب الرهبانية وحصل على لقبه هذا « ملاح الهند » لسفره الى الهند بحرا كما يظن . وقد اشتهر أمر قوزماس بسبب ذلك الكتاب الذى وضعه عن « الطبوغرافيا المسيحية » فى منتصف القرن السادس ، وهو يتضمن معارف جغرافية هامة عن البحر الأحمر والمحيط الهندى ، والصلات التجارية بين الهند والصين ، وإلى جوار ذلك الكثير من الحقائق التاريخية ، فهو يعطينا صورة صادقة لبعض النقوش

الأصلية (التي وضعها قوزماس بنفسه) ، وهناك نسخ من القرن التاسع أو العاشر ، لأجزاء من الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد ، أو كتاب المزامير الذي يبدو واضحا أنه يخص « عائلة » تنحدر من أصل قديم جدا . وتتنوع أنماط هذه الصورة ، فبعضها ، مثل كتاب المزامير الموجود في باريس مثلا ، تحمل سمات سكندرية ، ترى في الأرضية الريفية ، وفي تجسيد المعاني المجردة والعناصر الرمزية ، بينما تظهر الأخرى ميلا شرقيا يتمثل في الألوان السخية والملاحم الزخرفية المعقدة . وهناك بعض الخطيات التصويرية التي لا تتناسب إلى هذه الكتابات الأرستقراطية ، فقد جاءت في نمط ، فكه بل وحتى قذحي ، وقدمت للاستهلاك الشعبي . واستخدم الخصوم السياسيون والعقائديون هذه الناحية في شن حملات التشهير العنيفة ضد بعضهم ، ففي أحد كتب المزامير مثلا ، والذي ربما نسخ في زمن محنة الأيقونات والموجودة في دير ستودايوس في القسطنطينية ، رسم أعداء الأيقونات وهم يصلبون المسيح . وتبرز بين الحين والآخر مشاهد تثير الدهشة من الحياة اليومية ، وخطوط بألوان مغايرة في صور مصغرة لأنواع مشابهة ، كالتصوير غير العادي في الفن واللون للراهب جيمس . الكوكينوبافس James of Kokkinobaphus لمعات حول العذراء ، أو ذلك الكاريكاتير الصغير المعبر ( تماما كما نراه في أسلوب المجلة الانجليزية المسماة punch في خطية مدريد الخاصة بتاريخ سكيليتزيس (١١) Scylitzes .

الهامة في النوبة وعلى شواطئ البحر الأحمر . ووصفا دقيقا لقصر ملك الأحباش في مملكة اكسوم . ونعرف من كتابه أيضا مدى ما كانت تمثله جزيرة سيلان من أهمية استراتيجية ، حيث كانت تعتبر مركزا للتجارة العالمية بين الصين من ناحية وشرق أفريقيا وفارس وبيزنطة من ناحية أخرى .

Vasiliev, op. cit. I, pp. 163-165

Baynes & Moss, op. cit. pp. 239-240

Bury, op. cit. II, pp. 319-321

وراجع C.M.H. vol. I, p.581 المترجم .

(١١) أحد كتاب المزمونات في القرن الحادي عشر ، وقد وضع تاريخا

تناول فيه الفترة من ٨١١ حتى منتصف القرن الحادي عشر . المترجم .

انظر

وكذلك

وأيضا

وتتضح بتقاليد بيزنطة ودهاؤها ابان فترات تاريخها الزاهرة ، فى مجالات أخرى من الفن • فقد كان البيزنطيون أساتذة فى فن الفصوص المتحاجزة Cloisonne ، كما كان لهم مكانتهم الفريدة فى التزيين بالميناء • وتحفظ كنيسة القديس مرقس فى البندقية ببعض من أجمل هذه الأعمال ، ويعتبر ما انتجه الصاغة كهذا الذى مازال بين أيدينا ، على درجة واحدة من الرقى ، وقد كان واضحا أن نحت تمثال دقيق من العاج ، لا يمكن أن ينظر اليه بارتياح ، واتخذت العاجيات سبيلها فى اتجاهين : دينى ودينى (١٢) • يتمثل أولهما فى مجموعات من اللوحات ذات الورقات الثلاث triptychs أو صناديق لحفظ الآثار المقدسة ، وينقش عليها موضوعات دينية • على حين كانت العاجيات الدنيوية تدور حول أشياء كمالية ، كصناديق الجواهر ، وتزين بروايات من الميثولوجيا ، أو مشاهد لقنص • أو مطالب الحياة اليومية الأخرى ، أما العبقرية البيزنطية فى التصميم والتلوين فتعكسها بوضوح المنسوجات ، التى كانت تستخدم فى الكنيسة كاردية لرجال الاكليروس ، وسجوف • وقد وصف بولس الصامت Paul the Silentiary فى صورة بليغة ستائر خيمة العرش فى ايا صوفيا • وكانت مثل هذه المواد تعتبر جزءا من اثاث البلاط الامبراطورى أو بعض الأسر الثرية • وقد وجد البيزنطيون سوقا رائجة فى الخارج ، وحملت تصميماتهم ملامح الفن البيزنطى المتنوعة الى مختلف اجزاء العالم المتحضر •

ومما لا ريب فيه ان الاقتصاد البيزنطى قد أصيب بهزة عنيفة ، من جراء ذلك الانحلال التدريجى الذى دهم الامبراطورية فى أعقاب احتلال القسطنطينية سنة ١٢٠٤ • وكان لذلك أيضا اثره على الفن • فقد ندرت الأعمال الفنية الدقيقة ، مثل الخطيات المزخرفة باهظة التكاليف • واستخدم الفريسك بصفة عامة فى الكنائس بدلا من الفسيفساء الأكثر تكلفة • ومع ذلك فقد استمر النشاط الفنى والادبى على السواء فى الازدهار ، وظلت مظاهر التطور التى شهدتها القرن الثانى عشر ، تسير قدما فى الفترة التى أعقبت سنة ١٢٠٤ • وكانت معظم المراكز النشطة فى العصور الوسطى

---

(١٢) بعض هذه التحف العاجية موجودة فى متحف فيكتوريا

التأخرة فى مواقع متقدمة نسبيا ، مثل ميسترا فى البلوبونيز أو طرابيزون والمناطق الاخرى ذات المعتقد الارثوذكسى كالبلقان وروسيا . ويعتبر التصوير الدينى على الجدران ، أروج أعمال هذه الفترة ، خاصة فى البلقان فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر . ورغم أن الكنائس المختلفة تظهر مدى التمايز فيها بينها ، الا أنه كان هناك على العموم اتجاه للابتعاد عن الفن المعنوى الذى ساد فى القرن الحادى عشر الى تفسير أكثر انسانية . واذا كانت ملامح منهج فن التصوير فى بيزنطة العصور الوسطى قد بقيت ، فإنه بمجىء القرن الرابع عشر اخذت الحوائط تعيل الى الامتلاء بالمشاهد (كما هو واضح فى كنيسة القديس كلمنت، الاوخرىدى St. Clment of Ochrida [ فى بلغاريا ] ومهما بلغت روعة وأصالة كنائس سوبوكانى Sopocani أو ميلسوفو Milesovo فى صربيا ، والتي تعود الى القرن الثالث عشر ، أو دير الضمادية Chora (حاليا جامع القريه Kariye Djami) فى القسطنطينية ، فإن هذا الامل ، على عكس قرينه المعاصر فى الغرب ، ظل بعيد المنال . وربما كان هذا التوقف يعود الى حد ما الى التقليدية الارثوذكسية التى دعمت الاحداث التاريخية ، كما أنه كان أيضا بكل تأكيد أحد نتائج الفتح العثمانى .



### مراجع خاصة عن الفن والعمارة

- Datton, (O.M.), East Christian Art: a survey of the Monuments (Oxford 1925).
- Demus (O.), Byzantine Mosaic Decoration (London 1938).  
— The Mosaics of Norman Sicily (London 1950).
- Diez (E.) & Demus (O.), Byzantine Mosaics in Greece: Hosios Lucas and Daphni (Cambridge 1931).
- Dumbarton Oaks Papers, Contain Valuable reports (with excellent illustrations) on work in progress in Constantinople (notably Hagia Sophia and Kariye Djami) and elsewhere, as well as studies on more specialised aspects of Byzantine Art.
- Grabar (A.), Byzantine Painting (Skira Series, Geneva 1953).
- Hamilton (J.), Byzantine Architecture and Decoration, 2nd ed. (London 1966).
- Iris Colou Book : Early Christian Mosaics, introduction by W. F. Volbach (Batsford 1943).  
— Byzantine Mosaics, introduction by P. Meyer Batsford 1952).
- Jackson (T. G.), Byzantine and Romanesque Architecture, 2nd ed., 2 vols. (Cambridge 1920).
- Mathew (G.), Byzantine Aesthetics (London 1963).
- Millet (G.), L'Ecole grecque dans L'Architecture byzantine (Paris 1916).
- Simpson (F. M.), History of Architecture Development, vol. II, Early Christian, Byzantine and Romanesque. New edition by C. Stewart (London 1954).
- Stewart (C.), Byzantine Legacy (London 1947).
- Talbot Rice (D.), Byzantine Art (Pelican 1954).

- **The Art of Byzantium (New York 1962).**
- **Art of the Byzantine Era (London 1963).**
- **Whittemore (T.), The Mosaics of Haghia Sophia at Istanbul, I—IV (O. U. P. 1923—1952).**
- **Yugoslavia: Mediaeval Frescas, preface by D. Talbot Rice, introduction by S. Radojcie (Unesco World Art Series, New York 1955).**



# الفصل الحادى عشر

## بيزنطة وجيرانها

(م ٢٤ - العالم البيزنطى)





## الفصل الحادى عشر

### بيزنطة وجيرانها

كان الموقع الجغرافى وحده كافيا كى يحتم على بيزنطة أن تلتقى كل صباح بأولئك الذين كانت طرائق حياتهم ونماذج تفكيرهم ، تغاير ما كانت عليه هى تماما . وقد اختلفت الصعاب التى واجهتها ، والفرص التى سنحت لها فى الشرق عنها فى الشمال والغرب .

وكان الاتصال بالشرق أمرا تقليديا ، والتقدير (فى العصور الوسطى على أية حال) متبادلا . وكان لكل من العالم اليونانى - الرومانى وعالم الشرق الاوسط ، حضارته المعترف بها وان كان التنافس قائم بينهما . ولاشك أن المسلمين قد افادوا كثيرا من أساليب الحياة التى وجدوها فى الولايات البيزنطية التى فتحوها أو من مصادر المعرفة اليونانية الكامنة عند أبوابها . ولم يكن ما أفاده البيزنطيون أقل من ذلك . ولعل أوضح الأمثلة على هذا الاختصاص المتبادل يتمثل بوضوح فى الرهبانية البيزنطية وحياة قديسيها . وقد خلا تاريخ القديسين البيزنطيين غالبا من العناصر الهلينية ، وشهدت الأفكار تبادلا مستمرا نتيجة لبعض العوامل ، كالمراكز الديرانية التى تضم رهبانا يتحدثون لغات متفرقة ، أو الجاليات الشرقية الموجودة داخل العالم المسيحى ، كما فى بيت المقدس والقسطنطينية وجبل آثوس . أو فى قيام أقاليم الحدود (مثل جورجيا أو أرمينيا) ، حيث كانت الكنائس المختلفة تمارس ما يعتبر من المفضل وصفه بأنه حكم مشترك .

وفى الشمال ، فى البلقان ، فيما وراء الدانوب وفى منطقة البحر الأسود ، كانت الاتصالات مسألة لا يمكن تجنبها منذ البداية ، كما أن العلاقات قامت على أسس متباينة تماما . وكانت الهجرات الصقلبية والهونية تمثل تهديدا خطيرا ودائما . ولكن بيزنطة استطاعت هنا ، فى الشمال ، أن تقدم واحدا من أعظم وأوضح منجزاتها ، حيث تمكنت من استيعاب أعداد

هائلة من الغزاة البرابرة ، خاصة فى منطقة البلقان والثيرمات الاغريقية ، على الرغم من أن الدارسين مازالوا يتناقشون حول كم من الدماء الصقلبية مزجت فى عملية توطيئهم منطقة البلوبونيز فى العصور الوسطى المبكرة . ومن ناحية أخرى ، كان هناك مجموعة من القبائل التى لم تتمكن الامبراطورية من ابقائها خارج البلقان ، أو اذابتها داخل ولايات الامبراطورية ، وكانت هذه القبائل قادرة على انماء نفسها الى درجة الاكتمال ، وتطوير اماراتها خلال العصور الوسطى تحت وصاية القسطنطينية ، شأن صربيا وبلغاريا .

اما فيما يختص بالغرب المسيحى فقد كان الوضع يختلف تماما ، ومتغيرا بدرجة كبيرة على امتداد العصور الوسطى . ومهما يكن من امر الادعاءات التى اثارتها القسطنطينية من الامبراطورية العا . . .

المباشرة مع الغرب منذ القرن الخامس حتى الحادى عشر ، كانت أقل مما هى عليه مع الشمال أو الشرق ، ولم يكن للغرب فى أوائل العصور الوسطى حضارة يمكن أن تقارن بحضارة بيزنطة أو الحضارة الاسلامية ، فقد كان منطقة تتميز بقلّة الكثافة السكانية والبدائية المفرطة . وليس بخاف أن ايطاليا كانت تمثل منتصف الطريق . كما أنها كانت تخضع بصورة جزئية للسيادة البيزنطية ، وقد أصبحت ادعاءات السيادة على ايطاليا والأدرياتى مشكلة امبراطورية ، الى حد الصراع بين القسطنطينية والكارولنجيين . غير أن الحال ما لبثت أن تغيرت بشكل جوهري بسبب توسع الغرب وارتقائه . وبصفة خاصة نتيجة الغزو النورمانى لصقلية وجنوب ايطاليا فى القرن الحادى عشر ، والحركة الصليبية الغربية التى تم القيام بها تحت رعاية بابوية تتميز بالقوة والحيوية المتجددة ، ونمو الحياة المدنية فى ايطاليا مع الأنشطة الاقتصادية المتزايدة . وعندما بدا أن الهجرات الصقلبية وغيرها كانت تمكن لنفسها فى أرض البلقان ، وجدت القسطنطينية نفسها وقد أحيط بها من الشرق والغرب على يد الاتراك واللاتين . وقد أدى نمو الأمة ودولة المدينة فى الغرب ، كالمملكة المسكوفية Moscovite فى الشمال ، وامارة آل عثمان فى آسيا الصغرى ، والممالك الصقلبية فى البلقان ، الى أن تشهد الدبلوماسية البيزنطية المتأخرة تعقيدات لم يكن لها ما يناظرها فى الفترة المبكرة من تاريخها .

وعلى العكس من الخلفية عن مشاكل الحدود والتغير الدبلوماسى ،  
 فان تأثير نظام الدولة البيزنطية يجب أن يوضع فى الاعتبار • وليس من الصعب  
 ادراك ان المجموعات الأقل تطورا تحمل فى أعناقها دينا كبيرا بصورة  
 مباشرة للقسطنطينية ، وأن هيئتهم قد تحددت الى درجة بعيدة باتصالهم  
 بهذا الجار القريب • ومهما تكن التفسيرات ، مع التسليم بأن تطور بناء  
 المجتمع قد قام فى جوهره على أسس وطنية ، فانه من الصعب أن ننكر أن  
 هذه الدويلات التى تشكلت خلال العصور الوسطى ، مثل الصرب أو  
 البوسنة Bosnia أو بلغاريا (وكانت هذه الأخيرة قد ظلت منذ القرن الحادى  
 عشر حتى نهاية الثانى عشر جزءا من الامبراطورية البيزنطية) ، أو كريف •  
 وأخيرا المملكة المسكوفية ، وروسيا ، قد أخذت الكثير من حنكة جارتها ،  
 خاصة فى النواحي السياسية والادارية •

وفوق هذا وذاك ، فان الكنيسة الأرثوذكسية ، بغض النظر عما كان  
 عليها أن تقدمه من جانبها ، فانها كانت دليلا واضحا على أسلوب الحياة  
 البيزنطية • ولم تكن السنة المسيحية بالصوم والأعياد على مدارها تتعلق  
 فقط باحتياجات كل فرد على حدة ، بل كان ينظر اليها على أنها المظهر  
 الخارجى الذى يعبر عن فحوى الامبراطورية المسيحية • فانه عندما ارتضى  
 أن يظهر نفسه متجسدا فى الزمان والمكان ، قدس مسرى التاريخ ، واستطاع  
 العالم المسيحى أن يصبح انعكاسا على أرض مدينة السماء Civitas Caelestis  
 وكان للامبراطور وموظفيه ، والبطريرك والكليروسه أماكنهم المحددة فى كل  
 مظاهر الخدمة الكنسية للقديس السنوى • وتظهر الاجابات والتهنئات  
 مدى الأهمية البالغة التى تتعلق بالمنصب الامبراطورى ، وكان هذا التصور  
 الدقيق عن الدولة المسيحية ، مع الارتباط الوثيق بين القس والحاكم ، الذى  
 ترك بصماته واضحة على الشعوب الصقلبية ، يتمثل فى طرائق حياتهم  
 أبان العصور الوسطى • والحقيقة التى لامراء فيها أن بيرنطة كانت تصور  
 امبراطورا واحدا فقط ، وإن كان من الممكن وجود عديد من الافراد المبرزين  
 يعملون تحت امرته • وفى وقت معين بدا لاحدى الممالك الصقلبية أن  
 المسئوليات الامبراطورية الرومانية والمسيحية قد أُلقيت اليها ، عندما احتل  
 الأتراك القسطنطينية عام ١٤٥٣ ، وتزوجت صوفيا Sophia إحدى أميرات  
 أسرة باليولوجوس من إيفان Ivan الموسكوفى •



ولم يكن التصور البيزنطى للتقليد الامبراطورى الرومانى ، باعتباره ذا مغزى خاص ، قاصرا فقط على البلدان التى مكنت الكنيسة الارثوذكسية لنفسها فيها ، ففى العصور الوسطى المبكرة أبقت روما الجديدة ، القسطنطينية ، على مفهوم الامبراطورية بالنسبة لدنيا المسيحية فى الشرق والغرب على السواء ، وكان هذا بالنسبة للمسيحي ، يمكن تصوره كفكرة على طراز الامبراطورية الرومانية التى أعاد تشكيلها قسطنطين العظيم . ولم تساعد التطورات السياسية فى العصور الوسطى ، فيما أصبح يعرف بالنصف الغربى *pars Occidentalis* ، إعادة بناء عالم قسطنطين ، ولاحتى محاولة محاكاة رومان القسطنطينية من جانب الإمارات الصقلية . ولم يحاول أمراء الغرب أبدا من جانبهم احياء ما كان فى بادىء الأمر تحت حكم شارلمان ، يبدو أقل بكثير من لقب « الامبراطور » ، وما أصبح من بعد على عهد الأباطرة الأتوويين ، يرتبط بحقوق معينة فى اراضى ايطاليا وبرجنديا والمانيا ، وادى ظهور امبراطورية غربية فى العالم اللاتينى ، وهى التى عرفت بالامبراطورية الرومانية المقدسة ، الى ان تصبح فى السنوات الأخيرة موضع جدال . ولكن لاشك فى أن الغرب اللاتينى يحمل فى عنقه ديناً مبدئياً للشرق ، أو بمعنى آخر ، ذلك الطريق الذى ساعدت من خلاله الاتصالات المتنوعة بين بيزنطة والغرب على بعث واكمال التصور الغربى للمنصب الامبراطورى .

وقد ورثت الأقطار اللاتينية والصقلية أيضاً - وإن كان بدرجة متفاوتة - المبادئ الفقهية الرومانية كما فسرها البيزنطيون . وكان نقل أعمال جوستنيان التشريعية ، أو المقننات الرومانية الشرقية فى العصور الوسطى المتأخرة ، يعتبر خدمة عظيمة وأساسية أدتها الامبراطورية على درجة عالية من التنظيم ، وقد أفادت بلدان أوروبا وعالم البحر المتوسط - بطرق مختلفة - من مثل هذه المصادر والخبرات . وليس بخاف على أحد مدى ما لقيته مجموعة القانون المدنى *Corpus Juris-Civilis* لجوستنيان فى الغرب من قبول . وإن كانت المجموعات الأخرى التى صدرت زمن الأباطرة البيزنطيين المتأخرين ، مثل المراسيم الامبراطورية *Basilica* ، قد حظيت بنصيب أقل من الذيرع ، ويعود ذلك بصورة جزئية الى قلة الدراسات التى أجريت حولها . وقد اعتمدت الشعوب الصقلية اعتمادا كبيرا على المجموعة

التشريعية البيزنطية ، بل انهم احتفظوا بأجزاء منها مترجمة ، وربما كان الدليل الذى يشير الى استمرار استخدام القانون البيزنطى فى جنوب ايطاليا ، اقل من المتوقع ؛ فالدليل الكالابرى المختصر عن القوانين الريفية والمدنية ، الذى صنف على عهد باسل الثانى من « المختارات » *Ecloga* ومن ليو الثالث ، والوجيز فى القانون *Procheiros Nomos* الذى وضع ابان حكم باسل الاول ، هذا الدليل الكالابرى استخدم من جانب امراء النورمان فى القرن الثانى عشر ، ثم تم تنقيحه فى عهد روجر الثانى *Roger II* • ولاشك ان أى فحص يمكن اجراؤه للمختصرات القانونية المعمول بها ، ليس فقط فى منطقة البلقان ، بل فى مناطق أبعد من ذلك ، كجنوب ايطاليا او فلسطين وسوريا ، سوف يكشف ( كما فى البلقان ) اما عن البناء المتأنى الذى تم بمساعدة النظرية والتطبيق البيزنطيين ، او ( كما فى جنوب ايطاليا ) عن الاستخدام المستمر والتكيف لما ظل فترة طويلة جزءا من قانون الأقاليم •

ومن الممكن كذلك ان نعرف شيئا ما عن مبادئ الحكم البيزنطى فى نواح أخرى عديدة ، ويتضح هذا من كتابين صنفوا فى منتصف القرن العاشر على يد الامبراطور الانسانى قسطنطين السابع ، اولهما عن المراسم *De Cerimoniis* الذى نظم مظاهر الحياة اليومية فى الدوائر الامبراطورية البيزنطية ، وقدم انموذجا يحتذى لبلاط الملوك والأمراء الآخرين • والثانى عن الادارة الامبراطورية *De Administrando Imperio* ليعلم القيصر الصغير حنكته الامبراطورية ، ويشرح لنا - بدرجة لا تقل عما يقدمه له - قواعد السياسة الخارجية البيزنطية • كما ان المعلومات التى يتم الحصول عليها من وزارة الخارجية ، ومن اقسام الادارة المختلفة ، ومن الدبلوماسيين وحكام الولايات ، لا تكشف فقط عن النظام البيزنطى ، بل تبين بعض الوسائل والقنوات التى انسابت من خلالها المعرفة بالحضارة والحكومة البيزنطية الى البلاد الأخرى •

وكانت هناك صلات كثيرة غير رسمية بين الغرب الأقصى والقسطنطينية ، خاصة منذ القرن الحادى عشر فصاعدا • فقبل ان يحل عام ١٢٠٤ كانت انجلترا قد اصبحت على علاقة ببيزنطة عن طريق تجديد الحرس الامبراطورى الخاص ، وروابط المصاهرة • وهناك اشارات

معاصرة عن « المحاربين حاملي الباط » الذائع الصيت والذين عرفوا باسم « الورنك » (١) Varangian . وأن لم تكن من قبيل الثناء بصفة دائمة ، كما حدث عندما قدم رئيس رهبان باطموس Patmos في سنة ١٠٨٨ شكاية ضد أسكان الفرق العسكرية ، ومن بينهم « أولئك الجنود الانجليز » . ويتضح الرضى البيزنطى عن هذا المصدر الذى يتم منه تجنيد الحرس الامبراطورى فى تاريخ يوحنا كيناموس (٢) John Cinnamus الذى وضعه فى أخريات القرن الثانى عشر ، حيث يتحدث عن « الجنس البريطانى الذى عمل فى خدمة الأباطرة الرومان لزمان طويل » ، كما تفصح الرسالة الودية التى بعث بها أحد أباطرة القرن نفسه ، مانويل كومنينوس Manuel Comnenus الى ملك انجلترا هنرى الثانى Henry II والتى حفظها روجر الهوفيدى (٣) Roger of Hoveden عن التقدير الكثير لسجايها هؤلاء الجنود . فقد كتب مانويل بعد الهزيمة التى لقيها البيزنطيون على يد الأتراك فى آسيا الصغرى سنة ١١٧٦ : « لقد غمرنا السرور اذ رأينا بعض كبار نبلائكم معنا . . ومن ثم قدرنا أنه يجب أن نطلعكم باعتباركم صديقنا العزيز المحبوب ، ولأنكم قد ارتبطتكم بعظمتنا الامبراطورية بروابط الدم » . ذلك أن زوجة

(١) انظر قبله حاشية ١٩ ص ١٥٢ . المترجم .

(٢) هو أحد المؤرخين الذين عاصروا الفترة الكومنية . وضع تاريخا يتضمن عهدى يوحنا ومانويل ، أى ابتداء من عام ١١١٨ حتى سنة ١١٧٦ ويعتبر تاريخه هذا تكملة للالكسياد الذى كتبه أناكومنتا عن أبيها الامبراطور الكسيوس كومنينوس . وكان كيناموس هذا من أشد المتحمسين للامبراطورية الرومانية (البيزنطية) ، لا يقبل مطلقا ادعاءات البابوية أو الامبراطورية الألمانية . كما أنه كان من أكثر الناس إعجابا بهرودوت واكسنوفون ، كما تأثر فى كتاباته بالمؤرخ بروكوبيوس القيسارى . المترجم .

(٣) أحد مؤرخى القرن الثانى عشر ، كان مقربا من البلاط الانجليزى ، وعمل قاضيا ومستشارا ، كما عمل أيضا راعيا لكنيسة فى هويدن . وقد مكنته صلاته الوثيقة بالبلاط أن يكون على مقربة من مجريات الاحداث ، خاصة وأنه صاحب ريتشارد الاول ملك انجلترا فى حملته الصليبية الى بلاد الشام .

F. Heer, The Medieval World, p. 280.

Barlow, op. cit. p. 328

Mund, Europe in the High Middle Ages 1150-1309, p. 15.

انظر

وكذلك

وأيضا

المترجم .



مانويل الثانية كانت تنتمي لأسرة صليبية غربية ، فهي ماري صاحبة انطاكية ، ابنة ريموند كونت بواتييه Raymond of Poitiers ، عم اليانور أميرة أكويتانيا Elenor of Aquitaine زوجة هنري الثاني ، ومن ثم كان أولاد هنري وأولاد مانويل أبناء خؤولة ، كما أن تقارير هنري تعكس هي الأخرى ذلك الارتباط الودي بين العائلتين . وتشير سجلات الخزانة الى العديد من وجوه الاتفاق الخاصة باستضافة سفراء امبراطور القسطنطينية ، وكذلك بعض البنود في كشوف الحسابات تتعلق بارسال مجموعة من كلاب الصيد الانجليزية الى مانويل الذي كان صيادا متمرسا . وكان أمرا عاديا وجود مثل هذه الاشارات التي تحمل طابع الود والمجاملة في كل فترة من الفترات ، ولكن مع هذا الاقرار الكامل بروابط الدم ، فإن اخريات القرن العاشر قد شهدت ابتعادا واضحا عن سياسة المنع التي عرفها القرن العاشر ، ودونت في كتاب الوجيز في الإدارة حول مسألة الزواج الامبراطوري . ورغم أن الامبراطورية لم تحد مطلقا عن النظرية التقليدية الخاصة بالسمو العالي ، إلا أن الظروف السياسية قد أجبرت العالم البيزنطي على أن يعدل من موقفه تجاه « البرابرة » .

ومع ذلك ، فهناك مجال واحد فقط سار فيه عالم اللاتين واليونان بمعزل عن بعضهما متباعدين . فلم يتوفر للمسائل العقيدية نفس الحالة التي كانت عليها العلاقات الدبلوماسية والممارسة الادارية ، ذلك أن الصدع الهائل الذي يفصل بين المسيحي والمسيحي يعود بصورة جزئية الى ذلك التعصب الديني الشديد عند كل منهما ، ولكن السبب الرئيسي يتمثل في الأحداث السياسية التي تركت أثرها العميق على السياسة الكنسية . فقد شهدت العصور الوسطى المبكرة قيام الخلافات اللاهوتية والتنظيمية بين الكنائس اليونانية واللاتينية ، غير أن العامل الحاسم كان في الغالب يتركز في اهتمام روما بالنشاط التبشيري في بعض الميادين التي كانت تعد مجهولة الى حد ما ، أو الحاحها من أجل استعادة سيادتها الكنسية على جنوب ايطاليا والليريا ، والتي كانت قد فقدتها بانتقال كنائس هاتين المنطقتين الى رعاية بطريرك القسطنطينية عام ٧٣٢ . ولم يقدر للمفاوضات التي دارت بعد سنة ١٢٠٤ ، في العصور الوسطى المتأخرة ، من أجل إعادة الوحدة بين الكنائسين ، أن تنجح . وكان السبب في فشلها منذ البداية تلك الكراهية



العامّة عند البيزنطيين تجاه أولئك الافاقين اللاتين الذين نهبوا الامبراطورية الشرقية .

غير أن هناك ناحية أكثر ايجابية في العلاقات القائمة بين الكنيسة الارثوذكسية والعالم المجاور لها . واصبحت هذه الناحية في سماتها الرئيسية أمرا مسلما به وإن كانت التفاصيل ماتزال تضاف الى معارفنا تباعا . فقد لعبت القسطنطينية دورا كبيرا في المجال التبشيري ، حيث امتد نشاطها الى مساحة واسعة تشمل الشرق وروسيا والبلقان ووسط أوروبا . ولعل كيرلس Cyril ومثوديوس Methodius المبشرين البيزنطيين في القرن التاسع ، في مورافيا Moravia لم تكن سريعة الزوال كما يفترض أحيانا (٤) وهناك من الأسباب ما يدعو الى الاعتقاد بأن الثقافة الصقلية - البيزنطية ، بما فيها القداس الصقلي ، قد مكنت لنفسها قرابة قرنين من الزمان (العاشر والحادي عشر) ، كما وجدت آثار الطقوس الشرقية في بوهيميا بعد ذلك بزمان متأخر . وبنفس القدر من الاهتمام وعلى نفس المنوال، جاءت نتائج الأبحاث الهنغارية التي أجريت للتعرف على الأصول البيزنطية للكنيسة المجرية (٥) . وقد تأكدت الآن بصورة واضحة ، تلك الجهود التبشيرية الجادة التي بذلتها الكنيسة الشرقية بين القبائل التركية والهونية في العصور الوسطى المبكرة ، خاصة منذ القرن السادس وما تلاه ، وأدت هذه الجهود ، وكذلك الصلات التي كانت قائمة مع الصقلية ، الى ادخال الجيار في المسيحية قبل أن يصلوا الى هنغاريا . وما أن قدموا اليها حتى وجدوا روما وبيزنطة يستبقان ، وفوق هذا ، فإنه رغم القرار الذي اتخذه الملك ستفن في صالح الغرب ، إلا أن هناك من الأدلة ما يثبت استمرار التأثير اليوناني على الأرض الهنغارية . ولم يكن هذا أمرا يثير الدهشة نظرا للصلات السياسية والعائلية الهنغارية مع القسطنطينية . وقد شهد القرنان

---

(٤) قارن . Dumbarton Oaks Papers XIX (1965). حيث توجد أوراق تتناول عدة نواح تتعلق بالبعثات التبشيرية البيزنطية الى الصقلية وضعها G. Ostrogorsky و G. C. Soulis و Obolensky وأيضا A. Dostaal .

(٥) انظر بصفة خاصة ما كتبه G. Moravesik and M. Gyoni

الحادى عشر والثانى عشر اقامة بعض الاديرة اليونانية فى هنغاريا ، كانت خاضعة فيما عدا فترة قصيرة من القرن الثالث عشر ، لسيادة بطريرك القسطنطينية . ومازلنا نجد فى هنغاريا مجموعة من الاساطير والروايات التى تعود الى اصول بيزنطية ، واماكن تتصل اسماءها بقديسين بيزنطيين ، كما ترجمت فى اوائل القرن الثانى عشر كتابات يوحنا الدمشقى John of Damascus عن الابسان الارثوذكسى - De Fide Othodoxa واعه . ماكسيموس المعترف Maximus the Confessor .

وكان من الطبيعى ان يتبع نشاط القسطنطينية التبشيري ، الاندماج الادارى والتمكين للمؤسسات الكنسية ، واذا كان الامر فى هنغاريا ومورافيا وجنوب ايطاليا ، (وهى المناطق التى لم يكن يطلب الى بيزنطة بدهيا ان تقوم فيها بعمل رائد) ، يجرى مشاركة مع الكنيسة الكاثوليكية ، بل فى الجزء الاكبر اخيرا ، خضوعا لها ، فان الحياة المسيحية فى الاقاليم الاخرى التى تحولت الى هذه العقيدة على يد القسطنطينية ، وكانت تقليدا للنمط الارثوذكسى . لقد كانت الكنيسة بأبروشياتها واسقفياتها ومطرانياتها تحت رعاية كبير المطارنة . تخضع فى النهاية لبطريرك القسطنطينية : وكانت الهيئة الكهنوتية العليا للاكروس ، تعين احيانا من بين رجال الكنيسة البيزنطيين ، وبصفة خاصة فى روسيا والبلقان . وكانت الحياة الرهبانية بشكلها الديرانى والتوحدى تنمو بصورة حماسية كما لو كانت على الارض البيزنطية ومن البدهى فى عالم الرهبنة ، أن يحيا الراهب المتضع حياة عالمية . ومن ثم فقد كان هناك فى بولندا وروسيا والاديرة الشرقية رهبان من جيل اثوس للاقامة او الزيارة واثاس من كل انحاء العالم المسيحى . ولم يكن الامر مقصورا فقط على الافادة من تجربة الحياة العملية فى المراكز الاولى ، بل ان ترجمات الأعمال الكلاسيكية للديرانية اليونانية ، قدمت الى اتباع الكنيسة الارثوذكسية النائين المحدثين ، معارف يونان العصور المبكرة والوسطى . وتقاليذ الديرانية الشرقية . وهكذا كانت سيرة الراهب المصرى انطونيوس فى اوائل القرن الرابع ، او الروايات التى دارت فى القرن السابع حول جوديان Judaeon ، والتى انجزت زمن كيرلس البيسانى Cyril of Scythopolis ، تترا فى ترجمة صقلبية قديمة داخل اديرة بلغاريا او روسيا فى زمن امراء كييف . وعلى ذلك فلم يكن القديس باسل والقديس

ثيودور الاستودى وحدهما أصحاب الاثر الأكبر فى الرهينة ، الأرثوذكسية فى العصور الوسطى .

أما عناية الكنيسة الأرثوذكسية وحكمتها فى اعداد الاطار القداسى لمظاهر العبادة اليومية (رغم عدم ضرورتها فى اللغة اليونانية) ، واضفاء المزيد على الأعمال الأساسية لكبار اللاهوتيين والآباء الروحيين للكنيسة المسيحية ، تحتاج فى جملتها الى تعليق . كما أن بيزنطة قدمت أيضا الموسيقى التى كانت كانت تعتبر جزءا مكملًا فى العبادة العامة سواء فى الإبروشية أو كنيسة الدير . وقد تركت الموسيقى البيزنطية أثرها الواضح فى بلغاريا ، التى نقلت فى القرن التاسع عن القسطنطينية قداساتها وترانيمها ، ثم نقلتها الى الروس فى القرن العاشر (٦) .

ولاشك أن الفن والعمارة يعتبران من الموضوعات الضخمة التى يصعب تناولها هنا ، وإن كان من السهل الإشارة الى الخطوط العريضة التى يعمل فيها الدارسون . فقوانين النقد الصحيحة تنطبق على الفن والعمارة الاقليمية ، كذلك على التصميمات والأعمال الفنية التى يمكن أن تصنف بطبيعتها على أنها مخطوطات ومسكوكات ونقوش عاجية « سياحة » ، أو ذلك النوع من المادة التى وجدت فى انجلترا فى سفينة سوتون هو Sutton Heo المظمورة ، وتحلل أوتوديموس Otto Demus فى دراساته رائعة متتالية ، فن التصوير ، ويقدر القيمة الحقيقية لنكتيك العمل الفسيفسائى فى بلاد اليونان وإيطاليا وصقلية ، مبينا مدى ماتدين به البندقية وصقلية لايقونوجرافيا التقليد القداسى البيزنطى ، وللصناع المهرة الذين انجزوا هذا العمل ، والذين يمكن رؤية أعمالهم الى الآن فى اديرة داغنى أو هوسىوس لوقا أو كىفالى Cephalu [ فى صقلية ] .

وتعتبر الأشكال الفنية بطبيعتها عالمية أكثر منها وسيطا أدبيا . ولقد كانت كتابات البيزنطيين تتداول بصفة عامة فى المناطق التى كانت اليونانية

---

(٦) كتبت المخطوطات المتعلقة بهذه الناحية فى الشكل الصقلية القديم ، أعنى البلغارى القديم الذى اصطلح على العلامات الموسيقية البيزنطية .

ما تزال سائدة فيها ، أو من خلال الترجمة . ولكن يجب أن نعيد الى الأذهان ثانية ، أننا لم نذهب أبعد من مجرد البدء فى استكشاف المدى الذى وصلت اليه الآداب والفلسفة والعلوم والدراسات الغيبية البيزنطية فى الحياة الثقافية والعامة للعالم المجاور لبيزنطة . وفى بعض النواحي ، خاصة الفلسفة والعلوم ، فإن معلوماتنا مازالت قليلة حتى عن طبيعة التطور داخل الامبراطورية . ولكن الهدية القيمة التى قدمتها بيزنطة للشرق والغرب على السواء والتى تتمثل فى المنطق الارسطى ، وتصور الفكر المجرد ، يجب التأكيد عليها . وقد بدأ لاتقا ليوحنا الدمشقى ، أن يبدأ كتابه عن الايمان المسيحى بفصل فى المنطق ، الذى كان يمثل جزءا من خلفيته الهلينية ، ولم ينسهِ حتى على الرغم من أنه كان يعيش فى عالم اسلامى . فهذه المدركات الارسطية ، الصيغ المجردة ، رغم انها لم تبد متناغمة مع بعض أساليب التفكير الاسلامى الشرقية ، الا انها تركت بصماتها أيضا على التفكير الاسلامى فى العصور الوسطى . أما عند النهاية الأخرى للسلم ، فهناك الكثير من العادات الشعبية بل وحتى التافهة ، التى انتقلت الى البلاد الصقلية ، وفى بعض الأحيان الى اصقاع بعيدة مثل إنجلترا ، كالحكايات والمواويل والتنبؤات والتعاويذ والرقى التى تستخدم ضد الأمراض البسيطة ، مثل الأرق وفصد الأنف والصداع .

كان من غير المألوف بصورة واضحة ، أنه بعد عام ١٢٠٤ ، عندما تمكن اللاتين من امتلاك مناطق هامة من الامبراطورية البيزنطية ، وعندما أصبح واضحا أن الهوة الموجودة بين الكنائس اليونانية واللاتينية لا يمكن اجتيازها ، أن يقدم المسيحيون الشرقيون والغربيون على معرفة آداب بعضهم البعض .

وكان تحويل الحملة الرابعة عن غرضها ، وتوجيهها لاحتلال الامبراطورية المسيحية ، قد قوبل بما يستحقه ، تماما من الادانة . ولكنها فى الوقت ذاته جمعت ، بما لا يدع مجالا للشك ، بين الشرق والغرب بطرق مختلفة فى احساس أكثر بهجة ؛ فتزاوجت العائلات اللاتينية مع البيزنطية ، ونبت ابنائهم فى بلاد اليونان . وما هو وليم فيلهاردوان William of Villhardouin حاكم امارة آخايا Achaia فى القرن الثالث عشر ، يوفه



يحيا وهو طفل فى قلعة أبيه فى كالاماتا Kalamata بالبلبونير ، ويتكلم اليونانية بطلاقه . وقد تعلم الحكام اللاتين لبلاد اليونان كيف يعرفون ويقدرّون قيمة امجادها ، وغير ذلك فقد ذاعت شهرة آثارها فى العالم الخارجى ، فقد كتب بدور الرابع Pedro IV ملك ارغونة Aragon فى سنة ١٣٨٠ يقول ان اذكروبول Acropolis ، قلعة السقينيّين [ الاثينيّين ] the Castell de Cetines كما كانت تسمى فى الوثائق القطلونية ، تعتبر « اثنى جوهرة فى العالم ، النموذج الذى ليس بمقدور أى ملك فى العالم ان يحاكيه » (٧) . ولم تؤد الممارسة الشخصية للاتين فى منطقة بحر ايجة الى معرفة قيمة الفن اليونانى البيزنطى ، بل التوفى على التقاليد الادبية الثقافية لكل من العالمين . ونحن نسمى بصفة دائمة للتعرف على هذه التيارات المتاخلة ، فالبيزنطيين يقبلون بنهم على القديس اوغسطين او القديس توماس الاكوينى فى الكتابات المترجمة ، وكذلك كان اللاتين يقرأون ايضا هوميروس مترجما ، وعلى هذا النحو تعلم الطرفان الى حد ما كيف يفهم كل منهما الآخر ، على عكس ما حدث فى القرن الحادى عشر ، عندما بدا ان بسطلوس لايعرف الفرق بين قيصر وشيشرون .

ولقد كانت هناك طرائق لا نهاية لها للاتصال بين بيزنطة والعالم المجاور لها الذى اقتبس واستعار منها بدرجة كبيرة . وكان تأثير بيزنطة على جيرانها مباشرا وغير مباشر . فليس لأحد ان ينكر فضلها فيما قدمته للعالم الحديث من كتابات اليونان الاقدمين . ولا يقل عن ذلك أهمية بالنسبة للحضارة المسيحية ، ذلك الدور الرائد الذى قامت به بيزنطة عن طريق علماء اللاهوت الذين يتحدثون باليونانية ، خلال فترة التكوين من القرن الرابع ، الى السابع وأدى ذلك ايضا فائدة جليلة للمغرب عن طريق الترجمة . ولقد كان ذلك عطاء « يونانيا » خالصا . تعتمد جذوره الى الاقتدار الهليني على

---

(٧) اقتبسها K. M. Setton, Catalan domination of Athens 1311-1388 (Cambridge Mass 1948), p. 187. وكلمة Cetines هي التصحيف اللاتينى للتعبير الشعبى Athens صيغة "eis Athenas" .

التفكير الواضحة ، وانصهر في بوتقة الامبراطورية الرومانية الشرقية ،  
التي كانت الامبراطورية اليونانية في العصور الوسطى . لقد قامت الثقافة  
اليونانية في العصر الوسيط على الحياة الاغريقية القديمة ، ولكنها كانت  
شيئا حيا واساسيا ، قادرة على التعبير عن نفسها بأسلوب العصر الذي  
كانت تحياه .

تم بحمد الله

## مراجع عن الفصل الأخير

- Baynes (N.H.) & Meyendorff (B.), The Byzantine Inheritance in Russia, in Byzantium (ed. N.H. Baynes & H. St. L.B. Moss).
- Dolger (F.), Byzanz und die Europäische Staatenwelt (Ettal 1953).  
Dumbarton Oaks Papers XVIII (1964), XIX (1965).
- Dvornik (F.), Les Slaves, Byzance et Rome (Paris 1926). The Making of Central and Eastern Europe (London 1949).
- Huxley (M.), Root of Europe, Studies in the Diffusion of Greek Culture (London 1952).
- Obolensky (D.), Russia's Byzantine Heritage, Oxford Slavonic Papers, vol. I (1950).
- Peeters (P.), Le Trefonds Oriental de L'Hagiographie Byzantine (Brussels 1950).

## المصادر والمراجع

التي اعتمد عليها المترجم في التقديم والتعليق





## أولا - المصادر

### AMMIANVS MARCELLINVS :

Res Gestae. trans. by John C. Rolfe in 3 vols. London 1935.

### ATHANASIVS : De decretis Nicaenae Synodi Contra Arianos :

Nicene IV 2, 150 - 172 (=P.G. XXV, I, 415 - 476).

— Depositio Arianorum = Nicene IV 2, 69 - 71 (=P. G. XXV, I, 691 - 695).

— Epistola ad Dracontium : Nicene IV 2, 557 - 560 (=P.G. XXV 524 - 533).

— Historia Arianorum ad Monachos : Nicene IV 2, 270-302 (=P.G. XXV 696 - 796).

— Vita S. Antoni : Nicene IV 2, 195 - 221 (=P.G. XXVI 835 - 976).

### AVGVSTINVS :

Civitate Dei, trans. in 2 vols. by Marous Dods. Edinburgh 1949.

### EINHARD :

The Life of Charlemagne, trans. by Lewis

Thorpe, in Two Lives of Charlemagne. Penguin Book 1969.

### EVSEBIVS :

Vita Constantini : Nicene I 2, 473 - 580 (=P.G. XX 905-1232).

### HIERONIMVS :

Vita S. Pauli Primi eremitae : Nicene VI 2, 299-303 (=P.L. XXIII 17 - 28).

### HILARIVS :

De Synodis seu Fide Orientalium : Nicene IX 2, 4 - 29 (=P. L. X 471 - 546).

### LACTANTIUS :

De mortibus Persecutorum : Ante Nicene

Fathers ed. by A. Roberts & J. Donaldson.

Michigan S. d (VII 301 - 322 = P. L. VII 2, 189 - 276).

Nicene and Post Nicene Fathers of The Christian

Church. ed. by Philip Schaff & Henry Wace. Michigan  
1891 sqq.

**PALLADIUS :**

Historia Lausiaca. trans. by Budge (in Stories of the Holy  
Fathers). London 1934.

**PSELLVS, M:**

Chronographia. trans in (Fourteen Byzantine Rulers) by  
E.R.A. Sewter. Penguin Book 1966.

**RVFINVS :**

Historia Monachorum (P. L. XXI. 391 - 462).

**SOCRATES :**

Historia Ecclesiastica : Nicene II 2, 1 - 178 (=P. G. LXVII  
29 - 842).

**SOZOMENVS :**

Historia Ecclesiastica : Nicene II 2, 239 - 427 (=P. G. LXVII  
843 - 1630).

**THEODORETVS :**

Historia Ecclesiastica : Nicene III 2, 33 - 159 (=P. G.  
LXXXII 3, 881 - 1280).

## ثانيا - المراجع

### ( ١ ) المراجع الأوروبية

Academy of Sciences of the U. S. S. R. Institute of history : A short history of the U. S. S. R. trans. from Russian by George H. Hanna. Moscow 9615.

Acton (Lord) :

Essays on church and state, ed., and introd. by Douglas Woodruff. London 1952.

Artz (F. B.) :

The mind of the Middle Ages, 200 - 1500, an historical survey. New York 1953.

Barlow (F.) :

The Feudal kingdom of England 1012 - 1216 London 1974.

Barry (W.) :

The Papal monarchy from St. Gregory the Great to Boniface VIII. New York 1906.

Baynes (N. H.) & Moss (H. St. L. B.) :

Byzantium, an introduction to East Roman Civilization. Oxford 1969.

Boak (A. E. R.) :

A history of Rome to 565 A. D. London 1955.

Brooke (Ch.) :

Europe in the central Middle Ages, 962 - 1154. London 1966.

Ghooke (Z. N.) :

A history of Europe 911 - 1198. London 1966.

Browne (Gh. G.) & Swallow (J. A.) :

Prolegomena (GREGORIVS NAZIANZENVVS, Orationes et epistolae) : Nicene VII 2, 187 - 202.

Bryce (J. A.) :

The holy Roman Empire. London 1950.



**Budge (E. A. W.) :**

Stories of the Holy Fathers London 1934.

**Burckhardt (J.) :**

The age of Constantine the Great, trans. by Moses Hadas,  
U. S. A. 1949.

**Bury (J.B.) :**

History of the Later Roman Empire, 2 vols. London 1911.

Cambridge Medieval History, 8 vols. Cambridge 1964.

**Cantor (N. F.) :**

Medieval history - New York 1964.

**Chadwick (H.) :**

The early Church - London 1974.

**Copleston (F.) :**

A history of Philosophy. Medieval philosophy, pt. 1. New  
York 1962.

**DANTE :**

The divine Comedy, 3 vols. trans by Dorothy L. Sayers.  
Penguin Book 1972.

**Dawson (Ch.) :**

Religion and the rise of Western Culture. New York 1958.

**De Wulf (W.) :**

Philosophy and civilization in the Middle Ages, New York 1953.

Dictionary of Christian biography. 4 vols. ed. by W. Smith & H.  
Wace. London 1977.

Dictionnaire de theologie Catholique. 15 toms. Paris 1923.

**Douglas (D.) :**

William the Conqueror. London 1969.

**Duchesne (M.L.) :**

Histoire ancienne de l'église. 3 toms. Paris 1911.

**Dudley (D. R.) :**

The Civilization of Rome. New York 1962.

**Ganshof (F.) :**

Feudalism. London 1976.

**Gibbon (E.) :**

**Decline and Fall of the Roman Empire**, ed. in 7 vols. by J. B. Bury. London 1909.

**Gwatkin H.M.) :**

— **The Arian Controversy**. London 1914.

— **Arianism** (in C. M. H. vol I).

**Hardy (E. R.) :**

**Christian Egypt : Church and People, Christianity and nationalism in the Patriarchate of Alex.** New York 1952.

**Haskins (Ch.) :**

**The Normans in European history.** New York 1966.

**Hay (D.) :**

**Europe in the fourteenth and fifteenth centuries.** London 1971.

**Heer (F.) :**

**The Medieval World**, trans. from the German by Janet Sondheimer. New York 1963.

**Hefele (C.J.) :**

**History of the Councils of the Church**, trans. from the German in 5 vols. and ed. by W.R. Clark. Edinburgh 1972.

**Hodgett (G.A.) :**

**A Social and economic history of Medieval Europe.** London 1972.

**Hughes (Ph.) :**

**A history of the Church**, vol. 2. London 1948.

**Jackson (B.) :**

**Prolegomena (BASILIUS of Cappadocia. opera omnia)**  
**Nicene VIII 2, 13 - 77.**

**Jones (A.H.M.) :**

—, **The decline of the Ancient World.** London 1975.

— **Later Roman Empire**, 3 vols. Oxford 1964.

— **Constantine and the Conversion of Europe.** London 1948.

**Ker (W.P.) :**

**The Dark Ages** New York 1958.

**Kidd :**

**A history of the church to A.D. 461**, 2 vols. Oxford 1922.

**Knowles (D.) :**

**The evolution of Medieval thought. Hong Kong 1976.**

**Laistner (M.L.W.) :**

**Thought and letters in Western Europe. New York 1957.**

**Lamber (W.) :**

**The Cannons of the first four general Councils of the Church and those of the early Local Greek Synods, London. S. D.**

**Latourette (K.S.) :**

**— A history of Christianity. London 1955.**

**— A history of the expansion of Christianity. 7 vols. New York 1937 sqq.**

**Leff (G.) :**

**Medieval thought from S. Augustine to Ockham. Penguin Gook 1958.**

**McGiffert (A.C.) :**

**Prolegomena and notes (EVSEBIVS. hist. eccl.) : Nicene I 2, 3-72.**

**Millingen (A.V.) :**

**Constantinople, London S.D.**

**Mundy (J.) :**

**Europe in the high Middle Ages London 1973.**

**Neale (J.M.) :**

**A history of the Holy Eastern Church, Patriarchate of Alexandria. 2 vols. London 1847.**

**Nender (A.) :**

**— Lectures on the history of Christian Dogmas, 2 vols. London 1882.**

**— General history of the Christan religion and Church trans from the German by Joseph Tarrey, 9 vols. London 1851-1858.**

**The New Schaff-Herzog encyclopedia of religions Knowledge 13 vols. Michigan 1957 sqq.**

**O'Leary (De L.) :**

**The Coptic Church and Egyptian monasticism (in Legacy of Egypt).**

**Oman (Ch.) :**

**The Dark Ages: European history 476-918. London 1928.**

**Ostrogorsky (G.) :**

**History of the Byzantine State, trans. by Joan Hussey. Oxford 1956.**

**Painter (S.) :**

**A history of the Middle Ages 384 - 1500 New York 1954.**

**Percival (H. R.) :**

**The Seven ocumenical councils (Nicene XIV 2).**

**Pirenne (H.) :**

**A history of Europe London 1951.**

**Economic and social history of Medieval Europe. London 1972.**

**Rand (E. K.) :**

**Founders of the Middle Ages New York 1957.**

**Richardson (E. C.) :**

**Introduction (EVSEBIVS, vita Const.) Nicene, I 2, 411 - 469.**

**Runciman (S.) :**

**A history of the Crusades, 3 vols. London 1951.**

**Scott (M.) :**

**Medieval Europe. London 1975.**

**Slessor (H.) :**

**The Middle Ages in the West, London S.D.**

**Stanley (A. F.) :**

**Lectures on the history of the Eastern Church. London 1864.**

**Stephenson (C.) :**

**Medieval history. New York 1962.**

**Strayer (J.) & Munro (D.) :**

**The Middle Ages 395 - 1500 New York 1970.**

**Thompson (J.W.) & Johnson (E.N.) :**

**An introduction to Medieval Europe 300-1500. New York 1965.**

**Toynbee (A.) :**

**A study of history. vol. IV. London 1939.**



**Ullmann' (W.) :**

**A short history of the Papacy in the Middle Ages London 1974.**

**Ure (P.N.) :**

**Justinian and his Age. Penguin Book. 1951.**

**Vasiliev (A.A.) :**

**A history of the Byzantine Empire. Madison and Milwaukee 1964.**

**Vinogradoff (P.) :**

**Feudalism (in C.M.H. vol. III).**

**Waddell (H.) :**

**The desert Fathers. London 1946.**

**Waley (D.) :**

**Later Medieval Europe from St. Louis to Luther. London 1976.**

**Ware (T.) :**

**The Orthodox Church. Penguin Books, 1967.**

## (ب) مراجع عربية ومترجمة

ابراهيم العدوى (دكتور) :

الأمويون والبيزنطيون • القاهرة ١٩٦٣ •

ابراهيم نصحي (دكتور) :

تاريخ الرومان • جزءان • بيروت ١٩٧٢ (منشورات الجامعة الليبية  
• بنغازي)

ابن شداد (بهاء الدين) :

النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية • تحقيق دكتور جمال الدين  
الشيال القاهرة ١٩٦٤ •

اسحق عبيد (دكتور) :

- الدولة البيزنطية في عصر آل باليولوغوس ١٢٦١ - ١٢٨٢ •
- (منشورات جامعة بنغازي - طبعة بيروت - بدون تاريخ) •
- الفرسان والأقنان في مجتمع الاقطاع • بنغازي ١٩٧٥ •
- روما وبيزنطة • القاهرة ١٩٧٠ •
- الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية • القاهرة ١٩٧٢ •

اسد رستم (دكتور) :

- كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى ، ٣ اجزاء • بيروت • بدون  
تاريخ •
- الروم • جزءان • بيروت • ١٩٥٥ •
- حرب في الكنائس • بيروت • ١٩٥٨ •

السيد الباز العريني (دكتور) :

الدولة البيزنطية • القاهرة ١٩٦٥ :

## أومان (ش) :

الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة دكتور مصطفى طه بدر . القاهرة  
١٩٥٢ .

## باركر (ارنست) :

الحروب الصليبية . ترجمة دكتور السيد الباز العرينى . القاهرة .  
١٩٦٠ .

## بينز/ (ثورمان) :

الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة دكتور حسين مؤنس ومحمود يوسف  
زايد . القاهرة ١٩٥٧ .

## توينبى (ارنولد) :

الفكر التاريخى عند الاغريق من هوميرو الى عصر هراكليس . ترجمة  
لمعى الطيعى . القاهرة ١٩٦٦ .

## جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :

– العرب والروم واللاتين فى الحرب الصليبية الاولى . القاهرة  
١٩٦٧ .

– العدوان الصليبي على مصر : هزيمة لويس التاسع فى المنصورة  
وفارسكور . القاهرة ١٩٦٩ .

## جيبون (ادوارد) :

اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها (ترجمة للمختصر الذى  
نشره فى الولايات المتحدة الأمريكية فى ثلاثة اجزاء D. M. Low  
سنة ١٩٦٠ ، ترجم الجزء الاول محمد على أبو درة ، والثانى نجيب  
اسكندر ، والثالث دكتور محمد سليم سالم) . القاهرة ١٩٦٩ .

## حسن حبشى (دكتور) :

الحرب الصليبية الاولى . القاهرة ١٩٥٨ .

**حسن حنفى حسين (دكتور) :**

- نماذج من الفلسفة المسيحية فى العصر الوسيط : أوغسطين ، انسلم ،  
توماس الاكوينى • القاهرة ١٩٦٩ •

**حسن محمود (دكتور) وأحمد الشريف (دكتور) :**

- العالم الاسلامى فى العصر العباسى • القاهرة ١٩٦٦ •

**ديفز (ر • ه • س) :**

- شارلمان ، ترجمة دكتور السيد الباز العرينى • القاهرة ١٩٥٩ •

**ديل (شارل) :**

- البندقية جمهورية أرستقراطية ، ترجمة دكتور أحمد عزت عبد الكريم  
وتوفيق اسكندر • القاهرة ١٩٤٨ •

**ديورنت (ول) :**

- قصة الحضارة (ترجم من هذه الموسوعة الى العربية حتى الآن سبعة  
مجلدات فى خمسة وثلاثين جزءا • القاهرة ١٩٥٦ - ١٩٨١ •

**رافت عبد الحميد (دكتور) :**

- الدولة والكنيسة • الجزء الثانى : قسطنطين • القاهرة ١٩٧٤ •
- الدولة والكنيسة • الجزء الثالث : اثناسيوس • القاهرة ١٩٧٧ •

**رسلیمان (ستفن) :**

- الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد • القاهرة ١٩٦١ •

**سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :**

- الحركة الصليبية • جزآن • القاهرة ١٩٦٣ •

**عبد الرحمن بدوى (دكتور) :**

- فلسفة العصور الوسطى • القاهرة ١٩٦٢ •

**عبد اللطيف أحمد على (دكتور) :**

- التاريخ الرومانى • عصر الثورة من تيريوس جراكوس الى  
اكتافيانوس اغسطس • بيروت ١٩٧٣ •



عبد المنعم ماجد (دكتور) :

الناصر صلاح الدين الأيوبي • القاهرة ١٩٥٨ •

عبد النعيم حسنين (دكتور) :

سلاجقة ايران والعراق • القاهرة ١٩٧٠ •

عبد فراج :

معالم الفكر الفلسفى فى العصور الوسطى • القاهرة ١٩٦٩ •

فرجيليوس :

الانبياء • ترجمة دكتور عبد المعطى شعراوى وآخرين • الجزء الاول  
القاهرة ١٩٧١ •

فينوجرادوف ( ب ) وكوبلاند :

الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا ، ترجمة دكتور محمد  
مصطفى زيادة • القاهرة ١٩٥٨ •

كلارى (روبرت) :

فتح القسطنطينية • ترجمة دكتور حسن حبشى • القاهرة ١٩٦٤ •

كوبلاند :

القنية والاقطاعية (فى تاريخ العالم الذى أشرف على نشره سيرجون  
هامرتن • المجلد الخامس) • القاهرة بدون تاريخ •

كولنجرود ( ر • ج ) :

فكرة التاريخ • ترجمة محمد بكير خليل • القاهرة ١٩٦٨ •

متى المسكين (الأب) :

الرهينة القبطية فى عصر القديس أنبا مقار • القاهرة ١٩٧٢ •

محمد مصطفى زيادة (دكتور) :

حملة ليوس التاسع على مصر • القاهرة ١٩٦١ •

موس ( هـ ) :

ميلاد العصور الوسطى • ترجمة عبد العزيز جاويد • القاهرة  
• ١٩٦٧

نظير حسان سعداوى (دكتور) :

– التاريخ الحربى المصرى فى عهد صلاح الدين الأيوبي • القاهرة  
• ١٩٥٧

– تاريخ إنجلترا وحضارتها فى العصور القديمة والوسطى • القاهرة  
• ١٩٥٨

هارثمان (ل • م) وياراكلاف (ج •) :

الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى • ترجمة وتقديم دكتور  
جوزيف نسيم يوسف • القاهرة ١٩٧٠ •

هاوزر (أرفولد) :

الفن والمجتمع عبر التاريخ • جزآن • ترجمة دكتور فؤاد زكريا •  
القاهرة ١٩٧١ •

يوسف كرم :

تاريخ الفلسفة الأوروبية فى العصر الوسيط • القاهرة بدون تاريخ •

## للمؤلف

- ملامح الشخصية المصرية في العصر النسيحي كتاب روز اليوسف يناير ١٩٧٤
- الدولة والكنيسة - الجزء الثاني « قسطنطين » الطبعة الثانية دار المعارف .  
القاهرة ١٩٨٢
- الدولة والكنيسة - الجزء الثالث « أثناسيوس » الطبعة الثانية دار المعارف -  
القاهرة ١٩٨٣
- الدولة والكنيسة - الجزء الرابع « ثيودوسيوس وأمبروز » الطبعة الأولى دار  
المعارف - القاهرة ١٩٨٣
- كنيسة بيت المقدس في العصر البيزنطي . بحث منشور في مجلة الجمعية المصرية  
للدراسات التاريخية العدد ٢٥ سنة ١٩٧٨
- « ميخائيل بسللوس » من خلال كتابه « التاريخ الزمني » بحث منشور في  
مجلة كلية الآداب - جامعة صنعاء العدد الثاني سنة ١٩٧٩
- الملكية الألمانية بين الوراثة والانتخاب في العصور الوسطى . بحث منشور في  
مجلة ندوة التاريخ الإسلامي والوسط العدد الثاني سنة ١٩٨٣
- المشكلة الإيطالية في السياسة الألمانية في العصور الوسطى بحث منشور في  
مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية العدد ٣٠ سنة ١٩٨٤
- السمو البابوي بين النظرية والتطبيق . بحث منشور في مجلة ندوة التاريخ  
الإسلامي والوسط العدد الثالث سنة ١٩٨٤

## محتويات الكتاب

### الصفحة

تقدير وعرفان . . . . .	٥
تقديم الطبعة الثانية : . . . . .	٧
تقديم المترجم : . . . . .	٩ - ٨٢
مقدمة المؤلفة : . . . . .	٨٥
الفصل الأول : تكوين الامبراطورية البيزنطية ٢٢٤ - ٧١٧ - ٨٧	
١ - قسطنطين العظيم وظهور امبراطورية مسيحية .	٨٩ - ٩٦
٢ - غزوات البرابرة ونجاة نصف الامبراطورية الشرقية . . . . .	٩٦ - ١٠٩
٣ - الامبراطور جوستينيان والقرن السادس . . . . .	١١٠ - ١١٩
٤ - الصراع من اجل البقاء في القرن السابع	
مشاكل الاسيرة الهوقلية . . . . .	١١٩ - ١٢٦
الفصل الثاني : الامبراطورية الرومانية في العصور الوسطى . . . . .	
٧١٧ - ١٠٥٦ . . . . .	١٢٧
١ - منجزات الاباطرة اللايقسوفيين ٧١٧ - ٨٤٢	١٢٩ - ١٣٩
٢ - العصر الذهبي للامبراطورية البيزنطية . . . . .	١٣٩
( ا ) العموريون والمقدونيون . . . . .	١٣٩ - ١٤٤
( ب ) الزحف الى الشرق ٨٤٢ - ١٠٢٥ . . . . .	١٤٤ - ١٤٧
( ج ) القسطنطينية والصلابة . . . . .	١٤٧ - ١٥٣
( د ) بيزنطة والغرب . . . . .	١٥٣ - ١٥٥
( هـ ) السياسة الداخلية : الكنيسة والتعليم . . . . .	١٥٥ - ١٦٠
- ٤٠١ - ( م ٣٦ - العالم البيزنطي )	



## الصفحة

الفصل الثالث : تغييرات جوهرية ١٠٢٥ - ١٢٠٤ . . .	١٦١
١ - مفترق الطرق في القرن الحادى عشر . . .	١٦٣ - ١٧٥
٢ - احياء الامبراطورية زمن ال كومنين . . .	١٧٥
( ١ ) الكسيوس كومنتوس . . . . .	١٧٥ - ١٨٥
( ب ) يوحنا الثانى كومنتوس . . . . .	
( ج ) ومانيول الاول كومنتوس . . . . .	١٨٥ - ١٩٧
٢ - الاتحاد الاول . . . . .	١٩٧ - ٢٠٤
الفصل الرابع : الصدام بين الشرق والغرب ١٢٠٤-١٤٥٣ . . .	٢٠٥
١ - الفدر اللاتينى والدبلوماسية البيزنطية	
١٢٠٤ - ١٢٦١ . . . . .	٢٠٧ - ٢١٣
٢ - التنافس المسيحى والحروب الاهلية البيزنطية	
١٢٦١ - ١٣٥٤ . . . . .	٢١٣ - ٢١٩
٣ - الغزو التركى وسقوط بيزنطة ١٣٥٤ - ١٤٥٣ . . .	٢١٩ - ٢٢٥
مراجع عامة	٢٢٦
الفصل الخامس : الكنسية والدولة . . . . .	٢٢٧ - ٢٤٩
الحكومة الامبراطورية	
الفصل السادس : الكنيسة الارثوذكسية . . . . .	٢٥١ - ٢٧٢
الحياة السخية والعلمانيون	
الفصل السابع : عالم الرهبنة : منارة الروح . . . . .	٢٧٢ - ٣٠١
مراجع خاصة بالكنيسة والحياة الديرانية . . . . .	٣٠٢ - ٣٠٣
الفصل الثامن : الحياة اليومية . . . . .	٣٠٥ - ٣٢٦
مراجع خاصة بالنواحي الاجتماعية والاقتصادية	
والحياة اليومية . . . . .	٣٢٧

## الصفحة

٣٤٧ - ٣٢٩	الفصل التاسع : التعليم والأدب : أوجه التراث البيزنطى .
٣٤٨	مراجع خاصة بالأدب . . . . .
٣٦٥ - ٣٤٩	الفصل العاشر : الفن البيزنطى . . . . .
٣٦٧ - ٣٦٦	مراجع خاصة عن الفن والعمارة . . . . .
٣٨٣ - ٣٦٩	الفصل الحادى عشر : بيزنطة وجيرانها . . . . .
٣٨٤	مراجع عن الفصل الأخير . . . . .
	المصادر والمراجع التى اعتمد عليها المترجم فى التقديم
٣٨٥	والتعليق . . . . .
٣٨٨ - ٣٨٧	( أ ) المصادر . . . . .
٣٩٤ - ٣٨٩	( ب ) المراجع الأوروبية . . . . .
٣٩٩ - ٣٩٥	( ج ) مراجع عربية ومترجمة . . . . .
٤٠٣ - ٤٠١	المحلى : . . . . .

١٩٨٤ / ٥٧٩٣	رقم الإيداع
ISBN ٩٧٧-٠٢-١٠٨٠-٢	الترقيم الدولي

٣ / ٨٤ / ٥٦

دار روتابريت للطباعة - القاهرة







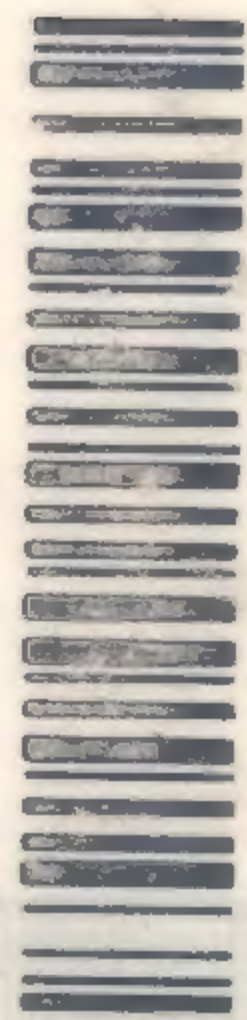




١٢١٩١ / ٠٢



Bibliotheca Alexandrina



0339633

٤٢٠